محمد جمال

كتاب خيبة الأمل

"حكاية طويلة أحياناً ومملة غالباً
عن الأحداث المؤسفة التي أدت إلى إنتحار حمدي الكمساري"

كتاب خيبة الأمل

"حكاية طويلة أحيانًا ومملة غالبًا

عن الأحداث المؤسفة التي أدت إلى إنتحار حمدي الكمساري"

محمد جمال

الرواية الحاصلة على الجائزة الأولى

في مسابقة (أخبار الأدب) 2017

آه والله

جميع حقوق النشر والتوزيع

ومثل هذه الأشياء محفوظة

عند ربنا

مقدمة كُتبت لطبعة ورقية لم تحدث أبدًا.

تَوْطِئة

همم... لا بأس، تبدو كلمة (توطئة) أعلاه أنيقة جدًا، حكيمة وذكية، وتشي أن ما سيكتب أسفلها أكثر حكمة وذكاءًا مما كان ليكتب تحت عنوان (مقدمة) أو (تمهيد) مثلًا. لطالما رغبت أن أستخدم كلمة (توطئة) في سياق جاد وجليل، وبما أن هذا كتابي الأول، وربما الأخير، دعوني أحقق أحلامي وأستهل كلامي بتوطئة، ربما أجد سياقًا أخرًا أستخدم فيه لفظة (إرهاصة) أيضًا.

هذه روايتي الأولى، وعن هذا أنا أعتذر.

هذا ليس عصر الروايات الذهبي... حسنًا، هذا ليس عصر أي شيء الذهبي، ولكننا نتحدث هنا عن الروايات. اعتدت أن استقبل سيل الروايات الجديدة الصادرة حديثًا بشك وتحفظ شديدين، يصيبني الغيظ كلما عرفت أن هناك آخر قرر أن يتحف البشرية بروايته الأولى، التي سيتضح لاحقًا أن البشرية لم تكن في أدنى حاجة إليها، وإليه. تمنيت -في غرور- أن يكون هناك نوع من الرقابة على الأعمال السيئة فلا يصدر كل عام إلا رواية أو أثنتين ليسوا بالغي السوء وكفى. لم يمر وقت طويل حتى وجدتني ارتكب الجرم الذي طالما أدنته، ولهذا أعتذر.

هذه روايتي الأولى، عن خيبة الأمل، كتبتها قبل عامين من يوم نشرها، بدأتها بعد إمتحانات الفصل الدراسي الأول من عامي

الأخير في دراسة الهندسة، وأنهيت أول مسودة في ليالي الإمتحانات النهائية، واللمسات الأخيرة على المسودة الثالثة النهائية كانت بالتزامن مع إمتحانات دور نوفمبر، لذا كان يجب أن تكون عن خيبة الأمل. لكن لا تقلق، لا توجد أي هندسة في الصفحات التالية، ولن توجد في أي صفحات تالية من حياتي على الأغلب.

قد تكون هذه الأولى في قائمة تحتوي عشرات الكتب التالية، أو هكذا تخبرني أحلام اليقظة في الصباحات المشرقة، وقد تكون الأخيرة وتنال من إسمها نصيبًا، كما تخبرني أحلام اليقظة أيضًا، في بقية الأيام، وأتمنى أن لا يكون الإحتمال الثاني هو الأكثر صوابًا، وإن كانت قوانين الإحتمالات الرقمية ترجحه أكثر، كم رواية جديدة لكاتب جديد تنشر كل يوم؟ ليس في رقعتنا الجغرافية المربعة الدرامية هذه فحسب، بل في كل شبر من الكوكب. وكم منهم يكتب شيئًا جيدًا فعلًا؟ وكم منهم ينجح فعلًا؟ (بالطبع أنت تدرك أن الجودة والنجاح ليسا أمرين مشتركين بالضرورة، ولكن ليس هذا موضوعنا).

على أي حال لا يخيفني هنا هذا الإحتمال، إحتمال أن تكون أخر رواية، سأكتئب قليلًا ولكني سأجد شيئًا ما أفعله وتمضي الحياة، لست (نجيب محفوظ) على أي حال. ما يخيفني فعلًا هو رعب المحاولات العبثية. أعني... هناك مثلًا محاولات شبه جيدة أو لا بأس بها، يحتاج صاحبها إلى مزيد من المحاولات والتجارب والعمل المستمر ليصير أفضل، هذا أمر طبيعي، بل هذا هو أكثر السيناريوهات المحتملة جمالًا، المرعب فعلًا هو

أولئك الذين بلغوا من السوء مراحل لا أمل فيها في مجال معين، لكن يسيطر عليهم وهم أنهم ذوي موهبة كبرى ليس لها مثيل وبحاجة فقط لمن يكتشفهم.

يمكنك أن ترى هذا في المؤلف الذي نشر على نفقته الخاصة عشرة روايات حتى أصابه الإفلاس وأي طفل تعلم القراءة بالأمس يدرك مدى رداءتهم، تدرك هذا في الشاعر الذي يقفز مقتحمًا أي مناسبة عامة ليختطف ميكروفونًا ملقيًا قصيدة كتبها بالأمس خصيصًا لهذه المناسبة مقلدًا أسلوب الأبنودي أو درويش أو كلاهما، والحاضرون يجزون على أسنانهم في إمتعاض بإنتظاره أن ينتهي، ولا ينتهي، ترى هذا في تلك التي تستخدمها برامج إكتشاف المواهب كأضحوكة، لأن أمها قالت لها أن (سنسن بنتي أحلى بنت في الدنيا) قبل ثلاثون عامًا فهي إذًا كذلك، قول أمها لم يكن إلا إرهاصة على موهبتها -أترى ماذا فعلت هنا؟- ولجنة التحكيم التي رفضتها بعد عشرة ثواني كلهم حمقى أغبياء حاقدون لا يريدون الإعتراف أن سنسن مازالت وستظل أحلى بنت في الدنيا.

على أي حال يمكنك المساعدة بهذا الشأن، أنت قاريء هذه الكلمات -بإعتبار أن هناك من سيقرأها- بأن تقييمها وتدلي رأيك فيها بصراحة، سواء أعجبتك أو كرهت اللحظة التي وقعت فيها عيناك على هذه الكلمات، أذهب إلى goodreads وأدل بدلوك مهما كان محتواه عكرًا، ربما تدرك سنسن الحقيقة قبل فوات الأوان.

أخيرًا، مرحلة الإهداء، وهو إهداء وحيد موجه لصديقي الروائي/المبرمج/المهندس (محمد عبد القهار)، صاحب (غارب) و(سرايْ نامِه). هو من وسوس لي بأني بإستطاعتي فعلها وعلي أن أفعل، وكان هناك طوال الوقت ليتأكد من أني أفعل، إليه أهدي هذا الكتاب، ليس إعترافًا بفضل أو واجب، ولكن ليتلقى هو اللوم كله عندما تنقلب بنا العربة وتخرج عن القضبان، ليلتقى هو غضبكم، كنت قاعد كافي خيري شري، ولا كتبت ولا نويت أن أفعل قبل أن يقنعني هو أن أفعل. ولكن إن أعجبكم الكتاب أنسوا أمره، أنا الكاتب وأنا من يتلقى الثناء كله.

يكفي هذا، تعرفوا على (حمدي محمود)...

1

ركاب ترام محرم بك (خط 4) المعتادون يعرفونه جيدًا.

قليلون هم الكُمسارية العاملون في الوردية المسائية، وقليلون هم الركاب الدائمون في مثل هذه المواعيد، لذا يألف الجميع بعضهم بحكم الاعتياد. لكن حمدي لا يعرف أحدًا رغم قضائه ما يقرب من عشرين عامًا في موقع الكُمساري في نفس الوردية المسائية، رغم أن الكل يعرفه جيدًا، لم يجد في نفسه الرغبة الكافية أبدًا لينظر في وجه شخص آخر لثوانٍ تكفي لحفظ صورة باهتة له في خزانة عقله.

لكن الجميع يعرفونه، حتى إن لم يعرفوا اسمه أو حكايته فهم يعرفونه كفاية كي يتحاشوه بقدر الإمكان، فالراكب المعتاد لخط ترام 4 (سانت كاترين-محرم بك) في الوردية المسائية لديه بالتأكيد خبرة سابقة في التعامل مع الكُمساري النحيف الأسمر ذي الملامح الحادة والعيون الجاحظة، والذقن النابتة في إهمال على الدوام وكأنه وُلد بها، تقلب أصابعه الطويلة النحيلة دومًا صفحات كتاب. ما إن يركب ويجد حمدي الكمساري على مقعد التحصيل الخشبي يقرأ فعليه أن يقرر مسرعًا: إما أن يترجل وينتظر الترام التالي -فراكب الترام لا يمكن أن يكون متعجلًا ويمكنه أن يضيع كل الوقت في الكون في انتظار ترام آخر- أو يصعد بهدوء ويمشي محاذرًا أن يثير ضوضاء قد تُخرج مُحصل التذاكر سيء الخُلق من تركيزه. يمكنه أن يمضي دون شراء تذكرة. حمدي لن يهتم لو ركب الجميع دون دفع تذاكر طالما لم يلاحظ ذلك ولم يخرج عن تركيزه، لكن إن لاحظك وأنت تفعل

ذلك ستكون قد أعطيته سببًا مثاليًا -هو يبحث عن سبب دومًا، مثاليًا كان أو لم يكن- لبدء شجار يرغب فيه بكل كيانه، ليمارس رياضته المفضلة في الزعيق والصراخ واختيار عبارات السباب المفخمة، التي لن تتمالك نفسك رغم الإهانة من الإعجاب بحسن تركيبها والشاعرية المتضمنة في تشبيهاتها، وستفكر في أعماقك أنك ستحفظ هذه الإهانات وتستخدمها لاحقًا في أقرب فرصة شجار مع أي شخص آخر.

الشجار مع حمدي لن يتجاوز أبدًا الصراخ والزعيق والإهانات، أي شجار جسدي حقيقي لن يطول أبدًا، لأن بإمكان أي شخص أن يطرح مُحصل التذاكر النحيف الغاضب أرضًا بلطمة واحدة. يمكنك أن تدرك هذا بسهولة بمجرد النظر إليه، لكن هذا لا يحدث في الغالب، التجمهر السريع للركاب والسائق والمارة في الطريق يحول بينكم وبين تطور الشجار إلى آخر جسدي، ما يتيح الفرصة للمُحصل سيء الأخلاق كي يستمر في المزيد من السباب والإهانة والصراخ، الذي لن يعطيك فرصة أبدًا للتفكير في رد مناسب وإيجاد ثغرة كافية بين كلماته المتلاحقة تُظهر فيها صوتك محاولًا الرد عليه. بيد أن المشكلة الحقيقية لا تكمن في الصراخ والسباب والإهانة، المشكلة تكمن في النظرة التي ستنالها من حمدي، سترى في عيونه الجاحظة ألعن نظرة غضب ومَقْت قد ترى مثلها في حياتك، نظرة ستُجمد الدم في عروقك وستطاردك في كوابيسك إلى الأبد، ستفكر في رعب ماذا فعلت أنا لاستحق مثل هذه النظرة؟ أنت لم تفعل شيئًا لتستحقها، إنما هو شعور حمدي تجاه الجميع، مجرد وجود الآخرين يمثل سببًا كافيًا لحمدي ليكرههم.

لذا يحاول الجميع باستمرار تحاشي إزعاجه، بإمكان الراكب المرور سريعًا صامتًا دون دفع تذكرة طالما لم يلاحظ، أو يمكنه -وهذا الأكثر أمانًا- أن يضع "بهدوء" ثمن التذكرة على هيئة عملة معدنية على مكتب التحصيل، ويمضي إلى داخل الترام مباشرة دون صوت، عندما يقرر حمدي أن يخرج لثوان من بين صفحاته ويجد النقود أمامه، سيأخذها ليقطع بقيمتها تذاكر وينادي بصوت مسموع حانق "التذاكر يا أساتذة"، وعلى الراكب وقتها الاتجاه من مقعده بهدوء إلى حيث التذاكر الورقية موضوعة وسحب تذكرته، قبل أن يعود لمجلسه الذي يُفضل أن يكون في العربة الأمامية حيث السائق، لا الخلفية حيث يجلس حمدي في مقدمتها إلى جوار باب الركوب.

لا تخلو ليلة أبدًا من الركاب العابرين غير المعتادين على حمدي ووردية ترام 4 المسائية، تمضي الأمور أحيانًا في سلاسة، حيث إن تصرف الإنسان الغريزي عند رؤية شخص منغمس في القراءة يكون تحاشي إزعاجه، لكن هناك دائمًا ذلك المتظرف الذي يحسب أن مشهد كُمساري يقرأ هو مشهد لطيف يستحق التعليق عليه بمزحة سريعة، لن يلاحظ الراكب الظريف الذي ألقى بسؤال عابر مبتسم "بتقرا إيه بقى؟" على الكُمساري، شبح الابتسامة العابرة على شفتي حمدي الذي وجد فريسة مناسبة جدًا لغضبه هذه الليلة، قبل أن يخرج صوته عاليًا كفاية ليسمعه المارة وأصحاب المحلات القريبة من حيث يمر الترام في هذه اللحظة: "وأنت مال دين أمك؟".

لكن كل هذه التفاصيل التي يعرفها الجميع جيدًا ويتحاشونه لأجلها ليس لها نفس التأثير مع الأطفال، بل على العكس هي تفاصيل مثيرة جدًا ومحببة للشياطين الصغار، وتدفعهم إلى التحرش به محاولين إثارة غضبه بشتى الطرق. فالترام الأصفر يمثل ملعبًا مناسبًا لكل الأطفال المقيمين بالقرب من شريط الترام، الذي يمر طوليًا في شوارع المدينة دون حتى أن يحيطه سور مثل ترام الرمل الأزرق، خصوصًا مع بطء حركته ووقوفه المتكرر ومروره وسط شوارعهم الضيقة المألوفة، لذا فمشهد عصابات الأطفال القافزة من وإلى الترام طوال اليوم هو مشهد مألوف اعتاده محصلو التذاكر، واعتادوا التعامل معه بصيحات تحذيرية بسيطة لا تتجاوز "بس يا ولا" و"عيب كده يا زفت"، ثم العودة إلى شؤونهم متجاهلين الأوغاد الصغار، كاتمين رغبة عميقة في دواخلهم أن يقع أحد الشياطين تحت عجلات الترام ليموت ميتة بشعة تكون عبرة لكل الملاعين الآخرين. لكن حمدي لا يستطيع فعل ذلك، هو يقفز من مقعده صارخًا لاعنًا كل واحد منهم، ولاعنًا أهاليهم الذين لم يحسنوا تربيتهم، ومطلقًا أقذع وأقذر السباب على كل من يحاول تهدئته، ولهذا يحبه الأطفال. ما إن يلاحظ أحدهم مرور الترام ويلمح حمدي فيه حتى ينادي كل من يستطيع مناداته من أطفال الحي ليجروا خلف الترام متعلقين في بابه، منادين الكُمساري الغافل بالداخل: "بتقرا إيه يا حمدي؟"، أو متجاوزين مرحلة السؤال المتحرش لمرحلة الإهانة المباشرة مثل: "يا حمدي يا أهبل"، "يا كُمساري يا عرص"، مع استفزازه بحركات جسد راقصة وإشارات يد بذيئة، قبل أن يقفزوا من الترام المتحرك بسرعة وهم

يتضاحكون ببراءة، بينما ينفجر هو مطلقًا كل أنواع السباب اللعينة الممكنة، أحمر الوجه مُتطاير اللعاب ملوحًا بقبضته غاضبًا من باب الترام، في أقدم مشهد كاريكاتوري مُثير للسخرية والشفقة عرفه الإنسان.

* * * *

من عرف حمدي في سنواته كمُحصل تذاكر غاضب، يصعب عليه تخيله في صورة أخرى دون سترة الكمساري الرمادية والعيون الثائرة على الدوام، يصعب عليه تخيله كشاب مبتهج بعيون متألقة وجاذبية كاسحة يحتل قلب بقعة الضوء سارقًا الأنظار كلها إليه وحده، لكن هذا ما كان فعلًا رغم شك المتشككين في حدوثه، التحول لم يكن مباغتًا بين ليلة وضحاها، إنما كان له حكاية، حكاية درامية مملة جدًا.

2

من نفس المادة الخام التي نُحتت منها وجوه فنانين مثل أحمد زكي ومحمد منير، كانت ملامح حمدي الشاب منحوتة، نفس الصورة النمطية للوجه الأسمر النحيف حاد القسمات والملامح، والعيون اللامعة الواعدة، ونبرة الصوت وكاريزما الكلمات التي توحي بأن قائلها خُلق ليتكلم وباقي العالم ليسمعه.

منذ أيامه الأولى في الحياة الجامعية وشعبيته في تصاعد مستمر. في هذه الأيام لم تكن الأنشطة الطلابية في عصرها الذهبي، لكنها كانت موجودة بما يكفي، فقط يحتاج الطلبة إلى ممارسة الكثير من الحذر فيما يتعلق بالسياسة، وحمدي لم يكن بحاجة إلى هذا التحذير، هو لا يهتم البتة بالسياسة ويشمئز منها. بدأت علاقته بالأنشطة الطلابية بمجلة الحائط، النشاط الأبرز في هذه الأيام، أهم منبر –وربما الوحيد- متاح للطلبة للكتابة والتعبير، وحمدي لم يكن يجيد وقتها ولا في أي وقت آخر سوى استخدام الكلمات، كلماته هي سلاحه الوحيد. غزت كلمات الفتى مجلات الحائط الجامعية المختلفة على هيئة قصص قصيرة ومقالات وأحيانًا قصائد، لم يبذل مجهودًا خاصًا لكتابة هذه الأشياء، درج مكتبه ممتلئ بالقصاصات الصالحة لتحويلها لحكاية أو مقالة دون بذل مجهود يذكر. خطته في الأساس أن يصبح كاتبًا روائيًا شهيرًا –شهير، شرط مهم، ليس مجرد كاتب روائي عادي، كاتب روائي شهير- ومرحلة الدراسة الجامعية لا يراها إلا نوعًا من رحلة البحث عن الحكمة، الهدف منها

اكتساب الخبرات وملاحظة الآخرين ليكتب عنهم لاحقًا ما سيصبح أهم الروايات الأدبية في تاريخ اللغة العربية.

وبسرعة شديدة أصبحت لكلمات الفتى الأسمر النحيف شعبية بين الطلاب لا يستطيع آخرون تحقيقها في سنوات، وسرعان ما تحولت شعبية كلماته من مكتوبة إلى مسموعة، وأصبحت له حاشية من الأصدقاء ترافقه أينما حل، الكل يرغب في سماع حمدي يتكلم أيًا كان موضوع الحديث، وهو أدرك هذا بسهولة وأحبه. أجاد اختيار حركات جسده، ويطلق نظراته الحالمة إلى سماء بعيدة بغير هدف، مع صوت مرتجف رقيق أحيانًا ومرتفع جليل في أحيان أخرى، كان يبذل مجهودًا حقيقيًا في حركات الجسد ونبرات الصوت التمثيلية المصاحبة لكلامه، أما الكلمات ذاتها فلم يبذل قطرة عرق في سبيلها، هي تأتي وحدها، مهما كان الموضوع محل النقاش يتحدث فيه بلا وجل، بلا تحضير مسبق أو تركيز في المحتوى، هو يثق في لسانه ويترك له مطلق الحرية في التصرف.

لكن ليس دائمًا. رغم ثقته في بلاغة كلماته، إلا أنه يعلم أنها ليست دائمًا ذات معنى، هي كلمات مبهرة متألقة وتبدو منطقية جدًا، تحمل من البلاغة ما يُخرج من المستمعين تأوهات الانبهار والإعجاب، لكن المعنى وراءها لم يكن دائمًا بنفس الأهمية، فهم هذا وأدركه جيدًا، فكان يترك للسانه العنان طالما كان الجمهور الحاضر من رفاقه الشباب المعتادين، لكن بمجرد أن يلاحظ وجود من يفهم بحق تفاصيل الموضوع محل النقاش، يتوقف عن الاستعراض فورًا ويتحول إلى الكلام ببطءٍ

شديد، مفكرًا في معنى كل كلمة تخرج منه بتركيز، قبل أن يحول الموضوع بحنكة إلى منطقة يتقنها أو يعلم أن مستمعه الخبير لا يعرف عنها الكثير.

والحقيقة أن حمدي كانت لديه القدرة على فهم وتحليل أي موضوع يرغب فيه ومناقشته بجدية مع العالمين به، إلا أنه لم يجد في ذلك متعته، كان يفضل الجمهور العادي البسيط محدود الخبرة الذي ينظر إليه بإعجاب ويؤمن على كل كلمة يقولها دون مجهود عقلي حقيقي، ويجد النشوة في وجوده بمنتصف دائرة الضوء وحيدًا متألقًا، على أن يكون جزءًا من نقاش حقيقي بين أنداد.

وكنتيجة حتمية لشعبيته، جاءت ذات الضفيرة في تطور كلاسيكي ليس فيه ما يدهش لسير الأحداث. هناك هذا الفتى الأسمر ذو الكاريزما الواضحة، هناك الفتاة جميلة الوجه دقيقة الملامح ذات الضفيرة البنية، التي تشعر بفضول تجاه الفتى ذي الكلمات المبهرة والنظرات الحالمة، تظهر بين حين وحين وسط جمهور متابعيه، يلاحظها وينتظر ظهورها دومًا، يزداد تألقًا في إلقاء كلماته ومزحاته عندما يلمحها بطرف عينه وسط الحضور، يتعمد ألا ينظر إليها إلا نادرًا، وعندما يفعل تحمل النظرة من الكلمات ما يجعل خدودها البيضاء الرقيقة تحمر خجلًا وتنصرف على استحياء، هناك آلاف الحكايات والقصائد والأغاني في مخيلته هو بطلها ولا ينقصها سوى البطلة، وذات الضفيرة مرشحة مناسبة جدًا لتقوم بدور البطولة في حكايته الخالدة.

لم يبذل مجهودًا كبيرًا ليقنعها أنه يحبها، هي كانت جاهزة بقناعاتها المسبقة أن قصة الحب الخالدة وفتى الأحلام الجميل ينتظرانها في الجامعة، هكذا علمتها أفلام القناة الأولى، وكلماته كان لها مفعول السحر عليها، المجهود الذي احتاج لبذله كان لإقناع نفسه أنه يحبها هي لذاتها، وليس يحب القصة الرومانسية الكلاسيكية التي عاشها ألف مرة في أحلامه ويرغب إحيائها ليعيشها معها. وبالطبع أقنع نفسه أنها يحبها فعلًا، قرر أنه يحبها بجنون، قرر أنه يحبها كما لم يفعل عاشق في التاريخ لمعشوقته، قرر أن قصة حبهما تختلف عن كل حكاية حب حدثت من قبل، هي له وهو لها، حبهما هو الخالد والأعظم إلى الأبد، إلى الأبد، وحتى تحترق النجوم، وحتى.. [1]

كانت تلك الفترة في حياة حمدي هي الأجمل والأكثر متعة، لم يعلم أنها كذلك، ما كان يظنها إلا تمهيدًا بسيطًا لحياة لاحقة أكثر جمالًا وبريقًا، الحقيقة أنها لم تكن فعلًا سوى تمهيد لحياة لاحقة، لكن ليس كما تخيل.

* * * *

مع بلوغه العام الخامس والخمسين من عمره، نال الحاج محمود الكمساري ترقيته المتأخرة ليصبح أخيرًا مفتشًا، أخيرًا أصبح له مكتب يجلس عليه مثل أي موظف أفندي محترم. صحيح أنه ما زالت عليه واجبات في الطريق متنقلًا بين ترام وآخر للتفتيش على تذاكر الركاب وعلى المحصلين الأقل درجة

---

1 تحية إلى كبيرنا الذي علمنا السحر

منه، وصحيح أن المكتب ليس إلا مكتبًا معدنيًا صدئًا حقيرًا، واحد من خمس مكاتب مشتركة في غرفة ضيقة مكتومة تملؤها رائحة الطعمية والفول والبصل، لا يدخلها ضوء الشمس إلا دقائق معدودة في اليوم، وحتى في تلك الدقائق يحجبها الحاج عبد المجيد بجسده العملاق ومجلسه جوار النافذة ذات القضبان المعدنية، ولكنه صار له مكتب يحمل اسمه، وصارت هناك أعمال ورقية لا تمر إلا بإمضائه، وفي عهدته ختم نسر مهيب محفوظ في درج مكتبه بقفل يليق بعظمة المسؤولية التي أخيرًا صار يحملها الحاج/المفتش محمود.

لقب الحاج أيضًا لم ينله إلا مؤخرًا، وليس برحلة الحج، فالحاج محمود لم يخرج من الإسكندرية أبدًا، في الحقيقة هو لم يخرج من حي محرم بك وخط سير ترام المدينة الأصفر أكثر من مرات معدودة، ولكنه استحق اللقب فقط بشعيرات رأسه التي أصبحت رمادية بالكامل، وقلبه الذي أعلن ضعفه في أكثر من مناسبة وأصبح يهدد حياته بالتوقف في أي وقت.

دواعي الفخر في حياة الحاج محمود لم تكن كثيرة، أمضى حياته بسيطًا جدًا دون ما يميزه، ولم ير في هذا ما يعيب أو ما يدعو للاعتراض، راضيًا بكل شيء مضى عمره دون لحظة اعتراض وحيدة. ولكن في السنوات الأخيرة، بالذات بعد الترقية التي تزامنت مع التحاق ابنه الذكر الوحيد بكلية الآداب، أصبح لديه فجأة ما يفتخر به وبشدة. يمكن ملاحظة هذا بسهولة في رؤية مدى تأنقه في بذلة المفتش واعتنائه بها وبمظهره يوميًا، متعمدًا ذِكر لقبه الوظيفي الجديد في أي محادثة مع أي شخص، وكأنه

يذكر ترقيته في الحديث بشكل عارض دون قصد، يتبعها دائمًا بالحديث عن ابنه المثقف الذكي الواعد طالب كلية الآداب، الذي سيصبح يومًا ما "حاجة كبيرة". لم يفهم أبدًا ماذا يفعل ابنه وما فائدة أكوام الكتب المكدسة على رفوف غرفته، وماذا ينوي أن يفعل عندما ينهي تعليمه، يئس من فهم كلمات ابنه الملتوية المعقدة، لكنه كوَّن فكرة غامضة عن أن ابنه يبدو عليه أنه يفهم ماذا يفعل، وسيصبح بشكل أو بآخر "حاجة كبيرة"، وهذا لا بد أنه شيء عظيم يستحق الفخر.

ولكن قلبه الضعيف لم يمهله مزيدًا من الوقت يفتخر فيه بابنه أو بترقيته، أزمة قلبية مباغتة سريعة أنهت حكاية الحاج محمود بسرعة وبسلاسة ودون عذاب مرضي قد يطول، حدث هذا في صباح شتوي ممطر بارد، من صباحات يناير السكندرية، التي قد تكون مشمسة في لحظة وفي اللحظة التالية تظهر الغيوم من العدم وتطلق لمائها العنان. وعندما استيقظت الحاجة سمية -رغم أن عمرها لم يتجاوز الخمسين وحالتها الصحية لم تنحدر بعد، إلا أنها أستحقت لقب الحاجة مع وفاة زوجها، لقب الحاجة يأتي بالتزامن مع لقب الأرملة- في الحادية عشرة ظهرًا، لم تستغرب غياب زوجها عن مرقده، فهو يفترض أن يكون في وظيفته الآن، ولكن ما إن خرجت من غرفتها، حتى وجدت زوجها ممددًا على الأرض في الصالة.

ظلت واقفة في مكانها لدقيقة كاملة تتأمل المشهد، كانت ملتفة ببطانية، قامت بها من السرير ولم تجسر على طرحها من على جسدها، النعاس مع برد يناير القارص جعلاها تتمسك بالبطانية

وترفض تركها. حاولت أن تنفض النعاس الذي يحاصر عقلها ويمنعها من التفكير وفهم ما حدث، فكرت أنه لا بد أنه شعر ببوادر الأزمة القلبية، وحاول أن يتجه للحمام حيث يحتفظ بعلاجه في الخزانة الصغيرة الملعقة، حيث يحتفظون بكل أنواع العلاج لجميع سكان المنزل، ولكن يبدو أنه لم يجد الوقت الكافي.

تقدمت بهدوء ناحيته، جلست بجوار جثته، أخرجت يدًا مرتعشة من تحت البطانية الملفوفة بها، هزت أكتافه، قالت بصوت عادي وكأنها توقظه من النوم لتأخره عن موعده:

"حاج محمود، حاج محمووووود، قوم يا حاج"

لا بد أنه فقد الوعي، سيقوم الآن بالتأكيد، سيشعر بدوخة ودوار، ربما يقيء مرة أو اثنتين، ستذهب معه إلى الطبيب الذي سينصحه بأسبوع من الراحة ويكتب له كثيرًا من الأدوية، لن يشتري أغلبها لأنها غالية والمرتب محدود، ستطمئنه وتحدثه أن ربنا هو الشافي، وستمضي الحياة.

"حاج محمود، قوم والنبي، قوم الله يكرمك"

هل هو.. ؟ لا لا لا، لا طبعًا، فال الله ولا فالك يا بنت يا سمية، سيقوم الآن وسيصبح كل شيء على ما يرام.

ولكن..

وضعت أطراف أصابعها على عنقه، هذا ما فعله جارهم التَّمَرجي منذ عقود عندما كانت طفلة واقفة بجوار أخواتها جوار

سرير أبيها الراقد، مد التمرجي أطراف أصابعه وتحسس نبض أبيها ليعلن بعدها وفاته، ظل المشهد في ذاكرتها لم يمحَ، كررت هذه الحركة مرات لا تحصى من قبل مع أطفالها في نومهم، تتحسس بأناملها أعناقهم لتشعر بنبضهم، كان شعورها بنبض ابنها غير المدرك ليدها على عنقه أو أي من بناتها يشعرها باطمئنان لا متناه، تخرج بعدها من غرفهم مطمئنة وتعلم أنها ستنام بسلام. مدت يدها لتتحس نبض زوجها الراقد على الأرض، مدت يدها وهي لا تكاد تفعل لأنها لا تريد أن تعرف النتيجة، مدت يدها وتحسست، لا يوجد نبض. هزت صدره بعنف، هتفت بصوت متردد "حاج محمود، اصحى يا حاج بقى بلاش الحركات دي، قوم والنبي".

حركتها العنيفة أسقطت البطانية من حولها، لتظهر بجلابية النوم البيضاء الشتوية الثقيلة، انحنت برأسها على وجهه باحثة بكل حواسها عن أي أثر للحياة، تبحث عن زفير ساخن يخرج من أنفه لتستنشقه فيطمئن قلبها، ولم يجد قلبها ما يطمئنه.

اعتدلت، جلست منتصبة بجوار جثة زوجها، تأملته بصمت، بملامح وجه جامدة. هل هو.. ؟ هل هو ميت؟ لا تضحكي على نفسك يا سمية، زوجك مات، لا جدال في ذلك، هذه الأشياء تحدث، مات أبوكِ من قبل وتركك وأخواتك مع أمك، مات زوج خالتك وتركها، مات زوج صباح الجارة في البيت المجاور وتركها، هكذا يفعل الرجال دومًا. مات زوجك يا سمية وتركك، ولكنك لست أول من يموت زوجها ويتركها، هذا قضاء الله وقدره، احمدي ربك يا سمية.

تنهدت بصوت مرتفع، همست "كده تعمل زيهم وتسيبني يابو حمدي؟ ده أنت كنت أطيب منهم كلهم، الله يسامحك بقى"، أفلتت دمعة من عينها ومسحتها فورًا، لا مجال للضعف، الآن هي أم لبنات ثلاث أكبرهن في المدرسة الثانوية وولد وحيد، ولد أفسده أبوه بالدلع والرفاهية التي لم تنل مثلها أيًا من البنات الثلاث، لا مجال للضعف يا سمية.

نهضت واقفة، تناولت بطانيتها المكومة على الأرض وغطت بها الجثة، اتجهت إلى الحمام لترش على وجهها الماء البارد، ثم عادت لغرفة نومها فخلعت جلابية النوم البيضاء، وأخرجت من أعماق دولاب الملابس عباءتها الوحيدة السوداء وطرحة بنفس اللون، خرجت من الغرفة متجهة إلى الشرفة، لكنها تراجعت قبل أن تفعل وانحرفت تجاه زوجها، كشفت عن وجهه الغطاء، انحنت لتطبع قبلة على جبينه، أعادت الغطاء بيد وبالأخرى مسحت دموعًا أخرى شاردة، ثم توقفت عن مسح الدموع التي لا تنفك تأتي، خرجت إلى الشرفة، نظرت إلى الشارع نظرة طويلة، لا يوجد أحد في الشارع، الكل يختبئ في بيوته من المطر المنهمر والشوارع الغارقة بالماء والطينة، كل الشرفات مغلقة ولا أحد مجنونًا كفاية ليمد رأسًا من شباك في مثل هذه اللحظات.

سحبت نفسًا عميقًا باردًا، فردت ذراعيها على أقصى امتداد، وصرخت:

"يااااااالهووووووووووي"

* * * *

اليوم كان نهاية الامتحانات الفصلية في الكلية، خرج حمدي من الامتحان الأخير وودع زملاءه إلى لقاء قريب في الفصل الدراسي الثاني، وبصحبة ذات الضفيرة خرج من الكلية.

بعد دقائق ثلاث من التمشية المتمهلة تحت المطر وصلا إلى كورنيش البحر، بأذرع وكفوف متشابكة استمرا في تمشيتهم على سور البحر، البحر يوفر دائمًا وأبدًا حالة درامية يعشقها كل المتحابين، والمطر كذلك، لذا كانت للتمشية على البحر تحت الأمطار مفعول السحر على كليهما، بالذات على حمدي ذي القلب المتخم بالحكايات والمشاهد الدرامية المشابهة.

في أذنها غنى هامسًا "علموني عينيكي أسافر"، ابتعد قليلًا وأكمل بصوت مرتفع "علموني أفضل مهاجر، علموني أكون مسامح"، ثم قفز عاليًا وصرخ "زي نبع الحب صافي". ضحكت على حبيبها الأحمق، دارت في الهواء رقصًا على موسيقى الأغنية التي يدندنها بلسانه. الشارع شبه فارغ.. والعشاق يرقصون تحت المطر.

استمرت تمشيتهم لساعات مرت عليهم كثوان، نال حضنًا كان يصبو إليه منذ شهور ولم يستطع إليه من قبل سبيلًا، نال قبلة لم يكن ليحلم بأنه نائلها، نال من غبطة القلب ما لم ينله من قبل ولن يناله مرة أخرى أبدًا، وإن لم يكن يعرف ذلك بعد. مرت الساعات واشتد المطر، اقتربت الشمس من المغيب، وأعلنت ذات الضفيرة في حزن أنه حان وقت ذهابها، حزينًا أوصلها إلى أقرب نقطة لبيتها يمكنه الاقتراب منها، حزينًا كان ولكن حزن محدود، حزن الذي يودع محبوبته لبضعة أيام

واللقاء القادم قريب، لم يكن يعلم أن هذا لن يحدث، لم يخطر في باله أن هذه هي المرة الأخيرة التي يراها فيها على الإطلاق.

ربما لو علم لأعطى لهذه اللحظة حقها، كان سيقوم بالدور ببراعة، كان سيرتجل قصيدة وداع، كان سيجيد اختيار كلماته ونبرة صوته ونظرة عيونه، كان سيصنع مشهد وداع دراميًا عبقريًا يذكره ما بقى من حياته في شجن ومتعة خفية، يعشق هو مثل هذه اللحظات حتى لو كانت حزينة طالما أعطاها حقها من حسن الأداء وجودة الكلمات.

على مهل عاد أدراجه، سار ببطء شديد في طريق عودته، حالة الانتشاء لم تفارقه، يسترجع القبلة المختلسة والحضن ألف مرة في الدقيقة، لحظات رغب أن يعيش فيها إلى الأبد. استغرق طريق عودته ما يزيد عن ساعة لمشيه البطيء وانعدام رغبته في ركوب مواصلات، دخل شارعه وهو يغني بصوت مسموع، يضبط خطوات قدمه مع إيقاع أغنيته، يقفز في سعادة في كل بركة ماء تقابله، يتذكر حضنها، ملمس خدها الأبيض ذي حمرة الخجل المبتل بمياه المطر، مذاقه المالح من رذاذ موج البحر الذي يمطر على العابرين مثلما تمطر الغيوم، يتذكر ألف تفصيلة وتفصيلة مع كل خطوة، وعيه في مكان أبعد ما يكون عن جسده. لم يفهم بالضبط ما يحدث عندما أوقفه هشام فجأة واحتضنه باكيًا "البقية في حياتك يا صاحبي، إنا لله وإنا إليه راجعون".

* * * *

علاقته بأهله لم تكن أبدًا علاقة جيدة، ولم تكن سيئة أيضًا، هي علاقة موجودة بالكاد، لا يكاد يراهم ولا يكادون يرونه، هكذا كان الحال منذ طفولته المبكرة، وضعه كأخ ذكر وحيد لثلاث شقيقات إناث أصغر منه أعطاه كل الامتيازات الممكنة التي تمكنه من البقاء وحيدًا دون إزعاج أغلب الوقت. وازداد بعدًا عنهم واستقلالًا منذ أن حصل على غرفته الخاصة مع دخوله المرحلة الثانوية، ينعزل في غرفته طالما بقى في البيت بين كتبه ومفكراته وأوراقه وأقلامه، لا يكاد يخرج منها، حواراته مع أفراد أسرته شبه منعدمة، لم يشعر أبدًا من قبل بالانتماء إليهم بأي شكل، كل ما يشعر به أنه في هذا البيت مجرد ضيف، هو دودة في شرنقة، ينتظر في صبر نمو أجنحته ليحلق مبتعدًا بلا رجعة.

شقيقاته كن يرهبنه، هو الأخ الأكبر الذكي المتعلم الذي يفعل أشياء مهمة طول الوقت ولا يجب إزعاجه، هكذا علمهن أباهن وهكذا أقرت أمهن كلام زوجها وإن لم توافق عليه، فلا مجال للاعتراض على كلام أبو العيال أمامهن. أبوه حاول مرارًا أن يتواصل معه، الأب فخور بابنه الأكبر لأنه ذكر قبل كل شيء وهذا في حد ذاته سبب كاف، ولأنه ذكي! بالتأكيد هو ذكي، هو يقرأ الكثير من الكتب التي لا يفهمها الأب، ولا يتحدث معه إلا لمامًا، يقول دومًا أشياء لا يفهمها، بالتأكيد هو ذكي، أذكى من أن يفهمه الأب المسكين، لذا قرر الأب أن ابنه أكثر ذكاءً وأهمية من أن يشغله بتفاهاته، وتركه يفعل ما يريد في حياته موقنًا أنه يعلم جيدًا ماذا يفعل، وتجاهل تمامًا كل إشارات زوجته عن أنه يبالغ في تدليل الفتى، "الواد بقى طري، لا هيعرف يمسك شغلانة ولا هيعرف يفتح بيت، ابنك فسد من دلعك ليه يا حاج، انشف

عليه شوية والنبي"، لا تفهم المرأة الجاهلة شيئًا، الفتى أذكى مننا جميعًا يا امرأة، دعيه يفعل ما يفعل. ولكن رغم ذلك لم يستطع الأب منع نفسه من محاولة التواصل مع ابنه من حين لآخر، كان يطرق عليه باب غرفته في بعض الليالي وينتظر في أدب أن يفتح له، يحاول مناقشته في أي موضوع، يستمع بصبر إلى ردود ابنه الجافة المتواضعة بغرور وكأنه ينزل من عليائه بصبر ليناقش عوام الناس في التفاهات، وفي السنة الأخيرة كان يفتعل الأسباب ليدعو ابنه لزيارته في مكتبه، ليتفآخر أمام ابنه بأبيه الذي أصبح أفنديًا محترمًا، ويتفآخر أمام زملائه بابنه الطالب الجامعي المحترم الذي سيصير يومًا أكثر أهمية منهم جميعًا.

حتى الحزن لم يستطع حمدي مشاركتهم إياه. ليس الأمر أنه لم يحزن لوفاة أبيه، بالتأكيد فعل، لكن حزنه كان مختلفًا، بينما كانت الأم تبكي زوجها الحبيب الذي صانها ورعاها ولم يهينها أبدًا، وتبكي الفتيات أباهن الذي رغم تفضيله الأخ الأكبر عليهن كان حنونًا طيبًا دائم التبسم محبوب المجلس، كان حمدي غارقًا في حزن شاعري، حزن درامي مسرحي، حزن يفرغه أولًا بأول في مفكرته على هيئة مقاطع نثرية حزينة وأبيات شعرية جميلة في رثاء الأب الراحل، وخواطر الفتى الذي صار فجأة يتيمًا وحيدًا في مهب الريح. رغم أن حزنه على أبيه -الذي كان يحبه بشكل أو بآخر رغم إحساسه بعدم الانتماء لبيته- كان حقيقيًا في جوهره، إلا أنه رغمًا عنه أصبح حزنًا استعراضيًا ينتظر أن يخرج في المكان المناسب أمام الجمهور المناسب، ليتلقى عبارات الثناء الممزوجة بدموع الجمهور المتأثر بمأساة الفتى الأسمر الجميل الذي صار الفتى الأسمر الجميل اليتيم، وربما إن

أجاد تقديم حزنه قد ينال حضنًا آخر من ذات الضفيرة، حضنًا عميقًا مؤثرًا على سبيل التعاطف والشفقة.

بالطبع لم يفكر حمدي في كل هذه الأفكار بشكل مباشر، هو ليس وغدًا كفاية ليستغل مأساة وفاة أبيه استغلالًا استعراضيًا مثل هذا، إنما كلها أفكار دارت في خلفية أفكاره الحزينة العادية ولم يستطع كبحها رغم أنه حاول، هو فقط يحاكي –بلا وعي- آلاف الحكايات التي قرأها وشاهدها بمشاعره الشخصية، هو فقط أحمق مثل كل من نسوا أن الحكايات هي التي يفترض أن تحاكي الطبيعة البشرية، وليس أن تملي على الإنسان بماذا يشعر ويفعل في المواقف المختلفة.

* * * *

المرحوم لم يكن من أسرة كبيرة، ما يبرر الحضور البسيط في صلاة الجنازة وإجراءات الدفن التي تبعتها بعد صلاة ظهر اليوم التالي. تقدم المسيرة ابنه الذكر وعدد من زملائه القدامى، على رأسهم الحاج عبد المجيد، العملاق الودود الذي لا ينفك يحتضن حمدي باكيًا كل بضع دقائق، شنبه العملاق المعتنى به جيدًا تبعثر في كل اتجاه من مسحه الدائم لوجه الغارق في العرق -رغم برودة الجو والغيوم التي تملأ الأفق- والدموع، ما أعطاه مع صلعته منظرًا مضحكًا كان ليلفت نظر الجميع لولا حساسية اللحظة.

"المرحوم كان حبيبي، كنا أكتر من الإخوات والله، أنا يابني زي أبوك بالظبط وأنت عارف، أي حاجة تحتاجها.. أيبيي حاااااجة،

أنا موجود في أي وقت، أؤمرني بس، ده أبوك كان حبيبي، كنا أكتر من الإخوات والله"، ويحتضن حمدي الصامت منذ بداية اليوم ولم يفتر ثغره عن كلمة.

إجراءات الدفن والتصاريح والأوراق اللازمة كلها تولاها الحاج عبد المجيد وزملاء المرحوم، لم يدع أحدهم للابن فرصة ليفعل شيئًا، وكأنهم إن فعلوا كان ليعلم ماذا سيفعل! الفتى الذي حسب أنه علم كل شيء وسيطر تمامًا على مقاليد حياته كان مرتبكًا كطفل تائه، لم يكن يعرف كيف يتصرف وماذا عليه أن يفعل، انعقد لسانه البليغ أمام كلمات العزاء والأحضان المتعاطفة من أقارب وجيران وزملاء للمرحوم –على قلة عددهم جميعًا- لا يذكر حتى وجوه أغلبهم، حتى القلة القليلة من زملائه في الدراسة الذين حضروا مجلس العزاء وعلموا بما حدث عبر هشام، وقف عاجزًا أمامهم ولم يعرف كيف يرد مجاملاتهم، تمنى لو يختفوا فورًا من أمامه وينسوه، ينسوا عجزه وضعفه وارتباكه.

مع نهاية مجلس العزاء وذهاب آخر المعزين، احتضن عبد المجيد أفندي حمدي للمرة المئة تقريبًا، ربت على ظهره بعنف وهو يبكي، وبعد حديثه عن مدى قرب المرحوم منه وكيف كانا أكثر من الإخوة، قال للفتى المحشور في حضنه لا يكاد يتنفس: "ابقى عدي عليا في المكتب يابني في أي وقت، عايزك في موضوع"، هز حمدي رأسه موافقًا في صمت مرتبك بعد أن أطلق سراحه، لم يكن يتوقع طلبًا مشابهًا ولا يدري ماذا يفعل،

كان في حالة نفسية هشة لا يستطيع معها إلا أن يوافق أي شخص في أي شأن.

مرت الأيام التالية في هدوء، عدد من النسوة المتشحات بالسواد يقضين أغلب اليوم برفقة أمه وشقيقاته الثلاث، نسوة من الجيران أو قريبات لأمه أو أبيه، لا يذكر بالتحديد ولا يهتم، من حين لآخر يتوافد على البيت أحد المعزين الذي فاته مجلس العزاء، يضطر حمدي لأن يجالس هذا المعزي أو ذاك لفترة، لا تزيد عادة عن بضع دقائق يقضيها حمدي صامتًا باستثناء ردود مقتضبة على عبارات العزاء تزيد الجو العام غرابة على غرابة، قبل أن يقوم المعزي ذاهبًا مرددًا أشياء من قبيل "شد حيلك"، أو "المرحوم كان عزيز علينا جدًا"، ولا ينسى أحدهم أن يختم كلامه بتذكير حمدي "أنت راجل البيت دلوقتي، خلي بالك من أمك وأخواتك"، قبل أن يمضي تاركًا الفتى واقفًا في ارتباك غير قادر على هضم الكلمة التي يكررها على مسامعه الجميع.

"أبيه حمدي، تليفون عشانك"

عندما سأل أخته عن هوية المتصل هزت كتفيها قائلة "مش عارفة، بنت معرفهاش".

بنت؟ لا بد أنها هي، ذات الضفيرة. هرع تجاه غرفة الصالون حيث يقع الهاتف، الغرفة تحفل بالنسوة ذوي العباءات السوداء يبكين المرحوم ويمارسن النميمة. كيف يحدثها بينهن؟ تبًا، كان موقع الهاتف في الصالون جيدًا من قبل لأن أحدًا لم يتواجد فيه عادة، حيث يتكدس الجميع في غرفة التلفاز وتبقى

غرفة الصالون بأثاثها النظيف خالية أغلب الوقت، ما يعطيه فرصة لا بأس بها لقضاء الليالي على الهاتف مع ذات الضفيرة دون مقاطعة، لكن الآن كيف يحادثها بين كل هؤلاء؟

أمسك سماعة الهاتف واقفًا بجواره، كور يسراه حول فمه في محاولة لمداراة صوته عن السيدات الناظرات إليه بفضول، جاء صوتها مرتبكًا جافًا:

"آلو؟ حمدي؟ البقاء لله"

لم يعتد منها هذا الصوت، لكن يفهم وضع الأمور الحالي ولا ينتظر منها كلمات حب دافئة، وإن كان يحتاجها الآن أكثر من أي وقت مضى، "ونعم بالله".

"آسفة والله معرفتش غير دلوقتي، سامحني"

"لأ لأ أنا عارف كويس، مفيش حاجة"

أعقب كلماته صمت طال لثوان، عيون الجالسات تتفحصه، تتفحص نظرات عيونه وملامح وجهه، تحاول في نهم قراءة حركات شفتيه التي يداريها بقبضته.

"إزيك؟"

شعر بسخف سؤالها.

"أنا كويس الحمد لله، أنتي أخبارك إيه؟"

لا بد أنها أدركت مدى حماقة سؤالها عندما أخبرها أنه بخير، لكنه يعذرها، الصمت كان غريبًا وكان لا بد لأحدهما أن يكسره.

"أنا كويسة الحمد لله، حشوفك في الكلية؟"

"آه أكيد إن شاء الله، أشوفك في الكلية"

"تمام.. خلي بالك من نفسك"

فكر أنها لو كانت تتصل بعيادة طبيب الأسنان لحجز موعد، كان صوتها ليبدو أكثر دفئًا ما هو عليه الآن.

"وأنتي كمان، مع السلامة"

"سلام"

وضع السماعة وخرج من الغرفة متجاهلًا طن الأسئلة الفضولية الملقى عليه منهن، فكر أن هذه المكالمة لا تعني شيئًا بالتأكيد، هي مجرد مكالمة عزاء روتينية كان لا بد أن تحدث. لا بأس، لاحقًا بعد العودة للكلية سينال منها العزاء الحقيقي، ستسمعه وهو يحكي عن أحزانه، عن أنه صار يتيمًا وحيدًا في عالم قاس، ستسمعه صامتة ودموعها تغرق وجهها، وعندما ينتهي من الكلام سينال العزاء الحقيقي. لاحقًا.. لاحقًا.

* * * *

مر أسبوع على وفاة الحاج، لم يعد هناك مزيد من المعزين، عادت كل من أختها وزوجة شقيقها وجارتها إلى بيوتهن، انفض الجمع، ونامت سمية للمرة الأولى منذ أن جاءت إلى هذه الدنيا على سريرها وحيدة، أو بمعنى أدق لم تنم سمية، كيف تفعل؟

منذ طفولتها المبكرة وهي تشارك سريرها دومًا مع إحدى شقيقاتها، ثم تزوجت وأصبحت نومتها جوار زوجها، حتى في الظروف النادرة التي تحتمت أن تبيت في بيت آخر عند إحدى قريباتها مثلًا، لم يكن أقاربها يتمتعن برفاهية البيت متعدد الغرف والأسرَّة، هناك دائمًا من تشاركها السرير.

اضطجعت على طرف السرير كما اعتادت، كانت تفعل لأن السرير ضيق وكان يجيب أن تلتزم بأحد الأطراف ليستطيع أبو العيال أن ينام مستريحًا في الطرف الآخر، فعلت الليلة مثلما كانت تفعل دائمًا، لكنها فطنت بعدها أن الجزء الأكبر من السرير الذي تركته فارغًا لن يملأه أحد، وبكت.

بكاؤها في الأيام السابقة لم يكن بكاءً حقيقيًا، كان بكاءً تصطنعه لأنه لا يليق أن ألا تبكي الزوجة في عزاء زوجها، ولكنها في الحقيقة لم تشعر أبدًا بالرغبة في البكاء، ليس هذا لبرودها أو لعدم إخلاصها لزوجها، فإخلاصها له لا جدال فيه، ولكن لأنها اعتادت ألا تضعف أمام الآخرين، الوحيد الذي كانت تسمح لضعفها أن يظهر في حضرته لم يعد موجودًا، لذا فهي لن تضعف أمام مخلوق أبدًا، ظلت قوية صلبة بين المعزين حتى وإن اصطنعت الضعف الذي يليق بالمناسبة، أما الآن فلا أحد هنا يرى ضعفها، والسرير فارغ، وبكت.

بكت بحرقة وذرفت عيناها الكثير، كتمت صوتها رغم أنها تأكدت بنفسها من نوم الفتيات ولا تحتاج لأن تتأكد من نوم ابنها الذي لن يسمع بكاءها ولن يراها أصلًا حتى لو كانت تبكي

أمامه مباشرة، ولكنها كتمت صوتها رغم ذلك، لم تسمح لصوت بكائها أن يعلو حتى في وحدتها التامة.

أهكذا تفعل يا أبا حمدي؟ أهكذا تتركني وحيدة؟ لم تفعلها من قبل، كنت دومًا موجودًا، كنت خير من عرفت من الرجال، "كل الرجال أوساخ"، هكذا علمتني أمي وهكذا رأيت من كل الرجال، كل من تزوجت عادت لتؤكد نفس الحقيقة، كل الرجال أوساخ. لكني أيضًا تعلمت أنه بالرغم من أن كل الرجال أوساخ، إلا أن كل النسوان يتزوجن ويعشن ويتحملن، النسوان يجب أن يكنَّ الرجال الحقيقيين. هكذا استعددت للحياة حتى جئت أنت، لطالما انتظرت منك أن تثبت الحقيقة وتظهر الوساخة مثل كل الرجال، لكن السنين مرت ولم تفعلها، حتى أمي لم تعد تردد كلمتها تلك بعد أن زوجتني إياك، وإن قالتها كانت تتبعها بـ"إلا محمود جوز سمية، ابن حلال بجد"، كنت خير الرجال، ولكن رغم ذلك تركتني وذهبت.. سامحك الله. ماذا علي أن أفعل الآن؟ ماذا أفعل بالفتيات الثلاث؟ أكبرهن في الرابعة عشرة، ما زال أمامهن عمر طويل قبل أن يتزوجن ويصرن إلى بيوتهن، ماذا أفعل وأنا وحيدة دون رجل؟ رجلي ذهب وتركني، وابني الذي يفترض أن يكون رجلًا بدلًا من أبيه لا يعرفنا، لا يرانا، إنه حتى يخلط بين أسماء شقيقاته، نادرًا ما يتحدث معنا ولا يدرك وجودنا، سامحك الله يا حاج، كنت رجلًا في كل الأمور إلا في تدليلك لابنك، من في عمره رجال يفتحون بيوتًا، بينما هو ما زال يمرح في الجامعة ويضيع وقته وأموال أبيه على كتبه الفارغة التي تملأ حائط غرفته، هل هذا هو الرجل الذي سيملأ الفراغ الذي خلفته؟ سامحك الله، سامحك الله.

انتفضت سمية جالسة فجأة، مسحت دموعها بحركة عنيفة، أرغمت نفسها على أن تتوقف عن البكاء.

ماذا تفعلين؟ اجمدي يا بت، أستتركين نفسك للبكاء مثل فتيات المدارس؟ لا.. لا، والله لن يحدث، استرجلي يا سمية، كوني أنت الرجل الذي يحتاجه هذا البيت، أنت من ستملأ الفراغ الذي خلفه رجل البيت، كل النساء ينتهي بهن الأمر لهذا بشكل أو بآخر، حسبتِ أن هذا لن يحدث لك، قلتِ إن زوجك لن يسمح بحدوث مكروه لك، لكن قضاء الله جاء ولا رد لقضائه، أستبكين مثل الأطفال وتتركين بناتك؟ لا والله. لكن ماذا ستفعلين؟ أستعيشين مع أربعتهن فقط بمعاش المرحوم؟ هل ستغطي هذه القروش الضئيلة احتياجات البيت والفتيات؟ واحتياجات اسم الله عليه الولد؟ مستحيل.. مرتب الحاج كان يكفي بصعوبة وكم من مرة احتاج إلى الاستدانة لتسيير الأمور، فكيف بالمعاش الذي يقل عن المرتب كثيرًا؟ لا يمكن. ماذا إذن؟ تشتغلين؟ أتخرجين لتعملين؟ بعد كل هذا العمر الذي قضيتيه مصونة في بيتك محفوظة من كل إهانة لتشتغلين؟ وماذا ستعملين؟ أنت تكتبين اسمك بصعوبة، لا يوجد ما تستطيعين عمله خارج بيتك، أم ستعملين في بيوت الناس؟ ويقول الخلق الولية بتشتغل في البيوت وابنها شحط طويل عريض بيتمرقع في الكلية مع البنات؟ مثلما فعل منذ يومين وفضحني وسط النسوان، وقف وسطهن يكلم البنت في التليفون، قال لها "بحبك" وداري فمه وهو يضحك، رأته النسوة كلهن وهو يفعل، فضح نفسه وفضحني في عزاء أبيه، سامحك الله يا حاج، أنت الذي دللته ليصبح هكذا. لكن والله

هذا لن يصير بعد الآن، لن يحسب علي أني أعيش في ظل رجل وهو مجرد ظل دون رجل، ستصير رجلًا حقيقيًا يعتمد عليه يا حمدي شئت أم أبيت.

أثارتها الفكرة الأخيرة، قامت من سريرها الخالي، خرجت من غرفتها بخطوات مسرعة، نظرت تجاه غرفته، مغلقة الباب مثلما هو حالها أغلب الوقت، ولكن يبدو أن نورها مضاء، هو مستيقظ إذن. ألصقت أذنها بالباب المغلق، لا صوت، لا بد أنه يقرأ أو يكتب أو يفعل أي من هرائه الفارغ، رفعت يدها في حزم واندفعت بقبضتها نحو الباب، لكن قبل أن تلمسه توقفت فجأة، فكرت لثوان، ثم بهدوء شديد طرقت الباب.

* * * *

كان منكبًا على أوراقه، يكتب عن أحزانه وافتقاده لأبيه الذي رحل وترك وحيده يتيمًا ضعيفًا كزهرة وحيدة تعصف بها الريح، عندما سمع دقات ثلاث هادئة على الباب، تجاهل الدقات فقط لتعود ثانيًا بعد دقيقة. كارهًا نهض وفتح الباب، ليجد أمه واقفة تنظر إليه مبتسمة، قبل أن يدعوها للدخول كانت قد فعلت وجلست على طرف سريره.

"تعالى، اقعد جمبي هنا"، قالتها وهي تربت على السرير بجوارها، مترددًا فعل، لم يفهم ماذا تريد منه أمه في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، لا يوجد بينهما الكثير من المناقشات السابقة، ما يجعله مرتابًا أكثر.

جلس متوترًا، عيناه تنتقلان بين كل ركن في الغرفة متحاشيًا النظر إلي عيني أمه المثبتتين عليه، وإن لمح في عيونها بعض الاحمرار والانتفاخ، لا بد أنها كانت تبكي، ما زالت على شفتيها نفس الابتسامة الهادئة.

"عامل إيه يابني؟ مسمعتش صوتك من ساعة وفاة أبوك"

"إيه؟ آه.. آه.. أنا كويس، الحمد لله"

"عارفة إنك أكيد تعبان وزعلان على أبوك، عندك حق، الله يرحمه كان راجل، طيب وجدع وابن حلال"، توقفت لثانية، تنهدت تنهيدة عميقة "الله يرحمه، مكنش مخلي حد فينا محتاج حاجة، رغم إن حاله كان ضيق بس عمره ما حسسنا بكده، كان يشيل اللقمة من فمه ويديهالنا، صح ولا إيه؟ خصوصًا أنت، كنت ابنه حبيبه إللي بيتفشخر بيه قدام الخلق، كان ممكن يحرم نفسه من اللقمة والهدمة عشان يديلك كل اللي تطلبه، تمام ولا إيه؟"

يعلم جيدًا أن ما تقوله أمه صحيح، لكن ما لا يعلمه ويخاف منه هو الهدف من وراء كلماتها، أمه امرأة طيبة بسيطة التعليم، لكنها لم تكن أبدًا حمقاء، هناك هدف ما تمهد له، وهو لا يرغب في معرفة هذا الهدف. "آه طبعًا أكيد، الله يرحمه".

"الله يرحمه ويسامحه ويجعل قبره روضة من رياض الجنة، قول آمين.. المرحوم كان راجل بحق وحقيقي، وقبل ما يمشي، اتطمن علينا بأن ساب معانا راجل زيه، راجل من صلبه يرعانا ويخاف علينا أنا وبناته زيه بالظبط"

وضعت راحة يدها في ضغطة حانية حازمة على ظهر ابنها، شعرت به يجفل من لمستها، فكرت أي ابن يجفل هكذا من لمسة يد أمه؟ غضبت لثوان لكنها نجحت في السيطرة على غضبها، لم ترفع يدها عنه، ضغطت أكثر واستمرت، "مش كده يا حمدي؟ مش أنت حتراعيني أنا وأخواتك البنات؟ حتكون أنت راجلنا والحيطة اللي تداري علينا من عيون الخلق؟"

ما زال لا يفهم ماذا تريد منه أمه، ليس لأنه غبي ولا لغموض كلماتها، ولكن لأنه لا يريد أن يفعل، لا يريد لمعنى كلماتها أن يتضح، حاول أن يهرب لكن عيونها كانت تحاصره، يشعر وكأن يدها الطرية الممتلئة على ظهره قيد حديدي يلتف حوله ويحاصره، "آه طبعًا طبعًا، أكيد". اتسعت ابتسامتها، "أنا كنت متأكدة من كده، ربنا يباركلي فيك يابني يا حبيبي، يسهلك طريقك ويفتحلك ألف باب للخير قادر يا كريم".

أنهت كلامها وقامت من جواره، انحنت على رأس ابنها وقبلتها، ثم تلكأت في خروجها، منتظرة في وقار رد فعله، وفعلًا قام منتفضًا بعد قبلة أمه، علم أنه يجب أن يرد قبلتها بمثلها، وانحنى على رأسها ورد قبلتها بمثلها، ربتت على كتفه حانية.

"تصبح على خير يا حبيبي"

وبخطوات متأنية واثقة، خرجت وأغلقت خلفها الباب.

* * * *

لم يكن الأرق ضيفًا جديدًا عليه.

قضى ليالي مؤرقة طويلة من قبل، ليست هذه الليلة هي الأولى التي يرقدها فيها تحت غطاء السرير والغرفة مظلمة، وتأبى عيناه الانغلاق.

لكن ما يختلف هو السبب. ليالي الأرق السابقة كانت لكتاب لم يستطع النوم قبل إكماله، أو بحثًا عن كلمة مناسبة لوزن قافية بيت شعر لإتمام قصيدة سيهديها لذات الضفيرة، عالم خيالي ساحر قرأ عنه في كتاب أو شاهده في فيلم ولم يخرج عقله منه بعد. أسباب أرقه السابقة كانت جميلة حقًا، ليالي الأرق كانت ليالي ممتعة لا يمانع تكرارها، لكن أرق هذه الليلة يختلف.

"مش كده يا حمدي؟ مش أنت حتراعيني أنا وأخواتك البنات؟ حتكون أنت راجلنا والحيطة اللي تداري علينا من عيون الخلق؟"

ماذا كانت تعني أمي بهذه الكلمات؟ كيف تريدني أن أكون أنا الرجل؟ ماذا يعني أن أكون الرجل الذي يعتني بها وبالبنات؟ كيف أفعل بالضبط؟ ماهو الدور الذي تتوقعه مني؟ يفترض أن الأمور لن تتغير كثيرًا، هناك معاش للمرحوم بلا شك، معاش لا بد أنه يكفي لسد احتياجات الأسرة، أليس كذلك؟ لا بد أنه يكفي، قد نتقشف قليلًا ونستغنى عن بعض الأشياء ولكن الأمور ستمضي والحياة ستسير، بالتأكيد الحياة ستسير مثلما هي الآن. ولكن ماذا إن لم تفعل؟

ماذا إن لم يكف المعاش؟ ماذا تتوقع مني أمي حينئذ؟ أهي تحسب أني سأترك كليتي باحثًا عن عمل لأعيلها والفتيات؟ لا..

بالطبع لا، لن يكون هذا أبدًا، مخطط حياتي واضح ومباشر وصريح ولا مجال لتغييره، قبل أن أنهي دراستي الجامعية سأكون قد انتهيت من كتابة روايتي الأولى، التي ستجد لنفسها ناشرًا بسهولة، وستكون تلك خطوتي الأولى في عالم الكتابة، لا مجال لأي انحراف عن هذه الخطة، لن أسمح أبدًا. سأرفض بالتأكيد أي محاولة منهم لتدمير حياتي.

ولكن.. إن فعلت ذلك، إن رفضت مساعدتهن، ماذا يفعلن؟ ماذا قد تفعل أمي؟ كيف تصرف على الفتيات الثلاث وترعاهن وحيدة؟ من أين لها بمصدر رزق؟ لن تجد بالتأكيد عملًا يصلح لها وعمرها الآن.. لا أذكر، ولكنها كبيرة بما يكفي لتجاوز فكرة أن تخرج باحثة عن عمل، والبنات كذلك أيضًا.

و.. وماذا عني أنا؟ من أين لي بمصدر دخل كافٍ للمرحلة المقبلة؟ ما زال أمامي ما يزيد عن السنتين في الجامعة، وإلى أن أكتب وأنشر وأنجح احتاج إلى الكثير، احتاج إلى.. يا إلهي، أين أنت يا أبي؟!

إلى أين قد تصير الأمور؟ ألا يوجد في هذه الأسرة راعٍ آخر؟ عم مثلًا أو خال يتكفل بنا؟ لا أعرفهم جميعًا لكني أظن أنه ليس هناك من يفعل. "عيلة معفنة"

حسنًا، يمكنني أن أتجاهل أمي وشقيقاتي وأسعى وحيدًا باحثًا عن مستقبلي، لم لا؟ إنهن مجرد عقبة في طريقي لنجاح عظيم يجب تجاوزها. لكن حتى إن فعلت سأظل بحاجة إلى عمل أقتات منه ومكان أعيش فيه، المشكلة ذاتها تظل قائمة. يا إلهي،

هي فكرة قذرة حقًا، ربما أمي وشقيقاتي لسن أحب الناس إلي في العالم ولكن تركهن عن عمد والذهاب وحيدًا هو عمل حقير، يحتاج إلى أن أكون وغدًا حقيقيًا، ياليتني كنت.

ماذا إذن؟ ماذا أفعل الآن؟ أبحث عن عمل؟ ربما نادي الفيديو؟ هشام ما زال يدير نادي الفيديو ويمكنني أن أعود للعمل معه في أي وقت، هو يحتاج دومًا لشخص يأتمنه على إدارة المحل ليتفرغ هو لتجارته القذرة. لكن هذا عمل كان صالحًا لقضاء إجازة صيفية بين أشرطة الفيديو للتمتع بالجديد من الأفلام مع بضعة جنيهات تصلح كمصروف إضافي، جنيهاته القليلة لن تكفي أبدًا لإعالة أسرة، ماذا هناك أيضًا؟ أي عمل يصلح لي بمرتب كاف دون أن يتعارض مع دراستي؟ هناك من يفعلون ذلك بنجاح، لكن هل استطيع أنا أن أكون منهم؟ هل ساحتمل أنا أن يراني زميل أقل مني شأنًا بائعًا في محل ملابس أو مرشدًا بكشاف في قاعة سينما مظلمة؟

وماذا عنها؟ حبيبتي؟ أين مكانها في حياتي الجديدة؟ هل ستكون بطلة حكايتي؟ الحبيبة المخلصة التي تحارب العالم معي ومن أجلي؟ هل ستحتمل كل شيء وتنتظرني؟ قالت لي ذلك مئات المرات، ولكنها قالته على مقعد خشبي تحت ظل شجرة في حديقة مشمسة تطير فيها الطيور وتغرد ألحانها، ماذا سيكون قولها الآن؟ ربما ستكون برفقة ذلك الزميل في قاعة السينما، ترشدهما إلى مجلسهما ويضع في جيبك جنيهين على سبيل الإكرامية، يجب أن تكون ممتنًا وقتها.

أثارت الفكرة الأخيرة غضبه، انتفض من سريره مترجلًا بحركة عنيفة، دار حول نفسه في غرفته عدة مرات هائجًا كثور حبيس، أصابه غضب حقيقي للمرة الأولى في حياته، غضب لم يهدأ بعد هذه الليلة قط.

* * * *

في الصباح التالي، خرج من غرفته إثر خبطاتها على الباب ونداتها عليه أن يخرج لتناول طعام الإفطار. رغم ثباتها وصلابتها المعتادة، لم تستطع سمية منع رجفة انتابتها عند رؤية ابنها.

كانت تعلم جيدًا أنه لم ينم، هي الأخرى لم تنم، قضت جزءًا لا بأس به من الليل متنصتة خلف بابه، تسمع ابنها يروح ويجيء ويدق الحائط بقبضته. كانت تعلم كيف قضى ابنها ليلته وتوقعت أن تراه متعبًا على وجهه علامات الأرق والحزن والإرهاق. بيد أن هذا لم يعصمها من قشعريرة مباغتة انتابتها عندما رأته. عيناه، عيناه هي ما أخافها، عيناه جاحظتان لدرجة أشعرتها أنهما ستقعان من وجهه في أي لحظة، تحملان كمًا من الغضب لم تره فيهما من قبل أبدًا، سيكون عليها أن تعتاده، فما يبدو على وجه ابنها الآن لن يفارقه بعد ذلك أبدًا.

أشفقت على ابنها وأسفت لحاله، لطالما كانت تكره فيه نعومته، تمنت أن يصبح أكثر قوة ورجولة، رجولة كافية ليعمل ويتزوج وينشئ أسرة، كانت تتمنى أن يتغير حاله ولكن ليس إلى هذه الدرجة، ليس لدرجة أن يجد نفسه دون أي مقدمات رب أسرة كاملة وهو لم يعرف بعد كيف هي الحياة، الانقلابات

الدرامية المفاجئة للأحداث تلك لم تكن أبدًا من أحلامها. تماسكت، لم تظهر شفقتها ولا خوفها اللحظي العابر من نظراته الغاضبة. "*اثبتي يا بت يا سمية*".

طلبت منه أن ينضم لشقيقاته على مائدة الإفطار، دون أن يبدر منه رد فعل، سحب مقعده وهم بالجلوس في مكانه المعتاد ولكنها منعته وسحبت المقعد في مقدمة المائدة. "تعالى اقعد هنا، ده مكانك من هنا ورايح". نظر لها نظرة طويلة صامتة، نظرة أثارت المزيد من خوفها وشفقتها على ابنها، لكنها ثبتت، صمدت عيونها أمام عيونه ثابته لا تهتز، لا تنبئ بما يعتمل داخلها من مشاعر، في النهاية أذعن لها وجلس في مقعد أبيه السابق.

الفتيات الثلاث توقفن عن الحديث ما أن انضم أخاهن إلى المجلس، سكتن تأدبًا ورهبة، سالت دمعة من أكبرهن تأثرًا عندما رأته يجلس مكان والدها، وسالت أخرى من الصغرى خوفًا من نظرة أخيها الغريبة التي لم تر مثلها على وجهه قط، لكن كلتاهما مسحت دموعها فورًا وتوقفت عن البكاء إثر نظرة حازمة من الأم التي تضع طعام الإفطار على المائدة، الطعام الذي لم يتجاوز طبقًا وحيدًا كبيرًا من الفول وبضعة أرغفة، وضعتها على المائدة وجلست.

سألت صغرى الشقيقات: "ماما، فين باقي الأكل؟"

"ده الأكل كله يا حبيبتي، لازم نتعود على كده من هنا ورايح، لغاية ما ربنا يوفق أخوكي ويلاقي شغل"

لم تكن الأمور بهذا السوء، سمية لم تكن لتسمح أن يصل الوضع في بيتها لدرجة ألا يوجد طعام، مستحيل، لكنها تفعل ما عليها أن تفعل، عليها فقط أن تتحلى بالقوة والصبر الكافيين لتحقيق هدفها، عليها أن تتحلى بالقوة الكافية لأن تتحمل نظرة الفتى الذي يسلط عليها ألعن نظرة رأتها على وجه بشر بعدما قالت عبارتها، القوة الكافية التي تجعلها تدعي عدم التأثر وتقطع لقمة تغمسها في طبق الفول لتضعها في فمها وتمضغها على مهل، القوة الكافية التي تثبتها مكانها دون أن تنتفض في رعب من قيامه المفاجئ من على المائدة دون تناول لقمة واحدة متجهًا إلى غرفته صافعًا بابها خلفه بعنف كاد يخلع الباب من مكانه ثم يخرج منها مرتديًا ملابس الخروج، القوة الكافية التي تمنعها من البكاء أمام بناتها بعد خروجه من البيت كطلقة رصاص مغلقًا بابه وراءه بمزيد من العنف جعل الفتيات يبكين. ستتحلى بكل القوة والصبر في الدنيا وستمضي الأمور على ما يرام، لا بد أن تفعل.

* * * *

شوارع محرم بك مزدحمة كما هي دائمًا في الحادية عشرة ظهرًا، ولكن بالنسبة لسكانها فالشوارع فارغة تمامًا، إنها إجازة نصف العام الدراسي والمدارس كلها مقفلة، في مثل هذا الوقت لا يكون هناك موطئ لقدم أثناء العام الدراسي.

يمشي بسرعة شديدة وكأنه متآخر عن موعد مهم، بغير وجهة محددة كان يهيم على وجهه، لا يرغب في زيارة مكان معين، هو فقط لا يرغب أن يكون في بيته، البيت الذي أصابه الفقر مباغتًا

دون تحذير مسبق، فلم يعد هناك حتى طعام، كيف أصاب أمه الغباء فجأة وقلة التدبير لينتهي بهم الأمر إلى هذا الحال؟ لا بد أنها مصاريف العزاء التي جعلتها تنفق كل ما ادخرته.

والآن عليه أن يجد وظيفة بهذه السرعة ويصرف على البيت؟ كلامها معه بالأمس لم يصرح بهذا مباشرة، رغم كل أفكاره الكارثية التي أرقته كان يأمل أن يكون لكلامها معنى آخر، لكنها لم تدع مجالًا لعدم الفهم بكلامها على مائدة الإفطار، كل كوابيسك صارت حقيقة يا فتى.

فكر أن مأزقه الآن جدير برواية، لكن أي رواية؟ قلب في ذاكرته عن رواية قرأها يمر بطلها بأزمة شبيهة ولم يجد، ليس لأن مأساته فريدة من نوعها، ولكن لأن ما يحدث الآن هو أكثر أنواع الحكايات شيوعًا في الحكايات الخيالية أو في الواقع، البطل الفقير الذي يكافح يائسًا لإطعام أسرته والحفاظ على حبيبته، إنها أسخف أنواع الحكايات والدراما، دراما تليق فقط بمسلسلات تليفزيونية ساذجة لربات البيوت. "حتى حكايتك شبه حظك، زي الخرا على دماغك" قالها لنفسه ساخرًا.

"مطلوب شاب للعمل"

مكتوبة على ورقة ملعقة على نافذة عرض محل بيع أدوات مدرسية، وقف أمام الورقة متأملًا، كيف تكون عملية البحث عن وظيفة مناسبة؟ لم يمر بهذه المشكلة من قبل، لا يملك أدنى فكرة عن الكيفية التي يلتحق بها العاملون في أي مجال بأعمالهم، هل كل الوظائف في الدنيا تأتي عن طريق ورقة كهذه

ملعقة على باب مقر العمل؟ هل يمكن أن يمر على دور النشر المختلفة مثلًا ويجد ورقة ملصقة على بابها "مطلوب كاتب للعمل"؟ يجب عليه أن يتوقف عن التفكير في موضوع الـ"كاتب" هذا، ليس هذا الوقت المناسب، هو لم يكتب بعد ما يصلح للنشر، كان يخطط أن يفعل ولكن يبدو أنه لم يعد هناك مجال لهذا، ربما ستحل الأمور نفسها بشكل ما ويعود لكتابته، إلى أن يحدث هذا عليه أن يتوقف عن التفكير في الكتابة.

تأمل الورقة الملصقة مرة أخرى، فكر أن يدخل عارضًا أن يكون "الشاب المطلوب للعمل"، بائع في مكتبة أدوات مدرسية ليست وظيفة الأحلام بالتأكيد، لكن البيت لا يوجد فيه طعام، شراء الطعام يأتي أولًا، ولاحقًا نفكر في الوظيفة المثالية.

ساحبًا قدمًا مترددة وراء الأخرى، دخل المكتبة.

"السلام عليكم"

كان رجل كبير السن يقرأ بمساعدة نظارة سميكة الصحيفة خلف واجهة العرض الزجاجية، جفل من صوت التحية المباغتة، أحنى نظارته للأسفل ورفع عينيه متأملًا الشاب الداخل، مزري الهيئة جاحظ العينين أحمرهما، حوقل في سره داعيًا الله الحفظ من الشيطان، المخدرات أفسدت الشباب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

"وعليكم السلام ورحمة الله"، ناظرًا نظرة متسائلة تجاه الشاب الغريب.

"في.. في ورقة مكتوب عليها مطلوب شاب للعمل، ممكن.. ممكن أعمل؟ قصدي يعني إيه طبيعة العمل؟ أنا بدور على.. شغل؟"

كلمات متقطعة وصوت متغير النبرة، الفتى لا يعلم ماذا يقول، إنها المخدرات بالتاكيد، لا حول ولا قوة إلا بالله.

"لا يابني خلاص مش عايزين حد"

"بس.. الورقة !"

"إحنا نسينا نشيل الورقة، بس خلاص مش عايزين حد يشتغل"

تسمر في مكانه لا يدري ماذا يفعل، في النهاية دار على عقبيه وخرج. تهانينا يا أحمق، لقد بلغ بك الفشل أنك لست حتى مؤهلًا لأن تُقبل في وظيفة بائسة مثل بائع في محل، أنت فاشل على كل الأصعدة، غير مؤهل لفعل أي شيء، استمر في خيبتك بينما أمك وشقيقاتك يتضورن جوعًا في البيت.

استمر في تسكعه لنصف ساعة أخرى، تائهًا بين أفكاره وغضبه وارتباكه، حتى أيقظه من سرحانه صوت أجراس شبيهة بما يصدره بائع العرقسوس بأطباقه المعدنية. إنه الترام قادم، وهذه أجراس التنبيه الخاصة به لتحذير المارة، التفت ليرى ترامًا يقترب تجاهه على بعد نحو ستة أمتار. لا ليس هناك ما يخيف، إن كان ترام في أقصى سرعته على بعد ستة أمتار منك ويقترب، هناك دائمًا وقت كاف لكي تنحني لربط حذائك المفكوك قبل أن

تقف معتدلًا وتسوي هندامك، وربما تشعل سيجارة وتنفث دخانها قبل أن تتحرك.

بتأنٍ خرج من من مسار الترام واستمر في طريقه، ثم عاد وتوقف ونظر إلى الترام متأملًا، رؤية الوحش المعدني الأصفر البطيء أعادت ذكرى قريبة.

"ابقى عدي عليا في المكتب يابني في أي وقت، عايزك في موضوع"

ماهو الموضع ياترى الذي يرغب أن يحادثه فيه هذا الرجل الغريب؟ إن كان ما يعيشه الآن حكاية جيدة فهذه هي اللحظة التي سيخبره فيها عن كنز أبيه القديم السري الذي لا يعلم عنه أحد شيئًا إلا الله والحاج عبد المجيد، ضحك بصوت مسموع للفكرة، لكنها ضحكة انقطعت سريعًا عندما صارت الفكرة أقل سخفًا، لم لا؟ ربما هناك فعلًا ما تركه أبوه له، ليس كنزًا بالتأكيد ولكن الاحتمالات لا نهائية. هناك دومًا حكاية عن الحطاب الذي أنقذ الملك من موت مؤكد، والملك وعده بالثراء والمجد على سبيل رد الجميل، ربما سيرشده الحاج عبد المجيد إلى الملك الذي سيرد له جميل أبيه.

إرث الحاج محمود.

بقدر ما نرى كم هي سخيفة هذه الفكرة، بقدر ما رآها حمدي في ذلك الوقت هدية إلهية ستقلب حياته رأسًا على عقب، نهاية سعيدة غير متوقعة، deus ex machina – الإله من الآلة، الخدعة الأدبية القديمة عندما يأتي الحل السحري من السماء

في نهاية الحكاية لينقذ الأبطال ويقضي على الأشرار في اللحظة التي كاد فيها السيف يفصل رأس البطل الطيب عن جسده، ليعيش الطيبون في سعادة إلى الأبد. إنها النهاية الأكثر سذاجة لأحداث أي حكاية، ولكن إن كانت هذه نهاية حكايته فلن يتضايق بالتأكيد.

استخدام كلمات رنانة في سياق أفكاره مثل "إرث" و "deus ex machina" أشعره بمنطقية الفكرة وقابليتها الشديدة للتحقيق، تيقن ما سيخبره الحاج عبد المجيد به عن إرث والده سيغير حياته ويحل كل مشاكله إلى الأبد.

* * * *

ما لفت نظره في البداية عند دخوله الغرفة أن المكاتب الخمسة كانت مشغولة بالموظفين، تعجب من سرعة استبدالهم لأبيه، لكنه ابتلع ملحوظته في صمت، وتوجه ببصره تجاه مكتب الحاج عبد المجيد، أشعة الشمس القادمة من الخارج تغطي نصف جسده المقابل للنافذة، خطوط الظل الناتجة من قضبان النافذة المعدنية تقسم وجهه طوليًا لثلاثة أجزاء، على مكتبه تتناثر أطباق الفول والطعمية والسلطة، كوحش قادم من الأساطير الإغريقية كان يتناول إفطاره للمرة الثالثة أو الرابعة بشراهة مخيفة، بقايا الفول والعيش تبدو واضحة على شنبه، لم يشعر حمدي بالرغبة في التقدم أكثر من ذلك، فكر في الذهاب والعودة لاحقًا، ربما يسعفه الحظ ويقابله قبل موعد وجبة الغداء. لكن العملاق الودود لمح الفتى بطرف عينه، انتفض

واقفًا مناديًا إياه بصوت كان حمدي ليسمعه لو كان خارج المبنى: "حمدييييي".

لم يعد للهروب من وسيلة. ابتلع لعابه وتقدم خائفًا ما سيحدث في اللحظة التالية، وما خاف منه حدث فعلًا عندما احتضنه الحاج عبد المجيد بود قاتل، ربت على ظهره بيد كانت تحمل الطعمية منذ ثوان، ووسط دموع انفجرت فجأة وفتات الخبز والفول والمخلل المتناثرة مع كلماته قال: "الغالي ابن الغالي، منور يابني والله، تعالى اقعد اتفضل". ورغم ذلك لم يفلته ليقعد إلا بعد مزيد من الثواني اعتصره فيها أكثر قبل أن يطلق سراحه، ليجلس كلاهما بعدها لاهثًا.

أول ما فكر فيه الرجل أن الفتى بالتأكيد لم يتناول الطعام منذ وفاة أبيه، يبدو عليه هذا بوضوح، مد يده برغيف عملاق إلى الفتى وبلهجة آمرة قال "كل"، حاول حمدي الرفض بأدب ولكن الدعوة كانت كاسحة، لم يكن هناك مجال للرفض، مضطرًا اقتطع لقيمات غمسها في الفول وأكل متهملًا حتى ينتهي من هذا الموقف بأي شكل.

بعد تناول الطعام الإجباري، والشاي الإجباري، والكثير من ذكر المرحوم مع الدموع وفتات الطعام المتناثرة، تكلم الحاج عبد المجيد.

"إزيك يابني؟ وإزي أمك والبنات أخواتك؟ (لا يتوقف عن الكلام منتظرًا لرد) عاملين إيه من بعد ما أبوك الحاج ربنا افتكره؟ الله يرحمه كان ابن حلال والله.. كنا أكتر من الأخوات والله، الحمد

لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، أنت أخبارك إيه؟ وأمك والبنات؟ أكيد مفلوقين في العياط طول الليل والنهار على أبوك، يا حول الله يارب، معلش يابني، قدر ومكتوب حنعمل إيه.. وأنتو أخباركم إيه؟ يارب تكونو بخير.. أنت زي ابني.. وأخواتك دول بناتي والله، وأنا عارف الحال والدنيا، أبوك مكنش بيخبي عني حاجة، الله يرحمه كان ابن حلال، كنا أكتر من الإخوات والله. المهم يعني أنا عارف معاش أبوك مش حيعمل حاجة، الدنيا صعبة والعيشة بقت غالية، وأنت كبرت ما شاء الله وبقت راجل أهو، عندك كام سنة دلوقتي ياوله؟ 18؟ 19؟ ما شاء الله عليك، راجل ويعتمد عليك"

توقف عن الكلام لثوان ليشرب من ال"كوز" البلاستيكي الأخضر الممتلئ بالماء إلى جواره، حمدي ما زال صامتًا، يفكر بسرعة محاولًا استخراج جملة منطقية ذات معنى واضح من كلام الحاج عبد المجيد، فهم معاني كلمات تولستوي الملتوية في الحرب والسلام كان أكثر سهولة من فهم كلمات الحاج عبد المجيد. ينتظر مستمعًا، لا بد أن الجزء الخاص بإرث أبيه الراحل قادم، سيتكلم الآن الحاج عبد المجيد عن الملك الذي أنقذه أبوه من الموت.

أخرج ظرفًا أبيضًا من درج مكتبه، "كنا عاملين جمعية صغيرة كدة بألف جنيه، حاجة على القد بخمسين جنيه في الشهر، وأبوك كان معانا، ومعاد قبضه كمان شهرين، خد يابني الألف جنيه بتوع أبوك، وملكش دعوة بالشهرين الجايين، أنا حدفعهم مكانه، أبوك الله يرحمه كان ابن حلال.. كنا أكتر من الإخوات

والله. أنت يابني ناوي تعمل إيه دلوقتي؟ حتشتغل أكيد عشان تساعد أمك والبنات. صح؟ أنت بقيت راجل ويعتمد عليك، حتشتغل إيه بقى؟".

لم يرد على السؤال متوقعًا أن الرجل سيكمل كلامه دون توقف كالعادة، ولكن الرجل صمت لأول مرة ونظر له متسائلًا منتظرًا منه إجابة. رد متلعثمًا محاولًا إيجاد كلمات مناسبة: "آه.. إمم.. لسة مش عارف، آآآآ.. أنا بدور أهو، يعني.. بحاول أشوف حاجة تنفع مع الكلية".

"لأ لأ لأ كلية إيه يا راجل دلوقتي، أنت دلوقتي راجل وراك مسؤولية، الكلية حتعملك إيه يعني؟ بلاش كلام فاضي، أنت محتاج شغل حقيقي تاكل منه عيش أنت وأهلك، أنت محتاج وظيفة. شوف يابني، وظيفتك عندي، أنت حتتعين معانا في الهيئة هنا"

أين هو الملك الذي سيرد الجميل؟ أين الإرث؟ رغم أن كلمات الحاج عبد المجيد الأخيرة متوقعة ومنطقية جدًا، إلا إنها لم تخطر على خيال حمدي الذي ما زال حالمًا، ما زال في انتظار الحلول السحرية، الحلول السحرية لا تتضمن غالبًا كلمات مثل "الوظيفة، الهيئة، تاكل عيش أنت وأهلك".

"أنت حتتعين معانا هنا، كمساري"

سكت الرجل متوقعًا إجابة، منتظرًا شكرًا من الفتى ودعوات بدوام الصحة والبركة، ابتسم ونظر إلى الأرض في تواضع منتظرًا سيل الشكر والثناء، لكن الصمت كان كل ما ناله.

"مرتبك مش حيكون زي مرتب أبوك بس حيكون أعلى من مرتب أي حد متعين جديد، الناس هنا بتحب أبوك وعايزين يساعدوا بأي شكل وحيكرموك في المرتب، وسنة ولا اتنين وتترقى ومرتبك يزيد، مع معاش المرحوم حتمشي الأمور، وكلها كام سنة وأخواتك يبقو عرايس، وعرسانهم عندي"

النظرة الغريبة في عيون حمدي أوقفت الحاج عبد المجيد عن الاسترسال، هناك شيء مرعب في نظرته، حوقل في سره ومد يد محاولًا ألا تظر ارتعاشتها إلى كوز المياه الأخضر ليشرب منه القليل ثم أعاده إلى مكانه، ظل صامتًا ناظرًا إليه في خوف منتظرًا أي رد فعل. استمرت اللحظات المربكة لثوان مرت كساعة كاملة توقف فيها كل من في المكتب عن الحركة والحديث منتظرين رد فعل من الفتى ذي النظرة المخيفة. ثم هب حمدي واقفًا فجأة، واندفع خارجًا من المكتب.

"شوف الواد قليل الأدب؟" قالها موجهًا الحديث لزملائه في المكتب. "بقى أنا أعرض عليه وظيفة حكومية محترمة، وهو يسيبني ويمشي كده؟ أبوه الله يرحمه رباه كويس بس هو نبتة غير صالحة، الله يرحمه محمود كان ابن حلال، كنا أكتر من إخ."

قطع كلامه دخول حمدي المفاجئ للمكتب، صمت الحاج عبد المجيد مرتعبًا، كل العيون اتجهت صامتة تجاهه، اندفع نحو المكتب والتقط المظروف الأبيض بحركة عنيفة، وخرج مرة أخرى.

* * * *

"إرث الحاج محمود الكمساري"

قالها ساخرًا وهو يتأمل نفسه في المرآة، مرتديًا للمرة الأولى السترة الرمادية المميزة لمحصل تذاكر ترام المدينة الأصفر. فكرته الحالمة قبل زيارة الحاج عبد المجيد لم تكن خاطئة كليًا كما اتضح، الرجل كان يعمل فعلًا على توصيل إرث زميله الراحل لابنه الذي رفض بعناد تسلم إرث أبيه. خرج ثائرًا لاعنًا حظه النحس والظروف التي اجتمعت ضده وضد أحلامه، لاعنًا الحاج عبد المجيد وأسرته البائسة وحتى أبيه المتوفي، أينتهي به الأمر كمساريًّا! لطالما كره وظيفة أبيه، لم يعترف لنفسه بهذا أبدًا لأنها فكرة ستشعره بالسوء تجاه نفسه، كان يحب أن يحتفظ بفكرة أنه يفخر بوظيفة أبيه الكادح وأصله المتواضع، ويردد دومًا شعارات رنانة حالمة تمجد هذه الفكرة، لكنها كانت حقيقة دفينة في أعماقه، يكره مهنة أبيه ويخجل منها ويتحاشى ذكرها أمام أصدقائه دومًا، والآن يريدونه أن ينتهي به الأمر إلى حيث ما كان أبوه، عليهم اللعنة جميعًا.

الأيام التالية للقائه بالحاج عبد الحميد مرت في محاولات يائسة لإيجاد وظيفة أخرى كلها انتهت بنتائج مشابهة لمحاولته الأولى في مكتبة الأدوات المدرسية، البحث عن وظيفة فن لا يجيده، وغضبه المتصاعد وحنقه على الجميع لا يساعده على ترك انطباع جيد عند من يحتمل قبوله للعمل لديهم، حتى النقود التي أخذها من الحاج عبد المجيد وأعطاها لأمه على أمل أن تبتاع له بعض الوقت أعلنت أمه أنها انتهت بعد أربعة أيام

فقط، وعندما ثار متسائلًا عن الكيفية التي صرفت بها مبلغًا كبيرًا في وقت محدود مثل هذا، تحدثت الأم عن سداد الديون التي خلفها الأب قبل وفاته وفي مصاريف الدفن والعزاء، حجة مقنعة لكنها لم تقنعه ولم تهدئ من غضبه، في النهاية وافق يائسًا على قبول الوظيفة، وأصبح حمدي كُمساريًا.

الساعة الآن هي الخامسة فجرًا، يفترض أن يبدأ يوم عمله الأول باستلام ورديته الأولى في تمام السادسة صباحًا من جراج الترام في محرم بك. اليوم هو أول أيام الفصل الدراسي الثاني، منطقة محرم بك تعج بعشرات المدراس من جميع المراحل، والترام هو وسيلة التنقل الأساسية لآلاف من الطلبة والمدرسين. بابتسامة ساخرة ردد أمام المرآة وهو يشير لانعاكسه بسبابتيه "استمتع بأول يوم شغل"، ثم خرج.

غيوم فبراير لم تسمح بعد للشروق بالاكتمال، يعج الجو بضباب غير كاف ليسبب انعدام الرؤية، لكنه كاف ليضيف لمحة درامية على لحظة حاسمة في حياته، تفاصيل الشارع الفارغ من المارة والسيارات تبدو واضحة إلى حد ما، وكأنك تنظر إليه خلف زجاج متسخ. الهدوء غير معتاد، صمت تام يسود الأجواء، صمت غريب حتى على الخامسة فجرًا، وكأن الغيوم امتصت كل الأصوات من الأرض. مشى بهدوء واضعًا يديه في جيوبه بحثًا عن قليل من الدفء، من فمه تخرج سحابات بيضاء صغيرة وتختفي بسرعة مع كل زفير. متى كانت آخر مرة خرج فيها مبكرًا في مثل هذا الوقت؟ لم يكن هذا بعيدًا، اعتاد أن يفعل كل يوم تقريبًا، كانا يلتقيان يوميًا في السادسة صباحًا، ينعمان بساعتين

أو يزيد لهما وحدهما قبل وصول الآخرين، كان يخرج يوميًا في نفس الموعد مهما كان سوء حالة الجو، مجرد فكرة أنه سيراها كانت حافزًا كافيًا له ليطرد النعاس من عيون لم تنل منه الكفاية، ويخرج نشيطًا متحمسًا تحت عواصف من المطر، لم تخلف موعدها من قبل.

أدرك بغتة أن الآن هي المرة الأولى التي يفكر فيها أو يذكرها حتى منذ فترة طويلة، لم يسمع صوتها منذ مكالمة العزاء المقتضبة، كيف لم يسمع منها وعنها أي شيء بعدها؟ هل تجاهلته أم نسته؟ أدرك أنها لم تخطر حتى على باله منذ أن خرج للمرة الأولى بحثًا عن عمل، هذا غريب حقًا، في المعتاد لم تكن تخرج أبدًا من رأسه، كان صوتها دومًا يغرد في خلفية أفكاره طول الوقت، كيف ابتعدت بهذه السهولة؟ أين هي الآن يا ترى؟ بالتأكيد ما زالت نائمة، لا يوجد سبب تستيقظ لأجله في السادسة، لا يوجد من ينتظرها على سور البحر بالقرب من الكلية، أو ربما يوجد الآن من يفعل؟

أصابت حلقه غصة عندما تخيلها مع شخص آخر، تذكر بمرارة أنه لن يعود هناك أبدًا، انتهت حكايته السعيدة وتبدأ الآن أخرى بائسة. لا مزيد من ذات الضفيرة ولا مزيد من الحياة الجامعية والمستقبل المشرق، لا كتابة ولا شهرة ولا نجاح، هو الآن حمدي الكمساري، فقط لا غير.

هواء الفجر البارد والضباب وضوء الشمس الشحيح، والسترة الرمادية، وحالة رثاء الذات والغضب المتصاعد، كلها عوامل ساهمت في إخراج الدموع من عينه. لم يكن من النوع غزير

البكاء، بكى في مناسبة أو في أخرى من قبل، لكن بكاء رثاء الذات طعمه أشد مرارة من أي بكاء. لم يحاول جمح بكاءه، ارتفع صوته وغزرت دموعه، صرخ وشخر وسب ولعن، شعر بالكره اللا نهائي لكل الخلق، لا يوجد على الأرض في هذه اللحظة من يكن له حمدي أدنى حب أو اهتمام.

ظهر في الأفق بعض المارة، رؤياهم جعلته يتماسك، أوقف بكاءه ومسح دموعه وانتصب في مشيته، توقف عن البكاء ولم يتوقف أبدًا عن الغضب والكره ورثاء الذات.

كل العاملين بجراج ترام محرم بك كانوا يعرفون جيدًا الحاج محمود رحمة الله ويحبونه، ويذكرون جيدًا كلماته عن ابنه المثقف الذكي الذي سيصير "حاجة كبيرة" يومًا ما، كلهم أيضًا علموا بحكاية الفتى مع الحاج عبد المجيد والظروف الدرامية التي حتمت عليه القبول بالوظيفة، لذا لم يتوقع أحدهم منه البشاشة أو يستنكر آخر ملامحة الجامدة ونظرته الغاضبة الكارهة، أشفقوا عليه وتعاطفوا معه وعلموا أن الأفضل أن يتركوه لحاله في يومه الأول، لم يفتح أحدهم حديثًا صباحيًا ودودًا أو حتى ألقى كلمة ترحيب، لم ينصحوه بالنصائح المعتادة التي تُتلى على الزملاء الجديد التي تتعلق بكيفية بالتعامل مع الجمهور. ساد الصمت فور ظهوره، أعطاه الموظف المسؤول حصته من التذاكر والأوراق اللازمة، وأشار إلى الترام الذي ستبدأ عليه ورديته بعد قليل.

اتجه حمدي إلى الترام المشار إليه، صعد سلمه المعدني ببطء، وخلف مكتب التحصيل الخشبي الضيق جلس ووضع أمامه

التذاكر بينما يتحرك الترام خارجًا من الجراج، ولم يمض على مجلسه الكثير قبل أن يركب الراكب الأول، ويقطع أول تذكرة.

* * * *

كشريط سينمائي يلعب على وضع التسريع إلى الأمام مرت حياة حمدي، تشابهت الأيام كلها عليه بعد استلامه مهام وظيفته، مرت السنوات بسرعة على الفتى الذي زاد عمره عشرين سنة في يوم عمله الأول فقط، يقضي نصف اليوم الأول في الترام بين زحمة الطلاب والموظفين والمتهربين من الدفع والنشالين والمتحرشين، يقضي أغلب يومه في الشجار بداع أو دون مع الناس، بعد شهور طلب تغيير ورديته اليومية لتصبح في المساء، مديروه في الشغال كانوا يتلقون يوميًا العديد من الشكاوي من الكمساري الغاضب المتجهم الذي يفتعل الأسباب ليتشاجر مع المواطنين، لذا قوبل طلبه بالترحاب وأعطوه وردية السابعة مساءً، حيث يقل الركاب ويهدأ الطريق وتقل أسباب شجاراته.

في وردية الليل وجد بعض السلام، الهدوء لا يعم الكون لكن بالتأكيد أفضل بعشرات المرات من ضجيج ساعات النهار القميئة، يقضي ورديته جالسًا في مقعد التحصيل الخشبي جوار باب الصعود في العربة الخلفية للترام، في يده سيجارة مشتعلة دائمًا وعيناه بين دفتي كتاب، لا يرفعها عنه إلا نادرًا.

مرت السنوات بسرعة، تزوجت كبرى شقيقاته من أحد أبناء الحاج عبد المجيد، تبعتها الوسطى التي تزوجت ابنًا آخر للرجل، أما الثالثة عندما بلغت سنًا مناسبًا للزواج تولى الحاج

عبد المجيد بنفسه إيجاد عريس مناسب لها، لأنه لم يعد لديه مزيد من الأبناء الذكور. "دول زي بناتي، وأنا والمرحوم كنا أكتر من الإخوات والله".

وبعد اطمئنانها على بناتها الثلاث قررت الأم العجوز تركيز مجهوداتها على إصلاح حياة ابنها الذي تجاوز الثلاثين، قررت أن الوقت حان ليتزوج، وهذا ما رفضه حمدي بالطبع. ولكن الأم تؤمن أن علاج بؤس ابنها لن يكون إلا "لما تجيله بنت الحلال الحلوة وتملى عليه البيت عيال، هو الراجل عايز إيه من الدنيا غير أنه لما يروح ياكل لقمة حلوة مع عياله وينام في حضن مراته؟".

تعرف الأم جيدًا ماذا تفعل وتفعله جيدًا، لم يمض وقت طويل حتى أقنعته أن يتزوج، ساعدها على هذا احتياجاته الفسيولوجية التي لم يحيِّدها مرور الزمان. لم يمر وقت طويل قبل أن يجد نفسه في بذلة عرس رخيصة، جالسًا أمام مأذون في مسجد، واضعًا يده تحت منديل في يد خال العروس يتيمة الأب، والمأذون يلقنه ما يقول ويردد وراءه بفتور واضح. العروس في فستان أبيض متواضع جالسة بين أمها والحاجة سمية، تتمتع العروس بجمال لا بأس به أبدًا، ولكنه جمال لا يمنع أن يكون الانطباع الأول لمن يراها أن "البنت دي عبيطة"، وهو ما قالته كبرى شقيقات حمدي هامسة في أذن أمها، وأتبعت قائلة: "حمدي مش حيستحملها يومين على بعض يا ماما".

نهرتها أمها بعنف قائلة: "بس اسكتي يا هبلة أنتي، عبيطة ولا دكتورة حتفرق إيه؟ الراجل مش عايز غير وش حلو لمراته يصطبح بيه وينام عليه".

هزت الفتاة رأسها في عدم اقتناع ولكنها كانت أذكى من أن تجادل أمها، فقط تمتمت بالدعوات لله ليريح بال أخيها البائس.

3

ثم كان ما كان في هذه الليلة، كان هذا في 2006 ربما أو 2007، لا أحد يذكر متى بالضبط.

إنها الحادية عشرة مساءً، ليلة عادية جدًا لا تختلف عن مثيلاتها.

الترام شبه فارغ، باستثناء عجوز يغط في النوم وسيدة في عباءة سوداء وطرحة وردية تتأمل الطريق من شباك مكسور الزجاج، لا يوجد ركاب آخرون في العربة الأولى. خلف مكتب التحصيل الخشبي قبع حمدي غارقًا بكل كيانه في كتابه المفتوح بين يديه، وعيه الكامل انتقل إلى طرقات باريس العفنة في القرن الثامن عشر، حيث تدور أحداث رواية باتريك زوسكيند "العطر – قصة قاتل". يقف الترام في المحطة، ويصعد راكب وحيد.

أنواع المخدرات كثيرة، لكن مثل كل شيء في الزمن الحالي أغلبها "مضروبة"، يفترض أن الحشيش مخدر مهدئ مريح للأعصاب، لا يسبب أي انفعال من أي نوع لمتعاطيه، لكن تجار الحشيش معدومي الضمير يخلطونه بحبوب مخدرة لمضاعفة الحجم وزيادة المبيع، ما يؤدي إلى عكس التأثير المهدئ اللطيف لسجائر الحشيش وتحويله إلى جنون وانفعال غير طبيعيين، و يبرر سلوك الراكب العدواني الغريب.

أثار ضوضاء غير طبيعية بخطواته على درجتي السلم المعدنيتين، ضوضاء كانت كافية لإخراج حمدي من روايته والاستعداد لمشاحنة ستصنع ليلته، أخرج الراكب عملة معدنية ألقاها بإهمال على حمدي لترتطم بأنفه قبل أن تقع على الأرض وترن في صوت مسموع، سبق غضب حمدي ذهوله، لم يعامله أحد بهذا الأسلوب الحقير من قبل، أخرج صوتًا اعتراضيًا حلقيًا طويلًا ردًا على إهانة الراكب المعتدي، ليصرخ فيه هذا الأخير بصوت يتضح فيه تأثير المخدرات:

"أنت بتشخرلي يابن اللبوة؟"

من قضى جزءًا من عمره في الشارع يعلم قاعدة مهمة جدًا في مواجهة أي بلطجي مسلح، البلطجي الواعي المدرك لما يفعله لا يقتل أبدًا إلا للضرورة القصوى، في المشاجرات اليومية يضرب فقط بغرض إحراز "علامة"، جرح في الوجه أو في الذراع يمثل علامة كافية لإعلان انتصاره، بينما يتفادى الطعنات القاتلة دومًا، طعنة قاتلة قد تؤدي به إلى سجن مؤبد وربما إعدام، لكن البلطجي المخدر لا يدرك ماذا يفعل ويضرب دون تفكير، ويمكنه أن يقتل بمنتهى السهولة. يعلم حمدي هذا جيدًا بحكم سنينه التي قضاها في الشارع، لكن هذا لم يمنع غضبه المتصاعد حتى حافة الجنون بعد سماعه سباب أمه، الغضب الذي أعماه عن المطواة المرفوعة بينما يقفز من خلف مكتبه متعلقًا هاجمًا على الراكب.

"بتشتم أمي يابن الكلب، أنا هطلع ديك أمك"

لم يكن الراكب الغائب عن الإدراك ضخمًا، لكن حمدي كان ضئيلًا ونحيفًا بشكل ملحوظ، ولا يتمتع بأي قوى خاصة –إلا إذا اعتبرنا غضبه المستمر بلا انقطاع قوى خارقة- وخبراته في الشجار لا تتعدى السباب والصراخ الذي ينتهي عادة بتجمع المارة لتفريق المتشاحنين، بيد أنه لم يهتم لضآلته وقلة خبرته ومطواة الطرف الآخر بينما يهجم عليه مطلقًا لطمات ثلاث متتابعة في وجهه بكل قوته، لطمات ثلاث لم يبد لها أي تأثير على المهاجم المُخدر الذي تلقاها دون أن يشعر حتى بالألم، وإن ارتبك للهجوم المباغت وتأخر رد فعله، قبل أن يستعيد توازنه ويطلق مطواته بأول طعنة لتصيب أعلى ذراع حمدي بجرح طولي عميق.

الجرح المفاجئ ومرأى الدم يغرق ذراعه أفاقا حمدي من انفعاله، أدرك مذهولًا أن الطعنة القادمة قد تعني موته. قد يكون حانقًا دومًا على الحياة والناس والرغبة في الموت تراوده من حين لآخر، ولكنه لم يكن مستعدًا للموت عندما خرج من بيته في هذه الليلة، ليس بهذه الطريقة على الأقل. نظر إلى المعتدي يتراجع استعدادًا لإطلاق طعنة تالية، لا مجال للهروب من مرمى الضربة، هجم عليه مطلقًا لطمة رابعة متمنيًا أن تربحه بعض الوقت ريثما يقفز من الترام أو شيء من هذا القبيل، أصابت لطمته وجه الرجل قبل أن تصله المطواة و.. لطمة ناجحة؟

انهار الرجل ووقع على أرض الترام المتحرك مكومًا كجوال من البطاطس، ذهل حمدي، هل كانت ضربته بهذه القوة فعلًا؟

رفع يده ليتأمل قوتها الخارقة المباغتة بمزيد بدهشة، فقط ليرى السيدة ذات الطرحة الوردية واقفة خلف الجثة المسجاة على الأرض وفي يدها فردة شبشب نسائي ذو كعب ضخم.

* * * *

لم تختلف زينب عن أي فتاة، كانت فتاة عادية جدًا، لم يكن فيها ما يميزها ولم تحمل أيضًا ما يعيبها، لا في طباعها ولا في مظهرها، ملامح وجهها كانت متناسقة، مليحة، مريحة للناظرين، لكن صورتها سريعة التبخر من الأذهان إذا انصرف الناظر عنها لدقائق، جسدها كان يحمل من الأنوثة قدرًا لا بأس به، لم تكن نحيفة ولا ممتلئة، ولكن ملابسها البسيطة لم تظهر من أنوثتها الكثير، ولم تطفئها أيضًا، حتى في طباعها كانت أميل للهدوء، حضورها غير محسوس، ينسى الحاضرين بسهولة وجودها. ولم يكن هذا ليضايقها، هي لا ترغب في الظهور واحتلال قلب بقعة الضوء، هي فقط تظل ساكنة إلى أن يدعوها أحد للانضمام، وقلما كان ذلك يحدث.

أسرتها كانت متوسطة الحال، أبوها موظف حكومي يعمل في هيئة ما صباحًا، وبعد العصر يقف بائعًا في كشك حلويات وسجائر يملكه بالقرب من محطة القطار (محطة مصر) على سبيل تحسين الدخل، أمها ربة منزل، لها أخان من الذكور، أحدهما أكبر منها والآخر مراهق.

تخرجت الفتاة في كلية التجارة وتنقلت بين وظائف بسيطة، سكرتيرة في مكان ما وموظفة استقبال في آخر، لا فارق، الوظيفة

ليس لها فائدة سوى تضييع الوقت وإضافة بضعة قروش تساعد على مرور الحياة اليومية، عاجلًا أم آجلًا سيأتي العريس المرتقب وتتزوج وتمضي حياتها وتتحقق أحلامها، أحلامها التي لا تزيد عن عريس وسيم وفرح كبير، وربما شقة واسعة جميلة لها وزوجها وحدهما.

وظيفتها الأخيرة كانت سكرتيرة في مكتب صاحب شركة استيراد وتصدير، واحدة من هذه الشركات البسيطة التي يقع مقرها في شقة ضيقة تضم أربعة مكاتب وخمسة موظفين وعامل بوفيه، يندر أن يحضر فيها أكثر من 4 أشخاص في نفس الوقت.

في ذلك اليوم تأخر الوقت وقاربت الساعة السابعة مساءً، موعد ذهابها مر منذ ساعتين لكن مديرها وصاحب الشركة كلفها بأعمال مهمة، لم تعارض لأن قروش وقت العمل الإضافي هي قروش مفيدة، بالإضافة إلى أن عودتها إلى المنزل لن تحمل لها الراحة مثلًا، هناك دومًا أعمال منزلية تفوق وظيفتها تعبًا. انغمست في عملها ولم تلاحظ أنه لم يعد في الشقة سواهما، هي والمدير. وهو رجل تعدى عمره الخمسين ببضع سنين، بيد أن هذا لا يبدو جليًا على هيئته الضخمة موفورة الصحة، ونظرات عينيه التي تتفحص أي أنثى دومًا كوجبة شهية جاهزة للآكلين. لم تكن زينب مستثناة من نظراته المنحرفة لكنها تعودت ألا تبالي، لو ابتعدت هاربة من عيون الرجال منحرفي النظرات لما خرجت من منزلها أبدًا، ترك الوظيفة والاستغناء عن مرتبها في انتظار عريس تأخر وقد لا يجيء هي رفاهية غير متاحة، المرتب

المحدود يصنع فارقًا حقيقيًا في بيتها، طالما لم تتجاوز الأمور نظرات صامتة فالحياة تمضي.

أفاقت من انكبابها على الأوراق أمامها على صوت نحنته، لتفاجئ به جالسًا على الطرف الآخر من المكتب، يبتسم في لزوجة قبل أن ينطق بشيء ما، لم تميز في كلماته غير الواضحة سوى أنه يسألها عن حالها أو ربما حال أسرتها، كلماته ضائعة وصوته غريب، هو مخمور ربما؟ أو واقع تحت تأثير مخدر ما؟ هي لا تعلم الفارق، في جميع الأحوال هو في حالة غير طبيعية، نظراته المنحرفة الصامتة لم تعد صامتة. متوترة، ردت على سؤاله بغمغمة غير واضحة عن أن كل شيء بخير، أمنيتها أن ينهي ردها هذا الموقف المريب ليمضي الرجل ذاهبًا لم تتحقق، استمر في الأحاديث المفتعلة غير واضحة الجمل والكلمات، عيونه تتقافز باحثة عن أشياء لا يراها لكنه يعلم أنها موجودة ويرغب مستميتًا فيها.

هي تعلم كيف تحدث هذه الأشياء، قرأت عنها الكثير في صفحات الحوادث وسمعت عنها من حكايات القرينات وأحاديث المذيعة الشهيرة في البرنامج التليفزيوني، كيف يحاول الرجل في البداية الملاطفة بالكلام، كيف يحاول لاحقًا مد يده باحثًا عن أشياء بعينها، كيف تصرخ الفتاة وتجري محاولة الهرب، كيف يثير صراخها جنونه فيهجم عليها مكبلًا حركتها كاتمًا صرختها، كيف يحاصرها ويضغطها لتواجه عيونها الحائط بينما يعبث بها من الخلف.

صراخها لم يتعد أعماقها، يمناه كانت تتأكد من كتم فمها، كانت يده ضخمة فكتمت أغلب وجهها، حتى التنفس كان عسيرًا ولا يتم إلا من خلال الفراغات الضئيلة بين أصابعه المتعرقة، لهاثه الساخن أغرق رقبتها عبر بلوزتها التي مزقها بالكامل. محاولاتها للهروب كانت عبثية، لكنها عادت بنتيجة مهمة، اكتشفت أن يديها حرَّتا الحركة! يسراه تشاغلت عن تكبيل يديها بالعبث في ما طالته منها، ماذا تفعل بيدها الحرة؟ تكوير قبضتها ولكمه كان أشبه بلكم حائط خرسانة، كانت ضعيفة وكان كالثور، لكماتها الحانية رغم أنفها أثارت ضحكه وزادت من عزيمته، دموعها أغرقت أصابعه التي تحاصر وجهها، شعرت بالعجز التام ورغبت في أن تموت في هذه اللحظة.

كانت على شفا فقدان الوعي عندما أصابت يدها التي تتحرك بلا هدى في الهواء طرف مكتبها، أعاد لها هذا الاكتشاف الانتباه الكامل، حركت يدها بجنون على سطح ما طالته من المكتب باحثة عن أي شيء يمكن أن يساعدها، الكثير من الأوراق قابلت يدها، الأوراق التي أفنت الساعات السابقة من عمرها مدققة في كل حرف فيها بناءً على طلب الثور الذي يغتصبها الآن، ألقت الأوراق بعصبية واستمرت في البحث، لتلمس يدها قلمًا.. قلم رصاص، مدت يدها بأقصى قوة حتى استطاعت الإمساك به، شعرت بامتنان لا نهائي لعادتها القديمة في الاحتفاظ بأقلامها الرصاص مبرية وحادة باستمرار، كانت تفعل ذلك لأنها تبدو أكثر أناقة، لكن الأناقة ليست ما يهم الآن.

بيد قابضة على القلم طوحت ذراعها تجاه الخلف، أملها في أن يلتقي سلاحها ما يصيبه تحقق، أدركت هذا من خوار الخرتيت الذي الذي يكبلها والسائل الدافئ على قبضتها، وتوقف اليد العابثة فيها عن العبث لتتصلب ممسكة إياها بقبضة من حديد، الضربة الثانية اخترقت مثلما فعلت الأولى ولكنها لم تُلِن من القبضة ولم تحرك الثور الذي ازداد ثقلًا عليها، لكن الضربة الثالثة –فكرت أنه لا بد أن القلم كان من نوع جيد حقًا، فالأقلام العادية ستتحطم مع الضربة الثانية في الأغلب- ألانت القبضة ودفعته إلى الخلف، قبل أن يسقط على الأرض بصوت مدو غارقًا في بقعة دماء دائرية تتسع حوله بشكل مطرد، تحررت أخيرًا لتلقطت أنفاسًا ثمينة غير ملوثة بعرق أنامله القذرة، استدارت لتلقي نظرة عليه لم تدم لثوانٍ، قبل أن تحيد بنظرها في فزع عن الجسد الملقى النازف ذي العيون الذاهلة والخوار المستمر.

فكرت للحظة أن تطلب له المساعدة، إسعاف أو شيء من هذا القبيل، ولكنها فكرة لم تدم، لم تجد في نفسها الشفقة الكافية لتفعل، ناهيك بأنها إن فعلت لم تكن لتدري ماذا تقول، "لو سمحت ممكن إسعاف؟ أنا خرمت الراجل 3 مرات بالقلم الرصاص وهو غرقان في دمه، ممكن تيجو تنقذوه؟".

حسنًا، ماذا تفعل الآن؟ لم تعلمها أمها كيف تتصرف بعد أن تطعن من حاول –وكاد ينجح- في اغتصابها، هذه خبرات تحتاج إلى تعلمها بنفسها، غريزتها أخبرتها أنها يجب أن تخرج من هنا،

البيت، البيت، البيت، يجب أن تعود إلى البيت، حضن أمها هو الحل بالتأكيد.

كادت أن تخرج مسرعة قبل أن تدرك قبل أن تخرج بلحظة أن نصفها العلوي لا يكاد تغطيه أي ملابس، والدماء تغرق قبضتها وظهرها العاري، هرعت إلى الحمام لتغسل ما تستطيع من آثار الدماء لتفاجأ بهيئتها في المرآة، صرخت مرتعبة وبكت، لكنها كتمت بكاءها خوفًا من أن يسمعها سامع ويأتي من يبحث عن سبب للبكاء. أزالت ما استطاعت إزالته من الدماء عن جسدها ويدها، غسلت وجهها من آثار دموع وبكاء ولعاب من ينزف على الأرض في الخارج، أدركت أن تنورتها تكاد تكون سليمة ومحكمة الغلق، تنورتها سوداء مظلمة لا تبدو عليها آثار الدماء إلا لمن يعلم أنها هناك ويبحث عنها بعين متفحصة، خرجت من الحمام باحثة عما تستر به نفسها، دخلت مكتب من ما زالت تتحاشى النظر إليه وتغض السمع في تعمد عن أصوات ما يبدو وكأنه خروج للروح، بحثت في كل مكان، فتحت الدولاب الخشبي الوحيد في الغرفة، وجدت بين مجموعة من الملابس الملعقة بعناية معطفًا جلديًا شتويًا ضخمًا، غير مناسب للجو الربيعي المعتدل لكنه مناسب جدًا للإحاطة بها وتغطيتها بالكامل. كفنت نفسها بالمعطف حتى لم يعد يبدو منها سوى عيون وما فوقها من مقدمة الرأس، وخرجت.

لم تلتفت في طريق عودتها إلى تعليقات المستظرفين على مظهرها الغريب، لم تسمعهم حتى، لم تكن واعية لنفسها ولم يكن في عقلها أي فكرة ثابتة واضحة الملامح، كان عقلها هائمًا

تائهًا مصدومًا، لكن غريزتها قادت خطواتها لتصل في النهاية إلى حضن أمها الذي ارتمت فيه باكية.

استمرت في بكاء هستيري لساعات دون أن تنطق كلمة، أمها تشاركها البكاء وتربت عليها في فزع غير مدركة لما أصاب ابنتها، بينما يحاول والدها وأخواها استنطاقها بلا جدوى، لم يطل الوقت قبل أن يقرر الأب وابنه الأكبر أن يذهبا إلى مقر عمل ابنتهم لتحري ما أصابها، لكن وصول الشرطة المباغت لم يعطهم الفرصة ليفعلوا.

اقتحام الشرطة للبيت وانتزاعهم ابنتها من حضنها لم يكونا في خطة أم زينب لمستقبل ابنتها، محاولتها لفهم ما يحدث باءت بالفشل، فكان فقدان الوعي اللحظي حلًا أسهل من متابعة ما يحدث. لم يملك الأب رفاهية فقدان الوعي، أمر ابنه أن يعتني بأمه بينما حاول باستماتة الحديث مع الضابط أو أي من أمناء الشرطة والمخبرين المتجاهلين تمامًا لكلماته وصرخات الفتاة التي كُبلت يداها بالأصفاد المعدنية، بأقدام حافية وبيجامة منزلية قديمة جرى وراءهم على السلم متوسلًا الرد، قبل أن يرد عليه أحد المخبرين كمن يبصق في وجهه، "بنتك الوسخة قتلت الراجل، خرمته وقطعتله بتاعه، ربو عيالكم الأول بدل ما ترجعو تعيطوا زي العيال، عالم وسخة".

عرفت في القسم أن طعناتها المتعددة كلها أصابت الرجل في عانته، التي كان قد عراها استعدادًا للمرحلة التالية من الاغتصاب، عرفت أنه نزف حتى الموت، عرفت أن أحد أبنائه مر على شركه أبيه بعد ساعات ليجده غارقًا في بحيرة حمراء

مركزها نقطة محددة في نصفه السفلي. الجريمة أصبحت مادة محببة للحديث لكل العاملين بالقسم، حتى غير المكلفين بقضيتها تابعوا التحقيق وشاركوا فيه للاستمتاع بالأحداث، كل تحقيق يبدأ وينتهي بمحقق يسألها:

"أنتي ليه ضربتيه في بتاعه؟"

"أنتي مجنونة ومعقدة من الرجالة عشان كده قطعتيهوله؟"

"قطعتي كام واحد قبل كده؟"

ولأن الثبات وقوة الشخصية وصياغة الردود الكاسحة صفات لم تكن أبدًا من سمات زينب المميزة، كان كل سؤال يلقَى عليها من هذا النوع لا يزيدها إلا بكاءً، ويدخلها في نوبات هستيرية من الدموع والصراخ. طالت أيام التحقيق على هذا النحو إلى أن استطاعت بصعوبة بالغة أن تحكي حكايتها وتوضح أنها لم تقتله إلا دفاعًا عن النفس، تحكي أنها لم تتعمد القتل ولم تر أصلًا أين هدف ضربتها، وعندما كادت كفة التحقيق تميل لصالحها قليلًا، لم تعجب أفراد أسرة القتيل رواية أن ربهم قُتل بينما يحاول اغتصاب فتاة، فكان ردهم هو اتهامها بسرقة أموال القتيل ومتعلقاته الثمينة من مكتبة، ودليلهم آثار التفتيش الواضحة في مكتبه ودولابه المفتوح ومعطفه الجلدي المفقود. وعادت زينب لموقع المتهمة في قضية سرقة وقتل متعمد، زينب التي إن شاهدت حكاية شبيهة في فيلم تليفزيوني لما استطاعت إكماله ولطاردتها الحكاية في كوابيسها لشهور.

في عالم أفضل، كان سيوجد طبيب شرعي محترف يثبت صحة حكايتها، ومحققو شرطة خبراء يدركوا كذب ادعاء السرقة والقتل، ومحام ذكي يقظ الضمير ينقذها من سوء المصير. لكن عالمنا قاس للأسف كما نعلم، أسرة زينب البسيطة لم تستطع تحمل نفقة محام سوى أستاذ سيد زميل والدها، موظف الشؤون القانونية في نفس الهيئة الحكومية التي يعمل بها الأب، وعد الأسرة –استنادًا إلى خبرته في القضايا الجنائية المستمدة من المسلسلات البوليسية المترجمة على القناة الثانية- أنه سيفعل ما بوسعه لتعود الفتاة إلى حضن أمها بسلام.

وفي المحكمة كان الأستاذ سيد يواجه طاقمًا من المحامين أقلهم سنًا وخبرة يرتدي بدلة يفوق ثمنها أضعاف مرتب الأستاذ سيد في عام كامل، لتنتهي المحاكمة بالحكم على الفتاة الذاهلة في قفص الاتهام بالسجن المؤبد.

في الأيام التالية صارت حكاية الفتاة الشريرة التي قطعت للرجل الغني محل رجولته لتسرقه وتهرب بأمواله، هي موضوع الحديث الأول في عموم البلاد، يعشق الناس الحديث عن العنف، وعن الجنس، وعن الفضائح وسوء الخاتمة، وحكاية زينب وفرت لهم مادة للحديث تشمل كل هذا وتزيد، لذا لم يكن غريبًا ظهورها على شاشة التلفاز مع المذيعة الشهيرة في برنامجها المعروف باستضافته للمدانين في الجرائم الجنائية العنيفة. تعلم المذيعة الشهيرة ذات الأعين الملونة كيف تحاصر ضيفتها –إن صح استخدام تعبير "ضيفتها" في هذا السياق- بأسئلتها المختارة بعناية لتبدو كل ردود الفتاة وكأنها تحاول مداراة جرمها

المفضوح، والمصور احترف التصوير بزوايا وإضاءة معينة لو استخدمتها في تصوير سعاد حسني ستظهر على الشاشة نجمة إبراهيم، بطلة فيلم ريا وسكينة.

أسرة الفتاة الحبيسة لم تكن تقضي أجمل أيام حياتها، في الأيام التالية للحكم ماتت الأم بنوبة قلبية غير مفاجئة، وكان هذا لحسن حظها فلم تضطر لمشاهدة ابنتها على الشاشة وهي تتحول لأيقونة الجريمة والعنف في البلاد، ولكن باقي الأسرة لم ينالوا من حظ الأم السعيد، الأسرة –أو ما بقى منها- ليس عليهم فقط التعامل مع مأساة ابنتهم المظلومة، بل عليهم التعامل مع مجتمع كامل يؤمن بجرم زينب، ويلعنها ويلعن أهلها في كل مجلس ومقال، سرًا وعلنًا. الأب ظل حتى اللحظة الأخيرة في حياته –التي طال انتظارها خمس سنوات، كانت الأسوأ في حياته بعد سجن ابنته – مؤمنًا ببراءة ابنته، مدافعًا عنها في كل حديث، أما إخوتها فتخلوا عن إيمانهم بعد فترة، الجميع يعلم أن كل ما يقال على التلفاز صحيح لا مراء فيه، إن قالوا إن أختنا قاتلة تقطع أعضاء الرجال وتسرق أموالهم، فهي كذلك. ولكنهم لم يعلنوا رأيهم صراحة أمام أبيهم شفقة عليه، وإن أعلنوه صراحةً وجهرًا بعد وفاته، معلنين تبرأهم الكامل من أختهم القاتلة السارقة عليها لعنة الله.

* * * *

من يتأمل السيدة التي خرجت للتو من بوابة سجن النساء بالحضرة، للوهلة الأولى لن يجد أي صلة بينها وبين الفتاة الحمقاء البائسة تعيسة الحظ التي دخلته منذ ربع قرن، ولا

للوهلة الثانية ولا الثالثة. ربما إن تأملتها لفترة، وتجاهلت آثار الندوب القليلة التي لا تحكي عن رفاهية الحياة اليومية في السجن، والنظرة الصامتة المخيفة، وآثار السنين على وجه أنثوي لم ينل رفاهية استخدام مستحضرات التجميل التي تجعل امرأة خمسينية تبدو كمراهقة، ربما إن تجاهلت كل هذا لوجدت لمحة من تشابه الملامح بين السيدة الممتلئة في الطرحة العباءة السوداء، مع زينب الصغيرة مليحة الوجه. ما زال الأنف دقيقًا، وما زالت العيون مكتحلة حتى مع الهالات السوداء والتجاعيد التي أحاطتها، وما زالت الشعيرات الهاربة من قيد الطرحة المحكم تحكي عن شعر مسترسل ناعم طويل، حتى وإن نال من بعض شعيراته اللون الفضي الأشيب. لكن باستثناء هذا التشابه الملحوظ بصعوبة والاسم ذاته في بطاقة الهوية، لا علاقة بين هذه وتلك أبدًا.

حلمت كثيرًا من قبل بلحظة خروجها، شيدت ما لا يحصى من الخطط والأحلام التي ستتحقق لحظة الخروج، لم يكن عندها الكثير لتفعله في ربع قرن سوى هذا. حلمت كثيرًا بهذه اللحظة منذ أن وطئت قدمها أرض السجن للمرة الأولى، حلمت حتى ملت الحلم، حلمت ونمت الأحلام ونضجت وزهرت وتفتحت وذبلت وماتت، الانتظار الطويل الذي دام ربع قرن في ظاهر الأمر، وقرونًا عدة في باطنه، كان كفيلًا بالقضاء على كل حلم وكل رغبة في دواخلها، حتى عندما حانت لحظة الحرية أخيرًا كانت مفاجأة، مفاجأة غير سارة ولا محزنة، تلقت خبر خروجها بلا أي وقع في ذاتها، وكأن محل نومها سينقل إلى عنبر مجاور في ذات المبنى.

الهواء خارج أسوار السجن لم يختلف كثيرًا عن ما كان بداخله مثلما كانت الأخريات تدعين، ومثلما حاولت أن تقنع هي ذاتها في محاولة غير ناجحة لإثارة الحماس للحظة الخروج. كانت تعلم قبل الخروج أن ليس هناك بالخارج من ينتظرها ولا من يهتم لوجودها أصلًا بالكون، تسامحت مع هذه الفكرة منذ دهور بعد أن تعذبت بها ما يكفي، بيد أن هذا لم يمنع المرارة في حلقها التي أصابتها عندما رأت من خرجن معها من السجينات في أحضان أزواج وأبناء وآباء.

بخطوات بطيئة متمهلة مشت، بالتدريج تداركت أين هي الآن وإلى أين ذاهبة، سجن الحضرة غير بعيد عن بيتها القديم الواقع بالقرب من ترعة المحمودية في محرم بك. تغير شكل الشوارع وعلامات الطرق، خطواتها ارتبكت وسلكت طرقًا ظنت أنها تعرفها لتدرك بعد قليل أنها لم تعد تفعل. إلى أن عثرت على قضبان الترام، كانت العلامة الوحيدة الباقية التي لم تتغير في ربع قرن، القضبان الحديدية القديمة التي تقطع شوارع محرم بك طوليًا ما زالت بوصلة هادية لسكان الحي القديم. تتبعت القضبان الصدئة على الأرض حتى اهتدت.

كان هذا الشارع يومًا حارة صغيرة قليلة البيوت التي لا يتجاوز ارتفاع أعلاها الأدوار الخمسة، لم تفهم كيف ارتفعت البنايات كلها بهذا الشكل المرعب، من أين جاء كل هؤلاء الخلق ليسكنوا جميعهم في هذه المساحة الضيقة فوق بعضهم البعض؟ كادت أن تتراجع ظنًا أنها أخطأت الشارع، ولكن عيونها ميزت البيت القديم، مترنح متهالك مائل بزاوية مخيفة، هو الوحيد القصير

بأدواره الثلاثة وجدرانه المشققة بين الأبراج المخيفة التي تحاصره من كل اتجاه. منذ شهور قليلة –أو سنوات بعيدة، لا فارق في السجن- عرفت من حديث وافدة جديدة للسجن كانت تسكن بالقرب من بيتها، أن شقة والدها لم يعد فيها من يسكنها، فارقها الشقيقان بعد وفاة الأب، هاربين من محرم بك ووصمة العار التي تلاحقهما أينما حلَّا، ترك أحدهما الإسكندرية وترك الآخر مصر كلها، ولم يجدا للشقة مشتريًا نظرًا لوقوعها في بيت قديم متهالك غير مرغوب، فظلت الشقة خاوية مهجورة.

لم يتعرف عليها أحد في الشارع الذي مشت فيه واجلة، لم تتعرف عليها ابنة صاحبة البيت التي أصبحت صاحبته، عندما فتحت باب شقتها في الدور الأرضي لترى من الطارق وتراها، لم تتعرف عليها إلا عندما سألتها زينب عن مفتاح شقة أبيها. لم تفهم في البداية ماذا تعني هذه السيدة الغريبة وأي مفتاح تريد؟ ولكن لحظات من التفكير لم تطل أعادت لها ذكرى الحكاية كاملة، كانت تعلم أن هذه اللحظة قادمة حتمًا وتخشاها حتى الموت، ها هي القاتلة المجرمة عادت من سجنها وترغب في بيتها القديم، "نورتي بيتك ومطرحك ياختي، ثواني أجيبلك المفتاح"، قالتها برعب بدا واضحًا في عينيها، وبدا واضحًا في هرولتها لداخل الشقة بعيدًا عن أعين زينب، متوارية لدقائق قبل أن تعود لاهثة وفي يدها المفتاح، بكلمات متعلثمة قالت لها وهي تمد يدها بالمفتاح:

"يا ألف حمد الله ع السلامة، نورتي بيتك، الشقة زي ما هي فوق محدش عمل فيها حاجة، صنتها بنفسي عشان لما ترجعي لبيتك تلاقيها زي ماهي"

بسهولة عرفت زينب أنها لم تعن حرفًا ما قالت، وفهمت أيضًا أنها تكاد تموت فزعًا الآن منها، لم ترغب في تصحيح أي مفاهيم عندها، لا يهم.. لا شيء يهم، أخذت منها المفتاح وصعدت على مهل درجات سلم متآكل للدور الثالث، تتابعها نظرة صاحبة المنزل التي ما إن اختفت زينب عن أفق بصرها حتى هرولت لداخل شقتها مغلقة خلفها بابها بالمفتاح، ثم بدأت سلسلة لن تتوقف اليوم من الاتصالات لكل الجارات والقريبات تعلمهن بعودة المجرمة.

بصعوبة دار المفتاح في مزلاج صدئ لم يُفتح لسنوات، صرير الباب أثناء فتحه أكد نفس المعلومة، وعاصفة التراب التي أثارتها حركة الباب المفاجئة أيضًا، فكرت لوهلة أن دخولها المفاجئ سبب إزعاجًا لساكني البيت من حُبيبات الغبار، وهاهي تتناثر فزعًا في كل مكان من المقتحم الغريب، ابتسمت للفكرة في مخيلتها ولكن لم تكن ابتسامة قوية كفاية لتحريك عضلات شفتيها. لم تبك زينب منذ سنوات، ظنت أن محلات الدمع بأعينها جفت إلى الأبد بعد استهلاكها في بكاء لم ينقطع خلال سنوات عقوبتها الأولى، أدركت خطأ ظنها عندما انحدرت دمعة على وجهها الذي جففته السنون للمرة الأولى بعدما خطت إلى الداخل. كل شيء مثلما كان منذ عقود، لم يتحرك شيء قدر أنملة من موضعه، باستثناء أكوام التراب فوق كل شيء لا يوجد

اختلاف. هي لا تمانع وجود أكوام التراب، هناك الكثير منه في داخلها أيضًا.

* * * *

من لا يأمل، لا يخيب أمله.

لم تكن حياة زينب الجديدة مخيبة لأي آمال، هي لم ترغب أبدًا في شيء ولم تخرج من السجن محملة بأي أحلام أو طموحات، تخلصت من هذا المتاع المثقل بلا فائدة مع مرور السنوات.

أول وأهم ما احتاجت إليه كان مصدر دخل تعيش من عوائده، الحل ظهر بسرعة في كشك أبيها القديم لبيع السجائر والحلويات، الكشك الذي أصبح ركامًا بفعل السنين، لم تجد بدًا من استدانة مبلغ مالي من صاحبة المنزل التي أصبحت بحكم الظروف أقرب إنسانة لها في الكون، رغبت السيدة في أن ترفض إقراضها، لكن شعورًا جارفًا اجتاحها هو مزيج بين الخوف اللا نهائي من الجارة المجرمة القاتلة، والرغبة في أن منحها قرضًا قد يعطيها حظوة عندها فتأمن شرها الذي لا بد أنه سيظهر في أي وقت. فهمت زينب بسهولة ما فكرت فيه المرأة ولكنها لم تعارض أو تظهر الفهم، لا بأس أن يشعر الآخرون بذلك، سيعطيها هذا قدر تحتاجه من الأمان والخصوصية تفتقر إليهما أي امرأة في مثل عمرها تعيش وحيدة.

في أيام قليلة استطاعت تجديد الكشك القديم وإعادة بنائه، دهنته بنفسها بالون الأزرق الفاقع، ليس حبًا في اللون الأزرق ولكنها رأت علبتي الطلاء متروكتين بإهمال على السلم بجوار

مدخل البيت، وعندما سألت صاحبة البيت المسكينة إن كانت تحتاجهما خافت أن تصرح أنها تفعل ووهبتها إياهما. اشترت بما تبقى من النقود بضاعة من الحلوى والسجائر ملأت بها واجهة الكشك، وكرسيًا وحيدًا ومنضدة خشبية صغيرة، وافتتحت مشروعها التجاري.

حكايتها انتشرت كالنار في الهشيم بين البائعين والمقيمين في المنطقة. رغم أن أهل محطة مصر لا يمتازون عادة بالوداعة تجاه الأغراب الوافدين بينهم سارقي رزقهم، إلا أن حكايتها أكسبتها رهبة بين الجميع احتاجتها لتمارس حياتها في سلام، بالإضافة إلى أن موقع الكشك الاستراتيجي بالقرب من محطة القطار الرئيسية جعل جل زبائنها من المسافرين من وإلى الإسكندرية، فلا يعرف أحدهم حكايتها ولا يبالي بسماعها، هم دائمًا زبائن عابرين متأخرين عن قطار ما.

لم نشعر زينب بمرور أعوام ثلاثة بعد خروجها من السجن. وليس هذا لافتتانها بجمال الحياة خارج أسواره، ولكن إحساسها بمرور الزمن تعطل منذ دهور، مرور الوقت لا معنى له، لا تتوق إلى شيء بلهفة تجعلها تعد له الأيام، ولا تكره ما هي عليه الأمور أو تحبها لترغب في مرورها سريعًا أو بقائها أبدًا، تصالحت مع روتينية الحياة وألفت الملل.

تستيقظ يوميًا –بلا منبه- في العاشرة صباحًا، لا تقضي وقتًا في اختيار ملابسها، هناك عباءات خمس سود على رف الدولاب الخشبي، وجدتهم للمرة الأولى في بحثها عما يلائم أن ترتديه للخروج لأول مرة بعد عودتها للبيت، لم تجد في ملابس زينب

ذات العشرين عامًا ما يلائمها، بيد أن عباءات أمها السوداء القديمة كانت أكثر من مناسبة. يوميًا أثناء ارتداءها العباءة كانت تفكر أن الوقت قد حان لابتياع ملابس جديدة، لكن الفكرة لم تصل إلى مرحلة التطبيق العملي، لم تتحول من مجرد فكرة إلى رغبة محركة أبدًا. مع العباءة السوداء كانت تلف رأسها بطرحة بيضاء أو سوداء اللون من طُرح أمها، إلى أن حدث يومًا إن اكتشفت اتساخ كل الطُّرح سوداء اللون وبيضائه، اضطرت للبحث مطولًا لتجد طرحة أمها الوحيدة الباقية، وردية اللون لامعة الأطراف، كانت تدخرها الأم الفقيدة للمناسبات الخاصة ذات الطبيعة الاحتفالية، مضطرة ارتدتها زينب، وما إن فعلت حتى شعرت للمرة الأولى منذ حلت في بيتها برغبة في أن ترى نفسها في مرآة، لم تجد واحدة في بيتها وقررت مثلما تقرر كل يوم بشأن ابتياع الملابس الجديدة أن الوقت حان لتشتري مرآة، لم تفعل ولكنها ضبطت نفسها أكثر من مرة تلقي نظرة عابرة على انعكاسها في زجاج السيارات المركونة في الطرق، تتبعها بحركة من يدها لضبط الطرحة الوردية، بعدها لم تعد ترتدي من الطُرح إلا ذات اللون الوردي.

بعد ارتداء ملابسها تخرج متجهة إلى ميدان الشهداء قلب محطة مصر، تركب الترام في أيام العطلات الدراسية فقط، في أيام الدراسة تفضل أن تمشي رغم طول المسافة، تجنبًا لضوضاء آلاف التلاميذ الشيطاني الذي لا تتحمله، تقضي يومها في كشكها الأزرق، بين أنواع الحلوى والسجائر وثلاجة المشروبات الغازية التي انضمت حديثًا للكشك وتقف لامعة أمام مدخله، تجد تسليتها في مراقبة المسافرين المهرولين

بحقائب عملاقة على ظهورهم، المتأخرين دائمًا وأبدًا عن مواعيد قطارات، تجد متعتها في تناول الشاي الخفيف كما تفضله، كانت تصنعه لنفسها على "سبرتاية" تعمل بالكحول، قبل أن تكتشف أن العلم البشري وصل إلى أقصاه واخترع أحدهم غلاية مياه كهربية بينما هي تقضي عقوبتها الطويلة، وضمت واحدة إلى مملكتها بفرحة حقيقية. تجد متعتها في تناول حبات السوداني المملح الذي عشقته في طفولتها وحُرمت منه لربع قرن، لتعود وتجد مذاقه لا يقل روعة عما تذكره، تجد متعتها في أدوار الدومينو الذي كان التسلية الوحيدة بين قرينات السجن، بيد أن علبة الدومينو التي اشترتها لم تفتحها حتى الآن، فالدومينو لعبة لا يلعبها شخص وحيد.

لا يوجد موعد محدد لانتهاء يومها، فليس هناك من ينتظرها في البيت، ولا يعلوها رتبة مدير يحدد مواعيد حضور وانصراف. لا يحدد ساعات عملها إلا الحالة الجوية، في شهور الصيف الحارة لا تتأخر، تغلق الكشك في العاشرة مساءً على الأكثر، وتستقل الترام عائدة لبيتها، ليالي الصيف كنهاره، مزدحمة صاخبة تملؤها رائحة العرق، أما في ليالي الشتاء الباردة فالأمر يختلف، تقبع في الكشك تحت إضاءة شاحبة لمصباح أبيض موفر للطاقة، ملتحفة بشال عملاق ثقيل -شال الأم مثلما هو الحال مع باقي ملابسها- تتدفأ به، وفي يدها كوب الشاي الساخن الخفيف، تراقب شوارع شبه مهجورة إلا من قلة من المسافرين تتأملهم بصمت ومتعة، وتسرح في تخيل ما الظروف الطارئة التي أرغمتهم على للسفر في ليال باردة كتلك. كلما زاد الجو برودة وازدادت عواصف الإسكندرية الشتوية العنيفة كلما طال سهرها

في كشكها، لا تدري لذلك سببًا واضحًا، فقط لا تشعر بالرغبة في العودة، تتمنى أن تظل ساكنة في هذا الوضع إلى الأبد، لكن عاجلًا أم آجلًا تغلق كشكها وتعود، تعود في طرق مظلمة باردة ممطرة، آخر رحلات الترام تنتهي مع منتصف الليل، لا تهمها ظلمة الطريق ولا تأبه لمخاطر الليل، فكرت في من قد يتعرض لامرأة لا تبدو عليها أمارات غنى ولا هي صبية جميلة تشد العيون، حتى وإن فعل أحدهم، "ده أنا أقطعهوله".

* * *

تأملها بحيرة محاولًا فهم ما حدث، سيدة ممتلئة بشكل ملحوظ في عباءة سوداء وطرحة وردية تغطي شعرًا ظهر منه رغمًا عنها شعيرات سوداء ناعمة هاربة من القيد القماشي الوردي، لا تخلو ملامحها من جمال قديم باهت يكاد يراه من يدقق في العيون السوداء التي تنظر في قلق إلى الجثة الممدة على الأرض، تحمل من الحسن -العيون وليست الجثة- ما أفسدته التجاعيد والهالات السوداء. يدها تقبض على فردة "شبشب حريمي" ذات كعب ضخم، رأى بعين الخيال دخانًا يخرج من كعب الشبشب كالدخان الخارج من فوهة مسدس راعي بقر أميركي قتل لتوه عصابة من قطاع الطرق في فيلم قديم. ألقت الشبشب أرضًا بينما رفعت قدمها اليمنى وهي تحسر عنها العباءة قليلًا لترتديه. فهم في خيبة أمل عظمى أن ضربته لم تُسقط المهاجم، بل السيدة هي من أطاحت به بضربة من شبشبها.

الترام ما زال يمضي في طريقه، لا أحد خارج العربة الخلفية شعر بما حدث فيها، الصمت ساد لوهلة طالت لا يقطعه سوى

صوت المحرك الكهربي العملاق والسيارات العابرة في الطريق. تأمل السيدة التي أنقذت حياته للتو، ملامحها مألوفة لكنه لا يذكر كيف يعرفها، لا يحب الشعور بالضعف، ولا يحب أن يقوم بدور الضحية المسكينة التي ينقذها البطل من موت وشيك، ناهيك بأن البطل الذي أنقذ حياته سيدة أربعينية في ملابس كملابس أمه الميتة. بينما زينب تطيل النظر إلى الجثة المسجاة على الأرض، تكره حقيقة أنها ضربت شخصًا ضربة قد تؤدي إلى إصابة جدية، قد تؤدي إلى موته، دعت الله أن يفيق، فهي لا تحتمل فكرة أنها ربما ارتكبت جرمًا قد يعيدها إلى السجن مرة أخرى. لا تحب أيضًا الطريقة التي يتفحصها بها الكمساري الأحمق هذا، شعرت بندم مفاجئ لتدخلها، لكن رد فعلها كان غريزيًا، رأت شخصًا يكاد يُقتل فأنقذته، لم تكن جلستها بعيدًا عن المتشاحنين، وهناك مهارات تتعلمها في حياة السجن كما يتعلم الطفل المشي، ضربة بحجر –أو بكعب شبشب حريمي- على مؤخرة العنق تؤدي إلى إفقاد الوعي فوريًا هي إحدى هذه المهارات، واتتها فجأة فكرة أنها لم تفعل ما فعلته بنية إنقاذ المحصل من الموت، إنما دافعها جاء من إدراكها أن المهاجم كان مغيبًا، فأرادت أن تنقذه من مصير أسود ينتظره إن أصاب المحصل في مقتل، مصير عاشته من قبل وكرهت أن تراه يصيب آخرين.

قطع الصمت صرير عجلات الترام التي توقفت معلنة الوصول إلى المحطة التالية، صعد راكب وحيد درجات السلم ببطء، صوت خطواته نبه كلًا من حمدي وزينب فحولا اتجاه نظراتهما إليه، ليرى أمامه محصل ترام ذا ذراع مغطى بالكامل بالدماء التي

تقطر منه على الأرض، في مواجهته سيدة في عباءة سوداء ترقد تحت قدميها جثة رجل ميت أو ربما فاقد الوعي، لم يستغرق أكثر من ثانية واحدة ليُعرض عن رغبته في ركوب الترام ويدور على عقبيه نازلًا، فجأة لم يعد المشي إلى وجهته خيارًا سيئًا.

انحنى حمدي ليتحسس عنق الراقد على الأرض، بنبرة متوترة وصوت رجل لا يعرف ماذا يفعل قال:

"في نبض، لسة عايش"

"الحمد لله"

أفلتت منها تنهيدة ارتياح عميقة، كانت تعلم أن ضربتها يستحيل أن تقتل، لكن مرأى الجثة الممدة تحت قدميها أثار رعبًا كامنًا لم تكن تظن أنه ما زال هناك.

"على فكرة أنا كنت مسيطر على الوضع، مكنش له لزوم اللي عملتيه"

لم تتمالك ابتسامتها التي اتسعت ردًا على كلماته الطفولية الغاضبة ما أثار مزيدًا من حنقه، قد تصلح نظراته الغاضبة وصوته العالي ولسانه اللعان في إرهاب العديد، لكن ليس معها، ليس بعد كل شيء.

"أنا مكنتش بساعدك أنت، الحمار ده كان ممكن يعمل حاجة تخليه يعيش بقية عمره ندمان عليها وهو مش واعي، أنا كنت بلحقه من نفسه"

تحسس جرحه بيده السليمة، ما إن لمسه حتى تصاعد الألم الذي بدا جليًا على وجهه، بيد أنه بدلًا من أن يصدر أنات الألم استمر في كلماته المستفزة:

"خلاص ياختي الحقيه وخديه معاكي وأنتي نازلة"

تصاعد الغضب بداخلها، فكرت في ألف رد مناسب كتمتهم جميعًا في عضة على شفتها السفلية جلية الغضب، فكرت أنها أذكى وأكثر حكمة من أن ترد على هذا الأحمق، لاحظت أن محطة "الرصافة" اقتربت، أدارت عينها نحو الباب واتجهت إليه ببطء، ليست محطتها ولكن لم يبق على الوصول سوى محطة أخرى، ستمشيها.

راقبها تترجل من الترام وهو يرتعش ارتعاشة غير ملحوظة، كره نفسه، هذا شعوره الدائم تجاه ذاته ولكن في هذه اللحظة كره نفسه أضعاف المعتاد، ربما إن ردت عليه لأصبحت الأمور أفضل، كان الموقف ليتحول إلى مشاجرة عادية محببة يتراشق فيها كلاهما بالسباب والصراخ، الشتائم المتبادلة كانت لتمنحه شعورًا أفضل تجاه ذاته، كان ليشعر كالمعتاد أن "الناس كلهم أوساخ ميستاهلوش غير قلة الأدب"، لكنها بقسوة تجاهلته وذهبت، ذهبت تاركة وراءها ضحيتين، سعيد الحظ منهما متكوم على الأرض يحلم أحلامًا سعيدة عن عالم جميل فيه الحشيش نقي ورخيص.

وصل الترام إلى محطته النهائية أخيرًا، وجاء السائق من العربة الأمامية باحثًا عن حمدي ليفاجأ بمشهد حمدي الغارق في

دمائه والجثة المتكومة أمامه، سريعًا حكى ما حدث، وأوضح كيف استطاع ضرب المهاجم وإفقاده الوعي بيده العارية. حقق أرقامًا قياسية في احتقار الذات بينما يفعل، لم يرغب في ادعاء بطولة زائفة لنفسه، ولكنه لم يقدر أن يحكي كيف أنقذته السيدة ذات الطرحة الوردية من موت محقق بضربة من شبشبها على رأس البلطجي. لم يبتلع السائق بسهولة أن حمدي استطاع التغلب على المعتدي المسلح وحده، لكن لم يجد تفسيرًا آخر فتجاوز ريبته وقال: "تعالى نشيله ونسيبه على أي رصيف، ساعة وحيفوق ومش حيفتكر أي حاجة حصلتله، ربك سترها الحمد لله".

تعاونا على رفع الجثة وحملها للرصيف المقابل في الشارع الخالي بهدوء.

مر على صيدلية في طريق عودته، احتاج جرحه إلى بضع غرز ونصحه الطبيب بتناول السكريات والسوائل لأنه فقد كثيرًا من الدم. زوجته هلعت من رؤيته مغطى بالدماء ومضمد الذراع، نهرها بعنف كالعادة عندما حاولت أن تسأله عما ألمَّ به، لم تنس أن تسأله إن كان يرغب في تناول العشاء رغم معرفتها أنه سيرفض ويسبها مثلما يفعل كل ليلة.

* * * *

ما تبع الحادثة من أيام لم يحمل الجديد، لم تشغل الحادثة من تفكيره بعدها إلا قليلًا تلاشى مع الوقت، حتى شعوره بازدراء الذات الناتج عن وقاحته مع ذات الطرحة الوردية ذاب وسط

شعوره العام بازدراء الذات والآخرين والعالم كله، كاد أن ينسى ما حدث تمامًا، وهذا يبرر شعوره بالمفاجأة عندما تذكر كل شيء بغتة، عندما سمع صوتها.

هو زبون دائم على هذا الكشك، يمر عليه بشكل شبه يومي لشراء السجائر، يفعل ذلك منذ فترة طويلة بعد توقفه عن ارتياد دستة محلات أخرى على طول خط الترام بسبب شجارات لسبب أو لآخر مع صاحب كل محل، في ذلك اليوم –بعد أسبوع من حادثة المطواة وذات الطرحة الوردية- ذهب إلى الكشك كما يفعل كل يوم، طلب السجائر ومد عملة ورقية من فئة الخمسين جنيهًا، سحب السجائر التي وُضعت أمامه وانتظر الباقي و.. "مفيش فكة يا أستاذ، معكش فكة؟".

نفس الصوت! أحداث الليلة كلها طفت على سطح عقله دفعة واحدة. رفع عينه ذاهلًا، إنها هي! نفس السيدة بعباءتها السوداء وطرحتها الوردية! فغر فاه واستمرت نظرته الذاهلة لثوان.

"إيه؟ أنت حترسمني؟ مالك متنح كدة؟ بقوللك فكة.. مفيش فكة"

صوتها أعاد انتباهه للحظة، حاول أن يتكلم: "أ.. أنتي.. أنتي هنا؟ شغالة هنا يعني؟".

"نعم؟ أنت بقالك سنة بتيجي كل يوم تاخد سجاير وجاي دلوقتي تسألني أنتي بتشتغلي هنا؟"

"آحمدييبي.. أنت فين ياعم، يلا عشان نتحرك"

نداء السائق نبهه إلى أن الترام يقف في انتظاره معطلًا الطريق، ازداد توتره وارتباكه، نظر إلى السجائر في يده وورقة الخمسين جنيهًا في يدها، جرس الترام المميز يدق لحثه على الإسراع بالعودة، أخرج من جيبه بسرعة ورقة أخرى من فئة العشرة جنيهات ووضعها أمامها وعاد مسرعًا ليلحق بالترام.

"طب خد الخمسين جِنِي بتاعتك طيب"

تجاهل صيحتها لتوتره المتصاعد وقفز على سلم الترام الذي بدأ التحرك.

هل يُعقل أنه لم يلاحظ وجودها رغم ارتياده نفس الكشك شبه يوميًا لسنة كاملة؟ هو شخص غير اجتماعي ولا يتميز بمهارته في المحادثات الجانبية السريعة، ليس منذ وفاة والده على أي حال، ولكن هل يُعقل أنه حتى لم يميز وجه من يبتاع منها يوميًا تموينه من السجائر؟ على الأقل هذا يبرر لِمَ بدت له ملامحها مألوفة في الليلة إياها.

"بس أنا روحت الكشك كل يوم بعدها، معقول مخدتش بالي منها رغم اللي حصل؟"

"بتقول حاجة يا ريس؟"

انتبه إلى أن أفكاره بدأت تخرج في كلمات مسموعة دون أن يدرك.

"مبقولش، خليك في حالك يا أستاذ". ركاب سخفاء فضوليون.

فكر أنه نادرًا ما يرفع عينه تجاه البائع طالما لا داعي للحوار، وغالبًا إن فعل يكون لشجار، لهذا ربما لم يرها تقريبًا طوال العام الذي قضاه مرتادًا الكشك. لكن هذا يعني أنها كانت تبيع له طول الأسبوع دون أي تعليق على ما حدث سابقًا، كيف هذا؟ كيف استمرت في البيع له دون حتى أي تلميح لأنها أنقذت حياته؟ أو تأنيب على وقاحته غير المبررة؟

"إيه الولية المجنونة دي!"

كلماته خرجت منه مرة أخرى دون أن يدرك، نظر الراكب الوحيد في العربة حوله باحثًا عن أي أنثى تصلح لأن تكون "الولية المجنونة" ولم يجد، نظر شذرًا للكمساري المريب وفضل ألا يعلق هذه المرة.

* * * *

عندما رأته مقتربًا، نقلت زينب كوب الشاي من يدها اليمنى إلى اليسرى ومدتها دون أن تقوم من مقعدها إلى الدرج المجاور لتفتحه، وسحبت بأطراف أصابعها عملة ورقية من فئة الخمسين وأغلقت الدرج، دون أن تنطق كلمة مدت يدها بالعملة إلى حمدي الواقف على مدخل الكشك. نظر إليها متوترًا، بخطوات متعثرة دخل الكشك ومد يده وأخذ العملة منها ووضعها في جيبه، ودار على عقبيه واستعد للمغادرة، خطوة ثم أخرى ثم توقف، التفت تجاهها وافترَّ ثغره وكأنه على وشك الكلام، بيد أن لسانه أصيب بشلل لحظي فلم ينطق.

"في حاجة تانية؟"

"إيه؟ آه.. لأ مفيش"

ارتشفت من كوب الشاي، ظلت تراقب الأحمق المرتبك الواقف على الباب، يحرك قدمًا ليمشي والأخرى ترفض اتباعها، عيونه المجنونة تنتقل من مكان لآخر وترفض الهدوء والثبات على محل نظر، رشفة أخرى ثم ثالثة وتستمر في مراقبته، تعترف لنفسها أن مشاهدته مسلية.

"كنت عايز أقول بس.. شكرًا"

قالها ورأسه يكاد ينفجر، لم يقل حمدي كلمة ودودة لشخص ولو على سبيل المجاملة منذ عقود، أن يقول "شكرًا" هذا شيء لا يعتاده، ناهيك بأنه يعنيها حقًا، هذا شيء آخر غريب لا يستطيع أن يفهمه.

"على الخمسين جِنِي؟"

"يلعن أبو غباء أمك" هذا ما فكر فيه ولم يقله، إن قالها لارتاح، سيكون قولًا طبيعيًا من شخص مثله، ستُذهب الكلمات عن المشهد غرابته ويتحول لتراشق طبيعي يومي بالألفاظ، مشهد حميمي مألوف اعتاده وأحبه، لم يقلها، ما أدهشه هو ذاته.

"لأ.. على الـ.. المرة اللي فاتت"

نظرة التساؤل الصامتة المستمرة في عينها أثارت في داخله المزيد من التوتر الحانق والارتباك. زينب فهمت ماذا يعني منذ أن قال "شكرًا"، لكنها لم تقدر على منع نفسها من لعب دور الغباء لتستمتع باللعبة لوقت أطول قليلًا. استمر في لعن غبائها

في عقله دون أن يظهر أيًا من هذا على لسانه، ما زال مندهشًا من كتمه لغيظه.

"المرة اللي فاتت.. لما.. لما ضربتي المجنون ده بالشبشب"

"آآآآه هـ هـ"

"افتكرتي دلوقتي يا روح أمك" فكر في غضب مكتوم.

"شكر على إيه بس؟ مش أنت كنت مسيطر ع الوضع؟ معلش يعني إن كنت ضايقتك لما اتدخلت"

عض على شفته السفلى في غل، نزل من مقعده العالي وشكرها، وهي ترد شكره بالسخرية، حسنًا، لقد أخطأ عندما فعل، سيسبها الآن وربما يمد يده مطيحًا ببعض الأشياء من على الرفوف إلى الأرض ويخرج منتصرًا، لا مزيد من الهراء.

"معلش" بصوت خافت يقرب إلى الهمس قالها.

لم تصدق ما سمعت، في تساؤل حقيقي مندهش سألته:

"نعم؟"

"غباء.. غباء.. غباء.. يا دين أمي ع الغباء، لازم أعيد كلامي مية مرة"، الصراخ داخل رأسه يكاد يفجرها، بصوت عصبي ونبرة منفعلة كرر:

"معلش.. معلش.. مكنش المفروض أقول كده، لامؤاخذة، أنا غلطان"

حركات جسده المنتفض مع كل كلمة يقولها، وصوته المرتعش وعيونه المتقافزة بجنون، جعلوها تدرك حجم المعاناة التي يتكبدها ليستطيع قول ما قال، رغم رغبة شريرة في أعماقها أن تستمر في ضغط أزراره، قررت أن ترأف به ولا تفعل.

"ماشي"

سمع ما قالت واحتاج لثوان لاستيعابه، لا يعرف ماذا يفعل في مثل هذه المواقف، بالتأكيد هذا أسخف موقف مر عليه في حياته على الإطلاق، تبًا تبًا تبًا، ليت هذا الأحمق المسطول لم يخطئ في ضربته الأولى وأصاب في مقتل، كانت الأمور لتنتهي على نحوٍ أفضل. لا بد أن قولها الأخير يعني أنها تقبلت الاعتذار والشكر، أو لم تفعل، لا فارق، ما يهم أن الوقت حان لأن ينهي هذا المشهد اللعين ويذهب، دار في سرعة وبدأ في السير.

"استنى"

توقف متفاجئًا والتفت إليها ببطء، هذا المشهد اللعين لا ينتهي أبدًا، ماذا تريدين يا حمقاء؟

"تشرب شاي؟"

سيرفض، بالتأكيد سيرفض، سيقولها الآن، لسبب ما لا يستطيع إيجاد حرفي اللام والألف على شفتيه ليقولها، لا يهم، لا يحتاج لأن يقولها، سيمشي دون أن يرد، لن يهتم لقيامها من كرسيها وملئها غلاية الماء الكهربية من زجاجة مياه مجاورة ثم توصيلها بالكهرباء، لن يتجاوب مع وضعها ربع ملعقة من الشاي الجاف

في كلًا من القدحين الفارغين بجوار الغلاية، لماذا ربع ملعقة فقط؟ هو لا يحب الشاي خفيفًا. فيم تفكر يا أحمق؟ أنت ستمشي الآن حالًا دون شاي، خفيفًا كان أو ثقيلًا.

"سكر قد إيه؟"

"اتنين"، قالها بصوت هامس كالفحيح، ماذا تقول يا حمار؟ أنت ستمشي حالًا، اخرج الآن.

لم تسمع رده، وإن أضحكها همسه وارتباكه، بابتسامة واسعة سألت:

"بتقول إيه؟"

"اتنيين"

كرر بصوت أكثر خفوتًا وهمسًا وتبعها بإشارة سريعة بإصبعيه، ابتسامتها تحولت لضحكة مقتضبة ذات صوت خافت، هزت رأسها ووضعت في أحد الكوبين ملعقتي سكر وفي الأخرى واحدة، صوت صافرة من الغلاية الكهربية يعلن غليان الماء، صبت الماء في الكوبين بهدوء، توقفت للحظة وتذكرت، "بتشرب الشاي خفيف ولا تقيل؟".

لو كان هذا مشهدًا من قصة مصورة، لكان الكادر التالي لحمدي يجيب على السؤال بنفس الصوت الهامس المرتبك "تقيل"، بينما تخرج من رأسه بالونة تفكير عملاقة بداخلها حمدي آخر صغير كاريكاتوري، رأسه حمراء منتفخة من الغضب يضرب رأسه في الحائط مرارًا وتكرارًا.

"أصل أنا مش متعودة أعمل لحد شاي، نسيت إن في ناس مبتحبش الشاي الخفيف"

قالتها بارتباك وهي تضيف مزيدًا من الشاي الجاف في الكوب ذي معلقتي السكر وتقلبه جيدًا، والتقطت الكوب في رفق ومدت يدها به تجاهه.

"اتفضل، اقعد على الكرسي بدل مانت واقف كده"

حمدي الصغير في بالونة التفكير الكبيرة فوق رأسه انفجرت رأسه من الغضب ولم يعد موجودًا، حمدي الحقيقي الذي لم يعد يفهم ماذا يحدث مد يده لتلقي كوب الشاي واتجه إلى الكرسي الوحيد ليجلس عليه، مرت لحظة قبل أن يلاحظ أن هذا هو الكرسي الوحيد وأنها ما زالت واقفة، انتفض من مجلسه في حركة عنيفة أدت لتناثر قليل من الشاي المغلي على يده.

"اقعدي أنتي أنا مش عايز أقعد"

فكرت زينب في ارتباك أنها تحتاج لأول مرة لوجود كرسي ثانٍ، لم تتوقع من قبل أن تحتاج واحدًا.

"لأ أنا قاعدة طول اليوم، زهقت من القعدة"

لم يجلس، ولم تفعل هي. قبل أن تمر دقيقتان، كان حمدي قد شرب قدح الشاي كاملًا، لم يهتم لسخونة الشاي والحروق التي أصابت كل أركان فمه، ولا صراخ معدته المعترضة على السيل الملتهب المفاجئ، كل ما فكر فيه أنه يجب أن يخرج من هنا على الفور. راقبته باستمتاع بدا جليًا على وجهها، ما زاد من توتره

وسرعة شربه للسائل الساخن، ابتلع في حركة سريعة ما بقى في الكوب، ووضعه على الرف المجاور بحركة عنيفة.

"شكرًا"

ألعن كلمة شكرًا يمكن أن يقولها إنسان، كانت بالسباب أشبه من الشكر، قالها قبل أن يندفع خارجًا في سرعة وهي تتابعه بابتسامة عريضة.

4

استيقظ في الثانية عشرة ظهرًا على ضجيج لعب أبناء الحي في الشارع، لعنهم بصوت منخفض غير واضح لم يتعاف بعد من آثار النوم، نهض من على كنبته القديمة التي جعلها سريره منذ عدة سنوات، فرك عينيه بيده، سعل مرتين قبل أن يمد يده إلى هاتفه المحمول وينظر إلى شاشته ليعرف الوقت، تحامل على قدمين هزيلتين وقام، قبل أن يخرج من الغرفة ضغط على زر تشغيل جهاز الكومبيوتر العتيق على المكتب، ثم خرج متجهًا إلى الحمام ليعطي للجهاز العجوز الوقت الذي يحتاجه ليعمل.

باستثناء المكتبة الخشبية المكدسة بالكتب فالغرفة فقيرة المحتويات فعلًا، كنبة قديمة متهالكة مستندة إلى الجدار الأيسر للغرفة، وشرفة تواجه الشارع مغلقة أغلب الوقت، ومروحة سقف ذات نصال معدنية لا تعمل تقريبًا وتبدو علامات الصدأ واضحة عليها، كرسي خشبي شبيه بكراسي المقاهي الشعبية ملقاة عليه بإهمال بعض الملابس، موضوع خلف مكتب خشبي قديم كان جديدًا منذ عقود، عندما طلب أبوه من نجار الحي أن يصنعه له بدلًا من المنضدة المعدنية الصدأة التي سببت أطرافها المدببة عشرات الجروح لكل أفراد الأسرة، بمناسبة انتقاله إلى المرحلة الدراسية الثانوية، فخورًا بابنه الذكي ذي المستقبل المشرق، مع ثلاثة رفوف خشبية عُلِّقت إلى حائط الغرفة الأيمن لينقل عليها ابنه كتبه الكثيرة بدلًا من تخزينها في صناديق كرتونية تحت السرير، الرفوف

الخشبية الثلاثة ما زالت في أماكنها إلى الآن وإن أضيف لها مع مرور الزمن أربعة رفوف أخرى مختلفة الأشكال والأطوال، آخرها رف خشبي أصفر كان من ألواح سرير الزوجية، قبل أن ينتزعه ليثبته في حائط غرفة مكتبته منذ أسابيع قليلة، بينما تشاهده زوجته وهو يدق المسامير في الحائط بصمت حزين وقلة حيلة.

ما إن خرج من الغرفة حتى دخلتها امرأة ضئيلة الحجم لطيفة القسمات، متسللة تحمل صينية عليها كوب من الشاي وشطيرتا جبن، بيسراها أزاحت كتابين لأطراف المكتب لتضع مكانهما الصينية، وقفت حولها لتتأمل الغرفة، ترغب في تنظيفها وترتيبها، ترغب في وضع سجادة على بلاطها العاري أو ستارة على شرفتها، لكنها تعلم أن زوجها لن يسمح لها بإجراء أي تغيير على غرفته ولو حتى كنس التراب، لم تستطع منع نفسها من أن تعيد تسوية الكنبة على الأقل ثم خرجت مسرعة قبل عودته.

عاد إلى الغرفة، اتجه رأسًا إلى المكتب وجلس على كرسيه، تجاهل صينية الإفطار ومد يده إلى لوحة المفاتيح. لا شيء يمكن أن يعكر صفو نهار كهذا مثل انقطاع الإنترنت، أو ربما هناك أشياء أخرى قد تفعل، مثلًا ضجيج ابنه الأحمق يقتحم عليه عزلته لأي سبب، أو زوجته تصر على سؤاله في بلاهة عما يريد تناوله على الغداء اليوم، السؤال الذي لم يجب عليه طيلة خمسة عشر عامًا ورغم ذلك لا تنفك تسأله باستمرار، أو إقامة حفل خطوبة ابنة الجيران للمرة السابعة عشرة في شقة أبيها، يظن أهلها أن وضع السماعة العملاقة في الشرفة التي لا تبعد

عن شرفة غرفته بأكثر من ثلاثة أمتار ورفع الصوت إلى أقصى درجة سيكون فألًا حسنًا في سبيل إنجاح الخطوبة هذه المرة، أو انقطاع التيار الكهربائي لساعات أربع في نهار الصيف، زيارة مفاجئة لقريب مزعج يعتبر زيارات الأقارب في أوقات غير مناسبة –أو مناسبة، لا فارق- شيء جميل يحبه الجميع، أو.. .

حسنًا، كل شيء يمكن أن يعكر صفو نهار كهذا، سيكون أكثر الناس حظًا لو نال نهارًا وحيدًا هادئًا دون منغصات كل بضعة أعوام، اشتاط غضبًا لتكدير روتينه الصباحي المعتاد. نقر أزرار هاتفه المحمول باحثًا عن اسم معين حتى وجده، هشام، أجرى الاتصال ووضع الهاتف على أذنه بانتظار الرد، حتى جاءه الرد بصوت هشام المبتسم المستفز في الناحية الأخرى.

"حمدي باشا، صباح الفل"

"صباحك زي وشك، النت قاطع ليه؟"

"بقى لي أسبوع بتصل بيك عشان أكلمك في حوار وأنت مش بترد عليا، فمعلش بقى قطعت عليك النت عشان تكلمني"

ازداد حمدي غضبًا على غضب وصرخ في الهاتف:

"تقوم تقطع النت يا حيوان؟ أنت عارف إني لازم أقعد على النت ساعة أول ما أصحى الصبح"

"عارف يا أبو حودة والله، بس سامحني، أنت مش بترد عليا خالص وأنا عايزك في حوار ضروري، وبعدين بصراحة أنت بقالك شهرين مادفعتش الـ.. "

"حعدي عليك بليل وأنا مروح، بس النت يشتغل دلوقتي"

"عينيا، بس ماتنساش فلوس الـ.. ”

قطع حمدي كلامه بقطع الاتصال، اشتعل غضبه ولن يخمد بسهولة في أي وقت قريب، حتى مع عودة اتصال الإنترنت إلى العمل كان قد فقد رغبته في استخدامه. نظر في ساعته ليجدها ما زالت الثانية عشرة والنصف، لا يزال اليوم في بدايته، ورديته لن تبدأ قبل السابعة، ذهابه إلى كشك زينب لن يكون قبل الخامسة، أمامه ساعات أربعة على الأقل.

أشعل سيجارة متناسيًا الإفطار –كعاته-، قام ليدور حول نفسه في الغرفة عدة مرات متوترًا وهو ينفث الدخان كقاطرة تعمل بالفحم، توقف أمام رفوف مكتبته متأملًا لثوان، ثم سحب كتابًا وارتد إلى طرف الغرفة الأقصى، وجلس على الكنبة متصفحًا كتابه، مستندًا بكوعه الأيمن على ذراع الكنبة بينما تحمل نفس اليد كتابًا، واليد اليسرى حرة تنتقل بين العبث في شعيرات رأسه الأمامية -التي أصبحت ملتوية دائمًا نتيجة لعشرات السنين من العبث فيها- وتقليب صفحات الكتاب، بينما ساقه اليمنى منثنية تحته واليسرى تأخذ وضع زاوية شبه قائمة. قضى أغلب عمره جالسًا بنفس الوضع على نفس الكنبة، منذ أن كان طفلًا لا يشغل حتى ربع المساحة التي يشغلها الآن.

ظل مستغرقًا بين صفحات كتابه لساعات لم يشعر بمرورها، فلم يشعر بخطوات زوجته التي تسللت إلى الغرفة في هدوء. لدقائق ثلاث ظلت واقفة بالقرب منه، تفتح فمها وتهم

بالتحدث ثم تغلقه مترددة، تنظر له في خوف وحيرة، تتأمل زوجها الأسمر النحيل، نامي الذقن مشعث الرأس، جالسًا في وضعه الأثير بفانلته الداخلية البيضاء وبنطلون البيجاما، تحاول استجماع شجاعة غير موجودة لتكلمه، أخيرًا.. عندما فقدت الأمل في أن يلاحظ وجودها، تنحنت وقالت بأنعم نبرة صوت استطاعت إخراجها:

"أبو محمود، مش حتتغدى؟"

إنتفض حمدي من مجلسه فزعًا، وكأنها أيقظته من حلم جميل، نظر لها غاضبًا نظرة أرعبتها.

"قلت لأمك مليون مرة متكلمنيش وأنا مشغول، ابعدي عني وأنا مشغول، حتفضلي غبية كده لغاية إمتى؟"

زعيقه الغاضب لم يكن غريبًا، كانت تعلم جيدًا أن هذا سيكون رد فعله، لكنها لا يمكنها ألا تحاول الاعتناء بزوجها حتى لو لم يرغب هو بذلك، يصرخ فيها أو يسبها ويلعنها أو حتى يضربها، لا يجب أن تمنع أي من هذه الأشياء الزوجة من الاعتناء بزوجها، هكذا علمتها أمها وهكذا تفعل، وهكذا ستظل تتحمل غضبه وتفعل دائمًا. خوفها منه وارتعاش أطرافها لم يمنعاها من أن تستمر في سؤاله.

"يابو حودة فطارك زي ماهو، أنت مكلتش لقمة من صباحية ربنا، حتنزل شغلك على معدة فاضية؟"

"ملكيش دعوة، ملكيش دعوة.. غوري من وشي"

اندفعت خارجة من الغرفة وفي عيونها لمعة دموع قادمة، بينما استمر هو في صراخه الغاضب لاعنًا إياها وغباءها وغباء أهلها. نظر في ساعته ليجدها الرابعة والنصف، حان وقت الخروج، على عجل ارتدى ملابسه الملقاة بإهمال منذ الليلة السابقة على الكرسي الخشبي، بنطال قماشي أسود وقميص أبيض كان مكويًا بعناية قبل أن يلقى على الكرسي بالأمس، بحث مجددًا حتى وجد السترة الرمادية الخفيفة متعددة الجيوب عديمة الأكمام، الزي الرسمي لمحصل التذاكر/كُمساري ترام المدينة الأصفر السكندري، ثم ارتداها على عجل والتقط كتابه من على الكنبة وخرج.

* * * *

تردد كثيرًا قبل أن يدخل كشك الحلويات الخشبي الأزرق الواقع في قلب ميدان الشهداء. كان قدومه روتينًا يوميًا لا يتغير، يظهر في الساعة الخامسة بالضبط، يدخل دون حتى إلقاء التحية عليها، في البداية كانت تغيظها فظاظته، طلبت منه ذات مرة بلهجة حادة "ابقى قول السلام عليكم وأنت داخل بعد كده"، في اليوم التالي دخل كالعادة دون أن يفعل وفرد الكرسي المعدني وجلس، ثم تذكر بعد ثوان كلامها، فالتفت لزينب التي لم تتحرك من مجلسها وانتفض واقفًا وقال بلهجة مرتبكة "السلام عليكم؟"، ضحكت يومها عليه حتى دمعت عيناها، ما زاده ارتباكه وبادر بالذهاب ولكنها أوقفته، لم تطلب منه بعدها أن يلقي أي تحية.

بعد دخوله يمد يده آخذًا علبتي السجائر، يدفع لها ثمنهما فورًا، تأخذ منه العملة الورقية لتلقيها في الدرج الخشبي المقابل وتنتقي بضع عملات معدنية تردها إليه، ثم تقوم من مجلسها بجوار المنضدة الصغيرة وتتجه إلى ركن الكشك، حيث توجد صينية تحمل عدة أكواب زجاجية وبرطمانين بلاستيكيين للشاي والسكر وغلاية المياه الكهربية، تملأ الغلاية بالمياه وتوصلها بالكهرباء، ثم تضع في كوب ملعقتي سكر وملعقة شبه ممتلئة من الشاي، والأخرى ملعقة سكر وحيدة وربع ملعقة شاي. بينما هو يفرد الكرسي المعدني القابل للطي ويضعه إلى الناحية الأخرى من المنضدة، ثم يحضر من على الرف الموجود أعلى باب الكشك العلبة الممتلئة بقطع الدومينو، يدلق محتوياتها على المنضدة بينما يجلس على كرسيه المعدني، ويبدأ في رص القطع. في هذه الأثناء تكون زينب انتهت من تحضير الشاي فتحضر الكوبين وتنضم له، وتبدأ مباراة يومية جديدة.

روتينًا يوميًا اعتاده لشهور، لم يخلفه إلا منذ أسبوع، بعدما طلب منه أحد زملائه الانفراد به لدقائق لمحادثته –وهذا أثار دهشته بشدة، فلا يوجد في المعتاد أي حديث متبادل بينه وبين أي من زملائه رغم طول سنين زملاتهم- وانتحى به جانبًا.

"لا مؤاخذة يابو محمود، اعذرني على التدخل في أمورك، أنت راجل في حالك ومبتحبش حد يضايقك، بس الموضوع مهم بصراحة. في ناس زمايلنا شافوك بتقعد مع الست إللي في كشك السجاير الأزرق إللي في المحطة، أنت تعرف الست دي؟"

وقبل أن يرد حمدي على السؤال اندفع الرجل يحكي حكاية طويلة غريبة عن الفتاة السارقة القاتلة قاطعة أعضاء الرجال، "خلي بالك يابو محمود ومتبقاش تروح هناك تاني، ربنا يخليك لبيتك ولابنك، العمر مش بعزقة". أجابه حمدي بصمته كالعادة، ولكن الحكاية أدارت دماغه وأثارت قلقه. اليوم التالي لم يظهر في موعده اليومي، ولا اليوم الذي بعده.

فكر أنها ليست الشخص المهم في حياته ولن يشكل لقاؤه بها أو عدمه أي فارق، لا يوجد شخص مهم في حياته في الأساس. عاد إلى روتين حياته القديم قبل أن يعرفها، ولكن التوقف المباغت جعله يدرك أن قدح الشاي ومباراة الدومينو اليومية اللذين اعتادهما في الشهور السابقة، هم أقرب شيء إلى علاقة اجتماعية مع كائن حي مارسها منذ سنين طويلة لا يعلم عددها إلا الله، أدرك أن زينب شخص لا يكرهه كفاية ليتجنبه ويتحاشاه مثلما يشعر تجاه باقي البشر، وهذا سبب كاف جدًا للعودة إلى مجلس الشاي والدومينو. تبدو الحكاية غير منطقية ومفتعلة في الكثير من تفاصيلها على أي حال، لن تسبب له خوفًا أو ذعرًا أو حتى فضولًا لمعرفة المزيد. وحتى إن صحت، ماذا قد يحدث؟ هل ستفعل به مثلما فعلت بالآخر؟ تبدو هذه أغبى وأسخف فكرة في الكون.

عندما ظهر اليوم في مدخل الكشك، وقف صامتًا لا يتكلم، بنظرة جامدة منها انحنت إلى الأمام بينما ما زالت جالسة، والتقطت علبتي سجائر، قدمتهما له في برود. ساحبًا قدميه الرافضتين للتحرك دخل الكشك وتناولهما منها، وأخرج ثمنهما

من جيبه وقدمه لها، تناولت النقود بنفس رد الفعل الميكانيكي البارد وردت الباقي، وظلت نظرتها الصامتة تحاصره.

في ارتباك قال: "شاي؟"

لوهلة طالت لم ترد، ظلت جالسة تنظر إليه بنفس البرود، فكر جديًا أن يدور على عقبيه ويذهب، لكنها أخيرًا قامت في تثاقل، أشارت إلى الكرسي المعدني المطوي بيدها قبل أن تذهب وتبدأ في تحضير الشاي، بينما دخل هو إلى الكشك وفرد هو الكرسي وجلس مرتبكًا منفعلًا، وربما خائفًا.

"هما حكولك؟"

لم تنظر إليه مع سؤالها، كانت متشاغلة في تحضير الشاي ونظرها مركز على الأكواب.

"حكولي إيه؟"، ادَّعى الغباء ورد سؤالها بسؤال آخر، ما إن نطقه حتى شعر بالغباء الحقيقي، أدرك من ابتسامتها الساخرة بينما هي قادمة بأقداح الشاي في يدها أن ادعاء عدم الفهم لن يصلح، فأتبع بصوت خافت وهو يتناول منها قدحه "آه.. حكولي".

ردت عليه بابتسامة خافتة مريرة، فكرت في أن تحكي له نسختها من الحكاية، النسخة الحقيقية، مجرد التفكير في الحكي جعلها تشعر بإرهاق شديد. لم تفعل.. ليظن ما يظن، لن تتعب قلبها بحكاية لن تفيد ولن يصدقها في الغالب. استمر الصمت لفترة، حتى رشفات الشاي كانت دون صوت احترامًا لقدسية الصمت،

ذكره الصمت بمرته الأولى في شرب الشاي هنا، على الأقل هو يشرب بتمهل هذه المرة.

بعد دقائق طالت، فرغ من مشروبه وقام من كرسيه، اتجاه نحو الباب، لم تعترض، بيد أنه بدلًا من أن يخرج وقف على أطراف أصابعه ومد يده إلى الرف الذي يعلوه، حيث توجد علبة الدومينو.

* * * *

بتأنٍ مشى في شوارع لم يهدأ ضجيجها رغم تجاوز عقارب الساعة منتصف الليل منذ مدة، لا يرغب في العودة إلى بيت يكرهه ولا يحب البقاء في الشارع وليس له مكان آخر يقضي فيه وقته. مشى متمهلًا على أمل أن ينقذه الكون إنقاذًا مفاجئًا غير متوقع، وقوع نيزك مثلًا يدمر الكوكب وسكانه بالكامل قبل أن يصل إلى البيت.

وقعت عيناه المارَّتان ببرود على معالم الطريق على لافتة تعلو محلًا عبر الطريق، بمصابيح النيون الملونة كان مكتوبًا يومًا "H.Net"، لكن تحطم منها ما تحطم وتوقفت أجزاء منها عن العمل، فانتهى بها الحال إلى "I. et"، والمصباح الذي يمثل حرف الe يرتعش منذرًا بدنو أجله ولحاقه القريب بمن سبقوه، وفي محل الحروف الناقصة مُلئت الفراغات بكتابة رديئة الخط بالطلاء الأبيض. تذكر هشام وانقطاع اتصال الإنترنت والمكالمة التليفونية الغاضبة معه، وأنه يفترض أن يعرج عليه ويدفع الاشتراك الشهري ويرى فيما يرغب هذا الغبي محادثته. للحظة

توقف عن المشي، تأمل الشارع الذي يجب أن يقطعه والمسافة التي يجب المشي فيها ليصل إلى مقهى الإنترنت، المسافة التي لا تتجاوز الأمتار الخمسة بدت له وكأنها كيلومترًا، ناهيك بأنه سيضطر للعودة نفس المسافة مرة أخرى بعد الانتهاء من هشام، ما يعني مضاعفة الوقت والمجهود المبذول، قرر أن الأمر لا يستحق بالتأكيد وعاد لمسيرته المتمهلة، قبل أن تصدمه فجأة فكرة أن الغبي قد يقطع وصلة الإنترنت مرة أخرى صباح الغد إن لم يعرج عليه الليلة، الفكرة كانت كفيلة بإيقاظ غضبه وجريان الدماء في عروقه، وقبل مرور ثوان كان قد عبر الطريق مقتحمًا سايبر "H.net".

لم يكن السايبر/مقهى الإنترنت سوى دكان عرضه محدود في مقابل طول يمتد لضعف أو يزيد عن أي دكان تجاري النشاط في الحي، ما جعله أشبه بممر طويل مسدود في نهايته بمكتب خشبي رخيص ينام عليه هشام وخلفه باب مغلق. على الجانبين يمتد رفَّان من الرخام بطول الدكان من مدخله وحتى طرف المكتب، على الرفين يرتص عدد من أجهزة الكومبيوتر قديمة الطراز، منها ما تنقصه شاشة أو وحدة تحكم أو لوحة مفاتيح، وبعضها محطم منه أجزاء، عدد قليل فقط من الأجهزة يبدو سليمًا، كلها مطفأة عدا جهاز وحيد يستعمله مراهق نحيف متوتر يجلس في وضع عجيب وقد أدار شاشة الجهاز بزاوية تجعل من المستحيل على القادمين من خارج السايبر رؤية ما عليها، بدا عليه فزع حقيقي وتوتر لدخول حمدي المفاجئ فأخذ ينقر أزرار الجهاز بعصبية. في الإضاءة الضعيفة المهتزة للمكان تظهر حوائطه عديمة اللون في أغلب بقاعها إلا في أماكن

محدودة تنبئ أنها كانت مطلية بلون أصفر فاقع قبل أن يزيله الزمن، ممتلئة بملصقات في كل مكان لمشاهير -أو من كانوا مشاهير منذ عشر سنوات- لاعبي الكرة والفنانين، وقد اتسخت واهترأ أغلبها، ومكتوب على ما تبقى منها بخطوط رديئة أسماء وأرقام هواتف ورسوم ركيكة بذيئة.

في سخط بادٍ على ملامحه من فكرة أن هشام قد يقطع عنه وصلة الإنترنت مرة أخرى، مشى في غضب بطول السايبر، مر غير عابئ بالفتى المرتعب وشاشة جهازه المفتوحة على سطح المكتب الفارغ، بينما يداري بيد مرتعشة البرامج المفتوحة في أسفل الشاشة. هشام كان جالسًا على كرسي جلدي كان فخمًا عندما كانت الحوائط ما زالت صفراء اللون، بينما يسند رأسه على ساعديه المرتاحين على المكتب ويغط في النوم. فكر حمدي لثوان كيف يوقظه في هدوء، ثم طرق المكتب الخشبي بأقوى ما يستطيع، ليهب هشام النائم واقفًا صارخًا في فزعٍ. بدا مضحكًا بانتفاضته وارتجاج كرشه مع الحركة المفاجئة، كانت عيونه حمراء منتفخة من أثر نوم غير منتظم، زائغة إثر استيقاظه المباغت المفزوع، تزين وجهه الممتلئ لحية شُذِّبت أطرافها بعناية، بيد أن الشعيرات النامية على خدوده البيضاء ورقبته السمينة أظهرت أن ما حدث من تشذيب اللحية كان منذ أيام، قميصه كان أبيض نظيفًا لكن مكرمشًا من أثر النوم، أزراره العلوية مفتوحة لتبرز غابة من شعر الصدر المتعرق، تمر عبرها سلسلة ذهبية رفيعة طويلة، بينما يبذل الكرش مجهودًا عنيفًا محاولًا الخروج من حصار القميص، حتى تكاد الأزرار السفلية تقفز من أماكنها هاربة من الضغط المبذول عليها من الخلف.

لوهلة ظل هشام على ارتباكه قبل أن يبدأ في تبين الموقف، ليرى حمدي يمد يده بالنقود، بدا على وجهه غل حقيقي عانى ليكتمه ولا يحوله لصراخ وشجار يعلم جيدًا كيف سينتهي، تجاهل يده الممدودة بالنقود واستدار ليفتح الباب الواقع خلف مكتبه ليكشف عن أضيق حمام في الكون، فتح حنفية المياه لينثر على وجهه قليلًا من المياه الباردة قبل أن يغلقه ويخرج من الحمام عائدًا إلى مكتبه يسبقه كرشه. قبل أن يجلس لمكتبه كان حمدي قد ألقى العملة الورقية على المكتب واندفع خارجًا في اتجاه بوابة السايبر، تأمله هشام وهو يلعن في داخله اليوم الذي احتاج فيه إلى صديقه سيء الخلق المتعجرف، سحب نفسًا عميقًا قبل أن يناديه وهو على حافة الخروج:

"حمدي، استنى"

توقف حمدي عن المشي والتفت وهو لا يكاد يفعل.

"عايز إيه؟ فلوس الوصلة عندك أهيه"

"يا عم اهدى عليا شوية الله يكرمك وبلاش دماغك الخربانة دي، قلتلك عايزك في حوار، تعالى اقعد نتكلم بالراحة"

كاد حمدي يتجاهله ويمضي في سبيله، لكن فضوله غلبه، في ماذا يريد أن يحادثه هشام؟ لا توجد مواضيع خاصة بينهم تحتاج إلى مناقشة، لا توجد أي مواضيع خاصة تربطه بأي كائن حي تستدعي أن يطلب منه أحدهم الانضمام لحديث خاص، عاد ليجلس على المقعد المقابل للمكتب، وإن لم يُظهر فضوله وحافظ على الوجه الحانق المشمئز، وأخرج سيجارة ليشعلها

وينفث دخانها في تأفف. تجاوز هشام الإهانة التي وجدها في إشعال حمدي سيجارة لنفسه دون أن يقدم له واحدة، وأخرج لنفسه سيجارة من علبته أشعلها بدوره قبل أن يبدأ في الحديث:

"أخبارك إيه يابو حودة؟"

"بلا أخباري بلا أخبارك، لخص.. عايز إيه؟"

"تعرف يا حمدي؟ أنت الوحيد في الدنيا دي كلها اللي يقدر يكلمني بالأسلوب الزبالة ده، الله يسامحك، لولا العشرة اللي بينا كنت عرفت أرد عليك كويس"

رده كان سببًا كافيًا لحمدي عادة كي يفتعل شجارًا فوريًا، ولكن لأسباب مشابهة لتلك التي ذكرها لم يفعل. تابع هشام كلامه:

"أنت لسة بتكتب؟"

"بكتب إيه؟"

"بتكتب.. زي ما كنت بتكتب أيام الجامعة زمان. قصص وحكاوي ومقالات وبتاع"

لم يرد حمدي، كان هذا آخر ما يتوقع سماعه من هشام هذه اللحظة، آخر ما يتوقع سماعه من أي كائن حي على الإطلاق. ألجمته المفاجأة فسكت، استغرق وهلة طالت حتى تذكر أنه كان يكتب يومًا ما بالفعل، لكن هذه ذكرى من عالم آخر لم يعد موجودًا. اندفع قائلًا في عصبية:

"لأ طبعًا مبكتبش، حكتب إيه ولا حكتب لمين؟ ده كان لعب عيال وعدت أيامه، وبعدين أنت مالك أصلًا؟ وإيه إللي فكرك بحاجات أنا نفسي مش فاكرها؟"

"اهدى بس شوية، بالراحة على نفسك. أقوللك إيه إللي فكرني، عايزين ناس تكتب معانا في الجريدة يا سيدي"

5

لن يكون من الإنصاف أن نصف علاقة حمدي وهشام بالـ"صداقة"، فالصداقة كلمة تتضمن كثيرًا من المعاني التي لم تكن موجودة أبدًا في علاقتهما، إن تحرينا الدقة يمكن أن نقول إن هشام "كان هناك" أغلب الوقت، بشكلٍ أو بآخر.

هشام هو ابن "عم فتحي" صاحب فرش الجرائد الضخم الواقع في نهاية الشارع، الحقُّ إن فرش الجرائد –الذي لم يعد موجودًا الآن- كان متواضعًا جدًا، ولكن في عيون حمدي الطفل الذي ابتُلِيَ حديثًا بمرض عشق الحكايات كان أضخم ما يكون، على حائط الرصيف ثبت عم فتحي مجموعة من حبال نشر الغسيل وبالمشابك الخشبية علق عليها جرائده ومجلاته مرتجلًا رفوفًا سريعة التحضير لعرض بضاعته، الرف العلوي كان دومًا لمجلات الأطفال، سمير المصرية وماجد الإماراتية والعربي الصغير الكويتية -التي كانت كتيبًا صغيرًا يوزَّع مع مجلة العربي، يفصلهما عم فتحي ويبيعهما معزولين- وكتيبات المكتبة الخضراء الجزائرية وإصدارات ديزني المترجمة، وألغاز المغامرين الخمسة والثلاثة والأربعة والشياطين الـ13، والكثير من العناوين الرنانة ذات الأغلفة الملونة. كان هذا هو الزمن الذهبي لإصدارات الأطفال، وحمدي الطفل قصير القامة يقف بالأسفل رافعًا عينيه متأملًا كل هذه العناوين المغرية التي لا يكفي مصروفه لأقل من ربعها، تعصف به الرغبة الطاغية للقفز عاليًا وانتزاعها جميعًا من مشابك الغسيل والطيران بعيدًا بعيدًا حاملًا

كنزه الثمين. لكن قفزاته المرتجلة لم تصل سوى للرف الثالث حيث تُعرض مجلات وجرائد الحوادث والجريمة.

عم فتحي كان يشاهد الطفل المتقافز أمام فرشه ويفكر في طرده، إلا إنه يعود فيذكر أباه طيب الخلق بشوش الوجه فيغض النظر عن الطفل، وأحيانًا يرق قلبه فيعطيه إحدى المجلات الملعقة ليقرأها بشرط ألا يذهب بها بعيدًا ويحافظ عليها سليمة ويجلس بجواره ليقرأها بهدوء. عطف الرجل عليه جعل حمدي يزيد من التردد على الرجل والتسكع حول فرشه أغلب الوقت، ما أعطاه فرصة للتعرف على هشام ابنه الذي يماثله عمرًا، والتودد إليه لينال طريقًا أوسع وأسبابًا أكثر للوجود في المكان، وإن لم تتطور هذه العلاقة إلى صداقة مشابهة في المدرسة الابتدائية المجاورة، كان لكل منهما أصدقاؤه وطريقته في قضاء أوقاته الخاصة.

لكن لاحقًا مع انتقال الفتيان إلى المدرسة الإعدادية اختلف الأمر. انتقل الفتيان إلى مدرسة "محرم بك الإعدادية الصباحية بنين"، وهي تبعد عن بيوتهم بأربعة محطات ترام كاملة، مسافة عظيمة بالنسبة لأطفال لم يبتعدوا عن بيوتهم من قبل أكثر من مئة متر. دون أي وجوه مألوفة إلا بعضهما، لم يعد لحمدي صديق في المدرسة المرعبة الجديدة سوى هشام ولا يعرف هشام أحدًا غير حمدي، فالتصقا ببعضهما يومًا بعد يوم لا عن حبًا ولا أنسًا بالرفقة، ولكن لانعدام أي بديل، فهشام لم يفصح عن أي مواهب اجتماعية تؤهله لتكوين الجديد من الصداقات في مجتمع جديد مخيف مثل المدرسة الإعدادية العملاقة،

وحمدي لا يجد من يشاركه إدمانه ولا يجد فيه الآخرون ماهو مغرٍ بالتودد إليه.

بدأ حمدي حياته في المدرسة الجديدة بتحسس طريقه باحثًا عن مكتبة المدرسة في ممرات الفيلا القديمة التي تحولت بعد التأميم إلى مدرسة حكومية، وهشام متتبعًا إياه كظله لعدم وجود شيء آخر يفعله. كانت المكتبة مغلقة أغلب الوقت، لا تفتح إلا لوصول "أبلة أمينة" أمينة المكتبة العجوز صباحًا، تفتحها وتدخل مغلقة الباب خلفها، ولا تفتحه إلا لزميلات معدودات (أبلة سُهير الوكيلة، أبلة صباح موظفة شؤون الطلبة، أبلة سعاد مدرسة اللغة العربية والدين) حاملات أكياس ممتلئة بالخضراوات واللحوم والأسماك، ليخرجن منها لاحقًا حاملات أوانٍ وأطباق ممتلئة بالأطعمة الساخنة التي حضرنها مع أبلة أمينة داخل المكتبة.

محاولات حمدي لدخول المكتبة قوبلت كلها بالرفض التام من أبلة أمينة، حتى استطاع ذات يوم برفقة هشام التسلل إلى داخل المكتبة دون أن تلاحظه، وبقيا مختبئين بين الرفوف الممتلئة بما لا يحصى من الكتب المغطاة بطبقة سميكة من التراب لعدة ساعات، حمدي الذي يدق قلبه بصوت يكاد يرن في أرجاء المكتبة ويفضح اختباءه ينهل ما استطاع نهله من الكنز على الأرفف، وهشام يجلس برفقته ساكنًا مستمتعًا بخطورة المغامرة ومتعة التسلل. عندما شعرت أمينة بوجودهما بعد ساعات، بعدما أوقع حمدي كتابين بصوت مدو على الأرض، كان غضبها جارفًا، بيد أن غضبها لم يكن لاكتشافها وجود الأطفال، إنما كان

لاكتشافها المريع أنها نست إحضار "الكُزبرة" معها، ما يهدد مشروع الملوخية، وهذا شرٌّ لو تعلمون عظيم، فما إن شعرت بوجودة الفتية حتى صرخت فيهما للمثول أمامها من مخبئهما، ثم زعقت قائلة:

"واحد فيكم يجري فورًا على مكتب أبلة سُهير الوكيلة والتاني على أبلة سعاد في فصل تالتة تاني، قولولهم أبلة أمينة بتقوللكم عايزة كُزبرة ناشفة دلوقتي حالًا، وتيجو في أقل من خمس دقايق، اجروا بسرعة"

وبدأت ملحمة التنقيب عن ال"كُزبرة" التي لم تنتهِ عند الوكيلة ومدرسة اللغة العربية، بل امتدت إلى خروج الطلبة بتصريح استثنائي لشراء كُزبرة لأبلة أمينة والعودة إلى المدرسة، مغامرة أدت إلى نيل حمدي وهشام تصريحًا مستمرًا للتواجد في المكتبة طوال الوقت، بشرط الهدوء التام والاستعداد طوال الوقت لقضاء مشاوير أمينة المكتبة العجوز بأسرع ما يمكن.

مع بداية العام الدراسي التالي حدث ما سيغير حياة كليهما إلى الأبد. أمينة المكتبة العجوز تقاعدت، وبعد بقاء باب المكتبة مغلقًا لأسابيع قضاها حمدي مفترشًا الأرض جوار الباب المغلق منتظرًا عودة الوصال، جاءت "أبلة شيماء"، حسناء شابة حديثة التخرج عُينت أمينة لمكتبة المدرسة الإعدادية القديمة.

كانت شابة صغيرة في بدايات العشرينات من عمرها، لا تملك خبرة في أي شيء ولا تعرف بعد أي شيء عن كيفية إدارة مكتبة مدرسة قديمة، وجدت الفتاة الجميلة الضائعة في حمدي نجدة

لها، أخبرها الفتى في حماس أنه يعلم كل شيء عن هذه المكتبة، يحفظ كل ركن فيها كما يحفظ اسمه، فاعتمدت عليه وعلى صديقه في كل شؤون إدارة المكتبة تقريبًا، غافلة عن واجباتها الأهم كأمينة للمكتبة من طبخ وتجهيز للولائم للمدرسين وموظفي الإدارة. شابة جاهلة ما زال أمامها عمر كامل ستتعلم فيه الكثير.

شيماء كانت جميلة فعلًا، جميلة جدًا، جميلة لدرجة تجعل من ظهورها في المدرسة كسقوط صخرة عملاقة في بحيرة راكدة لا يتحرك فيها حتى سكانها من السمك. لم تمض أيام معدودة قبل أن يسري خبر وجود الفتاة الجميلة في المدرسة، حتى مع وجودها في بقعة مجهولة لأغلب الطلاب تقريبًا، ظهور شيماء بجمالها الاستثنائي في المدرسة الإعدادية -حيث تنمو الشوارب الناعمة وتخشنُّ الأصوات وتلعب الهرمونات لعبتها الأزلية- كان الحدث الأهم في حياة الطلبة، فجأة صار الجميع محبين للقراءة عاشقين للكتب زوارًا مخلصين دائمين للمكتبة، لحسن الحظ أن في هذا الزمان البعيد كان الطلبة يكتفون بتأمل المعلمة الجميلة والحديث عن حسنها ومفاتنها بهمس في غير وجودها، كانت أزمنة سعيدة لا يتحرش فيها المراهقون بمعلمتهم الجميلة ولا يغتصبونها.

بين ليلة وضحاها وجد حمدي وهشام فجأة نفسيهما في قلب بقعة الضوء، كل طلبة المدرسة تقريبًا يتوددون لهما ساعين وراء مصادقتهما، فهم حمدي بسهولة أن خاطبي وده وهشام لا يفعلون ذلك إلا تقربًا إلى شيماء زُلفَى، نظرًا لمكانته القريبة منها

وإدارته شبه الكاملة للمكتبة، أغضبه هذا وأثار حنقه في بادئ الأمر، لكن سريعًا ما تبدل شعوره مستلذًا بالاهتمام وبتكاثر المتزلفين حوله، فكرة أن له أصدقاء كثيرون لأول مرة في حياته - حتى لو كانوا أصدقاء مزيفين- أعجبته وقرر أن يستمتع بها إلى النهاية متجاهلًا ما بين السطور. هشام إلى هذه اللحظة لم يكن إلا تابعًا، كل من اقترب منهما أدرك بسرعة أن غرضه يكمن عند حمدي، هشام موجود فقط لأنه لا يجد شيئًا آخر يفعله، لذا لم يعط له أحدهم اهتمامًا خاصًا، ولكن -والشكر لرسامي عصر النهضة الأوروبيين- كان هذا على وشك أن يتغير.

كان يفكر في ملل أنه يفتقد أبلة أمينة العجوز، كانت تجد له دومًا ما يشغله بطلباتها التي لا تنقطع ويلبيها هو في حماس، وفي لحظات روقان بالها كانت تذيقه ما لذ وطاب من أصناف الطعام التي طبختها وتعب هو في مشاويرها، لكن الحال صار أسوأ مع أبلة شيماء، لم ينل من حظوتها التي استأثر بها حمدي الكثير، فنادرًا ما كان ينال نظرة أو توجه له كلمة، حتى الأصدقاء الكثيرون المتحلقون حولهما لا يهتمون إلا بحمدي، أما إذا تكلم هشام أو فعل شيئًا، لا يكاد الآخرون يلاحظونه. هو مجرد ظل باهت يمضي فلا يشعر بوجوده أحد، لم يمانع القيام بدور الظل طالما كان هناك ظلًا رفيقًا مثلما كان مع حمدي من قبل، ولكن العالم الجديد جعله ظلًا وحيدًا. مع أفكاره البائسة كان يمضي بين الرفوف ويتصفح الكتب بلا هدف، دون أن يهتم بقراءة حرف، متأملًا أغلفتها وصورها الداخلية إن وُجدت قبل أن يعيدها إلى مكانها، إلى أن لمست يده هذا الكتاب.

لا أحد يعرف في أي ظروف غامضة جاء هذا الكتاب إلى مكتبة المدرسة العتيقة، كتاب عملاق يحتاج لأن يُحمل بكلتا اليدين لثقله وكبر أبعاده، صفحاته بيضاء ناعمة من ورق ثقيل فاخر، لغته فرنسية أو إيطالية أو أي لغة أخرى لا يعرفها هشام، الذي لا يفقه من الإنجليزية إلا ما فيه الكفاية ليدرك أن هذا الكتاب ليس مكتوبًا بها. الكتاب كان عن فناني عصر النهضة الأوروبيين -بالطبع هو لم يعرف هذا لجهله بالمكتوب- ويحتوي على نبذة مختصرة عن حياة كل فنان ومجموعة من لوحاته مطبوعة طباعة فاخرة بألوان زاهية واضحة. كتاب بمثل هذه الجودة والفخامة لا بد أنه يباع في المكتبات المختصة بمئات الجنيهات، وجوده في مكتبة مدرسة حكومية فقيرة لغز لا يفهمه أحد، لكنه موجود وهشام هو من اكتشف وجوده أثناء بحثه الدؤوب بين الرفوف عما يشغل وقته. سحب الكتاب في انبهار بملمسه الناعم ووزنه الثقيل، اللوحة الملونة على الغلاف أثارت إعجابه، حاول تقليب صفحاته لكنه لم يستطع لأن الكتاب أثقل من أن يُحمل بيدٍ واحدة وتُقلب صفحاته بالأخرى، تربع على الأرض بين الرفوف المتربة وأراح الكتاب على فخذيه وبدأ في تقليب صفحاته. الرسوم الملونة والألوان الزاهية أثارت إعجابه وزادت حماسته للتقليب وتأمل المزيد، ولكنه إعجاب لحظي مؤقت سينساه لاحقًا، فلا توجد لدى الفتى غريزة محب الفن متذوقه، ربما كان سينسى الكتاب إلى الأبد بعد أن ينتهي منه، لولا ظهور النساء.

بتأمل نشأته كأي طفل في بدايات الثمانينات، في مجتمع رقيق الحال متحفظ، لا يعرف عن العالم سوى ما يقدمه أبواه وأهله

وجيرانه وما تقدمه محطتا التلفزيون الحكوميتان الوحيدتان، وبتأمل سنه كفتى على أعقاب مرحلة المراهقة يعصف به الفضول وترهقه الهرمونات ويسيطر عليه الخيال، يمكن فهم بسهولة ما اعترى هشام وهو يرى لأول مرة لوحات فنية عالية الجودة تملؤها نساء عاريات جميلات الجسد والقوام. يمكن بسهولة رؤيته بعين الخيال متربعًا على الأرض فاغر الفاه جاحظ العينين مرتعش الأصابع يدق قلبه كما يدق ساحر القبيلة الإفريقية على الطبول، يمكن تخمين ما جرى في دواخله من عواصف مختلطة من الشعور بالذنب والإعجاب الشديد وعدم الفهم والرغبة في المزيد، ثم تسيطر الرغبة على كل المشاعر وتصبح بسهولة الدافع الأوحد لتقليب الصفحات بحثًا عن المزيد منهن في جنون، وكلما رأى أثرًا لسيدة عارية أو بان من جسدها ما تيسر، كلما زادت فرحته وتعمقت رغبته الجائعة الفطرية، حتى وصل لآخر الكتاب ليعيد تقليبه من البداية بسرعة شديدة، ثم مرة أخرى بتمهل، ورابعة بتمعن، وخامسة وسادسة وعاشرة.

استمر في موقعه مختبئًا لا يعلم أحد مكانه، حتى سمع ضجيجًا عاليًا في الخارج وأدرك أنها ساعة انتهاء اليوم الدراسي، لم يكن ليتخيل من قبل أنه ستأتي عليه لحظة يضايقه فيها حلول ساعة انتهاء الدوام. تأمل الكتاب بين يديه بحسرة وفكر في أن يأخذه معه إلى البيت، ولكنه تجاهل الفكرة عندما تذكر أن أمه ستجده بسهولة بين حاجياته. قام حاملًا الكتاب بحرص أم على وليدها، تفحص الرفوف حوله بسرعة قبل أن يحمل كتابه ويخبئه في رف عال جانبي غير مطروق، تأكد من أن الكتاب لن يراه من لا

يعلم بوجوده، ثم خرج مسرعًا قبل أن يغلق حمدي الذي لا يدرك وجود صديقه بالمكتبة القفل -الذي تركته له أبلة شيماء مع باقي مسؤوليات المكتبة- ويذهب، بعد أن خرج فكر في خيبة أمل "ياريته قفل عليا ونسوني جوة المكتبة".

لأيام ظل اكتشافه سره وحده لا يشاركه فيه إنسان، ينسحب من حين إلى حين ليجلس في ركنه المنزوي قاضيًا وقته مع صديقاته المفضلات، لكل منهن اسم وحكاية، وموهبة خاصة تميزها عن غيرها من الصديقات. ولكن هذه الأشياء لا تبقى في الظلام كثيرًا، خصوصًا أن المكتبة لم تعد مكانًا مهجورًا مثلما كانت من قبل، وجده صدفة أحد المتسكعين بين الرفوف بينما يسامر صديقاته، وسرعان ما خرجت الكلمة. هشام لديه شيء يخصنا، هشام من؟ هشام الفتى الذي يمشي مع حمدي مكتبة.

وبهدوء شديد تكونت حول هشام مجموعة -صغيرة في البداية- من الزملاء طالبي الصداقة، طمعًا في نيل ولو قليل من الخيرات التي يتحكم هشام وحده في الوصل إليها. وصل الخبر إلى حمدي المنشغل باكتشافه المفاجئ أن حاشيته الشخصية التي اقتربت منه في البداية بهدف التقرب إلى أمينة المكتبة الحسناء صارت مع الوقت أصدقاء حقيقيين منبهرين بكلماته المختلفة وقدرته الفطرية -التي أبهرته هو ذاته- على الحديث الممتع للسامعين، لم يبال بما يجري مع هشام ولكنه أخبره بحسم أن هذه الأمور يجب أن تكون تحت سيطرته الكاملة ولا يمكن أن تصل بأي حال من الأحوال إلى معرفة أمينة المكتبة الشابة ولا أي مدرس في المدرسة. هشام لم يكن بحاجة إلى نصيحة حمدي، فهو

يكتشف في نفسه في هذه الأيام قدراته الغريزية التي طفت على السطح وظهرت في تحكمه في دخول وخروج جمهوره الخاص إلى مخبأه السري، الذين يختلف هدفهم عن هدف كل من يجيء إلى المكتبة، التي صارت وسط دهشة كل المعلمين أكثر أماكن المدرسة شعبية لعديد من الأهداف حب القراءة ليس أي منها.

حاشية هشام المتكونة حديثًا -التي اختلفت تمامًا عن حاشية حمدي، وإن لم تتعارض الأهداف ولم تصطدم أبدًا- تشابه أعضاؤها لتشابه أهدافهم، لذا لم يكن من الغريب أن تظهر بينهم مزيد من الموارد المرغوبة: قصاصة من مجلة، طالب موهوب في الرسم، آخر ذو خيال واسع وموهبة في حكي ما يتخيله بدقة، طالب يعرف آخر يعرف آخر يعرف شخصًا عائدًا من بلاد أجنبية ولديه مجلة من نوع خاص جدًا، تعدد الأشخاص وتعددت الموارد الهامة جدًا والمطلوبة، لكن أحدها لم يتعد حتى نصف أهمية كتاب هشام، ما لم يف ذلك الآخر بوعده ويحضر المجلة الأجنبية إياها. وبغريزة فطرية وجد الفتى نفسه صاحب السلطة الأولى واليد المتحكمة في كل هذه الموارد، وبحكمة بدأ بتوصيل النقاط ببعضها، قام بربط وإنشاء شبكة بين الزملاء تعمل على توصيل من يحتاج إلى شيء إلى من يستطيع توفيره، شبكة خيرية تمامًا تعمل على نشر الكنوز بين الجميع دون مقابل، أو هكذا كانت في عامها الأول.

حتى الآن، كلما يتذكر هشام هذه الأيام وكيف بدأ كل شيء، تضطرب نبضات قلبه وتبتل عيناه بدموع الحنين، إنها الأيام التي عرف فيها نفسه، أدرك فيها من هو حقًا وماذا خُلق ليفعل،

أدرك موهبته وأدرك ما يحبه فعمله وأتقنه، وعرف أن في هذا كان يكمن مستقبله.

الشبكة صغيرة الحجم نمت ككرة جليد تسقط من عل لتشمل المدارس المجاورة، الإعدادية وحتى أيضًا الثانوية، تنوعت الموارد المختلفة وتكاثرت، لم يكن أحد ليتخيل في أكثر أحلامه جموحًا وجود هذا الكام الرهيب من المواد -التي ستعرف بعد أعوام لاحقة باسم porn- في مجتمع طلاب مدارس الإسكندرية الحكومية، ظهور هشام المباغت بشبكة علاقاته المتسعة أظهرت المئات والمئات من الكنوز المخفية التي لا يعلم بوجودها إلا أصحابها وقلة من أقرب أصدقائهم، وطالب المدرسة الإعدادية الذي كان مجهولًا لا يكاد يميز وجوده من ينظر إليه مباشرة، صار فجأة أشهر وأهم طالب في مجتمع طلاب محرم بك الواسع، يعمل على توصيل المواد إلى راغبيها في عمليات مقايضة، ومن لا يملك ما يقايض به أو قلت قيمة ما يقدمه يدفع قيمة مادية رمزية لصاحب المادة المطلوبة وقيمة أخرى لإدارة الشبكة -المتمثلة في هشام- المسؤولة عن تسهيل العمليات المماثلة وتوفير المزيد من المحتويات المرغوبة.

أرسى القواعد ورسخها واتبعها الجميع في طاعة، من يملك محتوى مرغوبًا لا يدور به متفاخرًا، عليه أن يذهب به بهدوء إلى هشام أو من ناب عنه في الشارع أو المدرسة، ويقوم هشام أو ممثله بإضافة المادة الجديدة في قاعدة بيانات الشبكة ونشرها وتوزيعها، وعوائدها تقسَّم بالعدل بين صاحبها وإدارة الشبكة. والمستأجرون عليهم التعهد بالسرية التامة، وتحمل المسؤولية

الكاملة وحدهم في حالة افتضاح أمرهم، وترك ما يضمن حفاظهم على عهودهم وعلى ما استأجروه من مواد نادرة، وفي حالة إتلاف المادة المستعارة أو افتضاح أمرها على المستأجر تعويض صاحبها وتعويض الشبكة تعويضًا يختاره مديرها ومؤسسها بنفسه. من يخرج عن هذه القوانين بأي شكل من الأشكال إما يُترك ليتعفن بعيدًا عن كل كنوز الشبكة التي تزداد يومًا بعد يوم، أو -إن أثار مشكلات للشبكة وأعضائها- يؤدب بالقوة من أعضاء الفرقة العسكرية للمؤسسة.

* * * *

مرت الأيام في سرعة، من كانوا بالأمس طلبة في المدرسة الإعدادية صاروا في بداية حياتهم الجامعية. حمدي يسطع في سماء كلية الآداب -في حكاية نعلم كيف ستنتهي قريبًا، أو ربما ستبدأ- بينما هشام لا يزال على رأس شبكته التي ازدادت ازدهارًا بالتحاق مؤسسها بكلية التجارة وتخطيها للحدود الجغرافية الضيقة لتشمل الإسكندرية بالكامل.

على استحياء تظهر في المجتمع بدعة جديدة، أجهزة عرض أشرطة الفيديو، رغم ارتفاع ثمنها إلا إنها تنتشر في البيوت على استحياء، كل بيت يضغط على ربه أن يشتري جهاز عرض الشرائط السحري هذا، البيت الذي لم يدخله جهاز فيديو هو بيت فقير بالضرورة وأهله يُعاملون معاملة الأيتام الجائز عليهم الصدقة بمقاييس المجتمع الجديد.

بغريزة رائد أعمال ومقاتل من أجل البقاء، علم هشام أن في الفيديو يكمن المستقبل، رغم أن انتشار أجهزة الفيديو ما زال في بدايته ولا وجود لشرائط إباحية ولا يوجد حتى من يتخيل أن هناك شيئًا مشابه، لكنه عرف أن ظهور تلك الشرائط مسألة وقت لا أكثر، جمهور القصاصات والمجلات سيزهدوا فيها فور رؤيتها تتحرك على الشاشة، وإن لم يكن هو المصدر الأول والوحيد للشرائط القادمة حتمًا سينتهي كل شيء وتصير مملكته إلى التراب، وهذا ما لن يسمح به أبدًا.

بدأ بإيجاد وظيفة كعامل في محل تأجير شرائط فيديو، تلك المحلات التي انتشرت فجأة في كل مكان تحت مسمى "نادي فيديو" كما تنتشر النار في الهشيم، وبشبكة معارفه الواسعة التي امتدت لمصريين مقيمين في الخارج، استطاع هشام الحصول على أول شريط فيديو إباحي يدخل مصر على الإطلاق. وكما كان الأمر دائمًا، ظل لهشام وشبكته السبق في كل ما هو جديد.

صاحب نادي الفيديو أدرك متأخرًا أن هشام يستغل محله لإدارة نشاط يختلف تمامًا عما خطط له. ثارت ثأرته وجن جنونه، "إزاي تبيع الحاجات الوسخة دي في المحل بتاعي؟"، ليهدأ لاحقًا عندما صارت له نسبة محترمة من الأرباح يقبضها من هشام بدلًا من أن يدفع له بنفسه راتب شهري، في مقابل تركه يمارس عمله في هدوء وأن يتحمل بالكامل مسؤوليته في حالة افتضاح أمره. نتيجة لهذا تفرغ هشام بالكامل لإدارة أعماله من نادي الفيديو، واحتاج إلى مساعد يدير نشاط تأجير الشرائط العادية، فطلب من رفيق الطفولة حمدي أن يفعل، الذي رفض

في البداية تمنعًا واستكبارًا أن يمارس أي وظيفة أثناء دراسته الجامعية، قبل أن يدرك أنها فرصة ذهبية لن تعوض لأن يقضي أوقاته بصحبة رفاق يعشقهم ويندر أن يجد فرصة لمقابلتهم، مارلون براندو وآل باتشينو وكوبريك وسكورسيزي وآخرين.

يفتخر هشام حتى وقتنا الحالي بأن "أنا أول واحد عرَّف أهل إسكندرية يعني إيه Porn". الحق أن نجاحه المتميز نموذج رائع يصلح للحكي عنه في ملتقيات التنمية البشرية، غريزته قادته من الصفر ليصبح المورد الأوحد والأفضل لمنتج يرغبه الجميع، واستطاع في وقت قياسي توفير كل الموارد الممكنة لخدمة نشاطه الوليد، وإنشاء شبكة عملاقة من المعارف تتسع باطراد. نمت شبكته وازدهرت تجارته وعلا نجمه، ولم يجعل التوسع المستمر يعيق حفاظه على أمنه وأمن عملائه، حتى التوترات القانونية التي حدثت لوهلة عالجها بمهارة بالتحالف مع الأشخاص المناسبين، عليه فقط أن ينشئ علاقة مع الشخص المناسب في المكان المناسب ومعرفة ما يحب وتوفيره.

جدير بالذكر أنه مع توسع أعمال وعلاقات هشام في هذه الفترة تلقى عروضًا عديدة من أشخاص مختلفين لتطوير أعماله إلى المرحلة التالية، وهو ما رفضه رفضًا قاطعًا في ثبات أخلاقي يحسد عليه، "أعرَّص؟ يابيه إحنا مش معرّصين، إحنا بنشتغل في الشرايط والصور آه، إنما مناكلش عيشنا أبدًا من تجارة اللحم الحي، حد الله يابيه".

* * * *

اقترب القرن من نهايته. شبكة هشام توقفت عن النمو منذ فترة طويلة بعد أن بلغت أبعد حدود الإسكندرية، وبلغ معها طموح هشام نهايته وزهد في المزيد.

"نحمد الله على نعمته، نحافظ على إللي في إيدينا بقى بدل ما نبص للي في إيد غيرنا، عشان ربنا يباركلنا"

نادي الفيديو صار ملكه منذ زمن، ومعه سلسلة من النوادي في كل أحياء الإسكندرية كفروع لمؤسسته العريقة، تبدو الأمور على خير حال، لكن غريزته التي مهدت له كل الطرق من قبل غير مطمئنة.

ومثلما ظهرت أجهزة الفيديو وانتشرت من قبل تظهر الآن أجهزة الكومبيوتر، انتشارها أقل سرعة وثمنها أغلى لكنها تنتشر. فهم قبل الجميع أن لعبة الفيديو ستندثر قريبًا وتحل محلها هذه الأجهزة المريبة الجديدة، سارع إلى تعلم ما يحتاج إلى تعلمه ليتمكن من الحفاظ على مكانته، بدت الأمور مطمئنة ووجد في نفسه القدرة على إضافة الاسطوانات إلى قائمة سلعه بجوار الأشرطة والمجلات. بيد أن قلبه يأبى أن يطمئن، شعور غريزي بالخطر يملأ أعماقه ولا يكاد يجد له مصدرًا.

ومع دخول القرن الجديد وانتشار مقاهي الإنترنت، استمر هشام في محاولات التأقلم وتحولت نوادي الفيديو -التي صارت شبه مهجورة- بالتدريج إلى مقاهي إنترنت، وفر ملاذًا آمنًا في سايبراته لطلاب المدارس الإعدادية والثانوية لمشاهدة كل ما ترغب فيه قلوبهم -أو باقي أعضائهم- بعيدًا عن عيون الكبار، ساعة

الإنترنت العادي بجنيهين وساعة الإنترنت الخاص بستة جنيهات. لكن قلبه لا يزال يأبى أن يطمئن.

غريزته أنبأته أنه رغم النجاح الحالي المستمر إلا أنه فقد نقطة قوته الأولى والأهم، السيطرة الكاملة. لم يعد هو المصدر الحصري الوحيد لما يبرع في بيعه، تتعدد المصادر تدريجيًا وتنتشر، وتدريجيًا ستنتفي أهميته وتختفي الحاجة إليه، ما يسمى بالإنترنت يوفر كل شيء بمنتهى السهولة ودون أي مقابل. أثارت هذه الفكرة رعبه وبحث عن طريقة لتلافي المصير المحتوم، ولكن الحل الوحيد لبقائه هو أن يصير المصدر الوحيد للإنترنت، ربما لو كان أغنى ببضعة مليارات لاستطاع فعل هذا، لكن الآن هذا ليس خيارًا متاحًا للأسف.

وفعلًا خرجت الأمور من بين أصابعه بسرعة مذهلة، الإنترنت غزا البيوت، وتوفرت كل المواد التي كان يتحكم في سريانها بين الناس بأسهل ما يمكن، ما كانت قديمًا أسطورة مرهوبة الجانب لها قدسيتها وطقوسها وتجهيزاتها، صارت الآن "مقاطع بلوتوث ساخنة" على تليفون محمول قذر يلتف حوله المراهقون في منتصف الشارع بين المارة. ذهب المعنى من وراء الأشياء وباتت الحياة عبثًا لا طائل من ورائه، ما كان مقدسًا أصبحت تلوكه الألسنة.

ما بناه هشام في ما يزيد عن ربع قرن، انهدم في أقل من سنوات ثلاث. انتفت الحاجة إليه وإلى خدماته، موهبته في إدارة شبكة بيع مواد إباحية اتضح أنها لا تعني بالضرورة موهبته في إدارة مجموعة من مقاهي الإنترنت وتوفير متطلباتها، باع السايبر وراء

السايبر بخسارات فادحة غير قابلة للتعويض، لم يُبقِ إلا على مقره الرئيسي الذي كان نادي الفيديو القديم، يقضي فيه أيامه ولياليه بين أجهزة صارت قديمة بالية لا تكاد تعمل، يتحصل على قوت يومه بشق الأنفس، قبل أن يعود كل ليلة لمسكنه ويفتح كتاب لوحات فناني عصر النهضة في أوروبا -الذي سرقه من مكتبة المدرسة الإعدادية قبل أن يتخرج منها- ويقضي ليلته بصحبه صديقاته القدامى اللواتي لن يهجرنه أبدًا مهما صارت إليه الأمور.

* * * *

ووقع في حفرة الاكتئاب.

نتيجة لخسارته المباغتة وانهيار كل ما بناه في وقت قصير، دخل هشام -للمرة الأولى في حياته- في حالة اكتئاب عميقة نموذجية، حزن مستمر وخيبة أمل دائمة وقلب منقبض، لحيته طالت وشعثت وخسر كرشه الذي طالما فخر به ونحل جسده وانحنى ظهره، وتزوج! لكنه زواج قصير لم يدم أكثر من شهور معدودة -لا يصعب تخيل أسباب فشل زواجه ونهايته العاجلة بالنظر إلى خبرات هشام السابقة- قبل أن يخرج منه أكثر اكتئابًا وأكثر كرهًا لذاته وللحياة. لكن هشام لم يكن خاسرًا متذمرًا مثل حمدي، استطاع في النهاية أن يخرج من اكتئابه وأن يتقبل سنة الحياة وما صارت إليه حياته، وقنع بما تبقى له من دخل محدود كصاحب سايبر، ومضت الحياة.

كافأته الحياة على صبره وتقبله للأمور باكتشاف جميل يناسب روحه المختلفة، مجتمعات محبي الـporn العربية على الإنترنت. ما زال يذكر حتى الآن اللحظة التي اكتشف فيها بالصدفة المحضة منتدى إنترنت عربيًا متخصصًا في تلبية طلبات الأعضاء في مختلف أنواع المحتويات التي خبر التعامل فيها منذ نمت شعيرات شاربه للمرة الأولى، مجتمع متعاون متحاب يساعد أفراده بعضهم بحب وإخلاص، اكتفى لحظتها بالتصفح والتقليب في محتويات المنتدى في صمت مشوب بالسعادة. بيد أن ما رآه أزعجه، إجابات ناقصة ومحتويات غير شافية ومعلومات مغلوطة خاطئة، رغم غبطة قلبه التي أصابته عند رؤيته للحماس والتفاني المتجليين بوضوح عند كل من في هذا المكان، إلا أن انعدام الخبرة كان جليًا فيما يفعلون، شعر بأن كل هذه القوى المخلصة تُهدر في ظل انعدام التوجيه المناسب، التوجيه الذي يستطيع أن يقدمه بنفسه.

سجل عضوية جديدة في المنتدى، سمى نفسه " The Amazing H"، وشرع على استحياء في الرد على التساؤلات والطلبات ما أوتي من علم لم ينله غيره. ردوده البسيطة كان لها مفعول السحر على السائلين، ذُهل جمهور المنتدى الافتراضي - وأغلبهم من الشباب المتحمسين صغار السن والخبرة- أعظم الذهول بالخبرة الهائلة التي ظهرت بوضوح في ردود العضو الجديد غير معروف الهوية، سرعان ما أُطلق عليه لقب "الحكيم H" انبهارًا به وبعظيم علمه.

ووجدت روحه الهائمة مستقرها مرة أخرى بعد سنوات الضياع، وجد هشام في تقديم خدماته التي تتمثل في إرشاد التائهين إلى وجهتهم وتقديم العلم لمن احتاجه، راحة القلب المُفتقدة، وعلى الرغم من أن خدماته الآن تُقدم بلا مقابل مادي إلا أنه لم يعد يهتم بهذا حتى وإن عانى من قلة موارده المادية، شعوره بأنه يمثل الدليل لكل حائر كان له خير مُشبع من نقص الحاجات اليومية المادية. عاد للحياة معناها المفقود واعتدلت موازين الكون المختلة، هدأ قلبه وكبر كرشه ونامت روحه في سلام.

سطع اسم "الحكيم H" في سماء هذه البقعة المظلمة سيئة السمعة من الإنترنت، لجأ الحائرون والباحثون عن الهدى إليه من كل مكان عالمين أنه لم يرد متسائلًا خائب الرجاء من قبل. صارت له حاشيته ومريدوه مرة أخرى مثلما كان الوضع سابقًا. ومن هؤلاء المريدين نذكر -نذكر فقط لدواعي الحكاية التي دفعتنا مرغمين إلى الإطالة هنا، عسى أن يخرجنا الله من هنا على خير- "The Lovely Lovely Lady".

"The Lovely Lovely Lady" اسم ظهر بكثرة في التعليقات على مواضيع وردود "The Amazing H" في مختلف الأماكن، لم يكن له تأثير على هشام بأي شكل إلا عندما أصبح هذا الاسم ضيفًا دائمًا في صندوق بريده، في كل صندوق بريد وكل نافذة برنامج حواري تظهر صاحبة الاسم مجزلةً عليه الثناء وعلى ما يقدمه من خدمات ليس لها مثيل دون مقابل. لم يألف هشام التعامل مع الإناث في مسيرته الطويلة فيما يتعلق بعمله، جُلُّ عملائه كانوا من الذكور، وحتى على الإنترنت كل مريديه تقريبًا

من الذكور، إلا القليل من أصحاب الأسماء المؤنثة الذين يعلم بغريزته أنها لذكور مدعين لسبب مريض أو لآخر، لذا تعامل بحذر شديد مع ظهور "Lovely Lovely Lady The" المستمر حوله في كل مكان وهو متيقن تقريبًا أنها ذكر، ولكن هناك دومًا ذلك الاحتمال الضئيل جدًا، احتمال 0.00001% أنها فتاة فعلًا، احتمال ينبع من طبيعة ذكورية متأصلة تخبره أنه لا بد أن هناك في هذا الكون على الأقل أنثى وحيدة تلائمه وتشاركه أفكاره واهتماماته ورغباته المختلفة، وستأتي هذه الأنثى يومًا بشكل ما، فحتى لو أتى كل رجال الكون بحسابات وهمية تدعي أنها إناث عليه أن يعاملهن جميعًا على أنهن كذلك حتى يثبت العكس، فهناك على الأقل واحدة ستتجلى يومًا.

بعد أيام من الثناء عليه والتودد له والتقرب منه، بدأت " The Lovely Lovely Lady" في الإفصاح عن مرادها:

"عايزة صور بنات سيكسي، صور كتيييييير، بس يكونوا لابسين هدومهم، أو مش قالعين أوي يعني، فاهمني؟"

طلبات الفتاة -إن اعتبرناها كذلك- كانت غريبة جدًا، بيد أن خبرة هشام الطويلة في هذا المجال علمته ألا يندهش من أي رغبة لأي شخص، رأى في طريقه الطويل من الغرابة ما جعله لا يندهش حتى أقل الاندهاش من هذا الطلب، حتى لم يزد هذا الطلب من ريبته في كونها فتاة أو لا. ولأن مبادئه تمنعه من رد أي سائل خالي الوفاض، ولأن الاحتمال البعيد جدًا أنها فعلًا فتاة، وفر لها هشام عشرات الصور لفتيات في أوضاع مثيرة لم يخلعن ملابسهن بعد. رغم البساطة التي يبدو عليها الأمر، إلا أن

في الحقيقة وفرة المواد الإباحية على الإنترنت جعلت من مهمة العثور على فتيات مثيرة لم يخلعن ملابسهن مهمة شاقة جدًا، لا يقدر عليها سوى خبير قديم مثل هشام. فرحت بما أتاها فرحًا عظيمًا وزادت له من الثناء والإطراء ما أثلج قلبه، وجعله يشعر كمحسن أجزل العطاء للفقراء والمحتاجين حتى لم يعودوا كذلك.

اختفت لفترة حتى نسيها، قبل أن تعود " The Lovely Lovely Lady" مرة أخرى مكررة طلبها المحمل برسائل الإطراء، وقدم لها هشام مجموعة أخرى من الصور المطلوبة، ثم تكرر الطلب مرة ثانية وثالثة وعاشرة، وكأن لم يكفيها مئات وربما آلاف الصور التي يرسلها هشام بشكل أسبوعي. أُصيب بالملل منها ومن تكرارها لطلبها الدائم، اشتعل بداخله الصراع بين عهده الذي اتخذه على نفسه بألا يرد طالبًا خائبًا أبدًا وبين حنقه منها ومن تكرار طلبها دون حتى أن ينال منها ولو لمحة صغيرة مما يناله الرجل من أنثى، صراع الواجب والعاطفة لم يطل داخل هشام عندما أدرك أنه صار يبذل من المجهود والوقت في تلبية طلبها أضعاف ما يبذله في تلبية رغبات العشرات من السائلين الآخرين، ما يعني أنه يضيع حقوق المحتاجين في تلبية رغبة وحيدة لمن لا تشبع ولا تقدم مقابل.

طفح كيله وأخبرها في وضوح وحسم في رسالة أنه لم يعد لديه ما يقدمه لها، كانت السابقة الأولى من نوعها أن يرد هشام طالبًا خائبًا، ناهيك بأمله الدفين الذى يأبى أن يُطفأ أن تتضح أنها فتاة حقيقية في نهاية المطاف، لكنه سيطر على مشاعره المتضاربة

ولم يكترث لرسائلها الباكية المتوسلة طلبًا للمزيد، وعدته بأنها ستفتح له "الكاميرا" إن عاد لتقديم خدماته، وافق -بالطبع- مشترطًا أن تفعل هي قبل أن يقدم أي شيء، لكنها ماطلت ولم تفعل في النهاية، ما أكد له أن وعدها كان حيلة يائسة رخيصة منها زادته ثباتًا على موقفه.

لشهور تالية اختفت "The Lovely Lovely Lady" تمامًا، قبل أن تعود للظهور في رسالة من كلمة واحدة.

"نتقابل؟"

* * * *

"مزجر الكلب"

حاول نفض هذه الفكرة من رأسه بينما يجلس بجوار مدخل الكافيتيريا الشهيرة في محطة الرمل، ولكن صوت رفيق طفولته حمدي وهو يصف جلسته القريبة من الباب دائمًا بـ"مزجر الكلب" ظل يتردد في رأسه، كان حمدي يخبره أنها ليست سبابًا، إنما هو تعبير عربي قديم يطلقونه على الكلب إذا حاول التقرب من قوم يأكلون فنهروه بعيدًا، فيجلس بالقرب من مدخل المكان، بحيث يكون قريبًا إن نالتهم الشفقة عليه وأعطوه من الطعام، أو جاهزًا للهروب فورًا في حال صارت الأمور إلى الأسوأ. لم يقتنع أنها ليست إهانة، ولكنه يذكرها دومًا رغمًا عنه كلما قادته غريزته لاختيار محل جلوسه قريبًا من الباب.

حاول التشاغل عن الفكرة بالنظر إلى ساعته ليجدها تجاوزت الثانية ظهرًا، تأخرت "The Lovely Lovely Lady" عن موعدها، وعدته بأن تكون موجودة في الثانية ظهرًا بالضبط. حذاؤه أسود لامع مع بنطال وقميص من نفس اللون، بذل مجهودًا عظيمًا لمداراة كرشه بربط حزام قماشي عريض مشدود لأقصى درجة حول بطنه تحت القميص، جعل تنفسه عسيرًا، سلسلته الذهبية اللامعة كانت واضحة بين غابة من شعر الصدر الخارج من فتحات أزرار القميص العلوية، شعره مصفف بعناية على طريقة تسريحة شبابية شهيرة لا تليق تمامًا مع سنه الذي بدا واضحًا أنه تخطى الأربعين، مع تحديد دقيق جدًا لشعيرات ذقنه يكاد يكون باستخدام أدوات هندسية معقدة للوصول إلى مثل هذه الخطوط المتقنة. هو شبه متيقن من وجود خدعة ما، الحياة ليست بهذا الجود لتهديه فتاة ترغب فيه وفي مقابلته بل وتشاركه الاهتمام بتفاصيل حياته المختلفة، لكن الأمل يعاوده رغمًا عنه، المعجزات تحدث أحيانًا، ألم يحن الوقت أن ينال نصيبه منها؟ وماذا قد يحدث إن كانت خدعة؟ أسوأ ما يمكن أن يحدث أن يظل منتظرًا لساعات دون أن يظهر أحدهم فيعود يائسًا، لن تخطفه عصابة شريرة وتطلب فدية بالمقابل مثلًا، ستكون أسوأ العصابات حظًا بالكون. ولكن.. ماذا لو هي خدعة ليخطفه أحدهم ليغتصبونه مثلًا؟ تبًا.. هذا ممكن فعلًا! خبراته الطويلة تحدثه بأن احتمالية حدوث هذا تفوق احتمالية أن هناك فتاة تحبه وترغب في مقابلته ليمدها بالصور العارية في مقابل أن ينال ما يرغب فيه منها. أصابه رعب لحظي لكنه تماسك ولم يبد عليه شيء، سوى قليل من التوتر

في حركات عينيه المتنقلة بين المدخل وبين تفحص كل النساء المتواجدات في المكان باحثة بأمل يائس عن " The Lovely Lovely Lady". حتى لو كانت عصابة من الأشرار تنوي خطفه واغتصابه، لن يكون ضحية سهلة، المكان مزدحم على أية حال وشمس الظهيرة تنير الأجواء ولن ينال منه أحد شعرة.

قطع تسلسل أفكاره المتوترة رنين الهاتف بنغمة الرسالة المميزة، حاول تجاهل الخواطر المخيفة بينما يفتح الرسالة.

"أنا وصلت، أنت فين؟"

دق قلبه بجنون، أهو فعلًا على شفا أول موعد عاطفي في حياته؟ رفع رأسه ودار بعينيه باحثًا عن فتاة تقف وحيدة تنظر إلى شاشة هاتفها أو ربما تنظر حولها باحثة عنه، لم يجد من تلائم المواصفات ولم ينل سوى نظرات النساء المتهمة إياه بالتحرش، بعد تفحصه لهن بعيونه في بحثه اليائس عن "السيدة الحبوبة الحبوبة".

"أنا لابس قميص أسود وقاعد على الترابيزة جنب الباب"

ضغط إرسال.

دقات قلبه زادت وعلا صوتها حتى ظن أن كل الناس تسمعها، رأسه تدور في جنون باحثة عن الحبيبة المرتقبة، ألف فكرة دارت في مخيلته عما سيفعله لاحقًا مع " The Lovely Lovely Lady"، لا يهمه حتى إن لم تكن جميلة، يكفي أنها امرأة وأنها

تعلم حقيقته ولا ترفضها، بل وتشاركه إياها، يكفيه هذا ويقر عينه، و.. .

"إيه ده! هشام باشا؟"

انتزعه صوت الشاب المألوف من خياله انتزاعًا ملقيًا إياه بعنف في أرض الواقع ليمتلأ بالجروح والكدمات ويغطيه الغبار، قبل أن ينهض في شمم نافضًا غبار الواقع عنه ويرد على الصوت قائلًا:

"وائل؟ أنت هنا صدفة، صح؟"

الشاب العشريني سحب الكرسي المقابل أمام هشام، وبدلًا من أن يجلس عليه أشار باحترام للرجل قصير القامة السمين ككرة بالجلوس، قبل أن يسحب كرسيًا من منضدة خالية مجاورة ويضمه لمنضدة هشام ويجلس بدوره، وبلهجة اعتذارية قال:

"لأ بصراحة مش صدفة يا إتش، بس والله ماكنتش أعرف إن أنت (The Amazing H)، لو كنت أعرف والله ما.. ”

قطع كلامه قائلًا في غضب واضح:

"بتشتغلني يا وائل؟ بتكلمني على إنك بنت؟ بتعمل فيا أنا حركات عيال الإعدادي الوسخة دي؟"

وائل كان عميلًا قديمًا من نهايات عصر شرائط الفيديو وبداية ظهور الاسطوانات، كان زبونًا دائمًا لهشام منذ مراهقته المبكرة، ولكنه اختفى مع اختفاء كل شيء لاحقًا. الرجل قصير القامة الذي لم ينطق بحرف حتى الآن كان يبدو مألوفًا جدًا بدوره، لكنه ليس عميلًا قديمًا وإلا كان هشام عرفه لأول وهلة مثلما

عرف وائل، هو فقط مألوف جدًا، حركاته الغريبة وجسده المضحك المتعرق بغزارة وشعره الناعم الطويل.

"سامحني والله يا هشام، أنا.. ”

إشارة من يد الرجل السمين قطعت كلام وائل المعتذر، بينما عقل هشام يعاني من صدمة انهيار أحلامه وأنه خُدع خدعة رخيصة رغم أنه توقعها من البداية، إلا أن جزءًا منه كان منشغلًا في البحث بجدية بين طيات عقله عن هوية الرجل أو هوية من يشتبه عليه.

"أستاذ هشام، أنا بعتذرلك عن الطريقة السخيفة إللي تواصلنا معاك بيها"

الصوت.. الصوت مألوف جدًا، بالتأكيد هو يعرف هذا الرجل. تدخل وائل متنحنحًا بنعومة قبل أن يعرف الرجل المضحك الغريب:

"أستاذ صلاح الطاهر"

الرجل البطريق، بالضبط.. هذا هو الرجل البطريق الذي شاهده في فيلم باتمان منذ بضع سنين، هو الرجل البطريق بكل تأكيد.

"بيزنس مان، ومالك لعدد من الصحف الأسبوعية المستقلة الشهيرة"

تماسك هشام وحاول طرد صورة الرجل البطريق من مخيلته.

"تشرفنا. وأستاذ صلاح هو إللي قالك تشتغلني وتكلمني على إنك بنت عشان تاخد مني صور سكس؟"

علا ملامح وائل الإحراج وفغر ثغره ليهم بالحديث قبل أن يخرس مرة أخرى بإشارة من صلاح الطاهر، الذي يتحدث بصوت أراده عميقًا لكنه لم يفلح في ذلك كثيرًا.

"زي ما قلتلك يا أستاذ هشام إحنا بنعتذرلك جدًا، لو كان وائل افتكر إنه يعرف شخص موهوب زي حضرتك من زمان كنا لجأنا ليك مباشرة دون الحاجة إلى أساليب ملتوية زي إللي اضطرينا ليها، أرجوك سامحنا. زي ما وائل قالك: أنا صلاح الطاهر، business-man and owner لمؤسسة الطاهر الإعلامية، المؤسسة المالكة لثلاث جرائد أسبوعية معروفة، (المحامي) و(حوادث الأمة) و(دموع الندم)، أكيد تعرفهم، صح؟"

بالطبع يعرفهم، الجميع يعرف هذه الجرائد، جرائد الحوادث الصفراء التي يعلقها كل بائع جرائد في المقدمة ليجذب بها المارة، بصور الفتيات المثيرة التي تملأ صفحاتها من الغلاف للغلاف إلى جوار أخبار حوادث مفبركة عن الدعارة والدجل وما شابه. بصوت ينم عن بدايات فهمه لما حدث وإحساسه بما هو آت لاحقًا:

"آه طبعًا عارفهم"

"ممتاز، لو عارفهم يبقى أكيد حضرتك عارف إننا بنحتاج باستمرار نوع معين من المواد الإعلامية الملائمة لطبيعة أخبارنا، فاهمني طبعًا؟"

اتسعت ابتسامته ووضح الأمر تمامًا في عقله. "فاهمك أكيد، صور بنات مش.. "

مقاطعًا: "كويس إنك فاهم. بقالنا فترة بتواجهنا مشكلة إننا مش بنلاقي بسهولة المواد المطلوبة بوفرة كافية، كان شغال معانا حد موهوب زي حضرتك، بس لظروف ما معادش موجود، وده سبب وجود فراغ في بنية مؤسستنا الإعلامية"

بدأ يومه يحلم بمقابلة فتاة أحلامه، لينتهي إلى مقابلة الرجل البطريق يعرض عليه وظيفة إمداد صحف الجريمة الصفراء بصور إباحية تصلح للنشر، هذه أشياء لا تحدث كل يوم.

"أستاذ هشام، أنا بعرض عليك منصب Media Consultant لمؤسستنا الإعلامية"

فهم هشام ضمنيًا ما يعني الرجل لكنه لم يفهم معنى كلماته الغريبة، صمت لثوان مقلبًا الجملة الغريبة في دماغه قبل أن يتساءل: "نعم؟".

تدخل وائل موضحًا: "أستاذ صلاح بيعرض عليك منصب المستشار الإعلامي لمؤسسة الطاهر يابو هشام".

"مستشار؟ كوستاتت يعني مستشار؟"

"كون-سالت-تانت"

ضحك في سخرية ضحكة سريعة قبل أن ينهيها بعد نظرة صلاح الغاضبة/المضحكة، "حتستشيروني في إيه بقى؟".

"حتستمر في إمدادنا بالمواد الإعلامية المطلوبة بشكل يكفي لسد احتياجات المؤسسة"

"كده أنا كونسالتانت؟"

"بالظبط، وبمرتب شهري محترم"

"ومش عايزني أقتل باتمان؟"

"نعم؟"

"لا ولا حاجة، لامؤاخذة"

6

"جرنان إيه يا هشام؟ يكون قصدك ع الجرايد الوسخة اللي أنت شغال فيها!"

"بالراحة عليا شوية ياعم، جرايد وسخة ولا نضيفة حتفرق معاك إيه؟ إحنا عايزين حد يساعد في كتابة الأخبار والمقالات وحياكل لقمة حلوة"

"أنت حتقلي أخبار ومقالات! ياض دانت بتبيعلهم صور سكس يحطوها على أخبار متفبركة، حتشتغلني وتقولي أخبار ومقالات؟"

اعتدل هشام في جلسته وعاد بظهره للخلف رافعًا يديه عاليًا مدافعًا عن نفسه ضد كلام حمدي.

"صور سكس إيه يا أبو حودة، عيب الكلام ده، إحنا كبرنا وربنا تاب علينا من لعب العيال، أنا Media Consultant في مؤسسة الطاهر الإعلامية"

خرجت من حمدي ضحكة ساخرة عصبية بدت أشبه بسبة منها لضحكة.

"الطاهر؟ الطاهر ده يبقى أبوك عم فتحي الله يرحمه، كان راجل غلبان بيتكسف يعلق في كشكه الجرايد الوسخة بتاعتكو دي. ابقى روح قوله أنا شغال كونسالتنت في مؤسسة إعلامية"

ذكر أبيه -الذي عاش ومات لا يعرف شيئًا عن نشاطات ابنه- ضايقه وأراد الابتعاد في سرعة عن هذه النقطة من الحديث قبل أن يستخدمها حمدي بشكل أكثر سخرية.

"اهدى شوية واسمعني، مرتبك كام يا حمدي؟ بيكفي إيه يعني؟ أراهن إن علبتين سجاير كل يوم تطير نصه، ومصاريف بيتك وأبنك؟ عايز تقنعني إن مرتبك مكفي كل ده؟"

نجحت مراوغته في إرباك حمدي، المرتب والتفاصيل المادية يمثلان حجة لا يمكن دحضها، تجمدت الكلمات على طرف لسانه فسحب أنفاسًا متتالية عصبية من سيجارته، معطيًا الفرصة لهشام ليكمل وهو يشعر بقوة حجته:

"أنت كنت بتكتب حلو زمان، حتى لو بطلت كتابة إحنا مش عايزين حد بيكتب جامد أوي، أي كلمتين حيقومو بالواجب. على فكرة إحنا ممكن نجيب أي حد يقوم بالليلة دي بس أنا قلتلهم عندي واحد حبيبي ممكن يقوم بالحوار كله أجدع من أي حد. أنا جايبلك سبوبة حلوة وأنا عارف إنها ولا حاجة بالنسبة لك، مش حتاخد منك أي مجهود"

طال صمت حمدي، تأمل هشام رفيق الطفولة جالسًا عبر المكتب، غضبه جلي على ملامحه ورفضه يبدو لأول وهلة قاطعًا، لكن من يعرفه جيدًا يستطيع تبين كثيرًا من الحيرة خلف قناع الغضب.

"لأ، مش حعمل القرف ده"

قالها في حزم. تصريح كهذا يعقبه عادة خروج درامي عاصف من المكان يغلق أي باب لإعادة النقاش، وهذا ما قرر حمدي أن يفعله بعد قوله، لكنه لم يفعل. كتم هشام ابتسامة ظافرة عالما أنها لو خرجت ستحسم تردد حمدي ويخرج رافضًا، لم يرد وعقد ساعديه وظل منتظرًا في صمت. صمت طال لدقيقة كاملة بدا فيها صراع الغضب مع الحيرة على وجه حمدي، قبل أن يقول في صوت لا يكاد يُسمع:

"فلوسها إيه الليلة دي؟"

وهربت ابتسامة هشام الظافرة من قيودها.

* * * *

في ليال كهذه لا يجد المرء إلى النوم سبيلًا.

فبينما تتجلى على استحياء لمحات من أشعة الشمس لتُبين بوضوح الخيط الأبيض من الخيط الأسود، كان حمدي يتقلب في أرق على كنبته محاولًا استدعاء نعاس لا يجيء في ظل عاصفة الأفكار الدائرة في باله.

كلمات هشام كان لها تأثير من حاول التقاط شيء من على رف عال مثقل بالمحتويات القديمة المتربة، فأوقع الرف بمحتوياته كلها لتملأ المكان بعد أن نسيها -أو تناساها- الجميع لبعدها عن ناظرهم. فيضان من الذكريات والخواطر القديمة التي حسبها حمدي ماتت، فقط ليدرك أنها دُفنت حية ولم تمت أبدًا وعادت كلها لتطارده مرة أخرى.

في عصور غابرة حلم بالكتابة، حلم أن يصبح ساحرًا من سحرة الحروف، مثل أولئك الذين أصابته لعناتهم منذ الطفولة المبكرة فخرج مسحورًا خلفهم في كل واد يهيم. بينما كان أقرانه يحلمون بأن يصيروا لاعبي كرة قدم أو فنانين، والمغفلون فاقدو الخيال منهم أرادوا أن يصبحوا أطباء ومهندسين، كان هو يرغب فقط في الكتابة، كتابة الروايات والأعمال الأدبية بالذات. محاولاته الأولى للكتابة في الفترة الجامعية كانت مبشرة، العلامات التي رآها في انبهار الآخرين بكلماته قالت إن حلمه قابل للتحقق، أحلامه التي شيدها في الخيال عن مستقبل مشرق لكاتب فائق الموهبة عظيم الشهرة قالت إن حلمه قابل للتحقق. لكن حدث ما حدث ومات الحلم مع من مات ولم تبق سوى الحسرة، انتهى كل شيء منذ زمن أبعد من أن يذكره، حاول اعتصار ذاكرته ليذكر متى كانت آخر مرة وُجدت لديه هذه الرغبة بلا فائدة. الحق أنه لم يفكر من قبل -ولن يفعل أبدًا- أن ما حدث من وفاة أبيه وما تبعها من أحداث لم تعن بالضرورة القضاء على حلمه، فالكتابة ليست وظيفة تطلب شهادة رسمية حكومية معتمدة، ووظيفته كمحصل تذاكر تمنحه دومًا نصف يوم كامل قبل بداية ورديته اليومية يمكنه فيه أن يفعل ما يريد، لكن حمدي استعذب دور الضحية المظلومة التي أتى عليها الدهر فقضى عليها، دون أن يدرك أنه يفعل، ووجد في تلك الحياة لذة خفية لا تحتاج إلى بذل مجهود من نوع خاص، تكفي دومًا فكرة أن "الظروف حكمت علي بما أنا عليه ولا أملك من أمري شيئًا" لترد أي محاولة لتحقيق أي شيء ردًا خائبًا، فعاش عمره مدفونًا

في قبر حُكم عليه به لسنوات قليلة، وحكم على نفسه -بلا وعي- أن يبقى فيه مدفونًا إلى الآن.

لطالما كانت للحروف المطبوعة قدسيتها عنده، شعر دومًا تجاه كتبة الغرائز والقاذورات وكأنهم زنادقة مارقون مُباح دمهم، لا بأس بعديمي الموهبة المؤمنين بعظمة ما يكتبون، هؤلاء مجرد حمقى بحاجة إلى من يخبرهم أنهم كذلك، حتى وإن كتبوا الخراء فهم لا يدركون أنه كذلك. لكن الحقير فعلًا هو من يتعمد كتابة القذارة، من يكتب فقط ليثير غرائز ويخاطب شهوات، من يكتب أفكارًا تثير الفتن دون أي إيمان بما يكتبه، من يكتب كل هذا فقط ليبيع متجاهلًا أنه بفعلته قد دنس أقدس المقدسات وداس عليها بقدمه. صحف الجنس القذرة تلك مثال صريح لكل ما يحتقر، وإن كانت ليست الألعن على الإطلاق.

"شوف يا سيدي، أظن أنت عارف بصراحة إن الأخبار بتاعتنا مش كلها صح 100%، ساعات بنزود حركات صغيرة كده، فاهمني طبعًا. كان معانا اتنين بيكتبوا أخبار التلات جرايد بتوع المؤسسة، واحد منهم مبقاش موجود، ربنا كرمه وبقى صحفي في جريدة الأسبوع، دلوقتي عايزين واحد يسد مكانه، بقالنا فترة بننزل الجرايد كل أسبوع بأخبار مكررة من أعداد قديمة، محدش واخد باله والدنيا ماشية، وممكن نفضل نعمل كده سنين ومحدش حيحس، الناس مش بتشتري عشان تقرى الكلام، الناس عايزة تشوف شغلي أنا، شغل هشام، بس أستاذ صلاح مبيعجبهوش الحال المايل وبيقول إن ضميره بيمنعه يضحك على القارئ ويكرر أخبار قديمة، راجل صاحب مبدأ ما شاء الله

عليه، أنا قلتلهم حجيبلكم واحد يظبطكم، أصل أنا عارف إللي حمدي بيكتبه مش زي أي حد"

أحقر وصف لوظيفة سمعته في حياتي، بشكل ما وظيفة هشام تُعتبر أكثر أخلاقية من الوظيفة المعروضة عليّ، على الأقل هشام لا يكذب ولا يبيع الكذب، بضاعة هشام لم تكن يومًا مزيفة أو كاذبة، من يشتري يعلم جيدًا ماذا يشتري ويشتريه بإرادته الكاملة، الكل صادق فيما انتوى. لكن وظيفة كاتب الغرائز هذه منحطة بما لا يقاس، لن يوجد من يحمل ذرة احترام لذاته يقبل بها.

لكن، من قال إني أحمل أي احترام لذاتي؟ لماذا قد أفعل؟ ماذا بقي لدي لأحترمه؟ إن كنت أكره الكون بما فيه، فأنا أكرهك يا حمدي أكثر من الباقين. ماذا يميزك ليجعلك أرقى من هؤلاء المنحطين كاتبي الغرائز وبائعيها؟ لماذا تعد نفسك أفضل؟ أنت مجرد مغرور أحمق آخر، أنت السبب في كل ما صرت إليه بغبائك وعنادك وإصرارك على أنك تنتمي إلى مكان أجمل وأرقى، أنت لم تنتم أبدًا لأي مكان إلا هنا، هنا في هذا البيت العتيق المهدد الآيل للسُّقوط، أو خلف مكتب تحصيل التذاكر في الترام.

ثم لماذا ترى في الكتابة قدسية خاصة؟ إلى أين أوصلتك هذه الكتب؟ إلى أين صرت بعشقك المكتوب وإدمانك الحروف؟ ليست هذه إلا فكرة حمقاء من أعماق زمن غابر لشاب حالم غر لا يرى أبعد من قدميه. بل إن الكتابة والكتب ليست إلا لعنة، لعنة أصابت روحك وتلبستها وسيطرت عليها حتى فتنت

نفسك وغرتك الأماني، فكفرت بحياتك ورغبت عنها بأخرى لم توجد إلا في أعماق خيالك المريض. واجه الحقيقة يابن الحاج محمود الكمساري، أنت الحقير وليس الآخرون، أنت من جعلت حياتك أكثر الحيوات بؤسًا بكتبك الغاوية وكُتابها الشياطين، هم من سحروك بحروف من ذهب فألقيت متاعك وتبعتهم راغبًا في المزيد، راغبًا في أن تكون واحدًا من الشياطين الغاوين، ألا لعنة الله عليهم وعليك وعلى كل من اتبعهم أجمعين.

لو عاد بي الزمن لما غيرت شيئًا في حياتي سوى أن ألقي بكتبي القديمة وأحرقها، ربما إن كنت فعلت لعشت حياة سعيدة الآن، ربما كنت سأشارك زملائي لحظات تبادل أكواب الشاي وما يجاورها من مزاح سخيف وحكايات بائسة، ربما كنت سأضحك ملء شدقي مثلهم على هرائهم، ربما كنت سأتقبل زوجتي الغبية، ربما كنت سأحبها وأحب رضاها الأحمق بكل شيء، ربما كنت سأفرح بابن مراهق سخيف وأفتخر به أمام الآخرين مثلهم جميعًا.

عند هذه المرحلة من التفكير لم يحتمل بقاءه راقدًا باحثًا عن نوم لن يأتي هذه الليلة، انتفض من مرقده في حركة مباغتة واتجه لعلبة السجائر الملقاة بإهمال على مكتبه بجور القداحة، أشعل سيجارة وسحب أنفاسها بنهم كغريق طال هواءً، ظل يدخن وجعل يروج ويجيء في الغرفة وعلى وجهه تمرح الشياطين وترقص في عيونه النيران، يتنفس بصوت مسموع أقرب إلى زمجرات حيوان غاضب بينما تدور خواطره في نفس الدائرة المغلقة بلا نهاية. لمح في تجواله الكيس البلاستيكي

الملقى بإهمال في جانب الغرفة ممتلئًا بالجرائد القديمة مصفرة الأوراق.

"خد الكيسة دي معاك، شوية أعداد من الجرايد، اقرا وخد فكرة، بلغني قرارك وقت ما تحب، تصبح على خير يا باشا"

انحنى ملتقطًا الكيس الذي تمزق مبعثرًا محتوياته ما إن حاول رفعه، التقط بإهمال واحدة من الجرائد المبعثرة على الأرض، عدد قديم من جريدة "المحامي"، وجلس في موقعه الدائم على الكنبة التي تحمل حاشيتها القطنية علامات دائمة لمواقع ارتكاز جسده النحيف عليها، ليكتشف أن مطفأة السجائر ما زالت على المكتب، زفر في حنق وفكر لثوان قبل أن يعدل عن رأيه وينفض رماد السيجارة المتراكم على الأرض العارية، وبدأ يقرأ:

"وفاء تحرج نرمين بصور فاضحة: إيه رأي جوزك في الصور دي؟ ونيرمين ترد: خاصمني يومين"

"جريمة اغتصاب بشعة.. الطفلة ماتت بين أحضان الذئب فأكمل جريمته الجنسية"

"ترزي في الغربية يمارس الرذيلة مع المترددات على محله"

"رئيس حزب معارض يستعين بشيوخ السحر لتحضير ملوك الجن لمساعدته على الفوز في الانتخابات.. وملك الجن يرفض"

"سحر هربت من منزلها من أجل عشيقها.. وعائلتها وجدتها في وسط البلد بفضيحة".

"قصة ملكة الجن الأحمر مع ابن الأكابر.. تزوجته وعاش معها كأمير.. وفشل عدد كبير من الدجالين في مواجهتها"

بجانب كل خبر أو عنوان صورة لامرأة في ملابس فاضحة وأوضاع جسدية مثيرة، على عيون كل منهن شريط أسود رفيع يغطيها، وكأنها صور لمجرمات أو ضحايا غُطيت ملامحهن لمداراة هوياتهن فلا يتعرف عليهن أحد. لاحظ حمدي وجود رموز باهتة لا تكاد تُرى في قاعدة إحدى الصور، رفع الجريدة وقربها من عينيه بينما يبعد يده التي تحمل السيجارة عنها، تأمل الرموز ليجد أنها رمز مائي لموقع إنترنت إباحي، ضحك في سخرية عصبية وردد بصوت مسموع:

"حتى أنت يا هشام مش عارف تشوف شغلك صح!"

استمر في تقليب الصفحات وقراءة المقالات، أول ما لاحظه كان عدم وجود أسماء لكتاب المقالات وكأنها كتبت نفسها بنفسها، أغلب محتويات الأخبار مخيب للتوقعات المثيرة التي تقدمها العناوين ذات الخطوط العريضة. بحث في الصحيفة عن اسم صلاح الطاهر أو مؤسسة الطاهرة ولم يجد، قام واتجه إلى كومة الصحف الملقاة على الأرض وانتزع منها عددًا من "دموع الندم" وآخر من "حوادث الأمة". لم ينس أن يشعل سيجارة أخرى قبل أن يعود للكنبة ويكمل البحث عن اسم صلاح الطاهر ومؤسسته. في اندهاش وجد أن لكل من الصحف الثلاث اسم رئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة يختلف عن الأخريات، ولا وجود لصلاح الطاهرة ومؤسسته في أي مكان! تذكر أنه يفترض وجود تصريح بالنشر لكل جريدة، تفاصيل الترخيص يجب أن

تكون مطبوعة في مكان ما على صفحاتها الأولى، ولكن كيف تكون هذه القذارة مرخصة؟ بحث ليجد مكتوبًا في الصفحة الأولى من جريدة "حوادث الأمة" :"جريدة أسبوعية متخصصة في الجريمة تصدر بترخيص من لندن"، ومثلها "المحامي"، أما الثالثة فتختلف أن ترخيصها من قبرص. لا يفهم حمدي شيئًا في تفاصيل تراخيص الصحافة القانونية، لكنها المرة الأولى التي يسمع فيها عن ترخيص أجنبي لجريدة محلية، بالتأكيد ليس هذا لتميزها ونجاحها العالمي مثلًا.

انتهت السيجارة، قام ليشعل أخرى ليجد العلبة فارغة، فتح درج المكتب وأخرج علبة أخرى، وقبل أن يغلق الدرج أخرج منه القلم.

* * * *

"دجال المنوفية يمارس الشذوذ مع الرجال تحت ادعاء أن هذه طقوس سحرية لتقويتهم جنسيًا"

لا يبدو هذا صعبًا، لا تحتاج إلى إيقاظ موهبة دفينة لكتابة هذا، فقط احتاج لتذكر مزاح المراهقين في الشوارع، ماذا أيضًا؟

"الراقصة الشهيرة تنفي تعرضها للاغتصاب من رجل الأعمال.. وتصرح: ده مكنش اغتصاب"

قدسية الحروف! هه.. لا تبدو مقدسة جدًا الآن، فليذهب الأدب والأدباء إلى الجحيم.

"ضبط رئيس حزب معارض في أحضان بائعة متعة.. وبائعة المتعة تعترف: ده زبوني من زمان"

أيعجبك هذا يا محفوظ؟ ما رأيك يا ديستوفيسكي؟ أنتم المسؤولون عما وصلت إليه الآن، فلتحل مواهبكم على الكُمساري الغاضب وهو يحكي عن الجنس والسحر.

"تزوجتني جنية رغمًا عني وجعلتني أطلق زوجتي بالثلاثة"

أنا أبصق على كل ما قرأت، أدنس كل ما أحببت، والغريب أن هذا ليس شعورًا سيئًا.

"سمر تعترف: صديقتي أغرتني للعلاقة المثلية"

أشعر وكأني موهوب في بالفطرة في هذا الخراء.

* * * *

"مستر هشام الconsultant بتاعنا قال كلام كتير بيشكر في موهبتك يا مستر حمدي، وأنا شايف من الsamples اللي قدامي إن شغلك quiet impressive، واضح إننا حنعمل شغل كويس جدًا مع بعض"

بدا حمدي وكأن تركيزه الكامل مُنصب على كلمات صلاح الطاهر ويهتم بكل حرف يقوله، بيد أن تركيزه لم يكن على كلماته التي لم يسمعها تقريبًا، كل ما كان يشغل تفكيره هو البحث عن اسم الممثل الأمريكي الذي يشبهه صلاح، هو يعرفه لكن الاسم يبدو بعيدًا. الصمت الذي تلا كلمات الرجل مع نظرة حمدي الغريبة

جعلا هشام يدرك ما يدور في عقله فحاول إنقاذ الموقف بكلماته:

"والله يا أستاذ صلاح حمدي تحمس جدًا أول ما عرضت عليه الشغل، هو أصلًا متابع قديم لكل إصدارات المؤسسة"

داني ديفيتو. صلاح الطاهر يبدو بالضبط كداني ديفيتو، لقد تذكر الاسم الصحيح أخيرًا. هو يشبهه تمامًا، حتى في حركاته وصوته المضحك.

"ممتاز، وإحنا هنا في مؤسسة الطاهر بنحب دايمًا نشتغل مع المواهب الجديدة ونديلها الفرصة إللي تستحقها للنجاح، زي ما عملنا معاك يا مستر هشام. ممكن تتفضلوا تقوموا دلوقتي، تروحو لمستر وائل في المكتب In the next room، وهو حيشرحلك تفاصيل الوظيفة، good luck"

"ثانك يو مستر صلاح"

قالها هشام أثناء قيامه، وهو يسحب حمدي من ذراعه ليفيق هذا الأخير من تأمله ويخرج مع هشام من مكتب صلاح الطاهر، رئيس مجلس إدارة مؤسسة الطاهر للإعلام.

"الراجل ده شبه داني ديفيتو جدًا"

نظر هشام خلفه ليتأكد من أن صلاح الطاهر لم يسمع قبل أن يرد على حمدي هامسًا:

"وطي صوتك الله يكرمك لا يسمعنا"

مقر المؤسسة وإدارة الصحف الثلاث ليس إلا شقة تقع في عمارة قديمة في شارع جانبي متفرع من ميدان المنشية. مباني الإسكندرية القديمة تتميز بارتفاع غير مفهوم لسلالمها يجعل المجهود المبذول لصعود دور وحيد على الأقدام كصعود أدوار ثلاثة في مبنى عادي، والشقة كانت تقع في الدور الخامس ما جعل حمدي يتساءل بين لهاثه في صعود السلم قبل نصف ساعة عن كيفية احتفاظ هشام بكرشه رغم عمله هنا لما يقرب من سنة. جرس الشقة لا يعمل دائمًا وعلى القادم أن يطرق الباب بقوة كي يسمع من بالداخل الخبطات المكتومة بصعوبة لسمك خشب الباب، قبل أن تفتح الباب السكرتيرة لتحطم كل توقعات القادمين عن ما يجب أن تبدو السكرتيرة عليه، التوقعات القادمة من قراءة الجرائد ومشاهدة صور الفتيات المنشورة، ليفاجئوا بمدام وفاء الأربعينية العملاقة التي لا تختلف كثيرًا عن مدام أمال في السجل المدني أو مدام إيناس في إدارة شؤون الطلبة. الشقة شبيهة بأي مصلحة حكومية عادية، بالذات لون الجدار الرمادي المميز. هناك صالة واسعة نسبيًا بها مكتب مدام وفاء عليه هاتف وجهاز كومبيوتر شاشته مضاءة بلعبة الكروت الشهيرة "سوليتير" وبضع أوراق ملقاة بإهمال. تتفرع من الصالة غرف ثلاث، الأولى خرج منها الاثنان لتوهما مغلقين خلفهما بابًا تزينه لافتة "صلاح الطاهر - رئيس مجلس الإدارة" -مجلس الإدارة الذي يتكون من صلاح الطاهر وحده- والثانية مغلقة بابها مدهون بالأبيض بلا لافتة عليه، والثالثة دخلاها ليجدا كومة جرائد ملقاة على الجانب بإهمال تحت نافذة مفتوحة تتراءى منها على امتداد الأفق فرجة صغيرة جدًا

بين المباني المتراكمة تُظهر زرقة البحر، ومكتبين يعلو كلًّا منهم جهاز كومبيوتر وكومة أوراق، واحد منهم فقط مشغول بوائل المنهمك في كتابة شيء ما على لوحة المفاتيح وشاشة منسق الكلمات تنير وجهه بالضوء الأبيض المنعكس من الشاشة، قبل أن ينتبه لدخول حمدي وهشام ويهب واقفًا مرحبًا:

"هشاااااااااااااااام"

"واااااااااااااااائل"

ثم عاصفة من التحيات الودودة والأحضان العميقة المفتعلة.

"وائل ده حبيبي من أيام زمان، كنا صحاب من أيام الجامعة، آه والله زي ما بقولك كده، راجل جدع جدع جدع"

تجاهل حمدي جملة هشام غير مهتمًا بذكر ملحوظته أنها جملة غير منطقية لفارق السن الواضح بين كليهما، جلس مقابل مكتب وائل قبل أن يدعوه الأخير للجلوس، وأخرج علبة سجائره ليشعل واحدة ويعيد العلبة لجيبه، قابل وائل الحركة بنظرة تجهم وجهها لحمدي ونقلها لهشام الذي ردها بنظرة اعتذار وأخرج سجائره وقدم واحدة لوائل وأشعلها له بقداحته الخاصة أمام عيون حمدي اللامبالية، قبل أن يجلسا في أماكنهما. حاول هشام أن يهدئ من التوتر الذي نشأ بين وائل وحمدي:

"حمدي ده أكتر من أخويا، شقيقي، مبنفترقش عن بعض من وإحنا عيال في المدرسة، عشرة عمر"

بفتور رد وائل:

"أهلًا أستاذ حمدي، أنا وائل حسن، زميلك والمشرف المباشر عليك هنا في قسم الأخبار والتحقيقات"

وضغط على حروف كلمة المشرف ليسمعها حمدي بوضوح، ولم يظهر عليه أنه فعل أو اهتم.

"شفت نماذج شغلك وعجبتني، بس في شوية قواعد قليلة محتاجين نتفق عليها"

في الدقائق التالية شرح وائل أهم قواعد كتابة المقالات والأخبار، وحمدي منصت في صمت، متبعًا سيجارة بالأخرى. في البدء تحدث عن طبيعة الجرائد بصراحة تامة، الغالبية العظمى من المحتوى أخبار الحوادث، حوادث جنسية في الغالب، وحوادث عن السحر والجن والدجالين، مع الاهتمام بذكر "المعارضة" بشكل عابر مرة أو مرتين كل عدد، مثلًا "معارض سياسي يدير أحد بيوت الدعارة" أو "ضبط زعيم معارض في وضع مخل مع رجال ونساء". أحيانًا ستكون هناك أخبار حقيقية مصدرها أمين شرطة صديق للمؤسسة من أحد الأقسام، لكن لحمدي مطلق الحرية غالبًا في كتابة ما يحب طالما وافق ما يكتب سياسة الجريدة العامة.

"العبرة الأخلاقية في نهاية كل خبر مهمة جدًا يا أستاذ حمدي، أستاذ صلاح مبيتهاونش أبدًا مع القاعدة دي"

وتحدث عن وجوب انتهاء كل خبر بالقبض على فاعلي الرذيلة ومسهليها، أو عدالة شاعرية مثل أن يقتل أحد المجرمين الآخر أو يصاب بمرض جنسي مزمن، وربما تكتشف القاتلة أن النقود المسروقة مزورة، العبرة الأخلاقية لا جدال فيها. رجال الشرطة هم أبطال كل الحكايات، المقدم أحمد محمود في مباحث قليوب أو الرائد سمير السيد في إدارة مكافحة المخدرات في الغربية أو حتى أ. ص. رجل المخابرات، يجب أن تنتصر الشرطة على الشر في النهاية دومًا. أسماء المتهمين والضحايا تستبدل بحروف ترمز للأسماء (ن. ع. ر. أو خ. س. ش. إلخ). صفحات الفن وأخبار الفن لا تتجاوز كونها أخبارًا عن الراقصات وفنانات الإغراء، فضائح فقط. هناك صفحات للجرائم العالمية الأجنبية، إن وجدت أخبار في مواقع أجنبية تلائم طبيعة أخبار مؤسسة الطاهر تترجم وتنشر كما هي، إن لم تجد تُكتب أخبار عادية ونستبدل عاطل من الغربية بجاك عاطل من ولاية أوكلاهوما وسميرة فتاة الليل بساندرا عاهرة في نيويورك.

"صفحة الاعترافات بقى يا أستاذ حمدي، دي أهم حاجة عندنا، الحاجة الوحيدة اللي بيهتم بيها القارئ بعد الصور، سمعت إنك كنت بتكتب قصص زمان؟ مواهبك الأدبية كلها تطلع معانا في صفحة الاعترافات"

يفترض أن صفحة الاعترافات تقوم على رسائل القراء الذين مروا بخبرات حياتية صعبة، ويرغبون في مشاركة خبراتهم تحت اسم مستعار جمهور الجريدة العريض لنشر العظة. بالطبع لا أحد يرسل شيئًا، كل شيء يُكتب هنا. تتميز حكايات صفحة

الاعترافات بكثرة التفاصيل الجنسية أو الدموية التي يرغب فيها القارئ. ولتوضيح الفكرة أخرج وائل من درج المكتب قصاصة من عدد قديم لجريدة "المحامي" وعرضها على حمدي، تحمل عنوان "معلمتي أغرتني لعلاقة السحاق حتى فقدت عذريتي".

"الحتة إللي في إيدك دي كتبها من 5 سنين زميلنا سيد مهران إللي شغال دلوقتي في جريدة الأسبوع، دي كانت ماستر بيس، حكاية لطالبة ثانوي أغرتها المدرسة لعلاقة مثلية، وتفاصيل للعلاقة زي مانت شايف كلام زي الفل، بس المهم إن الألفاظ المكتوبة كلها صالحة للنشر، وهوب البنت فقدت عذريتها، وطبعًا النهاية إن جايلها عريس والدخلة قربت وخايفة تتجوز وتتفضح وبتفكر تنتحر، شوية سكس وبعدين عظة أخلاقية ونهاية حزينة لكل من اتبع طريق الضلال. أعداد الجريدة أتباعت كلها في يوم، كل كام شهر بننشرها تاني بتغيير كلمتين فيها والمبيعات بتجيب السما، لو كتبت حتة زي دي أستاذ صلاح حيتكيف منك جدًا"

ساد الصمت بعدما أنهى وائل كلامه، حمدي قرأ القصاصة كاملة ولم يبد على وجهه التأثر بالمكتوب بالسلب أو الإيجاب، قلبها بين يديه ثم انحنى إلى الأمام واضعًا إياها على المكتب قبل أن يعتدل في جلسته. وقال بنبرة توحي بعدم اهتمامه بكل ما قيل:

"إيه نظام الفلوس؟"

غيظ وائل ظهر واضحًا على وجهه من قلة ذوق وسخافة أسلوب حمدي في الحديث، أجاب سؤاله محاولًا إظهار غضبه في نبرة صوته ونظراته:

"الصفحة العادية بيكون فيها 3 أو 4 مقالات، كل مقال بيكون من 100 لـ350 كلمة، مش أكتر من كده إلا لو الكلام مميز جدًا، ساعتها ممكن تطول لـ500 كلمة أو 600، وكل عدد بيكون في حكاية مميزة بتوصل لـ1000 كلمة، ودي مع الصور بتاخد صفحة كاملة، أنت حتكتب وتجيب إللي بتكتبه لعم مصطفى، الديسك بتاعنا في الأوضة المقابلة، هو حيرتب الكلام في صفحات ويشوف إيه ينفع يتنشر وإيه لأ، وبناءً على تقسيمته حتقبض، حتاخد على الصفحة 100 جنيه، لاحظ إن الجريدة في حدود 16 صفحة وإحنا عندنا 3 جرايد أسبوعية، أنا وأنت بس إللي بنكتب، يعني ممكن تعمل فلوس حلوة أوي، بس تفتح مخك معانا ونتعامل مع بعض بشوية احترام عشان الأسلوب بتاعك ده مش حينفع يستمر"

اتسعت ابتسامة حمدي الساخرة ردًا على كلمة الاحترام مفكرًا في التناقض بينها وبين طبيعة العمل ولم يعلق، بلهجة صارمة تحدث وائل محاولًا فرض سيطرته بأي شكل على الزميل الجديد:

"تيجي تستلم شغلك من السبت الجاي، الساعة"

"لأ أنا مش حاجي، شغلي حيوصلكم عن طريق هشام وفلوسي تتبعت معاه"

ثم نظر في ساعته ليجدها قاربت الخامسة، فانتصب واقفًا معلنًا نهاية الحديث، دون أن يعير وائل المستشيط غضبًا أي انتباه.

"أنا ورايا شغل، سلام"

واندفع خارجًا مهرولًا ووراءه هشام الذي قال بلهجة اعتذارية لوائل:

"معلش هو أسلوبه غريب شوية، بس حتاخد منه أحلى شغل، اسمع مني، أستأذنك بقى يا باشا، أشوفك آخر الأسبوع، سلام"

وخرج في إثر رفيقه.

7

"مد إيده عليكي؟ منع عنك الأكل أنتي وابنك؟ يبقى تعيشي يابنتي وتحمدي ربنا"

تعلم نعمة أن رد أمها لن يتغير كلما أتتها شاكية سوء معاملة زوجها، لكنها تظل تفعل سعيًا لما يأتي دومًا بعد الرد المُعتاد، سعيًا لحضن الأم الرحيم الذي تطلق فيه العنان لدموعها مستمتعة بحضن أمها وتربيتها الحاني على ظهرها بينما تردد دعاءها الخالد:

"يجعل بختك أحسن من بخت أمك يا نعمة يا قرة عيني"

* * * *

منذ أن تعلم لسانها نطق الكلام، تعلمت نعمة أيضًا أن وجود النساء في هذه الحياة لأسباب أربعة لا خامس لها: يعتنين بالمنزل وأهله، يربين الأطفال، يُضربن، والسبب الرابع غامض له علاقة بإسعاد الرجل لم تُخبرها عنه أمها في طفولتها وإن لمحت لوجوده، ووعدتها أن تفعل حين يحين الوقت. أي شيء خارج نطاق هذه الأشياء الأربعة هو محض خيال مارق لا يجب أن يمر حتى بعقل المرأة. ذهابها للمدرسة الابتدائية كان رفاهية عظمى سمح بها الأب لأنه عظيم جميل عطوف لا مثيل له في الكون، ويجب أن تظل ممتنة له إلى الأبد لسماحه بمثل هذا الترف. إنه رجل عظيم بلا جدال، سمح لها بما يزيد عن حقها بكثير، بلغ من عطفه ورحمته أن يتوقف عن الضرب فورًا إن جُرحت جرحًا بسيطًا أو سالت منها نقطة دم خفيفة، لذا يجب

أن تكون فتاة صالحة على الدوام ولا تبك بصوت مرتفع يضايقه عندما يضربها، الفتيات سيئات الخلق عديمات التربية فقط هن من ترتفع أصواتهن عند الضرب، الفتيات ذوات الخلق الحسن يصمتن تمامًا عند ضربهن، هو لعطفه وسعة رحمته يتغاضى عن بكائها الهادئ وآهات الألم المحدودة ولا يعاقبها عليها. أمها التي علمتها حسن الأدب والخلق كانت خير قدوة لها بصمتها التام عند الضرب.

لكنها تدرك أن في أعماق الفتاة المهذبة توجد أخرى شريرة، عرفت هذا عن نفسها عندما نقبت عن حزن في داخلها عند وفاة أبيها ولم تجد، أدركت أنها عديمة الخلق والتربية وكان أبوها المرحوم على حق عندما كان يضربها، فهي ابنة عاقة شريرة غير حزينة على وفاة أقرب الناس إليها. كتمت نعمة حقيقتها الشريرة في داخلها وأظهرت كل مظاهر الحزن على أبيها، وفي خلوتها صلت إلى الله وبكت داعية أن يسامحها على عدم حزنها على أبيها الراحل وألا يجعل نفسها الشريرة تنتصر عليها مرة أخرى.

"يجعل بختك أحسن من بخت أمك يا نعمة يا قرة عيني"

تكرر أمها نفس الدعاء على الدوام، لم تفهم أبدًا ماذا تعني به، كيف يكون بختها أفضل من بخت أمها؟ كيف يمكن أن يكون لها زوج أحسن مما كان أبوها؟

* * * *

كيف يمكن أن تكون الحياة بمثل هذا الجود؟

صار لها عامان متزوجة ولم يضربها زوجها أبدًا، كيف يمكن هذا؟ ألا تخطئ أبدًا وتفعل ما تستحق عليه الضرب؟ زوجها أطيب الرجال في الكون بلا جدال. بالطبع هو ليس كأبطال المسلسلات في كل شيء، فهو متجهم دائمًا ولا يوجه لها كلمة ولا يكاد يراها، نادرًا ما يقربها، وإن فعل فلدقائق معدودة يفرغ منها شأنه وكما جاء يذهب، لكنها لا تشتكي من هذا، من ماذا تشتكي أصلًا؟ زوجها رجل حقيقي، رجل ومع ذلك لا يضرب زوجته، لا بد أنها تحلم. ناهيك بأمه العجوز الجميلة التي تزيد طيبة على طيبة أمها في اعتناءها بها ليل نهار، تناديها باسم أم حمدي ولكنها تسميها سرًا بـ"ماما التانية" حبًا فيها، لن تنسى نعمة أبدًا فرحة "ماما التانية" عندما أنجبت ولدًا، فرحت بحفيدها وكأنه أول حفيد لها على الإطلاق رغم تعدد أحفادها من بناتها، أصرت على تسمية الطفل "محمود" على اسم بعلها الراحل، ولم تكن تفارقه ليلًا ونهارًا. ظنت نعمة بعد أن أنجبته من تجهم زوجها المتزايد أن الوقت قد حان ليضربها، لا سيما وأنها زادت الأفواه المراد إطعامها في البيت واحدًا، ولكن لم يفعل! أي حياة سعيدة هذه؟

* * * *

وبعد أعوام طويلة انقضت ظنت فيها أن الله استجاب لها أخيرًا وأذهب عنها نفسها الشريرة التي منعتها من الشعور بالحزن على أبيها، عادت تلك الأخيرة إلى السطح، وها هي توسوس لها بأسوأ الأفكار عن زوجها الطيب وعن حياتها الهانئة. عادت تلك اللعينة للظهور على هيئة فكرة بريئة بعد وفاة الحاجة سمية

"ماما التانية" لم تكن لتظن أن بها ما يسيء، فكرة أن الوحيدة التي كانت تؤانسها وتحبها في هذا البيت القديم ماتت، لم تلق بالًا لهذه الفكرة ظنًا أنها ليست إلا من حسن الذكر للسيدة الطيبة الراحلة، ولكن الفكرة تطورت إلى ما هو أبعد لاحقًا، عندما خطر لها أنه دون وجود هذه السيدة فالحياة في هذا البيت لا تطاق. لامت على نفسها يومها وأنبتها أسوأ تأنيب، كيف تفكرين يا نعمة مثل هذا التفكير الشائن الذي لا يليق عن بيتك؟ يالك من سيئة الخلق ناكرة للجميل، كانت الحاجة سمية خير رفيق فعلًا ولكن حتى مع وفاتها يظل بيتها خير البيوت وزوجها خير الأزواج وحياتها طيبة تنال فيها ما يزيد عن حقها بكثير. استعاذت بالله من الشيطان الرجيم ودعت ربها ألا يرد لها هذه الأفكار، وحمدته على نعم البيت والزوج والابن والحياة.

* * * *

"وقاعدة ياما طول اليوم لوحدي بكلم في الحيطة وتكلمني، طول النهار قافل عليه باب أوضته وسط كتبه، وطول الليل في الشغل، الله يرحمها الحاجة أمه، كانت قعدتها حلوة وكلامها بلسم، حتى اللقمة ياما باكلها لوحدي أو مع الواد الصغير، مبسمعش حسه إلا فين وفين، ومنين ما أحاول أكلمه ما يردش، والنبي ياما كأنه ما شايفني أصلًا، كأني هوا مش بني آدمة.. ده حتى.. ده حتى معادش بيقربلي كده ولا كده زي ما الرجالة بتقرب لنسوانهم"

"مد إيده عليكي؟ منع عنك الأكل والشرب أنتي وابنك؟"

" لا والله أبدًا، بس.. ."

"بس إيه؟ احمدي يا نعمة ربنا على نعمته عليكي"

"بحمده والله ياما، أنا مش بشتكي، أنا بحكيلك بس"

"يجعل بختك أحسن من بخت أمك يا نعمة يا قرة عيني"

* * * *

"الولية أم مصطفى اللي في التامن بتتريق عليا وبتعايريني في الطلعة والنازلة، قالتلي إن جوزها شافه كذا مرة قاعد مع ست سمعتها مش كويسة في كشك في المحطة، بتقولي بيلعبو دومنه وبيشربو شاي"

"يابت يا عبيطة، الرجالة كلهم كده، مش بيرجعلك آخر الليل ينام في بيته؟ خلاص.. سيبك منها الولية دي، دي مرة شر عايزة تخرب عليكي بيتك. وبعدين مد إيده عليكي؟ منع أكلك ومصروفك أنتي وابنك؟"

"ياما بحكيلك ياما، الله.. محكلكيش يعني؟ أمال اروح أحكي لمين؟ ماعدتش حقولك حاجة تاني خلاص"

"لأ احكيلي، احكيلي يا حبيبتي، تعالي.. تعالي في حضني يا عبيطة، معلش، معلش خلاص بقى متعيطيش، يجعل بختك أحسن من بخت أمك يا نعمة يا حبة عيني"

* * * *

"ياما مش قادرة بقى، بقالي كام شهر ع الحال ده ومكسوفة أقولك، كل يوم أدخل أوضته أنضفها بعد ما ينزل ألاقيها مليانة جرايد عليها صور نسوان قبيحة، شوفي كده، جبتلك كام جرنان من بتوعه، شايفة النسوان؟ وشايفة الكلام المكتوب ياما؟ أقرالك لو مش عارفة تقري. "الحب أفقدها عذريتها.. وضبطت أثناء ممارستها الرذيلة"، وشايفة الصورة اللي جمب الكلام؟ شايفة البنت قالعة إزاي؟ ياما بيقعد طول الليل قافل على نفسه أوضته مع الحاجات دي، بيعمل إيه بالحاجات دي ياما؟ طب مانا عنده أهو وأحلى منهم كلهم ومبيقربليش، ده حتى ياما مبيمدش إيده عليا ولو بالضرب، أنتي بتعملي إيه ياما؟ أنتي كمان بتعيطي؟ هو أنا جاية أحكيلك عشان تعيطي أنتي كمان ياما؟"

"يابنتي مش كفاية إنه مبيمدش إيه عليكي؟ مش بيأكلك أ.. ."

"يووووه ياما بقى، هو أنتي معندكيش غير الكلمتين دول؟ ياريته بيمد إيده عليا ياما، ياريته بيعمل أي حاجة"

"طب حنعمل إيه يابنتي طيب؟ عايزة تعملي إيه؟ عايزة تطلقي وتترمي في الشارع بابنك؟ عايزة الناس يقولو عليكي إيه؟"

"مش حنعمل ياما، مش عايزة حاجة"

"يجعل بختك أحسن من بخت أمك يا نعمة يا حبة عيني"

8

هل الجن هو الجاني؟

حكاية الساحر وبنت العمدة العذراء

كان أهل قرية "و" التابعة لمحافظة سوهاج يعيشون حياة سعيدة هانئة في قريتهم المتطرفة في حضن الجبل بعيدًا عن الغرباء، حتى جاء "سيد ن." مكدرًا المجتمع المطمئن بشروره التي لم يتوقعها أحد. بنى لنفسه كوخًا على طرف القرية بالقرب من سفح الجبل وعاش فيه وحيدًا بلا رفيق يؤانسه. أثارت حياته عاصفة من التساؤلات بين أهل القرية، من هذا الغريب؟ ولم جاء عندنا؟ ولماذا يعيش وحيدًا؟ ظلت كلها أسئلة مبتورة بلا إجابات تكملها.

لم يمض وقت طويل قبل أن تنتشر الهمسات بين أهل القرية، شائعات لا يدري أحدهم إن كان لها أصل من الصحة أم أن كلها كذب، قيل إنه ساحر يقضي لياليه في حفلات ماجنة مع شياطين الجن، وادعى أحدهم أنه رأى عند مروره مصادفة بالقرب من داره علاقات جنسية جماعية بين كائنات تشبه البشر في كل شيء لكنها أكثر طولًا وأضخم حجمًا، وادعى آخر أنه رأى امرأة عارية بثلاثة أثداء تناديه لينضم لها في بيت الساحر.

"نجلاء ر." ذات الستة عشر ربيعًا كانت الأكثر فضولًا، بنت العمدة المراهقة الحسناء أثارتها الشائعات الغريبة وأثارت حبها القديم لحكايات الجن والعفاريت والسحرة، والرجل الغريب الغامض الذي لا يعرف أحد عنه كان أكثر ما شد انتباهها.

وفي ليلة مظلمة بلا قمر، استجابت نجلاء لتحدي صديقتها "م. و." وذهبت برفقتها بعد منتصف الليل بعيدًا عن أعين أبيها

العمدة والغفراء الغافلين، وتوجهن معًا إلى كوخ "سيد ن." الساحر. وعلى بعد مئة متر من الكوخ اختبئت الفتاتان وراء صخرة وأخرجن فقط عيونهن باحثات عن أي دليل على صدق الشائعات المنتشرة. عندما نظرت نجلاء المختبئة خلف الصخرة تجاه الكوخ رأت بوضوح الساحر يقف أمام الباب ينظر تجاهها مبتسمًا وكأنه يراها بوضوح، وبجواره وقف رجل أسود لا يقل عن الأمتار الثلاثة طولًا، رغم خفوت الضوء المنبعث من الكوخ إلا إن نجلاء رأت أن أقدامه ليست إلا حوافر ماعز، وعلى قمة رأسه ما يشبه القرون. لم تستطع نجلاء كتم صرختها التي انطلقت رنانة في سكون الصحراء، ما إن خرجت الصرخة حتى تبعتها ضحكة الساحر مجلجلة بصوت شيطاني رهيب، استدارت الفتاة لتجري لكن ما إن فعلت حتى وجدت الرجل ذا القرون وحوافر الماعز خلفها ينظر لها مبتسمًا، ثم حملها بكلتا يديه عاليًا ومشى بها تجاه الكوخ، حاولت نجلاء أن تصرخ ولكنها لم تجد في نفسها القدرة على الصراخ، شعرت بألف يد تتحسس كل شبر من جسدها تحت الملابس، بحثت عن صديقتها فرأتها في حضن "سيد ن." الساحر يتبادلان القبلات الساخنة بينما تنظر لها وتضحك، ثم فقدت نجلاء الوعي.

استجاب العقيد "ك. أ." لاستغاثات العمدة الذي أبلغ عن اختفاء ابنته، وتوجه من فوره إلى كوخ الرجل الغامض لأنه أدرك بذكائه الشديد أنه المشتبه به الوحيد في القضية، وصل إلى الكوخ في الواحدة صباحًا ليجده مظلمًا فارغًا إلا من جسد نجلاء الممدد على الأرض غارقة في دمائه ولا أثر للآخرين، بشجاعة حمل العقيد الفتاة فاقدة الوعي وهرع بها إلى الوحدة الصحية

لينقذها الطبيب من وفاة مؤكدة، وصرح بعد الكشف عليها في تصريح خاص وحصري لجريدة "المحامي" أن الفتاة تم اغتصابها بعنف من قبل فاعل غير بشري.

ماذا حدث لنجلاء بعد فقدانها الوعي؟ من الذي اغتصبها وكيف؟ ما هو مصير الساحر ومصير "م. و." صديقتها؟ مزيد من التفاصيل في حكاية الساحر والجن وبنت العمدة العذراء "التي لم تعد كذلك" في العدد القادم من جريدة "المحامي".

* * * *

"جالنا من أنهي داهية ده كمان.. هو إحنا ناقصين!"

قالها وائل بعصبية بينما يلقي من يده عدد جريدة "المحامي" الجديد على المكتب بإهمال.

لطالما كانت علاقة وائل بزميله القديم سيد مهران علاقة متوترة نظرًا لتفوق هذا الأخير الملحوظ عليه فيما يتعلق بكتابة المقالات، كان ينال دومًا نصيب الأسد في المحتوى المنشور بينما وائل لا ينال أكثر من ثلث المحتوى في أحسن الأحوال، لذا كانت فرحته بادية بوضوح عندما أعلن مهران أنه سيترك المؤسسة وينضم لجريدة "الأسبوع"، برر فرحته الظاهرة واحتفالاته بفرحته لزميله القديم الذي نال فرصة يتمناها أي صحفي شاب للعمل في جريدة معروفة كـ"الأسبوع"، وإن لم يخف على الجميع سبب فرحته. بعدها أصبحت الأمور أكثر سهولة، انعدمت المنافسة تمامًا، كل ما يكتبه ينشر ويُكمل باقي المحتوى من أعداد قديمة، وينال مكافأة النشر وحيدًا بلا

شريك، تمنى أن يظل الحال نفسه إلى الأبد، بيد أن البطريق -كما يسميه وائل ومهران وكل العاملين في مؤسسة الطاهر سرًا- لم يعجبه الوضع وأصر أن يستقدم كاتبًا آخر، الأحمق يظن نفسه يدير "التليجراف" البريطانية! حاول وائل بكل الطرق إعاقة محاولاته لاستقدام كاتب جديد إلى طاقم عمل المؤسسة، حتى وجد في تصريح هشام أن له صديقًا يمكنه أن يقوم بالكتابة فرصة ذهبية، من أين لهشام بصديق يفقه في الكتابة؟ لن تكون هناك منافسة حقيقية بالتأكيد.

وبالفعل لم تكن هناك أي منافسة تذكر بين وائل وصديق هشام الكمساري الذي بدا كالأمي الذي لا يعرف حتى القراءة، المغرور اللعين يكتب كقطار لا يمكن إيقافه، منذ أسبوع عمله الأول وهو يمد المؤسسة أسبوعيًا بمحتوى يكفي لملء الجرائد الثلاث لشهر كامل، والألعن أن جودة المكتوب -اعترف وائل لنفسه بهذا بصعوبة وإن لم يصرح به أبدًا أمام آخرين- أفضل بكثير من كل ما نُشر في تاريخ المؤسسة ومن كل ما يُنشر في الجرائد المنافسة أيضًا. حتى كتابات مهران القديمة التي طالما وجدت الحظوة عند البطريق لم تعد تساوي شيئًا أمام طوفان كتابات حمدي اللعين. عم مصطفى يملأ الأعداد بكتابات حمدي ولا ينشر له سوى مقاطع صغيرة حمقاء، فقط مجاملة ليس أكثر، ومبيعات الجرائد في تضاعف مستمر والبطريق يمتلئ حبورًا وحبًا في الكمساري، ولولا اعتماد الرجل عليه في شؤون مختلفة إلى جوار الكتابة لأقاله من المؤسسة ليجد نفسه في الشارع بلا عمل، بينما يغرق حمدي في مكافآت النشر الأسبوعية.

أخرجه من أفكاره الناقمة رنين هاتفه، نظر إلى شاشته ليجد اسم وصورة عدو الأمس سيد مهران، ألا ليت أيامه تعود. نفخ مخرجًا نفسًا عميقًا محاولًا طرد كل آثار الحقد من صوته قبل أن يقبل المكالمة:

"الصحفي الكبير أوي أوي أوي بيتصل بينا؟ إيه المفاجآت الحلوة دي؟"

ولخمس دقائق استمرت المكالمة في تبادل المجاملات والتحيات الودودة المزيفة بين الزميلين القديمين، قبل أن يسأل مهران بطريقة من لا يهتم وكأن السؤال خطر على باله فجأة:

"صحيح يا وائل، أنت لسة بتكتب لوحدك ولا حد جديد بيكتب معاكم؟"

بحذر تراجع وائل عن الرد فورًا وسأل مستفسرًا عن سبب السؤال: "إشمعنى؟".

"لا لا لا عادي أنا بطمن عليك بس، أصل جبت إمبارح دموع الندم ولقيت الكلام متغير شوية عن العادي، فقلت ممكن البطريق جاب حد جديد معاك"

اندفع وائل يرد في غيظ لم يستطع كبحه:

"ده واد معفن جابه هشام بتاع الصور، كتابته زي الخرا بس داخلة دماغ البطريق وطالع بيها السما"

"آه طبعًا باين عليه، أسلوبه زبالة، والبطريق طول عمره عبيط وأنت عارف. معلش يا أولة متزعلش حالك، شوية وحيغور وكله حيبقى زي الفل. سيبك.. عامل إيه مع خطيبتك؟"

وبمهارة حرباء أدار مهران دفة الحوار لشؤون شخصية بعيدة عن موضوع الكاتب الجديد، لتنتهي المكالمة بعد دقائق، فكر وائل بعدها ليدرك أن مهران استدرجه كالعادة ليخرج ما عنده من معلومات.

"وأنا زي الغبي قلتله إن الزفت الجديد جاي عن طريق هشام"

* * * *

إنها بلا شك لعبة مسلية.

اعترف بهذه الحقيقة لنفسه أخيرًا أثناء كتابته الجزء الرابع والأخير من حكاية "الساحر والعذراء التي لم تعد كذلك" على برنامج منسق الكلمات في جهاز الكومبيوتر العتيق.

في البداية كان لكتابته هذا النوع من المقالات أبعاد نفسية معقدة، كان يفكر أنه بكتاباته هذه يخرق بديهيات ويدنس مقدسات، وكأنه يحطم بيده أصنامًا بناها بنفسه وسجد لها، مع كل حرف كان يكتبه كان يختلج فيه مزيج حاد من شعورين متناقضين، الحرية من قيود وهمية سيطرت على ثنيات عقله لسنين، والذنب من فداحة الإثم الذي يرتكبه وشر معصيته. التناقض بين الشعورين لم يكن إلا مزيدًا من الوقود الذي يضاعف غضبه واشمئزازه من نفسه، فيجلدها بمزيد من

الكتابات القذرة والأخبار الزائفة. لكن هذه المهاترات الدائرة في عقله لم تدم طويلًا، بعد الكتابة لفترات طويلة اختُزِلت كل تلك المشاعر إلى فكرة وحيدة خطرت على باله فجأة: أن كتابته هذه ماهي إلا "تغوط"، مثلما يأكل المرء خير الطعام ويهضمه ويخرج ما تبقى منه على هيئة غائط قذر اللون والملمس والرائحة، هو يفعل المثل، وكأن ما يكتبه ليس إلا مخرجات الجهاز الهضمي لعقله وقلبه اللذين تشبعا بقراءات مختلفة لعقود طويلة، والغائط الخارج منه تشتريه مؤسسة الطاهر بمئات الجنيهات وتنشره في صحفها بكل فخر. ضحك على الفكرة عندما خطرت له، لكنه عاد وفكر فيها واقتنع بها تمامًا لتحل محل كل المشاعر الدرامية التي أرهقته، وهدأت من حنقه وغضبه وصارت الكتابة تتم بهدوء وكفاءة. وكأن كل ما فكر فيه من قبل لم يكن إلا نزعًا أخيرًا لمبادئ قديمة بالية تحتضر بصوت عال يصم الآذان، وما إن ماتت كلية حتى ماتت معها الدراما، وصار التغوط أكثر سلاسة وراحة وتسلية.

لم يحتج لإيقاظ أي موهبة خاصة ليكتب ما يكتبه، عليه فقط أن يقرأ بسرعة أخبارًا مشابهة لما يرغب في كتابته من أعداد قديمة لجرائد مشابهة وآلاف مواقع الإنترنت التي تتنافس في تقديم ما شابه من المحتويات، ويعيد كتابتها مرة أخرى من الذاكرة، ذاكرة قارئ قديم تحمل في طياتها ما لا يحصى من التفاصيل الصغيرة والكبيرة من مختلف الحكايات، فتضيف لما يحاول أن يذكره دون مجهود ما يزينه من التفاصيل وتحذف منه ما هو مكرر باهت ممل، وعندما يحاول مقارنة العمل الذي كتبه بالمصدر الأصلي الذي استوحاه منه لا يجد أي وجه للشبه

أو مجال للمقارنة، ما كتبه حمدي يفوز باكتساح. أسلوب كتابة من قضى جل أيام حياته بين صفحات الكتب يجعل لكلماته رهبة وجلالًا دومًا مهما كان محتوى الكلمات مبتذلًا، رهبة وجلال زائفان.

يذكر جيدًا اليوم الذي أصر فيه صلاح الطاهر على استدعاءه لمكتبه، حاول رفض الدعوة بأي شكل والاستمرار على نهجه الذي يتمثل في إرسال كتاباته مع هشام على هيئة اسطوانات رقمية مدمجة ليتسلم نيابة عنه المقابل المادي ويحضره دون أن يضطر أبدًا للذهاب إلى مقر المؤسسة، ولكن صلاح أصر بعنف على استقبال حمدي في مكتبه، لدرجة أنه حادثه تليفونيًا بنفسه مكررًا دعوته في المكالمة أكثر من خمس مرات بلهجة تمزج بين الأدب والأمر والتوسل والإلحاح، ولم تفلح كل محاولات حمدي في التملص من الدعوة فذهب مضطرًا، ليفاجأ بالرجل يستقبله بحفاوة منذ أن خطا داخل الشقة بنفسه ويصافحه في حرارة أمام كل العاملين في المؤسسة، هشام ومدام وفاء وعم مصطفى ووائل الذي تحول لون وجهه إلى الأحمر الخالص.

"الManager الكويس لازم يشكر ويكافئ الـ good employees إللي شغلهم مثالي، thank you مستر حمدي، أنت أحييت كل المبادئ والأفكار إللي قامت عليهم مؤسسة الطاهر بكتاباتك، وساهمت في رفعة وتطور مستوى الإعلام المصري، keep up the good work". ورغم عدم تميزه بروح الدعابة إلا إن حمدي انفجر في ضحك هستيري على

المدير الأحمق وكلماته الغبية، ضحك رجل لم يضحك من قلبه منذ زمن أبعد من أن يذكره، ضحك أدهش المدير وأدهش هشام الذي حاول تدارك الموقف وتبرير ضحك حمدي أنه ليس إلا فرحًا من أعماق قلبه بالتقدير الذي ناله من شخص عظيم مثل مستر الطاهر، ويبدو أن التبرير الساذج أقنعه فبدأ الرجل في مشاركة حمدي ضحكه في حبور وفخر.

أنهى حمدي أخيرًا مقالته وحفظها، ثم نسخها مع بضعة ملفات أخرى مشابهة على اسطوانة رقمية، ووضع الاسطوانة بين صفحات كتاب كبير أخذه وخرج متجهًا إلى سايبر هشام. بعد دقائق ألقى حمدي في إهمال الاسطوانة الرقمية على مكتب هشام الذي أخرج من جيبه رزمة صغير من الأوراق المالية وعدها بحرص، ثم أعطاها لحمدي الذي وضعها في جيبه بلا اهتمام وهم بالخروج، بيد أن هشام استوقفه قبل أن يفعل قائلًا: "استنى بس يا حمدي، في حد عايز يقابلك".

استدار متسائلًا بلا اهتمام عن هوية من يرغب في مقابلته، ونظر في الاتجاه الذي تشير إليه يد هشام الممدودة.

"أستاذ سيد مهران، صحفي في جريدة الأسبوع، جاي من القاهرة مخصوص وقاعد مستنيك بقاله ساعتين عشان عايز يكلمك في موضوع مهم"

شاب يبدو على أعتاب الثلاثينات من عمره دون إنجاز يذكر في أعوامه السابقة، أو هكذا حكم عليه حمدي من النظرة الأولى التي ألقاها عليه، قام الشاب واقفًا بأدب زائف وحماس جلي

ومد يده لمصافحة حمدي، تلقفها بإهمال مرددًا غمغمة أراد بها أن تكون "أهلًا وسهلًا" لكنه لم يملك الاهتمام الكافي ليقدر على نطق التحية البسيطة بوضوح.

"سمعت إن عندك ابن في الابتدائية، عامل إيه في امتحاناته؟"

"لخص، عايز إيه؟"

"تمام أوي، أنا بحترم الشخص إللي يجيب من الآخر، زي ما هشام قالك أنا صحفي في جريدة الأسبوع و.. ."

قاطعه بنفاد صبر وهو ينظر في ساعته التي أعلنت حلول الخامسة:

"وكنت صحفي أخبار سكس عند الطاهر، عايز إيه؟"

انزعج الفتى جدًا وشعر برغبة قوية في سب الرجل والخروج، لكنه تذكر سبب مجيئه وتمالك نفسه وأكمل:

"أولًا ياريت نعامل بعض بأسلوب أحسن من كده شوية، أنا جاي أتكلم معاك في شغل، ولو مش عايز ممكن أمشي، ماشي؟ تمام. المهم، أنا عامل تحقيق صحفي مهم، بس نظرًا لأني مشغول في حاجات كتير التحقيق اتكتب باستعجال وأسلوبي فيه مكنش كويس، والديسك بيقول إن التحقيق غير صالح للنشر بشكله ده، وأنا معنديش وقت أعيد كتابته من الأول. ولاحظت مؤخرًا أسلوبك في الكتابة في الحاجات اللي بتنزل مع صحف الطاهر، فقلت أجيبلك سبوبة حلوة: إيه رأيك لو تاخد التحقيق تظبطه وتكتبه على نضافة ولو اتنشر ممكن.. ."

كل ما كان حمدي يفكر فيه كان أن الساعة تجاوزت الخامسة ولا بد أن زينب جهزت الشاي، فتجاهل الشاب الذي يتكلم بحماس وشرع في الخروج.

"سيبه مع هشام وحبقى أشوف، سلام"

رفع الشاب صوته ليسمعه حمدي الذي ابتعد وكاد يخرج: "وحيبقى في طبعًا مقابل مادي أ.. ."

"الكلام مع هشام، سلاااااام"

* * * *

مزارع الدواجن؟

يا للملل..

ألم يجد الفتى موضوعًا أكثر إثارة ليكتب عنه؟

قلب حمدي صفحات التقرير على شاشة الكومبيوتر، لا يكاد يقرأ سطرًا كاملًا دون أن يغلبه النعاس من كثرة الملل، تحقيق عملاق عن مزارع الدواجن في مصر وتربيتها وتجارتها والفساد المستشري فيها. في قائمة الموضوعات التي يهتم بها حمدي أو قد يهتم بها يومًا، لن يوجد أبدًا موضوع عن مزارع الدواجن وتربيتها بالتأكيد. قرر بسرعة أن يرفض هذا الهراء والتقط هاتفه ليتصل بهشام مخبرًا إياه بقراره، وبينما يرن الهاتف في الطرف الآخر واتته خاطرة جعلته ينهي المكالمة متجاهلًا صوت هشام الذي انبعث من الهاتف مناديًا حمدي ومتسائلًا عن سر اتصاله.

جريدة "الأسبوع" ليست الجريدة الأهم في مصر، وليست في قائمة الخمس جرائد الأهم أيضًا، لكنها بالتأكيد جريدة معروفة وهامة ولها متابعون دائمون مخلصون، جريدة حقيقية تنشر كلامًا مهمًا، حتى وإن كان كذبًا ورياءً ولكنه كذب مهم ذو هدف حقيقي. إن ضغط على نفسه وتحمل السقم الناتج عن الكتابة عن الدواجن، ستُنشر كلماته للمرة الأولى في جريدة حقيقية، كل ما نُشر له في الشهور السابقة لم يكن إلا تغوطًا ليس أكثر ولا يُعتد به كفعل كتابة وفعل نشر. غازلت الفكرة رغبة ميتة عتيقة كصاعقة كهربية أصابت قلبًا متوقفًا لتخرج منه نبضة وحيدة توقظ أمل الطبيب في إنقاذ من حسبه ذهب إلى الأبد.

توقدت عيناه ووسعتا بعد أن تلاشى منهما النعاس، فجأة لم تعد الكتابة عن مزارع الدواجن بهذا السوء. قرأ الموضوع بحماس مرة واثنتين وثلاثة، تتبع أسلوب مهران المبتدئ الذي لم يتخلص من طريقته في افتعال الإثارة وسخونة الأحداث الذي اتبعه قديمًا في صحف الطاهر، ربما كان هذا الأسلوب التشويقي ناجحًا عند التحدث عن ضبط شبكة دعارة في شقة مشبوهة، لكنه غير صالح بالتأكيد للحديث عن الفساد المستشري بين تجار الدواجن، ناهيك بكل تلك الأخطاء الإملائية والنحوية التي تنتشر في التحقيق، أخطاء كانت تمر مرور الكرام على عم مصطفى الديسك الذي لا يكاد يقرأ المكتوب، لكنها لن تمر على محرر محترف في جريدة معروفة بالتأكيد. لا بأس، بضعة أكواب من الشاي ونصف علبة سجائر سيصلحان ما أفسده الغر بكتابته.

سحب نفسًا طويلًا أتبعه بزعقة حادة ليتأكد من وصول صوته لها:

"نعمة! شاي"

* * * *

"ألو.. أيوة يابو حودة، صباح الفل، الواد سيد مهران بتاع جريدة الأسبوع اتصل بيا من شوية وهو فرحان زي ما يكون طلق مراته أو مراته ماتت، بيقول التحقيق عجبهم في الجريدة وحيتنشر في العدد بتاع بكرة.. لأ مجابش الفلوس، بيقول حينزل إسكندرية الأسبوع الجاي يجيب الـ500 جنيه ويجيبلك شغل تاني.. أيوة.. تمام، فل أوي.. أشوفك بكرة، سلام.. سلا.. سلا.. ."

* * * *

لم تفهم نعمة ما حدث للتو!

الساعة لم تتجاوز السابعة صباحًا، هي مستقيظة كعادتها لتعد الإفطار لابنها قبل خروج للمدرسة، وفجأة ودون أي مقدمات خرج زوجها من غرفته لباب الشقة واختفى نازلًا السلم كسهم مارق لم تكد تراه! طوال عقدين قضتهما في هذا البيت لم تره من قبل مستيقظًا قبل الظهر أبدًا، ولم يخرج أبدًا فور استيقاظه لأي سبب، ما الذي قد يدفعه للخروج في هذا الوقت المبكر بهذا الشكل المتعجل؟

لم تطل حيرتها إذ عاد فجأة متأبطًا جريدة تحت ذراعه مندفعًا بنفس السرعة لحجرة مكتبته وأغلق بابها خلفه في دوي

مسموع، إذن فهو خرج لشراء مزيد من الجرائد، بالتأكيد مزيد من الجرائد ذات صور الفتيات العاريات إياها. مسحت دموعًا انحدرت في صمت كي لا يراها ابنها بينما تعطيه إفطاره في كيس بلاستيكي نظيف وتقبل رأسه وتدفعه في رفق للخروج.

لم تعلم نعمة -ولن تعلم المسكينة أبدًا- أن حمدي مر بليلة لم يغمض له فيها جفن بسبب الترقب والانفعال، للمرة الأولى منذ أعوام بعيدة كان يرتقب حدوث شيء ما ويتحمس له ويعد في انتظاره الدقائق، وما إن أشرقت الشمس حتى وقف في الشرفة ملقيًا بصره تجاه كشك الجرائد المغلق في نهاية الشارع -الذي حل محل كشك المرحوم فتحي والد هشام- وما إن لمح صاحبه يعالج قفله بالمفتاح حتى خرج ليكون عنده في ثوان واشترى نسخة من عدد اليوم من جريدة "الأسبوع"، وسط حيرة بائع الجرائد من الحماس الغريب الذي يشتري به أحدهم جريدة متوسطة الشهرة مثل "الأسبوع" في وقت مبكر كهذا. على كرسي مكتبه جلس وقلبه يدق بعنف متأملًا الجريدة المغلقة أمامه، على صفحتها الأولى تحت المانشيتات العريضة لأهم الأحداث العالمية يوجد عنوان بخط صغير لكنه سميك وواضح "الأسبوع تكشف الفساد وراء تجارة الدواجن في مصر". بلهفة حذرة قلب الصفحات في هدوء كمن ينزع برفق جذل قطعة من القشرة الرقيقة عن ثمرة مانجو مثلجة تمهيدًا للانقضاض عليها والتهامها، حتى وجد التحقيق المنشود، صفحتان كاملتان متقابلتان بالألوان، يزينهما العنوان الأحمر الضخم وتسانده العناوين الفرعية بالأسود السميك، بينما تنتشر بضع صور هنا وهناك لبعض المزارع والدواجن وكبار التجار، وترتص الكلمات

متجاورة مكونة أعمدة كبيرة ملأت الصفحتين، كلماته هو نفسه لا شخص غيره، يذكر جيدًا كيف اعتصر مخه محاولًا اصطياد مرادف مناسب لهذه الكلمة، أو مطاردًا لتعبير مراوغ لا ينصاع لسلطانه، أو كيف أصابته هذه الفكرة بإحباط عندما فشلت محاولات عدة لصياغتها حتى كاد ييأس، قبل أن يضيء المصباح الوهمي فوق رأسه في إشارة لورود الصياغة المناسبة أخيرًا لفكرة حسب أنها لن تُكتب أبدًا.

قرأ التحقيق عدة مرات، بابتسامة لا تتوقف عن الاتساع مع مرور عينيه على الحروف، حتى تبهت وتختفي في النهاية بعد اصطدامه بالتوقيع المذيَّل به التحقيق "سيد مهران"، فيغتم ويطرق بأصابعه مكتبه بعصبية قبل أن يعيد قراءة التحقيق من جديد وتتسع ابتسامته مرة أخرى. من كان يظن أن الحديث عن الدواجن يمكن أن يكون بهذه الإثارة؟

بعد عشرة قراءات متكررة للتحقيق، نزع حمدي الصفحتين المتقابلتين من الجريدة بحرص وألقى الباقي في إهمال، فردهما برفق وحنان على سطح مكتبه، فتح الدرج العلوي وبحث كثيرًا حتى وجد مبتغاه، قلم التصحيح الأبيض "كوريكتور" وقلم الحبر الثقيل الأسود الفاخر. وبدقة فنان استخدم المصحح في إضافة بقعة من الطلاء الأبيض على اسم سيد مهران ليختفي تمامًا، نفخ على البقعة في صبر وأناة حتى تأكد من جفاف الطلاء، ثم نزع الغطاء الواقي عن رأس قلم الحبر الأسود، وكتب فوق بقعة الطلاء الأبيض بأجمل خط كتابة كتب به من قبل:

"حمدي محمود"

9

الكاتب الشبح Ghostwriter:

هو كاتب يعمل على تأليف الكتب والمقالات والقصص والتقارير وغير ذلك من النصوص بحيث تسجَّل رسميًا لصالح شخص آخر. فغالبًا ما يستأجر المشاهير والأشخاص التنفيذيون والقادة السياسيون كتابًا خفيين لوضع المسوَّدات أو تحرير سيرهم الذاتية ومقالات المجلات وغير ذلك من المواد المكتوبة. كما يُستخدم الكتاب الخفيون في عالم الموسيقى لكتابة نصوص الأغاني ومقدمات الأفلام. قد تختلف درجة مشاركة الكاتب الخفي في إنتاج عمل مكتمل. في حين يُستعان بكاتب خفي لتحرير المسوَّدات، بينما يُستعان بهم في أحيان أخرى لإنجاز معظم العمل بناءً على ملخص أو خطوط عريضة يوفرها الكاتب المعتمد.

ويكيبيديا

* * * *

أفسد تحقيق سيد مهران حالة التصالح التي وصل لها حمدي أخيرًا مع كتابات الطاهر، فبعد أن رضى بها وأعطاها المسميات ووضع لها القواعد ووجد فيها تسلية من نوع مختلف، عاد ليكره كتابتها من جديد بعد أن جرب مذاق رؤية كلماته مطبوعة في جريدة كبرى محترمة، عاد أنفه يشم رائحة القذارة ويشمئز منها بعد أن حسبه اعتادها ولم يعد يلقي لها بالًا. عادته اليومية الجديدة في بدء جلسته النهارية التي تمثلت في إعادة قراءة

تحقيق الدواجن لم تخدم كثيرًا محاولاته التالية لكتابة حكايات الجريمة والجنس الزائفة، فقل إنتاجه كمًا وجودة مع قلة حماسته، وإن ظل يكفي حاجة الجرائد الثلاث ويزيد.

يوميًا كان يتصل بهشام سائلًا إياه إن كان سيد مهران قد عاد بطلب آخر ويجد الرد دومًا بالنفي، فقط مر مهران على السايبر وترك المبلغ المالي المتفق عليه ومضى في سبيله، إلا أن حمدي لم يلق لهذا بالًا، كان يرغب فقط في أن يكتب أي شيء ليراه منشورًا لاحقًا في جريدة "الأسبوع" أو ما شابهها، رغبة لو أدركها مهران لتقاضى هو منه النقود مقابل أن يزوده بمهام الكتابة والتحرير لا العكس.

وبعد شهر عاد مهران أخيرًا بصحبة زميل له وقابل هشام، وطلب هذه المرة 7 مقالات لسبعة كتاب مختلفين. تنوعت المقالات في الحجم والتصنيف وما يُطلب من حمدي عمله، منها مقالات الرأي وأخرى فنية وثالثة رياضية، منها القصير الذي لا يزيد عن المئة كلمة ومنها ما سيملأ نصف صفحة -وإن لم تكن هناك تحقيقات عملاقة تملأ صفحتين هذه المرة-، منها ما كان شبه كامل ومنته ولا يرغب صاحبها سوى في مراجعة سريعة وتعديل بسيط لهفوات، ومنها ما لم يكن سوى فكرة أو عنوانًا ومطلوب منه أن يكتبها من الألف إلى الياء. تلقى هشام الطلبات من مهران وزميله ولم ينتظر رأي حمدي لعلمه أن الأخير لن يرغب أو يهتم بمناقشة أي تفاصيل، وتفاوض معهم على السعر المناسب لكل طلب بشكل مستقل، ثم ودعهم مخبرًا إياهم أنه سيتصل بهم عندما ينتهي الأستاذ -كما سمى

رفيقه في سخرية مبطنة- من المطلوب. شعر هشام بعدها أنه يقوم بدور السكرتيرة الشخصية لحمدي، وهي فكرة ضايقته وكادت تجعله ينفض يده تمامًا عن الأمر، ولكنه عاد فسمى نفسه "مدير أعمال" حمدي، التسمية الجديدة أعجبته وأعادت له رضاه عن نفسه وعن ما يفعله.

تلقى حمدي الطلبات من هشام بلهفة لم يبذل مجهودًا لمداراتها، ولم يسأله حتى عن السعر الذي سيتلقاه، أخذ منه الأوراق ومضى في طريقة آسفًا لأن الساعة الخامسة قد حانت ولم يبق من اليوم سوى ساعته مع زينب ثم ورديته الطويلة، التي لولا القراءة لمات فيها مللًا منذ دهور، لا بأس.. سيبدأ في الكتابة غدًا صباحًا وسينتهي من المطلوب كله في يومين على الأكثر.

لكن ظنه في سرعة كتابته خاب هذه المرة، لم يضع في حسبانه أن كتابته الجامحة التي اعتادت حكايات الاغتصاب والرذيلة الزائفة والكتابة بلا قواعد مع صحف الطاهر تحتاج إلى ترويض وتشذيب ليستطيع تنفيذ المطلوب بشكل احترافي، بالإضافة إلى أن المقالات السبع كانت لسبع كتاب مختلفين، كلهم شباب كما يبدو من بساطة الأسلوب وسذاجة الأخطاء، ويجب أن يبدو اختلاف الأساليب بين السبعة جليًا في الخَرْجِ الذي سيقدمه.

يومان فقط جمع فيهما الأفكار الملائمة وكتب مسودات مناسبة للمقالات السبع، دون أن يعير أدنى اهتمام للموضوع الذي يناقشه كل مقال، فكل الأمور سيان بالنسبة له. ولكنه استغرق أيامًا عشر -كان يتعجله فيها هشام يوميًا كي ينهي المطلوب

لإلحاح مهران المستمر عليه- في إعادة كتابتها وضبطها لتخرج كل مقالة في النهاية بأسلوب مشابه لأسلوب صاحبها الأصلي وبشخصية وروح تختلف تمامًا عن بقية المقالات.

طلب من هشام أن يشترط على مهران أن يبلغه فور أن تُنشر كل من المقالات السبع، أخبر هشام مهران هاتفيًا بهذا الشرط وأضاف عليه شرطًا آخر:

"وتيجي بنفسك تدفع قبل الاستلام، دي تعليمات الأستاذ"

وهو ما ضايق مهران وأضمر في نفسه ألا يلجأ لهما مرة أخرى بعد هذه المرة، لتتبخر هذه الفكرة تمامًا من عقله ولا يعود لها أثر وسط الانبهار الذي عصف به وزميله بعدما قرءا ما كتبه حمدي، ودفعا صاغرين المبالغ كاملة لهشام وعادا لقاهرتهم. اقتطع هشام لنفسه من النقود نصيبًا مقابل مجهوده الشخصي ولم يخبر حمدي عنه شيئًا، وإن خمن الأخير أنه فعل ولم يهتم. ثم تتابعت المكالمات من مهران في الأيام التالية مخبرة هشام بمواعيد نشر كل مقال، وتتابعت معها زيارات حمدي الصباحية لبائع الجرائد وممارسة طقوس قراءة حروفه المنشورة بنشوة أدمنها، مع قص المقالات من الجريدة ومسح اسم الكاتب منها والتوقيع باسمه هو، حمدي محمود.

ولم يطل الانتظار هذه المرة قبل أن يظهر مهران بقائمة طلبات جديدة، والمفاجأة كانت في زيارة أخرى منفردة لزميله الذي جاء معه المرة السابقة بقائمة طلبات أخرى تختلف عن تلك التي أحضرها مهران، كلاهما أحضر طلبات له ولزملاء من صحيفة

"الأسبوع" ومن صحف أخرى أيضًا. أدرك هشام بسهولة أن كلًا منهما يلعب دور السمسار بين زملائه دون علم الآخر، فكر بينما يقبل من كل منهما الطلبات ويفاوضه في السعر أنه يجب أن يجد طريقة ما أكثر ذكاءً تصله بما يبدو أنه كنز من العملاء دون استغلال من مهران وزميله.

ووجد حمدي نفسه غارقًا في كومة من الطلبات قاربت العشرين هذه المرة من مختلف أنواع الطلبات، ولم يرفض أيًا منها وقضى معها أسعد أوقاته، وجد في نفسه متعة خالصة في تنفيذ الطلبات بدقة ومهارة وسرعة أيضًا بعد أن بدأ يسيطر على مفاتيح كلماته بعد المقالات السبع السابقة. كتب عن أبو تريكة وكتب عن رونالدو، كتب عن نجاح الحكومة في إدارة شيء ما وكتب في نقد فشل الحكومة في إدارة نفس الشيء، كتب في نقد الأفلام السينمائية وفي مراجعة الجديد من الروايات الأدبية، كتب عن فضائح اجتماعية وحوادث لم تختلف كثيرًا عن حكايات الطاهر. كتب عن كل شيء بنفس المهارة والكفاءة بشعور محايد تمامًا تجاه المحتوى في مقابل متعة الكتابة ذاتها، وأملًا في نشوة النشر اللاحقة، لا سيما أن الطلبات ستنشر في صحف عدة هذه المرة.

في هذه الأثناء كان هشام -الذي استيقظت فيه غريزة قديمة ولمح في الأفق فرصة لاستغلال مواهبه التي مرضت من قلة الاستعمال- يفكر في وسيلة مناسبة لإدارة ما يبدو أنه سيصبح عملًا مربحًا في المستقبل، دون أن يستغله آخرون في أفعال سمسرة جانبية تقلل من مكاسب محتملة له. وعندما سلمه

حمدي الطلبات كاملة اشترط على مهران وزميله -كل منهما في محادثة تليفونية مستقلة بالطبع- نفس الاشتراطات السابقة التي ترغمهما على الحضور شخصيًا لاستلام الأعمال والدفع وتأكيد إبلاغه عند النشر. ولكن في هذه المرة قدم لكل منهما كارتًا صغيرًا يحتوي على بريد إلكتروني (El_Ostaz_Press_Services@yahoo.com) ورقم هاتف محمول.

"المرة الجاية يا باشا مش حخليك تضطر خالص تضرب مشوار من القاهرة لإسكندرية، تبعت الأوردر بتاعك على الميل، ولما يخلص حنبعت نقولك إن الأوردر خلص، تحول الفلوس اللي حنتفق عليها على هيئة رصيد محمول للرقم ده وحنبعتلك علطول الأوردر بتاعك جاهز للنشر، وممكن لو احتجت أي تفاصيل زيادة تتصل على الرقم ونتفق على أي حاجة أنت عايزها"

يسهل بالطبع على من يعرف تاريخ هشام تخمين من أين استوحى فكرة تحويل المبالغ المادية على هيئة أرصدة شبكات محمول.

لاحقًا، مع تتابع نشر الطلبات الأخيرة، لم يكن حمدي وحده من يطارد المنشور ويحتفظ بالقصاصات، فعلها هشام أيضًا وجمع نسخته من من كل ما نُشر ولكن لغرض يختلف تمامًا. جمع أسماء وهويات المؤلفين الأصليين لكل مقال وبحث عنهم على الإنترنت حتى وصل للبريد الإلكتروني أو الرقم الهاتفي المباشر لكل واحد منهم، وأرسل رسائله يخبرهم بالبريد الإلكتروني ورقم

الهاتف، مؤكدًا أن الخدمة ستعمل بنفس الكفاءة دون الحاجة لوسيط، وجلس معجبًا بذكائه وسعة حيلته في انتظار الطلبات. وبالفعل لم يطل الانتظار وجاءت الردود تحمل طلبات من بعض من نفذ لهم طلبات من قبل، وآخرين جدد لم يراسلهم، ولكن يبدو أن خروج اللعبة عن سيطرة مهران وزميله السابق جعلت الكلمة تنتشر وتخرج وتصيب أهدافًا لم يخطط لها الرامي.

وزادت القصاصات في درج حمدي ممهورة بتوقيعه، فاحتاج لأن يشتري ملفًا بلاستيكيًا فاخرًا يحفظها فيه، كان يضع فيه كل يوم تقريبًا قصاصة جديدة بعناية وحب ويقلب في قصاصاته القديمة بابتسامة حانية -ابتسامة لم يرها أحد خارج غرفته، لم ينل منه أحد على الطبيعة سوى نفس الوجه المتجهم والكلمات المتبرمة، وإن هدأت حدة نظرات الكره والغضب الخارجة من عينيه إلى حد ملحوظ- ودقات قلب مراهق يقابل حبيبة في الخفاء بعيدًا عن أعين المراقبين، ومع القصاصات كانت هناك بطاقة ذاكرة إلكترونية، يخرجها من حين لآخر لتخزين صفحة إلكترونية لمقالات نُشرت على الإنترنت، وإن لم يهتم بها كثيرًا، فالنشوة تأتيه من مذاق وملمس ورائحة الحروف المطبوعة. وزادت مع القصاصات المبالغ التي يعطيها إياه هشام دون أن يهتم بمحاسبته عما أخذ منها ولماذا. لم يحفظ منها إلا ما يكفي مصروف سجائره وكتبه، وألقى البقية مع مرتبه الشهري الهزيل لزوجته نعمة مع مصروف البيت، ليصيبها الذهول من كل هذا الكم من النقود بين يديها دون أن تدري ماذا تفعل بها.

بعد شهور، لم يعد يوم يمضي دون أن يُنشر لحمدي شيء في صحيفة أو مجلة أو موقع إلكتروني، وراقب مجلد قصاصاته يتضخم في فخر، وتفرغ تمامًا لوظيفته الجديدة ككاتب شبح كما بات يحب أن يلقب نفسه، ولم يعد لديه وقت -ولا رغبة- لكتابة ما تطلبه مؤسسة الطاهر، فتوقف عنها تمامًا غير نادم رغم توسلات داني ديفيتو له ولهشام التي لم يعرها أحدهما التفاتًا، وإن استمر هشام في وظيفته كمستشار إعلامي/مورد صور إباحية للمؤسسة، مضمرًا في نفسه أنه لن يتوقف إلا في حال استمرت لعبة حمدي والأستاذ لفترة كافية تضمن استقراره المادي واعتماده عليها بالكامل، وهذا لن يحدث قبل وقت طويل كما خمن.

* * * *

"ألو.. إنتو بتوع خدمات الأستاذ الصحفية؟ مش مهم أنا مين، المهم تعرف أنا بكلمك من طرف مين، أنا بكلمك نيابة عن أستاذ مفيد علي.. أها، بالظبط، هو أستاذ مفيد رئيس تحرير أكبر جريدة رسمية في مصر.. اسمعني كويس وركز معايا، ال(أستاذ) بتاعكم ده بيعرف يكتب كويس بأسلوب حد تاني؟ إحنا مش بنهزر هنا، إحنا عايزين مقالات بأسلوب وطريقة أستاذ مفيد علي مش أي عيل صحفي جديد لسة بيتهته في الكلام. أستاذ مفيد مشغول جدًا ومش فاضي يكتب مقال كل يوم، في ناس عندنا شغلتها مخصوص تكتب لأستاذ مفيد مقالاته، بس كلامهم بقى باهت ومكرر ومبقاش يعجبه. وبعدها الأستاذ سمع عنكم وقرر يجرب الشغل معاكم، لو الشغل عجبه حتاكل لقمة

عيش حلوة. بس عشان تبقى عارف لو حنشتغل مع بعض في قاعدتين مهمين تعمل حسابكم عليهم: أولًا: شغل مستمر مبينقطعش، أنا عايز مقالات يومية في مواضيع حبلغك بيها أول بأول، ثانيًا: سرية تاااااامة، وركز أوي على السرية عشان لو الكلام ده طلع برة حتروحوا كلكو في ستين داهية، فاهم؟"

* * * *

"مساء الفل، معاك مصطفى ماهر.. أيوة أنا بتاع مقالات، الأستاذ عمل معايا أحلى شغل في مقال watchmen.. تسلم يا سيدي الله يكرمك.. بقولك يا فندم، أنا بكلمك من طرف أستاذ خليل موسى.. أيوووووة بالظبط هو خليل موسى بتاع جريدة صوت الشعب والمعارضة. بقولك بقى، أستاذ خليل سمع عن شغل الأستاذ إللي عندك ده، الكلام عليه كتير، هو صحيح دكتور جامعة زي ما بيقولوا؟ بيقولوا دكتور جامعي من بتوع كلية الإعلام اتطرد عشان بيقول كلام ضد الحزب في محاضراته، ده إللي خلى أستاذ خليل يتعاطف معاه ويبعتله شغل، شغل أستاذ خليل ممكن يخلصه بنفسه في دقايق بس هو متعاطف مع قضيته وعايز يساعد بأي شكل، حبعتلك على الإيميل كمان شوية مسوَّدة كتاب الأستاذ الجديد، كتاب عن الصحافة والحكومة وكده، بس الأستاذ كتبه باستعجال ومحتاج يتظبط تاني بروقان، تعرف تخلصهولي؟ بس خلي بالك، أسلوب الأستاذ معروف ومشهور، لازم يبقى الكتاب بنفس الأسلوب، لو الكتاب ده اتعمل كويس حيبقى فيها حسنة حلوة متقلقش، اظبطني أظبطك. بقولك إيه يا كبير، أنت عارف طبعًا إن شغلنا ده سر،

مش محتاج أفكرك، أستاذ خليل بيقولك لو الموضوع اتعرف، حتزعل"

* * * *

قامت متثاقلة ما إن رأته قادمًا لتبدأ في تسخين المياه وتحضير الشاي، وجهزت له علبتي السجائر ووضعتهما في يده كالعادة ما إن خطا داخل الكشك وعادت لتكمل تحضير الشاي. لم تكن بينهما أحاديث طويلة من قبل، لم يهتما بالتحيات المتبادلة والسؤال عن الأحوال، لم يكن أحدهما من هواة الحكي والشكوى من هموم الدنيا وأحوالها، ولم يحمل آخر من الفضول ما يكفي لأن يسأل عن الأحوال والأخبار والتفاصيل. لم يكن هناك داعٍ أصلًا لتبادل الكلام أغلب الوقت، حتى الأسماء لم يسأل أحدهما الآخر عنها، هي عرفت اسمه من نداء زميله له ذات مرة أمامها، أما هو فاستمر لقاءه بها أسابيع طالت دون أن يعرف لها اسمًا أو يخطر على باله أنه لا يفعل، حتى جاء ذلك اليوم الذي دخل فيه زبون للكشك يبغي شراء شيء ما بينما هي منهكمة في تحضير الشاي، فحاول حمدي أن ينبهها ويناديها ليدرك بعد فوات الأوان أنه يجهل اسمها.

"آه.. آه.. أنتي.. في زبون"

استدارت مندهشة من كلامه قبل أن تفهم جهله باسمها لتضحك ملء شدقيها ضحكة طويلة أمام دهشة الزبون وغيظ حمدي، ثم هدأت بصعوبة وقالت:

"زينب، اسمي زينب"

لاحظت أنه يتأبط إلى جوار الكتاب اليومي المعتاد ملفًا بلاستيكيًا أخضر منتفخًا، يحمله بحرص شديد وكأنه يحمل ابنه الرضيع حتى يكاد يلاعبه ويتحسسه بحنان، لم تعره وما يحمل انتباهًا فهذا شأنه الخاص ولا يعنيها ولا تهتم به، استمرت في تحضير الشاي بينما فرد هو الكرسي المعدني وجلس في صمت وأراح ما يحمل على المنضدة أمامه، وجاءت لتجلس في مقابلته وهي تحمل القدحين الممتلئين حتى الحواف بالسائل الساخن.

"فين الدومينو؟ قوم هاته من ع الرف"

بدا عليه أنه كان يتجهز لقول شيء ما فلم يسمع ملحوظتها، فغر فاه وأغلقه عدة مرات حتى استطاع أخيرًا إيجاد كلماته.

"عايز أوريكي حاجة"

لم تخف اندهاشًا ظهر على وجهها جليًا في انعقاد حاجبيها ومط شفتيها، لكنها لم تبد ممانعة، ما شجعه أن يفتح ملفه البلاستيكي ويخرج القصاصات، نظراته ويده المرتجفة المتعرقة والابتسامة الباهتة التي تتجلى شيئًا فشيئًا جعلتها تراه لوهلة كطفل فخور على وشك عرض نتيجة امتحان تفوق فيه على أمه. أخرج الكثير من قصاصات الجرائد والمجلات ورصها على المنضدة أمامها بعناية، وأخرج كتابًا وحيدًا وضعه بجوارهم، ثم أخرج قطعة بلاستيكية سوداء لم تعرف ماهيتها من الملف ونظر لها لثوان قبل أن يغير رأيه ويعيدها للملف مرة أخرى ويغلقه ويودعه جانبًا، اتسعت ابتسامته تمامًا حتى غطت أغلب وجهه، ما جعلها ترى وجهه غريبًا تمامًا وكأنه شخص آخر غير

الذي اعتادت استضافته لما يزيد عن العام، وبنظرة الطفل الفخور قال:

"أنا إللي كاتب الحاجات دي كلها"

في تساؤل نقلت نظرتها بين الوريقات المرصوصة وبين ملامحه الفخورة وهزت رأسها وكتفيها في إشارة صامتة لعدم الفهم. فوجئ برد فعلها المنطقي وفكر أنه كان يجب أن يتوقع منها ألا تفهم شيئًا، كيف فاتته هذه التفصيلة الواضحة؟ كيف لها أن تعرف ماذا يعني بأنه من كتب كل هذا وهي لا تعرف عنه شيئًا في الأساس؟

كان قد شعر برغبة جامحة في مشاركة إنجازاته مع الآخرين، كره أنه لا يوجد من يعرف عن كتاباته شيئًا سوى هشام الذي لا يُعد جمهورًا كافيًا أبدًا. مع من يشارك منشوراته ويفتخر بها؟ زوجته؟ هو لا يكاد يذكر وجودها أصلًا، إنه يُفاجأ كل مرة بوجودها عندما تظهر بتساؤلاتها عن الطعام والشراب وشؤونها السخيفة الدائمة، وبمجرد أن تبتعد عن ناظره يعود لنسيانها وكأنها لم تكن، ثم إنها أغبى من ذبابة، لن تفهم شيئًا أبدًا، من إذن؟ لم يفكر في زينب عندما واتته هذه الخواطر أول مرة، بيد أن اليوم عندما استعد للخروج لم يدر بنفسه إلا وهو يحمل ملف القصاصات معه في طريقه بشكل عفوي تمامًا دون أن يخطط لماذا سيفعل به، وفي طريقه قرر أنه سيعرضه على زينب ووجد في نفسه ارتياحًا لهذا القرار، واستغرب قراره المفاجئ وتقبله له بسهولة، ما جعله يفكر فيما قد تمثله له زينب؟ وبعد تفكير طويل وصل للنتيجة الأكثر وضوحًا وبساطة، صداقة! زينب

اقتحمت حياته دون قصد منها ولا انتباه منه لتصبح صديقة، الصديق الأول والوحيد منذ ما يربو على عشرين عامًا، لم يعرف أصدقاءً قط منذ أن ترك الكلية والتحق بالوظيفة، لم يكن ودودًا قط مع أي مخلوق بما يكفي لتكون شبح صداقة حتى، لتأتي على حين غرة هذه السيدة الغريبة وتصبح أقرب ما يكون في حياته للصديق بعد كل هذا العمر الطويل. ربما لو كان وصل لهذه النتيجة من التفكير في أيام عادية لشعر بالغرابة وانزعج، وربما دفعته لإنهاء هذه الصداقة على الفور. ولكن في هذه الأيام بالذات كان بحاجة ملحة لوجود صديق حقيقي يشاركه إنجازاته بفرحة، لذا أنعشته الفكرة وأراحت دقات قلبه المتسارعة توترًا وتحمس لمقابلة صديقته ليعرض عليها غنائمه.

بيد أن تواتر هذه الأفكار في باله ألهاه عن حقيقة هامة، أنها لا تعلم عنه شيئًا ولن تفهم ما يحاول عرضه عليها، إلا إن قدم لها من الشروح والتبريرات ما يجعلها تفهم وتقدر قيمة ما بين يديها وتشاركه فخره وفرحه بها. أدرك غفلته هذه أمام هزة رأسها الصامتة المتسائلة أمام قصاصاته المفرودة على المنضدة، فخفتت حدة ابتسامته وانهارت حماسته وبدأ في التفكير فيما يجب أن يقوله لها. بدت فكرة إخبارها بأي شيء مريعة، هو لم يتحدث عن ذاته لآخرين من قبل أبدًا، لم يشارك غريبًا همومه ولا تفاصيل خصائصه، يبدو هذا مجهودًا عسيرًا ولا يعرف حتى كيف يفعله، فكان رد فعله الغريزي هو التراجع عن كل ما نواه، وبدأ في جمع القصاصات ببطء وإحباط ليعيدها إلى الملف، ولكن شيئًا ما في صمتها ونظرتها المتسائلة أعطاه إيحاء بما

يشبه الثقة، وشعر بالرغبة -للمرة الأولى- في الحكي والتوضيح، وتوقف عن جمع القصاصات وقرر أن يتكلم.

تلعثم لأكثر من مرة، في كل مرة يفترُّ ثغره عن الكلام يبدأ بكلمات غير مفهومة ثم يتوقف بسرعة، كلما قرر أن يبدأ حكايته من نقطة وجدها غير منطقية مبهمة ولن تفهم زينب إن بدأ منها، يفكر أن عليه أن يبدأ بما هو أبعد لتصبح حكايته أكثر منطقية. أعاد المحاولة عدة مرات دون نجاح في إيجاد نقطة بداية مناسبة، بينما ما زالت هي محافظة على صمتها الذي بدا له مشجعًا على الاسترسال. توقف عن المحاولات الفاشلة ليلتقط نفسًا طويلًا ويشرب القليل من الشاي، ثم قال:

"أبويا الله يرحمه كان كُمساري"

ساعتان كاملتان مرتا وزينب صامتة تمامًا لم تنطق حرفًا وتسمعه بكل ما أوتيت من انتباه، لم تفهم ما الذي كسر فجأة جمود الكُمساري الأحمق المتعجرف وحوله إلى هذا الطفل المسكين الذي لا يتوقف عن الحكي إلا لالتقاط أنفاسه التي هربت في خضم الكلام السريع المتلاحق، ثم يعود للاستكمال دون حتى أن ينظر إليها وكأنها غير موجودة، يحكي وكأنه يحكي لنفسه في دواخل عقله، يعيد ويزيد ويسترسل في تقديم التبريرات والأعذار عن كل شيء وأي شيء حكى عن فعله، وكأنه يُحاكَم أمام قضاة عتاة، إن لم تنلهم به شفقة سيحكمون عليه بالموت. أدركت بسهولة أنها المرة الأولى التي يحكي فيها كل ما يحكي لأي شخص، وأشعرها هذا عليه بالشفقة. في أكثر من مناسبة ورد على خاطرها أن تعلق على ما يقول ولكنها آثرت

الصمت، مدركة أنه لا يحتاج الآن لمن يرد على كلامه، هو فقط بحاجة لمن يسمعه. أوصلتها هذه الفكرة لفكرة أخرى غاضبة، إنها هي صاحبة الحكاية الأسوأ وهي التي يجب أن تتحدث وينصت لها الآخرون، لا أن تتبدل الأدوار وتسمع حكايات حمدي الأحمق التي لا تزيد عن تفاهات أطفال مقارنة بما مرت هي به، ولكنها كانت أكثر حكمة وذكاءً من أن تنجرف مع هذه الأفكار وعادت لتركز في كلماته محاولة أن يبدو على ملامحها وانطباعات وجهها الاهتمام والتركيز والإنصات، لا تتحرك إلا لرفع كوب الشاي وتناول القليل منه ثم تعيده مكانه، حريصة على ألا يلطخ الكوب القصاصات المفرودة ببقع الشاي.

ساعتان كاملتان مرتا قبل أن يدرك حمدي أنه لم يعد لديه المزيد مما يقال ويتوقف فجأة عن الحديث، بدا وكأنه فاق من إغماءة ليجد نفسه في مكان لا يألفه، نظر حوله في كل الاتجاهات بتوتر متلاحق الأنفاس لثوان قبل أن يهدأ ويركز نظرته على الأرض بين قدميه، رفع عينه استجابة ليدها التي هزت كتفيه لينظر لها، وجدها تمد يديها بعلبة كرتونية مفتوحة من عصير الفواكه المثلج.

"اشرب، أنت عرقان وبتنهج كأنك كنت بتجري في سباق"

كان أكثر ضعفًا من أن يمتنع مثلما كان ليفعل عادة فأخذ منها العلبة بإذعان وبدأ يشرب منها، وساد الصمت لدقائق لا يتخلله سوى صوت تجرعه للسائل الحلو. وكأن جرعة السكر في المشروب أعادت له قليل من الطاقة التي فقدها في مونولوجه الطويل، انتبه فجأة للشمس التي غابت فنظر في شاشة هاتفه

المحمول ليعرف الوقت واكتشف تأخره عن موعد ورديته بساعة، انتفض من مكانه وبدأ في جمع قصاصاته في الملف البلاستيكي قبل أن تمنعه هي بفرد كفها الأبيض الممتلئ فوق الوريقات:

"سيبهم، ابقى عدي عليا خدهم بكرة"

"حتعملي بيهم إيه؟"

قالت بلهجة من يرد على تساؤل عن ما يبدو واضحًا:

"حقراهم"

10

لا يفهم ولا تفهم أمه سر الغنى المفاجئ الذي صاروا عليه في السنوات الأخيرة، سألها أكثر من مرة عن المصدر الذي يعطيها منه أبوه الكُمساري البسيط كل هذه الأموال، دائمًا ما كان ردها أن الله وحده العالم. لكن التساؤل لم يشغله كثيرًا، النقود متوفرة بكثرة وهذا هو المهم، ما يفعله أبوه لا يهمه في شيء، فأبوه أبعد شخص في الكون عنه، لا يكاد أحدهما يرى الآخر أو يعرف عنه شيئًا. كان هذا يغيظه ويضايقه كثيرًا في طفولته، يتمنى قرب أبيه واهتمامه بأي شكل، يتمنى أن يكون لديه ما يحكيه بين رفاقه عن أبيه، حتى ولو كان هذا الحكي أن أباه منعه من من الخروج واللعب معهم، حاول أن يثير اهتمامه بشتى الطرق، لكن كُللت كل محاولاته في لفت نظر الأب المختفي دومًا بين كتبه أو في وظيفته المسائية بالفشل. ذات ليلة ركب الترام وكان أبوه هو المحصل، اتجه إليه مبتسمًا ووضع أمامه ثمن التذكرة، فكر أن أباه عندما يراه يدفع ثمن التذكرة سيضحك ويعيد له النقود ويداعبه أو حتى ينهره، بيد أن أباه رفع عينيه من على الكتاب وألقى عليه نظرة سريعة قبل أن يأخذ العملة المعدنية ويضع مكانها تذكرة ويعود بعينيه للكتاب. تسمر وقتها في مكانه لفترة غير قادر على النطق أو الحركة، أبوه نظر إليه بالفعل ولم يبد عليه أنه حتى عرفه، ظنه مجرد راكب عادي وأعطاه تذكرة وعاد لكتابه. حاول أن يقنع نفسه بأنه لم يره لكنه لم يستطع، لقد التقت عيناهما بالفعل لجزء من الثانية، لا ريب

أنه رآه.. ولم يتعرفه. جرى الفتى باكيًا وقفز من الترام المتحرك للطريق، قضى معظم الليل هائمًا على وجهه في شوارع محرم بك قبل أن يعود إلى أمه القلقة على ابنها المتأخر، وليس في عقله سوى فكرة وحيدة، سيلفت انتباه أبيه لوجوده، بأي شكل.

بعد عدة أيام قضاها في مراقبة الأب باحثًا عن أنسب وسيلة لجذب انتباهه، وصل إلى الفكرة الأنسب، تحرى موعد عودة الأب، وقبله بدقائق تسلل الفتى لغرفة أبيه وانتقى كتابًا سميكًا من المكتبة، وجلس على الكنبة القديمة محاكيًا جلسة أبيه بكل تفاصيلها، من ثنية القدم تحت المقعدة وثني الأخرى بزاوية قائمة، مع فتح الكتاب ومسكه باليد المسنود كوعها على مسند الكنبة، وتنقُّل الأخرى بين صفحات الكتاب وبين العبث بشعيرات مقدمة رأسه، حتى تعبير الوجه المستغرق حاكاه الفتى بدقة بعقد الحاجبين مع انفراج الشفتين البسيط واهتزازهما بضعف وكأنه ينطق ما يقرأ بصوت غير مسموع. باستثناء لون بشرة الفتى الفاتحة وأنفه الصغير المرسوم بنعومة، بدا وكأنه نسخة طبق الأصل من حمدي محمود الطفل بكل تفاصيله، بنحولته الشديدة وبروز عينيه وحدة ملامح الوجه والشعر المجعد الثائر، وهذا أول ما خطر على بال حمدي عندما خطا لغرفته ليتسمر مذهولًا أمام ما يفعله ابنه، دق قلب الفتى بعنف عندما رأى بطرف عينه دخول الأب إلى الغرفة، أدرك في اغتباط أنه لاحظ وجوده بلا شك وتأثر به، حافظ على جلسته واستمر في محاكاته مدعيًا أنه مستغرق في الكتاب بكل كيانه ولم يلاحظ حتى دخول الأب، وإن بدت حماسته في تسارع حركة أصابعه بين شعيرات رأسه الأمامية. استمر وقوف الأب في مكانه صامتًا

دون أي رد فعل على ما يراه واستمر الفتى في ادعائه مع التسارع الذي لا يتوقف لنبضات قلبه لدقيقة كاملة، ثم مشى بهدوء شديد إلى ابنه الذي توقع كلمات الثناء وتربيت فخور على ظهره، ازداد توتره وحماسه حتى بهتت شدة محاكاته وبدا جليًا عليه الارتجاف والابتسامة تغزو شفتيه منتظرًا بلهفة اقتراب أبيه، ثم رفع رأسه ناظرًا لأبيه الواقف أمامه مبتسمًا فرحًا بنجاح خطته، ثم نزلت صفعة حمدي المفاجئة على وجه الطفل بقوة حتى رنَّ صوتها في جميع أرجاء البيت ليجعل نعمة تنتفض من مجلسها مرتعبة، جرت على الغرفة المفتوح بابها لتشاهد محمود الطفل يبكي برعب بينما يتلقى الصفعة تلو الأخرى من أبيه المستشيط غضبًا، فقفزت باكية حائلة بين ابنها وزوجها الذي فوجئ بفعلتها فتوقف عن الضرب، ثم صرخ مشيرًا إلى الباب المفتوح:

"اطلعو برة أنتو الاتنين.. برة"

"حاضر ياخويا.. حاضر.. هدي نفسك أنت بس والنبي"

قالتها الأم باكية بينما تسحب ابنها الذي يحمل وجهه آثار أصابع أبيه الخمسة وخرجا، ليغلق حمدي الباب خلفهما. بينما تجلس محتضنة ابنها الباكي محاولة تطيب خاطره وتملأ وجهه بالقبلات، لم يفتها أن تنتبه لحقيقة أن حمدي على غير العادة لم ينطق بحرف رغم غضبه الجلي بوضوح على ملامحه، في الأيام العادية هو يعبر عن غضبه بالصراخ فقط، لكن فمه لم يفتح أبدًا حتى الآن. بعد مرور ربع ساعة هدأ فيها نحيب الفتى في حضن أمه إلى شهقات متباعدة ونعاس يتسلل ليسيطر

بهدوء، خرج حمدي من غرفته متجهًا إلى حيث يجلس الاثنان، ارتعب كلاهما وازدادت الأم تشبثًا بوحيدها متوقعة الأسوأ، ولكن حمدي وجه كلماته بمنتهى الهدوء والصرامة وبأكثر النظرات جنونًا إلى الفتى المرتجف:

"لو شفتك في يوم فاتح كتاب تاني، حقتلك"

بعد جفاف الدموع وذهاب الرعب ومرور الأيام على تلك الحادثة، قرر محمود ألا يحاول لفت انتباه أبيه أو التواصل معه بأي شكل فيما بعد، ما كان من علاقتهما سابقًا سيظل كذلك إلى الأبد، وإن كان أبوه لا يكاد يعرفه وينسى وجوده، فهذا من حسن حظه وليس العكس.

* * * *

لم يكن يحب المسلسلات العربية الدرامية، لكنه جلس بجوار أمه متابعًا المسلسل فقط ليستمتع بمشاهدة شاشة التليفزيون العملاقة الجديدة التي تحتل نصف مساحة الحائط تقريبًا. لو أراد أن يغير القناة لأخرى ليشاهد مباراة كرة أو فيلم أجنبي لما اعترضت، ولكنها تبدو مستمتعة بالمسلسل فلم يشأ قطع متعتها وقنع بمتابعته معها صامتًا.

ثم كان الذهول على وجه كليهما جليًا عندما اندفع حمدي فجأة مقتحمًا غرفة المعيشة التي لم يخطُ إليها منذ سنوات، ودون أي مقدمات اختطف جهاز التحكم عن بعد (الريموت) من يد نعمة المذهولة وهو يسأل بصوت مبهم سؤالًا لم يفهماه، فأعاد سؤاله بزعيق عال:

"قناة الـbcc على نمرة كام؟"

ليس فقط يقتحم مجلسهما في غرفة المعيشة لأول مرة، بل يرغب كذلك في مشاهدة التليفزيون، إن الأسرة تعيش لحظات تاريخية في هذه اللحظة.

"والله ماعرف ياخويا، معرفهاش دي"

ندت عنها الجملة بلهجة متوسلة كالبكاء أثارت حنق حمدي كالعادة وابنها الذي تضايق من أسلوب أمه المتوسل الضعيف كالمعتاد، ظل صامتًا موجهًا نظرته الكارهة والمتسائلة في نفس الوقت تجاه أبيه الذي يقلب في قائمة القنوات قبل أن يجد مبتغاه وينتقل إليها. على الشاشة مذيعة حسناء تتحدث بلغة عربية فصحى سليمة:

"أهلًا ومرحبًا بكم أعزائي السادة المشاهدين، اليوم يحتفل مواطنو مصر ومواطنو العالم كله بالذكرى الأولى لثورة 25 يناير المصرية"

أخرج من جيبه ذاكرة رقمية (Flash Disk) وانحنى متفحصًا خلفية الشاشة المعلقة على الحائط أمام عيونهما غير الفاهمة حتى وجد الفتحة المخصصة لتركيبها وركبها، ثم تفحص جهاز الريموت باحثًا عن شيء لم يجده، فأعطاه لمحمود قائلًا ونظره متوجه إلى الشاشة دون حتى أن يرى ابنه المتجهم:

"بيسجل إزاي البتاع ده؟ خليه يسجل فيديو"

لم يرغب محمود في تلبية طلب أبيه لكنه لم يجد في نفسه الشجاعة الكافية لإلقاء الجهاز على الأرض والصراخ "مليش دعوة" كما تمنى أن يفعل، بدلًا من ذلك ضغط في فتور زر "تسجيل" الذي لم ينتبه إليه حمدي في جهاز التحكم، لتظهر على الشاشة علامة بدء التسجيل وتهدأ معها ملامح حمدي المشدودة توترًا وتُستبدل بتعبيرات الحماس.

"ويشاركنا اليوم في الاستوديو الأستاذ محمد حمزة، الدبلوماسي السابق والخبير الإستراتيجي. أهلًا بك سيد محمد"

تتراجع الكاميرا لتفسح مكانًا لرجل وسيم أشيب الفودين في بدلة أنيقة يرد التحية بدماثة وحسن اختيار للكلمات، ثم يبدأ حديثًا طويلًا عن أحداث الثورة المصرية في العام السابق وما ترتب عليها لاحقًا، وما رأي الخبير الإستراتيجي فيما حدث وتوقعاته لما يجب أن يحدث فيما بعد. كل هذا وأبوه يتابع الحديث بحماس شديد وابتسامة غريبة لم ير لها مثيلًا من قبل على وجه رجل كان يظنه وُلد متجهمًا، تبادل محمود مع أمه نظرات مفعمة بالتساؤل وعدم الفهم، والخوف.. ابتسامة حمدي والفرحة الجلية على وجهه أثارت خوفهما كما يخاف الإنسان الظواهر الكونية غير المعتادة التي يجهلها ويرجع تفسيرها للسحر والأشباح. وظلا متجمدين في مكانيهما يراقبانه بهذا المزيج من الخوف والحيرة وعدم الفهم، حتى جاءت لحظة اختفت فيها ابتسامة حمدي وعاد التجهم، وصرخ في اتجاه التلفاز وهو يحرك يده كمتابع متحمس لمباراة كرة مهمة:

"لأ.. لأ.. مقولناش كده، حتزنقك ياغبي يابن العبيطة بسؤالها"

حاول محمود فهم ما يقصده أبوه بمتابعة الحلقة ولكنه لم يفقه شيئًا من كلام الضيف ولا كلام المذيعة الحسناء، انتباهه المنصب على حالة أبيه الشاذة عن المعتاد جعلته غير قادر على التركيز معهما، فقط لاحظ أن المذيعة سألت سؤالًا طويلًا ملتويًا أتبعه ارتباك من الضيف وإجابة تشبه ما يفعله هو عندما يُسأل في المدرسة سؤالًا لم يذاكر قبله حرفًا، بعدها اندفعت من أبيه ضحكة عصبية متوترة قائلًا:

"أهي زنقتك يا حمار.. أحسن أحسن.. عشان تسمع الكلام بعد كده"

لم يكد ينتهي من جملته حتى رن هاتفه المحمول في نفس الوقت الذي خرج فيه البرنامج إلى فاصل إعلاني، رد حمدي على المكالمة مباشرة:

".. . بسسس اسكت من غير كلام كتير، مش قولتلك قول لأستاذك ميقولش الكلمتين دول؟ مش قلنا نلتزم بأم الكلام اللي اتفقنا عليه؟ بس بقى بطل رغي الفاصل حيخلص وأستاذك بقى شبه اللباس قدامها، ميفتكرش نفسه عشان قعد سنتين في السفارة في لندن بقى أبو العريف ويفتي على مزاجه، دي قناة عالمية والمذيعة فاهمة أكتر منه وحتفضحه مش زي ست أم عزة ولا خالتك منال بتوع القنوات بتاعتنا.. خليه يقول مجلس رئاسي مدني.. اسمع مني بس وسيبك من الهري بتاعك، مجلس رئاسي مدني.. أيوة.. أيوة صح كده، دول كلمتين حياكلوا عيش، روح الحقه قبل ما الفاصل يخلص، وقله لما أقله على حاجة بعد كدة يقولها من غير تجويد"

ثم أنهى المكالمة وقد علت وجهه نفس الابتسامة السابقة مرة أخرى، نظر حوله ليدرك أنه كان واقفًا طوال الوقت، تلفت وأشار لنعمة أن تتنحى جانبًا وتفسح له مكانًا ليجلس، فتحركت بسرعة رهن إشارته وقد امتزجت رهبتها ودهشتها بشعور مبهم بالإعجاب تجاه زوجها بعد أن رأته يحادث أشخاصًا مهمين بشأن أشياء مهمة سيقولها على التلفاز هذا الرجل الجميل والسيدة الحسناء، وينهرهم جميعًا ويصرخ في وجوههم مثلما يفعل معها بالضبط. أزاحت ابنها إلى طرف الكنبة الأقصى مفسحة مكانًا ضيقًا ولكنه أقصى ما تقدمه الكنبة من مساحة لشخص ثالث، تحركت لتقوم من مكانها ليجلس في راحة ولكنه أشار لها أن تظل مكانها وانحشر في المساحة الضيقة بينما ينتهي الفاصل الإعلاني وتعلن المذيعة الحسناء عودة البرنامج واستكمال الحديث.

".. . لذا، نحن نطالب بشكل واضح ومباشر وبلا أي تزيين للكلمات أو تجميل لها، بتسليم إدارة البلاد إلى مجلس رئاسي مدني يمثل جميع أطياف الشعب، ليقود الشعب المصري المجيد بنفسه سفينة بلاده المضطربة في بحر مضطرب تغشاه الظلمات إلى بر الأمان".

وجلجلت ضحكة حمدي بصوت لم يكن يظن محمود أو أمه أنهما سامعَيْه أبدًا، وأرجع ظهره إلى الخلف وأغمض عينيه ليحصل على أقصى استرخاء ممكن، بينما يترك لجسده حرية الامتداد لاتخاذ وضع الراحة حتى التصق جانبه الأيمن تمامًا بزوجته، التي ازدادت انكماشًا خوفًا من أن تضايق زوجها وتنهي

غير قاصدة حالة السعادة التي تراه عليها للمرة الأولى في حياتهما، حتى لو كانت سعادته تلك لسبب غير مفهوم بالنسبة لها. شعر فجأة بدفء جسدها وطراوته، فتح عينيه ونقلهما إليها، ارتاعت من نظرته خصوصًا وقد اختفت ابتسامته وبدا في عينيه ما لا تفهمه. وجه حديثه لمحمود:

"لما الحلقة تخلص وقف التسجيل وشيل الفلاشة وخليها معاك"

ثم لنعمة:

"قومي معايا"

وقام ببطء وخرج من الغرفة تتبعه نعمة المضطربة وعيون محمود الذاهلة.

* * * *

".. لذا، نحن نطالب بشكل واضح ومباشر وبلا أي تزيين للكلمات أو تجميل لها، بتسليم إدارة البلاد إلى مجلس رئاسي مدني يمثل جميع أطياف الشعب، ليقود الشعب المصري المجيد بنفسه سفينة بلاده المضطربة في بحر مضطرب تغشاه الظلمات إلى بر الأمان"

تعالى ضحكه -بشكل أقل حدة من ضحكته عند مشاهدة البرنامج في إذاعته المباشرة- بينما يعيد مشاهدة مقطع الفيديو المسجل على جهاز الكومبيوتر المحمول الجديد، أغلق برنامج مشغل الفيديو وتراجع على كرسي المكتب الوثير مريحًا عضلات

جسده في استمتاع، أشعل سيجارة بهدوء نافثًا دخانها ببطء، حاول إخراجه على هيئة حلقات وفشل تمامًا، عاد إلى جهاز الكومبيوتر وفتح صندوق البريد الوراد لـ"خدمات الأستاذ الصحفية" ليجد أنه لأول مرة منذ أسابيع قد أنهى كل الطلبات القديمة، والجديد منها ما زال أمامه على الأقل أربعة أيام قبل موعد التسليم. لم يجد في نفسه الرغبة للكتابة فأغلق الجهاز، تفحص الساعة ليجدها لم تتجاوز الثانية والنصف ظهرًا، ما زال الوقت أمامه طويلًا قبل النزول. سحب الذاكرة الرقمية (Flash Disk) من الحاسب المحمول وتحرك متمهلًا تجاه المكتبة العملاقة الفاخرة التي تملأ الحائط المواجه للشرفة بالكامل، يمتلئ ثلثا رفوفها بالكتب المختلفة، والثلث الأخير الذي يقع في أقصى يمينها مكون من خمس رفوف فوق بعضها يمتلئ بملفات بلاستيكية مختلفة الألوان متخمة بالقصاصات الورقية، بينها عشرة كتب موضوعة بحرص بين ملفات القصاصات فتبدو للناظر للوهلة الأولى خطأً في التنسيق، حيث يجب أن تكون الكتب في ثلثي المكتبة الآخرين. على أحد الرفوف الخمسة علبة كرتونية عليها شعار ماركة أحذية رياضية معروفة، فتحها حمدي ليظهر بداخلها عدد من بطاقات الذاكرة السوداء الصغيرة وأقراص الـFlash، وضع بينها الواحدة التي نزعها للتو من حاسبه المحمول قبل أن يغلق العلبة بإحكام ويعيدها إلى مكانها. وقف أمام حائط جوائزه متأملًا إياه بنظرة بعيدة ترى الصورة كاملة قبل أن تقترب وتتفحص كل تفصيلة بدقة متناهية، مر بأطراف أنامله على الملفات البلاستيكية واحدًا تلو الآخر، ووصل بأصابعه إلى الكتب العشرة وتلمسها، تختلف

أحجامها وأشكالها وجودة طباعتها، تحمل أغلبها عناوين ساذجة مثل "رايحة بينا على فين يا مصر" و"ثورة وطن" و"ما بعد ثورة اللوتس"، مر بأصابعه عليها جميعًا حتى لامست الكتاب الأخير وتوقفت عليه، سحبه ومسح طبقة التراب الرقيقة المتكومة على الغلاف الذي يحمل صورة شاب أسمر يتلفع بالعلم المصري محمولًا على الأعناق في مظاهرة، وبخط ديواني مرسوم باحترافية كُتب العنوان: "حكايات ميدان".

* * * *

قبل حلول اليوم الأكثر درامية في في تاريخ هذا البلد الغريب، 25 يناير 2011، كان حمدي قد أمضى ما يربو على العام ككاتب شبح، خدمات الأستاذ الصحفية أصبحت أسطورة حضرية في أوساط الصحافة المصرية، يتحدث الجميع عن احتمالية وجوده ولا أحد يجرؤ على تأكيدها، فمن يؤكد وجود "الأستاذ" يثبت على نفسه تهمة الالتجاء إليه لكتابة أو تحرير مقالاته، لذا ينتهي كل حديث عنه بـ"الله أعلم" والكثير من هزات الأكتاف والرؤوس في حيرة زائفة، بينما ينفي كبار الصحفيين ورؤساء التحرير تمامًا وجود مثل هذا الشخص، رغم حلول البريد الإلكتروني الأشهر على قمة قائمة المعارف المسجلة في حساباتهم، حتى أولئك الذين لم يتعاملوا معه يحتفظون بعنوان البريد ورقم الهاتف في متناول أيديهم، لا أحد يدري متى وكيف قد يحتاج إليه.

ثم قامت الثورة.

يمكن أن نقول "وبشكل مباغت ودون سابق إنذار قامت ثورة يناير"، أو نقول "ومثلما توقع الجميع وكما أخبرتنا كل العلامات، اندلعت الثورة"، لكن كلا العبارتين يمكن أن يكون صحيحًا تمامًا وخطأً جدًا في نفس الوقت. الحق أن الحديث عن هذه الأزمنة الشائكة بكل ما تمثله من دراما وأحداث ملحمية وتساؤلات عميقة المغزى وسطحية المعنى، ليس إلا فخًا يقع فيه بسهولة الراوي لينسى حكايته وشخوصه وماذا حدث وماذا سيحدث. سنحاول عبور هذه المنطقة الحافلة بالألغام محاذرين أن نطأ أحدها فينفجر فينا ويقضي علينا وعلى حكايتنا ونكمل ما بقى من حياتنا ضائعين في أسئلة وجودية مثل "ما معنى الحياة؟ ما الهدف من وجود الإنسان؟ مين إللي قتل المتظاهرين؟".

قامت الثورة.

كالغالبية العظمى من الخلق اكتفى حمدي بمتابعة ما يحدث في اليوم الأول على شاشة التليفزيون وعلى الإنترنت، مكتفيًا بالتعاطف مع المتظاهرين ومهتمًا في المقام الأول بأموره الخاصة وحياته الشخصية وما يدور فيها، ومع حلول الثامن والعشرين من الشهر وانقطاع الإنترنت وانفجار كل شيء، نزل وشارك بنفسه في التظاهرات بعدما أصيب بما أصاب عموم الخلق من داء الأمل وحب الوطن وطلب الحرية والعدالة وما شابه من غرائب الأمور. ولم يكون في نزوله غرابة، فمن قضى عمره مسحورًا بين صفحات الكتب تائهًا بين معانٍ وأفكار ومجازات وأحلام، لن يملك من نفسه في أيام شبيهة إلا أن

يصبح نقطة من موجات عظمى متلاحقة من الجماهير الحالمة، التي تظن أن بجمعها الغفير يمكنها تحقيق أسطورة كالعنقاء.

ولكن الإنترنت عاد للعمل مع الثاني من فبراير ليمتلئ صندوق البريد الوارد بمئات الطلبات خلال ساعتين من عودة الاتصال، وخرج حمدي من وضع الثائر النشط إلى وضع أضعف الإيمان والتعاطف القلبي. كم الطلبات الواردة كان أكثر بكثير من أن يقدر على تلبيته شخص وحيد، وتطبيقًا للنظرية الاقتصادية الأقدم والأبسط، تدخل هشام مديرًا لأعمال الأستاذ الغارق في الطلبات المنهالة عليه، ليرفع سعر الخدمة عشر مرات والتنفيذ بأسبقية الحجز. لم يقلل رفع الأسعار من ضغط الطلبات المنهالة على الأستاذ، ولكنه غير من نوعية العملاء الذين كان أغلبهم قبلها من صغار الصحفيين وشبابهم المبتدئين وقلة من الكبار، فبعد رفع الأسعار صارت الغالبية العظمى من كبار وقدامى الصحفيين وحتى الموهوبين منهم الذين صار وقتهم أضيق من الكتابة في خمس صحف مع الظهور في عشر برامج تليفزيونية في نفس الوقت.

المشكلة الأهم كانت التباين الواسع في محتوى الطلبات المقدمة، فمنهم مؤيد للثورة حتى الموت وآخر معارض لها بجنون وثالث محتوى طلبه أن "اكتبلي مقال حنين كده وحلو وميضايقش حد، أيد الثورة والحرية، بس بلاش يرحل، زي أبوك برضه". ولأن حمدي يؤمن في قرارة نفسه أنه محترف، قرر أن يحيد مشاعره الشخصية ويمارس عمله كمحترف ويلبي الطلبات بالمواصفات المطلوبة بالضبط بلا زيادة ولا نقصان. كان يبدأ

يومه بالكتابة عن الثورة كثائر يحيا في الميدان وينام تحت عجلات المدرعات، ثم يمر بمرحلة وسيطة بالكتابة الطرية اللينة عديمة المذاق والمعنى والاتجاه، ويختم يومه قبل النزول لورديته المسائية بالكتابة عن التخريب والإرهاب وثورة المجرمين القتلة الفارين من العدالة كمواطن نموذجي من خيرة المواطنين الشرفاء.

باستثناء حمدي نفسه وهشام وزينب -التي صارت تقرأ بشكل دوري كل ما يُنشر لحمدي عندما يحضر لها من حين لآخر ملفًا جديد من القصاصات- لم يدرك أحد من الوطن الذي يمر بأكثر لحظاته حرجًا في العصور الحديثة، أن تقريبًا كل الصحف المصرية وعددًا لا بأس به من الصحف العربية والمواقع الإخبارية الإلكترونية تخرج يوميًا محملة بمانشيتات حمدي على الصفحات الأولى، وتحليلاته وتنبؤاته المختلفة المتباينة لكيف ولماذا وإلى أين ستمضي الأمور. كلاعب شطرنج عبقري كان يخوض مبارياته الساخنة ضد نفسه لاعبًا دور الخصمين بنفس الاحترافية والمهارة، كان ينشر المقال والرأي في صحيفة ويهاجمه بضراوة من منبر آخر ليعود مدافعًا عن رأيه في الميدان الأول، مثلما فعل في الحرب الشرسة التي دارت بين مفيد علي رئيس التحرير القومي وقلم الحكومة الأول، وخليل موسى وحش المعارضة الذي أعلن نفسًا قائدًا شرفيًا للثورة وأبًا روحيًا للثوار، فكان يكتب مهاجمًا الصحافة المعارضة المخربة للعقول التي أصابت عقول الشباب ووسوست لهم بالعصيان المحرم وعلى رأسهم الشيطان الأكبر خليل موسى بلسان مفيد علي، ثم يلبس رداء الثائر -رداء واسعًا فضفاضًا لزيادة وزن خليل موسى

الملحوظة مقارنة بحمدي الذي لا يكاد يُرى للناظرين له من الجانب- على الظلم المدافع عن الحق والحرية والحقوق الضائعة والحريات، متفاديًا رميات مفيد علي القاتلة ومرسلًا المزيد من الرميات في الاتجاه المضاد التي سيتفاداها بنفسه لاحقًا عند عودته للمعسكر الآخر. هكذا كان حمدي السلاح السري الذي يعلم الجميع بوجوده ولا يجسر على ذكر استخدامه، كل طرف من الأطراف يظنه جنديه المخلص في خط دفاعه الأول ولا يدري إلا أنه جيوش الدفاع والهجوم كلها في آن واحد.

* * * *

وهكذا أصبح عهد ثورة يناير وما لحق بها من أحداث ملحمية درامية كاريكاتورية هو عصر حمدي الذهبي، تألق فيه كنجم عملاق أكبر من ألف شمس ويبعد عن الأرض مليارات السنوات الضوئية فلا يراه أو يشعر بوجوده أحد.

في الشهور التالية جاءه إلى جوار الطلبات الصحفية اليومية طلبات مختلفة لكتب عن الثورة، كتب تعيد حكي ما حدث في الميدان وأخرى تتحدث عن ردود فعل العالم الغربي وانبهار الآخرين بثورة اللوتس وثالثة تتحدث عن دور المرأة والحركات النسوية في نجاح الثورة، بعض الطلبات اكتفى بتقديم فكرة عامة وترك لحمدي حرية الكتابة "بص، عايز كتاب عن انبهار العالم بالثورة، العالم طبعًا إللي هو أمريكا وأوروبا"، وآخرين كتبوا أغلبه وطلبوا إكمال النواقص وضبط ثغرات الأسلوب. لم يرفض أي طلب يتعلق بأي كتاب مهما كانت سذاجة المحتوى

أو قلة المدفوع، فنشوته عند إمساك كتاب حقيقي منشور كتبه أو شارك في كتابته كانت تفوق نشوة النشر الصحفي بما لا يحصى من المرات. وبلغت الكتب المنشورة له تسعة قبل أن تأتيه الرسالة التي يعتبرها الأهم في مسيرته ككاتب شبح.

"ليك في الكتابة الأدبية؟"

رسالة مقتضبة من عنوان بريدي مكون من حروف وأرقام لا معنى لها، تحمل سؤالًا وحيدًا لا يسمن ولا يغني من جوع. كانت في خريف 2011، في وقت توقف فيه عن استلام الطلبات حتى ينهي ما هو معلق منها ولن ينتهي قبل أسابيع تالية، فكر أن يرد بالرفض أو التأجيل لأن وقته لا يسمح، بالإضافة إلى إلى أنه لم يقتحم حتى الآن عالم الكتابة الأدبية إلا في مقالات نقدية لأعمال الآخرين، بيد أن الرسالة الغامضة أثارت من أحلام المراهقة والشباب ما أثارت وهيجت مشاعره، فصعب عليه أن يرد بالنفي ورد مرغمًا برد مُقتضب يُماثل طبيعة الرسالة: "آه"، أتاه الرد في اليوم التالي مختزلًا في كلمة مؤكدًا أن المحادثة ستستمر بهذا الشكل: "نتقابل؟".

"لا. خدمات الأستاذ الصحفية تتم عبر البريد الإلكتروني والاتصالات الهاتفية فقط لا غير"

"أرجوك. مش حقدر أكمل تواصل في هذا الشأن على الإنترنت، أتمنى أن توافق على المقابلة، بغير هذا سأضطر إلى الانسحاب معتذرًا على تضييع وقتك"

"ممكن أعرف مين حضرتك؟"

"آسف. لما نتقابل"

اندهش من إصرار العميل الغامض على المقابلة بينما يسعى كل العملاء إلى تلافي المقابلة وحصر التعامل في أضيق الحدود، يظل الرفض هو الخيار الأنسب والأصلح ولكن فضوله قد أُثير ورغبته في معرفة تفاصيل الطلب الأدبي الغامض صارت أبعد من أن يجمحها. هشام أعلن اعتراضه واضحًا على مقابلة حمدي للعميل وجهًا لوجه ولكنه أصر على موقفه، فطلب هذا الأخير أن يكون اللقاء على الأقل عنده حتى يتدخل إن خرجت الأمور من أصابع حمدي.

"نتقابل. يوم الإتنين بالنهار، إسكندرية - محرم بك، كلمني يومها على التليفون لما تيجي وأوصفلك مكان إنترنت-كافيه نتقابل فيه"

وفي يوم الإثنين جاء الاتصال في الواحدة ظهرًا، المتصل كان رجلًا متقدمًا في العمر كما بدا من صوته، فيه من الارتباك والوقار والأدب. وصف له حمدي كيف يصل إلى مقهى الإنترنت قبل أن يرتدي ملابسه على عجل ويخرج، لا يكاد يصبر على اللقاء وقد بلغ فضوله مداه، وبلغ السايبر ودخله بخطوات سريعة، رأى الرجل الجالس على المقعد المقابل لمقهى هشام و.. .

ماذا يفعل الناس عند مقابلة بطل الطفولة وقدوة الشباب؟ من الناس من يجري على لاعب الكرة الأعظم في العالم الذي علق صورته على حائط غرفته عندما كان في السابعة عشرة، ويحتضنه ويبكي مرددًا "أنا بحبك أوي يا كابتن، ممكن تمضيلي

على التيشيرت؟"، أخرى قد تصرخ بصوت عالٍ عندما ترى الفنان العجوز معشوق مراهقتها رغم وقوفها بين زوجها وأولادها، وتخبر المغني أشيب الفودين كم تعشقه وكم حلمت بمقابلته وجهًا لوجه. حمدي كان من النوع الثالث، تسمر في مكانه واقفًا في صمت غير قادر على النطق من هول المفاجأة، مشي ببطء غير مصدق أنه يقابل "محمد مصباح" بنفسه وجهًا لوجه، وجلس على المقعد المقابل له بلسان معقود رغب في أن يردد تحية ما بأدب ولم يقدر.

الأديب القديم الذي تجاوز الستين من عمره بأعوام قليلة كان يجلس صامتًا موجهًا نظره لما بين قدميه، وإن أفصحت خائنة عينيه عن تفحص سريع مستتر لطبيعة المكان الغريب الذي يدخله للمرة الأولى، ويتمنى أن تكون الأخيرة. كان يرتدي قبعة "بيريه" رمادية قريب لونها من لون الشعيرات الهاربة من غطائها، ووجهه حليق مكتنز مستدير ينم عن حياة غير شاقة، وإن اعتراه قليل من التغضن والشقوق التي تنبئ ببداية أفول العمر واقتراب شيخوخة حتمية لا مفر منها، يظهر اضطراب عينيه خلف نظارة طبية رفيعة فاخرة، بينما تظل ملامح وجهه ثابتة جامدة لا تظهر ما بطن من التوتر كما تفعل حركة العيون، يرتدي قميصًا أبيض تحت سترة سوداء ثقيلة غير مبرر ارتداؤها في جو لم يبرد بعد، لكنه ارتداها ظنًا منه أن الإسكندرية ستكون أبرد حتمًا من حر القاهرة، ولن يحتمل جوَّها جسدُه الذي أصابه الوهن. لاحظ جلوس حمدي الصامت أمامه فاعتدل في جلسته ورد على تحية ظن أنها قيلت ولم يسمعها بالتأكيد بصوت منخفض متردد وابتسامة طيبة. ظل الصمت سائدًا لفترة بين

حمدي الذي ما زال غير مصدق أن الرجل الجالس أمامه هو محمد مصباح نفسه، وهشام الذي شعر بكهرباء التوتر في الجو فالتزم الصمت وقرر المراقبة والفهم دون تدخل إلا في أضيق الحدود، ومصباح المرتبك الذي لا يعرف كيف تسير الأمور في مثل هذه المواقف. في النهاية قرر مصباح أنه بما إنه من أصر على المقابلة فليبدأ هو الحديث.

"حضرتك (الأستاذ)، مش كدة؟"

شعر بضيق عظيم يجتاحه عندما سمع كلمة "الأستاذ" من محمد مصباح، لا يصح أبدًا أن يطلق عليه هذا اللقب من قبل هذا الرجل، لا يوجد أستاذ في حضرة مصباح سوى مصباح ذاته. يذكر يوم قرأ له كتابه الأول وكأنه الأمس، "احتضار وطن"، رواية حديثة لكاتب جديد لا يعرفه أحد، اشتراها لثمنها المعقول بالنسبة لميزانيته المحدودة ولعدم توفر بدائل أفضل، بدأ في قراءتها ببساطة وإهمال أثناء ركوب المواصلات العامة، ليغلق الكتاب بعد قراءة خمس صفحات فقط لاهثًا مذهولًا، شعر كمن يجرب الخمر لأول مرة، سلاسة الأسلوب وعذوبته غير المعتادة أدارت رأسه وأسكرته حتى الثمالة، لم يجرب أبدًا قراءة أسلوب بهذه السلاسة والعذوبة والجمال والكآبة والسوداوية في آن واحد. لم يفتح يومها الكتاب مرة أخرى، واستعد له نفسيًا في اليوم التالي، قضاه بالكامل مغلقًا على نفسه باب غرفته ملتهمًا الأربعمئة صفحة في جلسة واحدة طويلة متصلة استمرت ساعات خمس دون توقف، بعدها دخل في حالة من الاكتئاب طالت لأشهر، اكتئاب عذب جميل، اكتئاب الحكايات الحزينة

الذي يدمنه مريدوها ويتحرّونه في كل كتاب. عرف أنه قرأ أجمل كتاب في حياته حتى الآن، وربما في حياته الآتية أيضًا، وقرر أن محمد مصباح هو أعظم من خط حرفًا في رواية على الإطلاق.

"أنا حمدي، في خدمة حضرتك يا أستاذ مصباح"

كاد هشام يطلق صيحات الاندهاش المختلطة بالضحك عندما شاهد حمدي يتحدث بهذا الأدب الجم والاحترام، للحظة شك في هويته، هل هذا الرجل الخلوق المهذب المتواضع هو حمدي محمود المتعجرف الغضوب سيئ الخلق؟

"أنت عارفني؟ الحمد لله، ده حيخلي كلامنا أسهل. سمعت عن شغلك كتير، أنت أسطورة بين الصحفيين"

هز حمدي رأسه في تواضع حقيقي، شعر بالغطبة تجتاحه لفكرة أن شهرته -رغم خصوصية نوعها- بلغت محمد مصباح، وها هو بنفسه يثني عليه.

"أعرف كمان أنك موثوق فيك جدًا من ناحية السرية، صح؟"

بدا القلق محسوسًا في نبرة صوته رغم محاولته لإخفائه في سؤاله الأخير. تمنى حمدي ألا يكون مصباح في حاجة لمن يكتب له شيئًا، تمنى أن تكون زيارته لأي سبب آخر، ربما يحتاج له ليكتب كتابا لصديق أو لابن شاب عديم الموهبة أو أي شخص آخر، لا يمكن أن تكون جعبة مصباح قد فرغت لدرجة أن يضطر للجوء إليه.

تأخر في الإجابة على السؤال، فاندفع هشام قائلًا:

"طبعًا يافندم، السرية عنصر رئيسي في شغلنا، هل حضرتك سمعت عن أي شخص اتفضح بشغله معانا؟"

نظر له حمدي نظرة قاسية جعلته يتراجع للخلف مطلقًا نظرة اعتذار، هو فقط رغب في المساعدة في إتمام الصفقة لعلمه أن حمدي لا يجيد التفاوض، لكن يبدو أن لرفيقه رأيا آخر.

كلمة "اتفضح" زادت شعور الكاتب الدفين بحقارة فعلته، شعر وكأنه يمارس الرذيلة في بيت مشبوه ويخشى الفضيحة، تلعثم وابتلع ريقه في صوت مسموع وحاول مداراة ما يعتلج في دواخله بابتسامة وهو يسأل:

"وسمعت كمان إنك بتتقمص الأساليب باحترافية، ممكن تكتب أي حاجة بأسلوب أي كاتب من غير ما حد يحس باختلاف، ده صحيح يا أستاذ حمدي؟"

لم يستطع حمدي الاستمرار في أمنيته أن مصباح لا يحتاج لمن يكتب له، تذكر في مرارة أن أعمال الرجل الروائية الأخيرة كانت ضعيفة المستوى مقارنة بكتبه الأولى، تذكر إحساسه بعد قراءة آخر روايات مصباح أن روح المصباح انطفأت شعلتها بعدما أخرجت كل ما فيها من نور.

"إلى حد ما، بنحاول وربنا بيوفقنا أحيانًا"

إنه جيل الستينيات التعيس، من ولدوا في ظل أعظم الأحلام وعاشوا نكسة ثم نصرًا ثم ألف نكسة، من بقى منهم بعد من ماتوا في الحرب ومن تعفنوا في السجون ومن سافروا إلى الخليج

ومن أصيبوا بالجنون صاروا كتابًا روائيين، محملين بألعن الخبرات والإحباطات ومشاعر لو ألقت في النيل لسممته من المنبع إلى المصب. تصدر هذا الجيل من الأدباء المشهد الثقافي بأدبهم طوال الربع الأخير من القرن السابق، لم تخل كتبهم من عظمة خلدتها في تاريخ أدب هذا الوطن. كانوا مصدر السحر والإلهام لحمدي وأمثاله من دراويش الحكايات ومريدي شيوخها. بداية القرن الجديد كانت بداية الأفول التدريجي لهم، على استحياء قلّت إصداراتهم الجديدة، وخفتت جودتها وبهتت روحها. منهم من قضى نحبه وحافظ على أسطورته كأديب عظيم متوفى ومنهم من ينتظر في هدوء، ومنهم من يأبى إلا أن يستمر بعناد في تصدر المشهد الأدبي البائس ليصبح نكتة أخرى في حديث عابر. إلا من رحم ربي.

كمن يلعب الروليت الروسي بدت ملامح مصباح وهو يحاول إيجاد كلماته، بدا كمن يضع في فمه فوهة مسدس يحمل طلقة واحدة وعلى وشك أن يضغط الزناد في مقامرة قد تكون الأخيرة في حياة كانت حافلة.

"شوف يا أستاذ حمدي، باختصار أنا متعاقد على كتابة مجموعة قصصية عن الثورة، 18 حكاية في رمز للـ18 يوم، كتبت منهم 8 والديد لاين بعد شهر. تقدر تساعدني في كتابة ما تبقى؟"

لم يرغب أبدًا في سماع هذه الكلمات، لكنه قالها ولا مجال لادعاء عدم السمع مثلًا.

"أستاذ مصباح، ممكن أعرف ليه حضرتك أصريت على المقابلة الشخصية؟ شغل الإيميل بيكون أسهل وأسرع وأكثر أمانًا، ولكن حضرتك أصريت تسافر لغاية إسكندرية عشان تشوفني! ليه؟"

"أنا أول مرة أعمل حاجة كده، سمعت زمان عن ناس بتكتب لناس تانية بس مكنتش بصدق الكلام ده، مكنتش عايز أصدقه، دايمًا كنت بستهجن ممارسة فعل قبيح زي ده، وفي الآخر أنا نفسي بمارس هذا الفعل.. آسف، آسف والله مقصدتش أي إهانة، سامحني يا أستاذ حمدي أرجوك على الكلمة دي. القصد يعني أنا مقدرتش أمارس هذا النوع من الاتفاقات مع مجهول على الإنترنت، أنا راجل أولد سكول ودي حاجات مخيفة بالنسبة لي، المقابلة الشخصية مريحة أكتر"

تذكر نهاية (احتضار وطن)، أكثر نهايات الكتب كآبة على الإطلاق وأكثرها رمزية، شعر مصباح أنه الآن واحد من أبطال روايته القديمة ويعيش معهم نهايتها.

"طب أتمنى إن حضرتك تسامحني على اللي حقوله، ملحوظة بس بقولها لغلاوة حضرتك عندي وربنا يعلم بالنية. ليه حضرتك بتكتب عن الثورة؟ أصل الكتابة عنها في الأدب مش وقته دلوقتي، ومش إحنا إللي نكتب عنها يا أستاذي، هما اللي حيكتبوا عنها بنفسهم لما يفوقوا من اللي حصل وبيحصل لسة ويفهموه، لما يكبروا. الكتابة عنها دلوقتي حاجة من اتنين: يا إما شاب متحمس لسة مخرجش من مرحلة دهان الرصيف بألوان العلم، أو -لا مؤاخذة يا أستاذي، سامحني- سبوبة"

كان مصباح يستمع لحمدي بصبر وابتسامة تحولت لضحكة قصيرة مع الكلمة الأخيرة، تحمل من المرارة ما جعلت حمدي يندم أشد الندم على كلماته، وتمنى ألا يرد مصباح عليها ويتجاوزها، شعر برغبة أن يعتذر له ولا يترك له فرصة للرد على ملحوظته السخيفة.

"أول ما كتبنا زمان كتبنا عشان كان عندنا كتير عايزين نقوله، كتبنا عشان لو مكتبناش حنموت من كتمة الكلام في قلوبنا، كتبنا عشان كنا مشحونين باللي شفناه وعشناه، كان الواحد مننا يمشي تشوف شرارة الكهربا طالعة من عينه من كتر ما هو مشحون. ويا إما نتجنن مع اللي اتجننو يا إما نكتب، فكتبنا. كان المفروض حد يقولنا نوقف إمتى، كتاب أو اتنين ونسكت، ياريتهم سكتونا عافية، يقبضوا علينا مثلًا أو يموتونا ونبقى شهداء الكلمة، والله كانت تبقى نهاية حلوة، بس محصلتش. كبرنا وبقينا كتاب أفاضل ورؤساء تحرير وبيست سيلرز، كبرنا وبقى علينا أقساط وفواتير لازم تتدفع، وعقود مع ناشر حنزعل لو ما التزمناش بيها. سبوبة؟ طبعًا سبوبة يا أستاذ حمدي، سبوبة هي اللي خلتني ألجأ لكاتب شبح يكتب اللي مش عارف أكتبه ويحكي بدالي، قابل بالشغلانة يا أستاذ ولا لأ؟".

* * * *

رغم أن الكتب العشرة تم ترتيبها بزاوية تبرز اسم حمدي المكتوب بالحبر الأسود الواضح على بقعة طلاء بقلم المصحح الأبيض في كعب كل كتاب، كان اسم المؤلف على كتاب

(حكايات ميدان) ظل دون تغيير (محمد مصباح)، بينما تحته بخط دقيق لا يكاد يرى توقيع حمدي.

قلب صفحات الكتاب متأملًا عناوين القصص القصيرة، ثماني عشرة قصة له فيها تسعة، كان قد كتب 15 قصة في الأسابيع التالية للقائه بمصباح. مع أي كاتب كان يحتاج إلى قراءة كثير من مقالاته وكتبه السابقة كي يتقن محاكاة أسلوبه، لكن في حالة مصباح لم يحتج إلى هذه المرحلة، أسلوبه محفور في ذاكرته، يكفي تذكر اسم (احتضار وطن) لتخرج الكلمات بمنتهى العذوبة والسلاسة التي كان يتميز بها مصباح. كاد أن يرسل الخمس عشرة قصة للرجل ولكنه تراجع قبل أن يفعل، أرسل سبعة وادعى أنه لا يستطيع كتابة المزيد ولم تعد لديه أفكار، ولولا إلحاح الكاتب الكبير الذي أحب القصص السبع ما كان ليرسل المزيد. لاحقًا بعد النشر فشل الكتاب وكرهه القراء والنقاد ولم يكن في هذا مخالفة للتوقعات، آخر تواصلٍ له مع مصباح كان في مكالمة أسبوعية منذ ما يقرب من شهر، عندما اتصل به الرجل ليشكره رغم كل شيء.

"ناس كتير قالولي رغم أن الكتاب سيئ جدًا، بس أسلوبك في بعض الحكايات كان بنفس حلاوة زمان، كان قصدهم على اللي أنت كتبته يا حمدي"

كلمات مصباح الأخيرة ظل صداها يتردد في طرقات عقله منذ أن قالها، شعوره كان مزيجا من الفخر بكلمات الرجل والحزن والشفقة على ما آلت إليه أموره.

أعاد الكتاب لمكانه في المكتبة قبل أن يتراجع للخلف خطوات ثلاثة ويعيد تأمل حائط جوائزه، وقال بصوت هامس لنفسه:

"wag the dog والله ..wag the dog"

ثم ضحك.

11

رغم اعتياده على الوقوف وتأمل منشوراته بغبطة وفخر، إلا أن وقفته هذه المرة طالت لعدم وجود ما يشغله ويخرجه من تأمل خطير يثير من الخواطر شهرا إن استمر أكثر من اللازم.

من رأى الكُمساري البائس الغضوب في ليالي ترام 4 الحزينة، لا يمكن أن يخطر في خياله أنه سيصبح يومًا أهم كاتب شبح - وربما الوحيد- في البلاد، يجب أن يكون شاكرًا ممتنًا لما صار إليه. ربما ليس في هذا تحقيق لأحلامه القديمة الميتة ولكنه أقرب ما يمكن لها. مقارنة بحياة الكمساري البسيط ما آلت إليه الأمور مع حمدي من نجاح مادي ومعنوي مفاجئ هو انتصار ساحق وأفضل بملايين المرات من استمرار حياته على النهج الذي خلا من أي أثر لنهاية طيبة في الأفق. هذه النظرة للأمور صحيحة ومنطقية جدًا، لكن من قال إن النفس البشرية تخضع لأي منطق؟ ولا سيما هذه النفس الجامحة المريضة.

في بضعة سنين نُشر له ما يزيد عن ما نُشر لكبار الكتاب على مدار عمرهم الكامل. لو نُسب إليه كل ما كتب لصار دون شك الكاتب الأهم في مصر، لكن بدلًا من ذلك يتلقى الثناء حمقى آخرون بينما هو لا يحصد سوى مبلغ مالي-وهو مبلغ غير قليل طبقًا للتسعيرات الأخيرة، لدرجة أن هشام الذي يحصل على نسبة هينة من هذه المبالغ توقف عن وظيفته القديمة مع

الطاهر ليتفرغ لإدارة أعمال حمدي- لا يسمن ولا يغني من جوع روحه النهمة التي ترنو إلى ما هو أبعد من المال.

النجاح الذي صار إليه ليس إلا مسخا مشوها من أحلام قديمة حسبها ماتت ودُفنت إثر حادثة أليمة، أحلام لم تمت وإنما دخلت في غيبوبة طويلة تكاد تخرج منها الآن نتيجة لوخزات مستمرة تأبى أن تتركها في سلام، أحلام فتى رأى في نفسه مشروع نجيب محفوظ جديدا، فتى حسب نفسه ملك العالم في يده ليضربه العالم بقبضته على أم رأسه ويضحك عليه ملء شدقيه. النجاح الذي صار إليه هو نجاح وهمي زائف، نجاح بائس عقيم. ما زال حمدي هو حمدي الكمساري، لا أحد يعرفه ولا أحد يهتم أن يفعل، لم يتغير شيء سوى انتفاخ حافظة نقوده وأوراق العملة العديدة من فئة المئتين التي يلقيها لزوجته من حين لآخر. كان يجب أن تحمل كل هذه الكتب والمنشورات اسمه مطبوعًا متألقًا، إنه لا يخدع إلا نفسه بكتابة اسمه بقلم الحبر مغطيًا الاسم الحقيقي المطبوع لمن ينال المجد والثناء بدلًا منه. هو المستحق الحقيقي للمجد، هو المستحق الحقيقي للثناء، هو الذي يجب أن يستوقفه العامة في الطرقات لمدحه والثناء عليه وعلى كتبه وكلماته ولطلب توقيعه، ويلتقطوا الصور معه كواحد من أهم الوجوه دائمة الظهور في التلفاز ووسائل الإعلام المختلفة. هو الحقيقي وليس هؤلاء الحمقى المدعين.

والأدب؟ أين الأدب فيما يكتبه؟ أين الحكايات والشخوص والأماكن والأحلام؟ لم يتمن أبدًا أن يكتب للصحافة، لم يرغب

أن يكتب في السياسة والرياضة والحوادث، جل أحلامه كانت كتابة الحكايات.

"ناس كتير قالولي رغم أن الكتاب سيئ جدًا، بس أسلوبك في بعض الحكايات كان بنفس حلاوة زمان، كان قصدهم على اللي أنت كتبته يا حمدي"

صدى كلمات مصباح لا يبهت مع مرور الوقت، إنما يتعالى ويتعاظم ولا يعطيه مساحة للتفكير في غيره، كلمات الثناء من واحد من أهم الشياطين الغاوين الذين سحروه وفتنوه منذ لحظاته الأولى أعادت للسحر تأثيره الأول القديم، تقاطع طريقه مع محمد مصباح أثار رغباته القديمة في كتابة الأدب وصار يتفقد يوميًا صندوق البريد الوارد بحثًا عن طلبات أدبية ولا ينال سوى المزيد من خيبة الأمل.

وهكذا حول حمدي بتفكيره المسموم نجاحه الاستثنائي المبهر إلى سبب آخر من أسباب بؤسه، وجعل منه سببًا في مزيد من الهياج لروحه المستعرة الحبيسة.

تحرك أخيرًا من وقفته التي وقفها قبل ثلاثين دقيقة مبتسمًا سعيدًا، وهو متجهم الوجه والقلب يطلق من الزفرات المسممة بالغضب ما قد يقتل إن تنفسه آخرون، جلس على مكتبه وأخرج أوراقا وقلما وكتب.

* * * *

"وستمضي حياتك مثل كل محدودي الموهبة ومعدوميها، في المحاولات الفاشلة أو محدودة النجاح، ذلك النجاح البائس الضيق الذي لا يقارب كل أحلامك الباهرة التي ملأت مناماتك وخيالات يقظتك، نجاح بائس حزين بطعم خيبة الأمل على لسان روحك النهمة المجنونة المتعطشة للمزيد".

* * * *

توقف عن الكتابة وتأمل مليًا ما كتبه، لم يفهم ماذا كتب أو لماذا، ولكنه أحب المكتوب. ساد الصمت لوهلة، صمت داخلي. كل جنبات عقله توقفت عن العمل والطنين، كل الأفكار الرئيسية والفرعية سكتت، سكوت مثل الذي يسود قاعات الأوبرا عندما يرفع المايسترو عصاه استعدادًا للبدء، فيتوقف الحاضرون حتى عن التنفس انتظارًا لبدء المقطوعة. أمسك القلم ثانيًا، وكتب في منتصف الصفحة بخط كبير.

كتاب خيبة الأمل

تفتقر الحياة اليومية العادية للمؤثرات السينمائية والمسرحية التي تعطي لكل لحظة قيمتها المناسبة، فتمضي أكثر اللحظات محورية وأهمها دراميًا كغيرها من اللحظات العادية التي لا تُذكر. فمثلًا كتابة حمدي لتلك الحروف كان يجب أن تصحبها موسيقى تصويرية ملحمية، مع حركة كاميرا تقترب من البطل وتهبط بهدوء لتصور حركة يده بالتصوير البطيء، أو ربما سقوط بقعة من الضوء عليه مع إظلام باقي المسرح ليشعر البطل بملحمية لحظته ويحبس الجمهور أنفاسه مدركًا أهمية اللحظة.

الحياة اليومية العادية مملة وسخيفة وغير عادلة، تعامل كل اللحظات بنفس المعاملة الجافة المعتادة، فحمدي الذي كان على وشك البدء في ما سيغير حياته ويقلبها رأسًا على عقب شعر فجأة بحاجته إلى تدخين سيجارة، وترك القلم وفتح العلبة ليكتشف فراغها، واستغرق في بحث طويل شمل كل أدراج مكتبه ورفوف مكتبته عن علبة أخرى دون جدوى، فغضب وسب ولعن وارتدى ملابسه وخرج مبكرًا عن موعده باحثًا عن مزيد من السجائر.

ومرت أسابيع طويلة لاحقة بنفس تفاصيل الحياة اليومية العادية -إن أمكن تسمية حياة مُحصل تذاكر/كاتب شبح حياة يومية عادية - دون أن يذكر أو يلاحظ الأوراق الملقاة بإهمال على طرف المكتب. حتى جاءت تلك اللحظة بعد ما يزيد عن شهر، كان يبحث عن بطاقة ذاكرة ضائعة تحتوي على طلبات منتهية يجب أن تُرسل لطالبيها، بحث في كل أدراج المكتب بلا جدوى ليبدأ البحث على سطحه، رفع كل شيء موضوع ليبحث تحته أو خلاله، رفع الأوراق البيضاء الموضوعة جانبًا ونفضها أملًا إيجاد البطاقة الضائعة فيها بلا جدوى، قبل أن يلقي الأوراق وقعت عيناه على السطور المكتوبة التي لا يذكرها، قرأها على عجل ثم كورها وألقاها بعيدًا. وهذا مثال آخر يوضح سخافة الحياة الخالية من المؤثرات المرغوب فيها هنا بشدة، كشهقة جمهور عريض تنبه البطل الغافل لخطيئته. وبدا أن أسعد مصير لاحق لتلك الأوراق هو لف الفلافل الساخنة بها، لولا مرور الفكرة الساخرة في عقل حمدي بينما يختفي نصف جسده العلوي تحت الكنبة باحثًا في يأس عن بطاقة الذاكرة.

"كتاب خيبة الأمل. هيء، ينفع اسم سيرتي الذاتية"

لم تكن إلا فكرة ساخرة، إلا أن مرورها أوقف نشاط عقله ودقات قلبه لثوان. "سيرتي الذاتية!" ترددت الكلمة مرة أخرى بداخله بصدى صوت ممثل قدير يلعب دور إله إغريقي حكيم على مسرح إيطالي، انتفض محاولًا الوقوف لترتطم رأسه بقاع الكنبة الخشبي في خبطة شديدة الإيلام أعادته إلى الانبطاح تحت الكنبة، وزحف خارجًا ويده على قمة رأسه المتألمة، ولكن الألم لم يُذهب الفكرة، بل زادها شدة وزادها منطقية.

"كتاب خيبة الأمل - سيرتي الذاتية"

لم لا؟ هناك بضعة أشياء يمكن أن يحكي عنها برغم كل شيء.

كمن أصيب بالجنون، سيطرت الفكرة المباغتة على كيانه فنسى البطاقة الضائعة ونسى ما يفترض تسليمه في الساعات القادمة، وبحث كالمجنون عن الورقة المكورة الملقاة بإهمال حتى وجدها، فردها ونظفها ما علق بها من وسخ الأرض، جلس إلى مكتبه وأزاح الكومبيوتر المحمول المفتوح على برنامج منسق الكلمات جانبًا ووضع ورقته على قمة مجموعة من الأوراق البيضاء الفارغة، وأمسك القلم.. وكتب.

كتب بدءًا من البدايات البعيدة، وكتب وكتب واستمر في الكتابة، ليدرك بعد ما يزيد عن ساعة أن ما كتبه لم يحدث في حياته ولن يحدث، والشخصيات التي ظهرت بلا دعوة على أوراقه لم يكن لها وجود في حياته، أو بشكل أكثر دقة لم يكن لها

أي وجود في حياة عاشها واعيًا مستيقظًا. في وجل عرف أن ما يكتبه ليس سيرة ذاتية، إنها رواية.

* * * *

لم يشعر بمرور الوقت، حتى عندما أظلمت الغرفة بعد خروج أشعة الشمس في العصر منها، قفز من كرسيه كمن تطارده الشياطين وجرى تجاه مفتاح الإضاءة لينير المصباح الكهربي قبل أن يعود لروايته التي لا يعرف من أين أتت.

آمن العرب القدامى أن لكل شاعر قرينا من الجن يملي عليه شعره، يمكن فهْم مصدر هذه الأسطورة بسهولة عند رؤية حمدي كمن أصابه مس، يكتب كالمحموم دون توقف، يبدأ كل سطر وهو لا يعرف كيف سينهيه، وكأنه يكتب ما يُملى عليه، لم تكن لديه أي خطة قديمة أو حتى فكرة مبدئية لما ستكون عليه الرواية، رغبته في كتابة الأدب ظلت دائمًا رغبة دفينة لا تخرج إلا على هيئة أفكار غاضبة تستنكر الواقع القميء ثم تعود لسباتها، لكن ترجمة هذه الرغبة إلى مشروع ذي فكرة وحبكة وأشخاص لم تحدث معه من قبل، لذا كان غريبًا عليه استيعاب ما يحدث الآن من انفجار للأفكار والحكايات التي لا يستطيع السيطرة عليها أو اللحاق بها بقلمه المرتعش. ما بدأه كمحاولة لكتابة سيرة ذاتية فجر بركانا كان يبدو خامدًا رغم غليانه الداخلي المستمر لمئات السنين دون أن يشعر به مخلوق، بركان انفجر ولا توجد قوة في الأرض تستطيع إيقافه الآن.

حسنًا، هناك قوة وحيدة يمكنها إيقاف البركان مؤقتًا، حتى قوة البراكين الهائجة لا تستطيع كبت رجل محصور، نداء المثانة الممتلئة أعلى من نداء قرين الجن الذي يملي الشعر على الشعراء. توقف حمدي مرغمًا عن الكتابة متجهًا إلى الحمام ليفرغ مثانته ما أعطاه فرصة لثوانٍ يلتقط فيها أنفاسه ويتساءل كم الساعة الآن؟ نظرة لاحقة لشاشة هاتفه المحمول اكتشف معها أنه تأخر على بداية ورديته بنصف ساعة، وإن خرج الآن سيتآخر نصف ساعة أخرى. اتخذ قرارا ظن نفسه قادرًا عليه: أن يستكمل روايته -وجد في نفسه بهجة جديدة من نوع خاص عندما استخدم في سياق تفكيره كلمة (روايتي)- في صباح الغد، واصطحب كتابًا ليقرأ فيه كالعادة وخرج آسفًا على أن الفرصة لم تتح للقاء زينب اليوم.

رغم مروره في السنوات السابقة التي عاشها كـ"كاتب شبح" على أوقات كان غارقًا فيها في أكوام لا تنتهي من الطلبات، لم يحدث أبدًا أن كتب شيئًا في الترام، ظل وقت عمله المسائي وقتًا مقدسًا مخصصًا للقراءة فقط، قاعدة غير مكتوبة وضعها لنفسه ولم يخلفها من قبل. بيد أن هذا لن يدوم، لساعة كاملة ظل يعيد قراءة نفس الصفحة عدة مرات دون أن يقدر على التركيز فيها ولا فهم منها حرفًا، أحداث روايته استمرت في مخيلته وكأنها تعرض على شاشة عرض سينمائي دون زر إيقاف، شخصياته ظلت تتجسد وتتجسد حتى كاد يراها أمام عينيه تأتي وتروح وتتحدث. لم يستطع تحمل المزيد، فنزل من الترام عند محطة (بوالينو) واندفع تجاه محل أدوات مكتبية - نفس المحل الذي حاول قبل ما يزيد عن عشرين عاما أن يعمل فيه ولم يقبله

صاحبها الذي توفي الآن، وبالطبع حمدي لا يذكر أيا من هذا الآن - وطلب بتعجل قلمًا وكراسا، لاحظ الترام الذي بدأ في التحرك فصرخ ليسمعه السائق:

"اصبر يا جدع.. بشتري حاجة"

لم يسمع السائق ما يقول لكنه ميّز صراخ زميله الذي لا يتحدث إلا صارخًا في المعتاد، ثم رآه في مرآة الترام الجانبية يجري ويقفز في الترام الذي لم يتوقف لكنه لم يتسارع كفاية لئلا يستطيع حمدي اللحاق به، لا يتسارع الترام كفاية أبدًا.

أراد أن يكتب فقط عناوين وأفكارا ليترجمها لاحقًا على مكتبه في روايته - روايته، روايته.. يا لروعة مذاق الكلمة - لأحداث وحكايات، وهذا ما بدأ في فعله لتخرج كتابته رغمًا عنه تكملة لما بدأ كتابته في الصباح، وسرعان ما غرق في كتابته كالمحموم لا يخرج إلا مضطرًا عندما يتكوم الركاب الراغبين في قطع التذاكر، حتى الشجار العادي الذي يحبه ويجد فيه تسليته ومتعته لم يقدر عليه ولم يفعله رغم تعدد الفرص التي أتيحت لمشاجرات طويلة ومحببة.

مرت الليلة وعاد في آخرها لبيته راغبًا في الاستكمال، لكنه وقع كالميت بعد أن انتهت طاقته تمامًا. نام نومًا طويلًا هانئًا رأى فيه نفسه فيما يرى النائم جالسًا في حفل توقيع بينما يصطف القراء أمامه في طوابير، يحمل كل منهم نسخة من كتاب "خيبة الأمل" بغلاف سميك مكتوب عليه اسم الكتاب واسم المؤلف (حمدي محمود) بحروف جميلة كبيرة بخط من ذهب، الكل

يثني عليه وعلى عبقريته بينما يوقع الكتب ويهز رأسه في تواضع وتحمل عيونه نظرة "أعرف كم أنا عبقري، أعرف. لا حاجة لي بكم لتخبروني".

لم يختلف اليوم التالي عن ما سبقه، ظل يكتب ويكتب ويكتب، صار لكل شخصية من شخصياته حياة مستقلة لا يستطيع السيطرة عليها ولا تحديد مساراتها، ما يكتبه لم يكن إلا تسجيلا لما يحدث دون تدخل منه ولا إرادة، تدخلاته لم تكن إلا إعادة كتابة فقرة لم يعجبه أسلوب كتابتها أو تغيير كلمة بأخرى أكثر تعبيرًا أو أكثر مناسبة للإيقاع، وكأنه ينفذ طلبا جاءه عبر صندوق بريد خدمات الأستاذ الصحفية، له الحرية فقط في التحرير واختيار أسلوب السرد وكلماته، الفكرة والأحداث والشخصيات ليس من حقه العبث بها بأي شكل وإلا لن يقبل بها العميل.

* * * *

"أبو محمود، إنت يا جدع، رد عليا الله يكرمك"

رفع رأسه من فوق أوراقه ليرى هشام، كيف لم يميز صوت هشام من البداية؟

"هشام! أنت إيه إللي جابك هنا؟"

"إيه إللي جابني؟ بدور عليك ياعم، ده سادس ترام أركبه الليلادي، عمال أتنطط من ترام لترام زي العيال الصغيرة عشان ألاقي حضرة الأستاذ إللي قافل موبايله بقاله تلات أسابيع والدنيا مقلوبة عليه، دانا حتى روحت اسأل الولية المجنونة اللي انت

بتروح تقعد معاها في المحطة عليك وقالتلي إنك اختفيت، شكلها زعلت منك، حاسب لتقطعلك بتاعك، نياهاهاهاها. مالك بس يا حمدي؟ إيه إللي مضايقك؟ استهدى بالله واتكلم معايا"

"هشام، أنا مش فاضيلك، اخلع"

"مش فاضيلي إيه بس ياعم، أكل عيشنا بيتقطع وأنت بتقولي مش فاضيلك. الأوردرات مالية الإنبوكس والناس عمالة تشتم في ميتين أهلي في التليفون، خليل موسى سبلي الدين النهاردة عشان الشغل المتأخر، وأنت مش في الدنيا معانا أصلًا، كأن الشغل ده لأمي مش ليك. إيه الكراسة دي؟ ربنا هداك وبتكتب الأوردرات المتأخرة أخيرًا؟"

"ده مش أوردر وملكش دعوة بيه، اخلع من هنا وابعد عني"

"مش أوردر؟ أحا.. أومال إيه ده؟ إنت بتلعب؟ أبوس إيدك أشتغل الله يكرمك، بيتنا أتخرب. أنا اللي غلطان إني اشتغلت معاك أصلًا، أنا ابن ستين كلب إني سبت الطاهر عشان خاطرك، على الأقل كانوا ناس محترمين بيحترموا شغلهم وبيحترموا اللي شغالين معاهم"

* * * *

شهر وأسابيع ثلاث، للدقة شهر وأسابيع ثلاث ويومان، وانتهى حمدي من كتاب خيبة الأمل.

عندما استيقظ ذلك اليوم لم يكن يملك أدنى فكرة عما سيكتب مثلما كان الحال كل صباح في الفترة السابقة، يعرف فقط أنه سيجلس وسيمسك القلم ويكتب، وفعل، وكتب لبضعة ساعات، ثم توقف.

بلا أي تخطيط مسبق ولا أي علامة تنبئ بقرب النهاية، فقط أدرك أنه كتب كل شيء يمكن كتابته هنا، ولم يعد هناك مزيد يمكن إضافته، وكما بدأ الكتاب فجأة، انتهى فجأة.

ماذا الآن؟

في حيرة بالغة تأمل كومة الأوراق العملاقة أمامه، تأمل المكتب الممتلئ بأكواب الشاي والقهوة الفارغة والمسكوبة على المكتب وعلى الأرض، حتى أوراق كتابه نالت من بقعها ما نالت، تأمل أرض الغرفة الممتلئة بأوراق ممزقة ومكورة وملقاة في كل الجوانب. شعر كمن أفاق لتوه من سبات طويل ليجد نفسه في مكان غير مكانه وسط أناس لا يعرفهم، شعر بالغرابة الشديدة وعدم الفهم. لكمت أنفه فجأة رائحة عرق عنيفة اشمأز منها قبل أن يعي أنها رائحته شخصيًا، بالتأكيد هذه الرائحة ليست وليدة اللحظة، إنما هو الذي يستعيد إحساسه بحواسه بعد انقطاع طويل.

فتح غرفته بحذر، وخرج منها كمصاص دماء يخرج من تابوته غير متأكد إن كانت الشمس قد غربت بالكامل. وتحت مياه الدش الباردة بدأ أخيرًا في استيعاب ما حدث.

أنا كتبت رواية.

رواية حقيقية كاملة، بشخصيات وحكايات وحبكات.

حسنًا، هذا شيء جيد، جيد جدًا. هذا شيء عظيم.

ثم ماذا؟ ماذا سأفعل بها؟

تبًا، لم أفكر من قبل في الخطوة التالية، انكببت على الكتابة ونسيت كل شيء ولم أفكر حتى في مصير ما أكتب! ماذا سأفعل الآن؟ هل أبيعها؟ ومن يشتريها؟ لم يطلب أحدهم مني رواية؟

انتظر قليلًا، لماذا أفكر في البيع أصلًا؟ حتى إن أرادوا شراءها فلن أبيعها بالتأكيد، إنها روايتي، روايتي أنا وليس لأحد فيها نصيب، لن أمسك قلم التصحيح يومًا لأمحو اسم أحمق ابن لعينة لأكتب اسمي لاحقًا بقلم الحبر الأسود، لا والله لن يحدث هذا أبدًا.

إذًا أنشرها باسمي. نعم، هذا ما يجب أن يحدث، ولكن أين السبيل إلى ذلك؟ ما الطريق إلى النشر؟ ثم ما أدراني أن روايتي صالحة للنشر في الأساس؟ ما هذا السؤال الغبي، بالتأكيد هي صالحة للنشر، ليس لجودة فيها ولكن لأن كل شيء صالح للنشر هذه الأيام، كل من تمخط خمسة أسطر على ورقة منديل سمى نفسه كاتبًا ونُشر له وصار له نادي معجبين وحاشية من المريدين. السؤال الحقيقي هل هي رواية جيدة فعلًا؟ أم هي ليست إلا أضغاث أفكار؟ لا سبيل للتأكد للأسف، حتى وإن كنت قارئًا محترفًا أميز بسهولة الغث من الثمين، إلا أني لن أقدر أبدًا إعطاء كتابي حق قدره، إما سأعتبره أعظم ما خطه إنسان على ورق أو سأكرهه كالجحيم وأعيد استخدام أوراقه في لف

الفلافل لأعطيها قيمة تفتقدها. لن يتأتى لي أن أعرف أبدًا قيمة كتابي الحقيقية دون رأي الآخرين، احتاج إلى من يقرأها ويحكم عليها وبسرعة، من سيقرأها؟ زينب؟

زينب! يا الله.. لقد نسيتها تمامًا، لشد ما أفتقدها، لا بد أنها تكرهني الآن، كيف سأريها وجهي بعد كل هذا الانقطاع غير المبرر؟ لا بأس.. سأشرح لها أني كنت أكتب رواية، روايتي الخاصة، ستفهم أني انغمست كليًا في الكتابة ولم أجد من الوقت ما يكفي لزيارتها، ستتفهم، هي أذكى من ألا تفعل، غباؤها لم يبلغ عنان السماء مثلما هو الحال مع الجميع. ولكن.. هل زينب هي من أبتغي رأيها؟ أنا أحب فعلًا أن تقرأ كتاباتي ولكن هل رأيها يُعتد به في مثل هذه الأمور؟ إنها لا تقرأ إلا مجاملة لي ولصداقتنا الغريبة، لن يمثل رأيها فارقًا. لا بأس.. لا بأس، ستكون زينب قارئة الكتاب الأولى رغم كل شيء وليكن ما يكون لاحقًا.

خرج من تحت سيل الماء البارد بعقل أكثر هدوءًا وإن كانت دقات قلبه لم تهدأ مثل عقله، ارتدى ملابسه ببطء، كان يتحرك كالمنتشي بأفخر أنواع المخدرات، أشعل سيجارة وأخذ منها أعمق وأجمل نفس أخذه من سيجارة منذ أن عرف التدخين، خرج ليقف في الشرفة ببنطال البيجاما المنزلية (الكستور) المخططة والفانلة الداخلية الحمالات والشعر المجعد الثائر، يدخن في استمتاع ويرفع يده بتحيات مبتهجة لجيران لا يعرف حتى أسماءهم، جيران نظروا لجارهم المجنون المعروف بمزاجه

المتعكر ولسانه القبيح، فردوا التحية بوجل وسحبوا أطفالهم داخلين بيوتهم تخوفًا مما قد يتبع تلك التحية المريب أمرها.

وطبعة ثانية وثالثة وعاشرة ومئة، وندوات وحفلات توقيع وبرامج تليفزيونية، ومقالات نقدية ومقالات ترد على المقالات النقدية في نقاشات لن تنتهي، وسأقرأ فقرات من روايتي بصوتٍ عالٍ أمام جمع غفير جاءوا من أقاصي البلاد لرؤيتي وسماعي، سينبهرون وسيصفقون وسيهتفون باسمي، حاااااااااامدي، حاااااااااامدي. سيسأل سائل عن المعاني التي تشير إليها رمزية الشخصيات والأحداث، وعن مقاصدي الفلسفية عميقة المغزى ملتوية المعاني بين السطور، سأهز رأسي في تواضع وألوح بذراعي في حيرة وأرد: "هذا ما على القارئ فهمه بنفسه"، في إشارة ضمنية إلى جهل القارئ العادي المنبهر بالسطح الجميل الظاهر، دون أن يدرك روعة وعظمة ما غاب عن بصره في الأعماق، ما خفي عليه لجهله وقلة حيلة عقله البسيط المحدود. ويصفقون ويصفقون ويصفقون.

بعد أن تقرأها زينب -ويجب أن تقرأها سريعًا، لا يوجد وقت نضيعه- سأذهب بها لهشام، لا بد أنه يكرهني الآن بعدما توقفت عن كل شيء بلا إنذار، لا بأس، سيهدأ عندما يفهم، سيساعدني في إيجاد ناشر. رغم حماقته إلا أنه ذكي في مثل هذه الأمور، غريزته كتاجر ستخبره أن في هذه الرواية منابع خير لن تنضب.

انطفأت السيجارة فألقى عقبها بإهمال ودخل غرفته، نظر إلى الساعة: الرابعة مساءً وأربعون دقيقة، على عجل ارتدى

ملابسه، وببهجة ملحوظة وحذر جمع كومة الأوراق في ملف بلاستيكي جديد تأبطه وخرج من الغرفة، ليعود بعد ثوان مهرولًا إلى المكتب، أخرج من الملف صفحة الرواية الأخيرة، وأمسك قلم الحبر الأسود وكتب:

حمدي محمود

* * * *

"سلامو عليكو"

عرفت صوته وكان شعورها الأول هو الدهشة من نبرة البهجة والسعادة فيه، ودهشة من أنه يلقي تحية غير معتادة، بيد أن هذه الدهشة لم يغلب شعورها الأصلي بالضيق من صاحب الصوت، واعتلى ملامحها عندما نظرت إليه الجمود غير المبدي لأي شعور، بلهجة محايدة تمامًا تمامًا ردت تحيته.

"عليكم السلام"

دون أن تتحرك أنملة من مجلسها لتحضر الشاي أو تعطيه سجائره. كان من الجلي أنه يرغب بالدخول، لكن غريزة الأنثى رفضت إعطاءه تصريحا بالدخول، اتباعًا لمبدأ "هو ييجي بمزاجه ويمشي بمزاجه؟". بيد أن الشخص الذي يبدو أنه قتل حمدي وارتدى قناع وجهه لم ينتظر دعوة ودخل بنفسه الكشك ووضع ما يحمل على المنضدة وتوجه بنفسه إلى غلاية الشاي وملأها بالماء وأوصلها بالكهرباء، وتحدث بينما يجهز الأكواب بملاعق السكر والشاي.

"شايك خفيف، مش كده؟"

أطار عقلها الذهول حتى كاد أن ينسيها انزعاجها منه، لم تستطع استيعاب وجود هذا الشخص الغريب الذي لا تعرفه، فكرت للحظة أن تضرب مؤخرة عنقه بالكرسي ثم تكبله بالحبال ثم تستجوبه عن مكان حمدي. وقامت من مجلسها وأمسكت الكرسي المعدني فعلًا ولكن بدلًا من أن تضرب الغريب الذي يصفر لحنا ما بينما يحضر الشاي فردت الكرسي ومسحت بطرف ثوبها طبقة من التراب غطته وعادت لمجلسها تضرب كفًا بكف. وعاد الغريب المبتهج بكوبي الشاي وأرقدهما على المنضدة قبل أن يجلس بخفة.

"عاملة إيه يا زينب؟"

رباه، هذه الابتسامة تخيفها. بحذر أجابت:

"الحمد لله. إنت عامل ايه؟"

سؤالها لم يكن رد مجاملة اعتيادي، إنما هي أرادت فعلًا أن تسأل "إنت عامل إيه؟" في محاولة لفهم أي من أبعاد هذا الجنون.

"أنا زي الفل، زي الفل"

تناولت رشفة من الشاي في صمت، وعادت للنظر إليه في تساؤل متوتر.

"أنا كتبت رواية"

قلبت الجملة في عقلها ونظرت إلى كومة الأوراق في الملف، قد يفسر هذا شيئا ما، ولكن هل كتابة رواية تبرر كل هذه البهجة من أكثر أهل الأرض عبوسًا؟

"مبروك!"

لم تفهم لماذا قالتها، ربما لأن فرحته قد تنبئ عن مدى أهمية هذا الحدث له؟ كان حدسها صادقًا لأن الكلمة زادته فرحة.

"وده اللي كان شاغلك الفترة اللي فاتت دي كلها؟"

"أه.. كنت بكتب طول اليوم، طول اليوم، والله كنت مشغول طول الوقت حتى كنت بدخل الحمام بالعافية"

هل هو يحاول الاعتذار؟ "كنت بدخل الحمام بالعافية" هي جملة اعتذارية مثلًا؟ يالك من أحمق. رشفت المزيد من الشاي، لا بأس، قد يكون كاتبا عبقريا أو شيئا من هذا القبيل، ولكنه بالتأكيد مجرد أحمق لا يفقه شيئًا في علاقات البشر، وهي ليست مراهقة ساذجة تغضبها مثل هذه التصرفات، رغم كل شيء هو لا يعني لها الكثير بما يكفي لأن تغضب منه وتعاتبه وما إلى ذلك من مواقف مملة متعبة.

"مين طلبها منك؟"

"محدش طلبها، دي روايتي أنا"

دفع الملف الثقيل ناحيتها وأكمل: "أقريها وقوليلي رأيك، حاجي أخدها منك بكرة"

عبثت بسبابتها وإبهامها بكومة الأوراق عبر فتحة الملف، كومة من مئات الأوراق الملوثة ببقع الشاي والقهوة ورماد السجائر، مكتوبة بخط متعرج عسير القراءة، وتمتلئ بالشطب والعلامات غير المفهومة. تبًا، كيف ومتى ستقرأ كل هذا؟

"مفيش نسخة أنضف شوية؟"

"إيه؟ أنضف إزاي؟ دي النسخة الوحيدة"

"ولا يهمك، حقراها وأقولك رأيي"

"ماشي، فين الدومينو؟"

* * * *

بينما كان حمدي يذهل زملاءه والراكبين بتوزيع ابتساماته وتحياته وإلقائه للمزحات -السخيفة القديمة الكفيلة بإثارة غضب المتلقي لسخافتها، ولكن مع حمدي الذي لم يطلق مزحة أبدًا كان لتلك المزحات مفعول السحر على المستمعين- والنكات، كانت زينب تتأمل كومة الأوراق المرصوصة على منضدتها.

لم تكن زينب أبدًا من هواة القراءة، لا في الماضي البعيد ولا في سنوات السجن الطويلة، قراءاتها لمنشورات حمدي لم تكن إلا مجاملة لصديق تعلم أنه يفرح كطفل عندما تقرأ كتاباته. لم تشعل فيها كتابته سابقًا حبًا للقراءة، لم تعرف إن كانت كتابات جيدة أو سيئة، لا مرجع عندها للمقارنة والتقييم، وهو لم يهتم أبدًا برأيها ولم يسأل عنه، لا ينتظر منها سوى فعل القراءة ذاته.

ولأن يومها لا يمتلئ بالمهم من الأحداث التي تشغلها، كانت تجد دومًا وقتا كافيا للمرور سريعًا على ما أحضره من قصاصات وقراءة ما تيسر منها، والحق أنها كانت تمل بعد حين من قراءتها وأحيانًا كانت تدعي قراءة ما لم تقرأ سوى عنوانه.

لكن هذه المرة أسوأ بكثير، إنه لم يحضر قصاصات قليلة، بل أحضر مخطوطة عملاقة أشبه بأكوام الملازم التي كانت تعيش معها أسوأ لحظات حياتها في ليالي امتحانات كلية التجارة، كانت أزمنة سعيدة عندما كان يمكن أن تطلق "أسوأ لحظات حياتها" على اضطرارها لمذاكرة كومة أوراق قبيل الامتحان! ليس هذا فقط، بل ويطلب منها قراءتها كلها في هذه الليلة وينتظر منها رأيًا. أي رأي هذا الذي ينتظره؟ تعلم أن هذه المرة سيعني له الرأي الكثير وربما ناقشها فيما قرأت، ولكنها لن تستطيع بأي حال من الأحوال أن تقرأ هذا الكم وتبدي فيه رأيًا، لا في ليلة ولا في شهر كامل حتى. ناهيك بأن الكتاب عن خيبة الأمل، هي تعرف عن خيبة الأمل ما يكفي ولا تحتاج لمعرفة المزيد. يا للمأزق السخيف! ستقرأ ما تستطيع أن تقرأه وتخبره برأي إيجابي فيها في الغد وليكن ما يكون، فليغضب إن شاء أن يفعل، فهذا شأنه.

أوصلت غلاية المياه بالكهرباء وأضافت الشاي والسكر إلى الكوب، زادت جرعة الشاي هذه المرة فالشاي الخفيف لن يساعد كثيرًا مع ال(مذاكرة) التي ستبدأ فيها، خرجت من الكشك تجاه محل ال(مقلى) المجاور واشترت ربع كيلو من السوداني المملح المحبب لها، عليها أن تعد كل ما يمكن أن تعده ليعينها

على الملل القادم، وعادت للكشك وصبت الماء الساخن في الكوب ليتلون السائل الشفاف بالتدريج إلى الأحمر الفاتح ثم الداكن. عقارب الساعة المعلقة على الحائط تشير إلى العاشرة مساءً. وضعت متاعها من الشاي والسوداني على المنضدة وجلست، زفرت زفرة عميقة ورددت "استعنا ع الشقا بالله" قبل أن تفتح الملف وتخرج الورقة الأولى من مخطوطة خيبة الأمل.

قبل أن تدرك ما يحدث لها، كانت تغرق. لا تعرف زينب الدمى الروسية الشهيرة ماتريوشكا، دمية على شكل فتاة تفتحها لتجد نسخة مطابقة أصغر حجمًا بداخلها، تفتحها لتجد أخرى، تفتحها لتجد أخرى. لا تعرف زينب هذه الدمى ولكن إن عرفت لقفزت في حماس مشيرة إليها وهي تقول "أيوة.. أيوة.. هي البتاعة دي، هي البتاعة دي" واستخدمتها لوصف ما عاشته من حكاية تنقلها إلى حكاية ثم إلى حكاية فحكاية أخرى. كانت تغرق بين الحكايات والشخصيات والأفكار بالغة التعقيد والبساطة في أن واحد. كانت تظن أنها خبرت الحياة في ألعن صورها ولم يعد هناك ما يهيبها، انهار ظنها ووجدت نفسها طفلة صغيرة في قاعة بها عشرات المرايا مختلفة الأشكال والتكوين مثل تلك التي زارتها في طفولتها في مدينة الملاهي، مئات الانعكاسات مختلفة الأشكال والأحجام، كلها لنفس الشخص وإن لم يشبه أحدهم الآخر. في رهبة ومتعة وخوف ظلت الطفلة تتحسس طريقها بين الصفحات والكلمات، وعاشت ألف حياة مختلفة. ورغم أن اسم الكتاب يفترض أنه يعطي فكرة عن نهاية الأحداث، إلا أنها وقعت في فخ التوحد مع الشخصيات –وهو فخ يقع فيه أعتى

القراء وأكثرهم خبرة- لتصيبها النهايات بحزن لم تكن تظن أن هناك ما قد يثيره مرة أخرى، وإن كان للحزن هذه المرة مذاق يختلف عن كل الأحزان التي ذاقتها من قبل، حزن الروايات الشاعري المرير كمرارة القهوة التي تكرهها مع أول رشفها وتدمنها مع الثانية.

وضعت من يدها الصفحة الأخيرة، بحثت في الملف أملا في إيجاد صفحات أخرى غفلت عنها ولم تجد، رفعت رأسها ونظرت حولها، احتاجت لدقائق قبل أن يعود وعيها من حيث كانت في سفرها الطويل بين صفحات المخطوطة، شعرت وكأنها غابت عن عالمها القديم لسنوات لتعود الآن غير معتادة على تفاصيله. كوب الشاي ما زال ممتلئا حتى حافته، كيس السوداني ما زال مربوطًا بإحكام، ساعة الحائط تشير إلى الثانية والنصف صباحًا. قامت كمن يحاول الإفاقة بعد الثمالة، بللت منديلها من زجاجة المياه ومسحت به وجهها، قبل أن تلملم أشياءها وتضبط لفة طرحتها الوردية وهي تنظر لانعاكسها في زجاج فاترينة عرض الحلويات، أغلقت كشكها الأزرق الصغير ومضت.

12

لم يكن من المنطقي أن يغضب ويرغي ويزبد عندما وصل إلى الكشك ليجده مغلقًا، كيف لا يكون والساعة لم تتخط الثامنة صباحًا؟ ليس ذنبها أن النعاس لم يجد إليه سبيلًا في حمى الخيالات المرعبة التي غرق فيها، زينب الخرقاء تسقط الأوراق في إناء متتلئ بالماء، زينب الخرقاء تشعل الأوراق بالنار بالخطأ، زينب الخرقاء تصدمها عربة نقل مسرعة أثناء سيرها حاملة ملف الأوراق فتطاير الأوراق وتتمزق وتتلوث بالدماء وتضيع. لم يكن عليه أن يعطيها النسخة الوحيدة، كان عليه أن يعطيها نسخة ضوئية، أو ربما كان الأفضل أن يعيد كتابتها على الكمبيوتر قبل أن يعطيها إياها. على أي حال انتهى كل شيء ورواياته لا بد أنها قد دُمرت واختفت من الوجود وعليه أن يتعايش مع ذلك.

خيار الاستدارة عائدًا لبيته ثم يأتيها لاحقًا عندما تفتح الكشك لم يكن موجودًا، لن تسمح له أعصابه المتوترة بالذهاب، لوكان يعرف بيتها لذهب إليه وأيقظها طالبًا روايته أو ما تبقى منها. وقف مستندًا بظهره على باب الكشك الأزرق، وظل لبضع سنوات واقفًا في نفس الوضع منتظرًا إياها، حاول تخمين الطريق الذي ستأتي منه ليراقبه منتظرًا ظهورها ولم يفلح، فظلت رأسه تدور في كل الاتجاهات باحثًا عنها في يأس. حتى ظهرت في الأفق أخيرًا بعد الثانية عشر ظهرًا بقليل، لمح في يدها ملف الأوراق المنتفخ فاطمأن أخيرًا وهدأت ضربات قلبه

المجنونة أخيرًا، عندما اقتربت كان سيطر على انفعالاته المضطربة، بيد أن زينب هي التي كانت منفعلة بشكل لم يره فيها أبدًا. بادرته بالحديث قبل أن يفتر ثغره عن الكلام صارخة:

"أوعى تبيعها"

تراجع في دهشة من طريقها، اعتاد على أن يكون هو المنفعل المتوتر وليس المتلقي لانفعالات الآخرين.

"مش حبيعها، متقلقيش"

بيسراها كانت تعبث في سلسلة مفاتيحها بحثًا عن مفتاح الكشك بينما يمناها ما زالت منشغلة بحمل ملف المخطوطة المثقيل.

"أيوة، دي مينفعش تتباع، دي مش زي باقي الحاجات، دي.. دي".

في خضم توترها ومعاناتها في إيجاد الكلمة المناسبة لإتمام جملتها، وقعت من يدها سلسلة المفاتيح على الأرض ووقعت معها أعصابها التي لا تعرف كيف السبيل للسيطرة عليها منذ أن أنهت الرواية. يدهشها ويثير غيظها أن ما أفقدها جمودها وسيطرتها على نفسها التي عهدتهما في نفسها في حياة ما بعد السجن ليس شخصًا ولا حدثًا، إنما مجرد كلمات في كتاب، لا تفهم كيف حدث هذا ولا تعرف كيف تتعامل معه، لا تعرف كيف آلت الأمور إلى أنها تتلعثم وتتوتر وتقع منها أشياؤها في حوار مع شخص غريب بشأن أمور يفترض أنها لا تهمها في شيء.

انحنت في سرعة قبل أن يفعل هو والتقطت مفاتيحها وقبضت عليها، توقفت عن الحديث وأغمضت عينيها لثانية التقطت فيها نفسًا طويلًا، ثم وضعت ملف المخطوطة في صدر محدثها الذي التقطه بكلتا يديه مستغربًا إياها. أكملت كلامها:

"دي كويسة، كويسة جدًا"

أُصيب بإحباط حقيقي بدا جليًا على وجهه من اكتفائها بكلمة (كويسة) لوصف روايته، غافلًا عن حقيقة وجب أن يدركها، أن زينب لن تستطيع صياغة عبارات مثل "رواية تنسج عالما يوحد بين الواقع والخيال في مزيج مدهش" أو "انسياب الأسلوب الساحر أنساني مرور الوقت فلم أستطع رفع عيني قبل أن ألتهمها بشوق حتى آخر حرف"، وأن استخدامها لوصف (كويسة) يحمل في الغالب معاني أعقد وأعمق بكثير من كل تلك العبارات المنمقة المفتعلة مجتمعة. رد عليها في خيبة أمل بينما تفتح الباب وتخطو للداخل:

"الحمد لله إنها عجبتك"

"حتنشرها؟"

"ححاول"

وقف قليلًا آملًا أن ينتزع منها أي كلمة أخرى للتعليق على الرواية، وعندما لم يجد استدار ليمشي، وأوقفه نداؤها:

"استنى"

"نعم؟"

"قبل ما تمشي، صورلي نسخة وهاتها لي، عايزة أقراها تاني"

* * * *

"سعادة الباشا، أهلًا وسهلًا، نورتنا يافندم، إيه الحظ السعيد ده ! حمدي باشا بنفسه عندنا؟"

استقبل هشام دخوله بسلسلة من الصيحات الساخرة الغاضبة، صيحات تحمل ألف سبب كاف لحمدي ليبدأ سلسلة من الشجارات لا تنتهي، ولكنه تغاضى عنها كلها وكأنه لم يسمعها، وسار في الممر الطويل الضيق بين أجهزة الكومبيوتر والمراهقين الذين يستخدمونها في لعبة حربية ما تجعلهم في حالة شجار مستمر - لا يندر أن يتطور إلى شجار جسدي تاركين الأجهزة ملتحمين في معركة قصيرة باللكمات والركلات تؤدي عادة إلى شاشة مكسورة أو لوحة مفاتيح ينقطع سلكها - سار وصيحات هشام الساخرة تزفه، وقد أعجبه أن حمدي لا يرد الكلمة بمثلها كالعادة فزاد سخريته وإهاناته المضمنة فيها، حتى وصل حمدي أخيرًا إلى مكتب هشام وجلس على الكرسي المقابل.

"هاه؟ خلصت كل اللي عندك؟ ولا لسة في كمان؟"

"لسة في كمان كتير، بس حيفرق ايه الكلام؟ ما اللي راح راح يا إنشراح والشغلانة باظت عشان حضرة الباشا بتاعنا مكنش له مزاج يشتغل"

عض حمدي على شفته السفلية في غضب مكتوم وقاوم رغبة في الصراخ والسب واللعن يتبعها خروج درامي يجيده ويحبه، هو

يحتاج لهذا الوغد للأسف وعليه أن يتحمل هراءه، ناهيك عن أن في أعماقه يشعر ببعض الذنب تجاه هشام لتوقفه المفاجئ عن العمل تاركًا إياه في مهب الريح.

"طب ممكن تهدى وتسمعني؟"

هدوء حمدي المفاجئ وتقبله لسخريته بهدوء أشعراه بنوع من الانتصار، فسكت وهو يشعر بنوع من القوة والسيطرة على الموقف في داخله، وإن لم يغفر له بعد وقف العمل و(قطع العيش).

"أنا كتبت رواية”

"رواية؟ حد طلب منك رواية؟ فين ده؟ أنا متابع الأوردرات كلها ومفيش روايات!"

"لأ محدش طلب، أنا كتبت رواية، لنفسي"

"مممممم.. طيب، ماشي، نشوفلها صرفة برضو، سيبني أعمل كام تليفون وحعرف أجيبلها زبون، أهو أي حاجة تـ.. ."

"لأ، أنا مش حبيعها، أنا عايز أنشر"

كانت يد هشام تعبث في هاتفه مقلبًا في قائمة الأسماء بحثًا عن من قد يساعده في بيع الرواية، إلى أن سمع جملة حمدي الأخيرة لتتجمد حركة أصابعه، ورفع رأسه وبدا على وشك أن يدخل في نوبة ضحك طويلة.

"تنشر؟ تنشر إيه يا أبو حودة؟"

"أنشر، زي الناس.. أنشر الرواية باسمي"

"نشر إيه ياعم صلي على سيدك النبي واهدى، لو عرفنا نبيع الرواية ممكن نجيب فلوس حلوة تزق العملية شوية بدل الشهرين العجاف اللي فاتو"

"أنا مش جاي أخد رأيك، أنا جاي أشوف لو تقدر تساعدني، لو اتنشرت حيبقى فيها فلوس حلوة وأنت معايا فيها، كالعادة. لو مستعد يلا بينا، ملكش مزاج يبقى سلامو عليكو حشوف أنا حالي"

وأتبع كلامه باستعداد متمهل للقيام والخروج معطيًا هشام فرصة أخرى للرد.

"اصبر بس يا جدع متبقاش قفل كده، طب خلينا نفكر مع بعض. مين حيرضى ينشرلك؟ إنت محدش يعرفك أساسًا"

"أنا كتبي ومنشوراتي مغرقة الدنيا"

"كتبك ومنشوراتك دي محدش يعرفها غيري وغيرك والست إياها بتاعة كشك المحطة، مفيش دار نشر حتسمعك لما تقولهم (أنا كتبي ومنشوراتي مغرقة الدنيا)"

قال الجملة الأخيرة مقلدًا أسلوب كلام حمدي المتعجرف بشكل ساخر ضايقه رغم اعترافه الداخلي لنفسه بمنطقية كلام هشام.

"طب نكلم حد من اللي اشتغلنا معاهم يمكن نلاقي حد يتوسطلنا ويساعدنا"

"ده حيكون ليه؟ محبة وصداقة؟ ده عشان هم بيحبوك جدًا وحيساعدوك تظهر قدام الناس وتبقى مشهور وتفضحهم كلهم؟"

"وأنا أفضحهم ليه بس؟"

"أنا وأنت عارفين إنك مش حتفضح حد، بس هم مش حيفكروا كده، أول حاجة حتيجي في بالهم إنهم لازم يمنعوا ظهورك بأي شكل".

كلام هشام وحججه المنطقية أصاباه بإحباط غير متوقع، ذهبت البهجة لتحل محلها الحيرة.

"إنت حيوان يا هشام"

"ده من ذوقك يابو حودة"

ودخل كلاهما في صمت، هشام يفكر ويضع الخطط في من قد يشتري منهم الرواية بأعلى ثمن، بينما يعتصر حمدي دماغه باحثًا عن أي مخرج يمكنه من الوصول للنشر باسمه، وكأن الوحي هبط من أعالي السماء فجأة انتفض من مكانه واندفع قائلًا بينما يشير لهشام بكلتا يديه في حماس أصاب هذا الأخير بالفزع اللحظي:

"خليل موسى"

"فجعتني ياعم ربنا يهدك، ماله خليل موسى؟"

"خليل موسى بقاله فترة عايش في دور الأب الروحي وبيساعد المواهب الشابة في الأدب والفن وبيدعمهم"

"أنت مواهب شابة؟ أنت شابة؟"

"بلاش غباوة بقى، خليل موسى لو قرا الرواية حتعجبه وبسهولة ممكن يقنع أي دار نشر تنشرها لنا"

"آخر مرة خليل موسى بتاعك ده كلمني لعن سلسفين أهلي وأهلك وأهل إسكندرية كلهم، وحلف برحمة أمه ما حيشتغل معانا تاني وقفل السكة في وشي، تقريبًا كسر موبايله وهو بيقفل من كتر الغل"

"مش مهم، أنا حخلص النهاردة كل شغله المتآخر، ولما يشوف الرواية حيقدرها، ده راجل بيفهم برغم كل حاجة، أنت بس تحاول تكلمه في التليفون وتجيبه سكة"

نظر له هشام شزرًا غير متقبلًا للفكرة، لكنه وافق على مضض أملًا أن يرفضها خليل موسى ما يعطيه فرصة أخرى لإقناع حمدي لاحقًا بالبيع.

"ماشي، خلص شغله المتآخر ونشوف بعدها حنعمل إيه"

* * * *

استخدم أغلب عملاء (خدمات الأستاذ الصحفية) تبرير "أنا مشغول جدًا ومعنديش وقت أكتب الكلام ده بنفسي" كمحاولة فاشلة لحفظ ماء الوجه أمام الشبح السايبري الذي يقوم بعملهم نيابة عنهم. لم يصدق منهم في هذا التبرير إلا خليل

موسى، فالرجل بالفعل دائم الانشغال ولا يجد ما يكفي من الوقت لكتابة المقالات اليومية والكتب المختلفة رغم موهبته الصادقة التي أهلته -من بين عدة مؤهلات أخرى ليس أهمها الموهبة- منذ بداياته المبكرة كصحفي مغمور للنجاح والتقدم والوصول. بين رئاسة تحرير واحدة من أهم صحف مصر حاليًا وتقديم برنامج تليفزيوني يومي والمشاركة كضيف في برامج أخرى وجدول لا ينتهي من المقابلات الشخصية والمكالمات الهاتفية التي تحدد من سينال ضربات المعارضة القادمة ومن سينال المباركة والأمان، لا يجد الرجل ما يكفي من الوقت لكتابة ما عليه كتابته، لذا كان حتميًا عليه أن يجد من يقوم بصغائر الأعمال هذه بدلًا منه. تحت يد الرجل يعمل جيوش من الشباب في شتى المجالات، يستغل منهم الموهوبين من حين لآخر لتنفيذ مطالبه ولكن قلة خبرتهم كان تضطره دومًا إلى مراجعة ما يقدمونه وتحريره بنفسه، ما يؤدي إلى إضاعة مزيد من الوقت الثمين. واللجوء إلى صحفيين أعلى شأنًا سيؤدي إلى فضيحة حتمية سيستغلها أعداؤه الكثر هو في غنى عنها.

وجد في ظهور الأسطورة الحضرية (خدمات الأستاذ الصحفية) بين صغار الصحفيين حلًا مثاليًا. تعددت الحكايات وراء ظهوره، مثلًا قيل أنه بروفيسور جامعي متخصص في الصحافة والإعلام طُرد من الجامعة لميوله اليسارية ونزعاته الثورية التي كان يُصرح بها في كل منبر، وقيل أنه صحفي قديم موهوب طُرد من النقابة بعد تورطه في فضيحة جنسية، حكايات كثيرة لم يقتنع بأي منها وأرسل من جنوده الشباب المخلصين من يتتبع حقيقة الحكاية حتى عرف كل ما يُمكن أن يُعرف عن حمدي وهشام ولعبتهما

الصغيرة. وقرر أن يجربهما في أعمال غير مهمة يستطيع لاحقًا التملص منها في حال أن تجاوز هذان المهرجان حدودهما، إلى أن تأكد بعد حين من تميز كتابات هذا الكُمساري، والسرية المطلقة لما يقدمه من خدمات، فزاد من اعتماده عليه حتى أصبح مع الوقت يكتب كل منشورات خليل موسى دون أن يبذل هذا الأخير من وقت أو مجهود سوى في رسم خطوط عريضة لأفكار رئيسية لما يُكتب، ولينح الكُمساري نحو هذا.

اعتمد على حمدي لما يزيد عن سنتين تناسى فيهم تمامًا متاعب الكتابة والتحرير والتدقيق أو تدريب غر شاب عديم الخبرة على الكتابة بدلًا منه بلا جدوى. ثم ودون أي مقدمات اختفى تمامًا اللعين من على الخارطة، توقف عن الكتابة والرد على الرسائل بلا سابق إنذار، وصبيه الغبي لا ينفك أن يعتذر ويقدم التبرير تلو التبرير دون فائدة. والنتيجة أن ها هو خليل موسى بنفسه منكبًا على لوحة المفاتيح كالتلاميذ والمبتدئين يكتبب مقالاته بنفسه ويضيع وقته في البحث عن المعلومات وصياغة الكلمات وما يماثلها من أفعال عقيمة عديمة الفائدة ومضيعة للوقت. وبينما هو منهمك في الكتابة يهتز هاتفه الصامت ويظهر على شاشته اسم ورقم صبي الكُمساري هشام، فكر في تجاهله وإكمال ما يكتبه لكن غضبه أشعل رغبته في سبه وصاحبه قليلًا. مر باصبعه على الشاشة وقبل المكالمة.

"عايز إيه يا روح أمك؟"

"أستاذ خليل، مساء الفل على حضرتك"

"عايز إيه يا روح أمك؟"

"الله يسامحك يا أستاذ، حضرتك حيوصلك إيميل دلوقتي حالًا فيه كل الشغل المتآخر بتاع الشهرين اللي فاتو، وكله متعدل ومتحدث عشان يليق على الأحداث الحالية ويصلح للنشر دلوقتي"

قبل أن ينهي جملته ظهر على شاشة الحاسب أمام خليل بالفعل إشعار بوصول بريد إلكتروني جديد.

"جرى إيه يا وسخ؟ إنت فاكر إنك شغال مع عيل صغير توقف وقت ما تحب وترجع تشتغل وقت ما تحب؟ حاسب ياروح أمك أنت واللي مشغلك وافتكر انت بتكلم مين"

فكر هشام أن لو حمدي سمع كلمات خليل موسى لرد السباب بأقذع منه وأنهى المكالمة فورًا، لقد أحسن صنعًا بالحديث نيابة عنه.

"عارف طبعًا ياباشا والله، بس والله دي كانت ظروف طارئة غصب عننا، السماح والنبي الله يكرمك. وعلى فكرة الشغل ده كله هدية مننا على سبيل الاعتذار على التأخير ومش عايزين من وراه حاجة"

"وانت فاكرني كنت حدفعلك مليم؟ إنت تحمد ربنا اني مبعتلكش اللي يقفلك سايبرك ويرمي الكُمساري بتاعكم تحت عجل الترام اللي شغال فيه"

سايبر؟ كُمساري؟ كان يجب أن يتوقع هذا، إنه يكلم خليل موسى وليس صحفيا أحمق درجة ثانية يؤمن بأسطورة البروفيسور اليساري.

"ده من كرم أخلاقك يابيه، حضرتك راجل محترم تقدر تعملها بس أخلاقك أعلى من كده بكتير. وكرم أخلاقك ده اللي مخليني أكلمك بخصوص حوار كده ممكن حضرتك تهتم بيه"

حوار؟ سيطلب القذر نقودًا بطريقة ملتوية بعد أن ادعى أن ما أرسله من أعمال كان اعتذاريًا مجانيًا، هكذا هم الأوساخ دومًا.

"عايز إيه؟ فلوس؟"

"لا يافندم العفو، خيرك سابق.. الموضوع يعني باختصار، الأستاذ بتاعنا كتب رواية"

بتهكم واندهاش واهتمام رد خليل: "الكُمساري بتاعكم كتب رواية؟"

"إيه؟ أه.. كتب رواية، وكنا محتاجين مساعدة حضرتك و.. "

"أشوفلك حد يشتريها يعني؟"

"أه، ياريت" هكذا فكر هشام، بيد أنه لم يجسر على النطق بها أمام عيون حمدي المتلهفة.

"لا يا أفندم، إحنا عايزين ننشرها بشكل رسمي"

سكت خليل موسى لوهلة. قدم الرجل نفسه للعالم في السنوات السابقة كأب روحي لكل ذوي المواهب الشابة في كل مجال،

الراعي الرسمي للمستقبل الثقافي والفني في مصر، أعلن عن ذلك بشتى الطرق في مختلف منابره التي يعتليها مكتوبة ومسموعة ومرئية، وقدم بالفعل عددا من الشباب الموهوبين من خلال صفحات جريدته الفنية والثقافية، وساعد آخرين حتى وصلوا لنشر كتب أو لعرض أفلام مستقلة في دور عرض سينمائية أو لوحات في معارض فنية، ويدعو دومًا الشباب الموهوبين بالتقدم إليه بمشاريعهم المختلفة ليدعم منها ما يستحق. بيد أن لا أحد سوى القريبين جدًا منه يعلم أنه لا يدعم إلا من يجد من وراء دعمه فائدة شخصية له، من سيدعم قائمة علاقاته التي لا نهاية لها، من سيصبح جنديه المخلص مدافعًا عنه أمام الجميع، من يملك من الاتصالات والمعارف ما يفيده في حروبه الدائمة. الخلاصة أنه ليس المخلص المنتظر الذي ينتظره الموهوبون، هو ليس إلا مجرد وصولي نفعي آخر امتاز عن الآخرين بذكاء وكاريزما وغريزة تقوده كبوصلة إلى حيث يكون النفع أينما كان. غريزته أبقته حيًا منتصرًا حتى الآن، غريزته قادته للتريث قبل أن يرد على طلب هشام، ما استشعره في كتابات حمدي يجعله يرغب في قراءة الرواية قبل قول المزيد. بعد وهلة طالت رد على تصريح هشام الأخير بلهجة هادئة تختلف تمامًا عن كلماته المتقززة منذ أن بدأت المكالمة.

"ابعت، خليني أقراها وبعدين نتكلم"

"ألف ألف شكر يا فندم، ربنا يباركلك، الرواية بيتعملها scan دلوقتي وفي خلال نص ساعة حتوصل لحضرتك على الإيميل"

* * * *

متى كانت آخر مرة قرأ فيها كتابًا باستمتاع؟

كان هذا قبل أن يبدأ كتابة روايته، منذ أن أصابته حمى الكتابة وهو غير قادر على التركيز في غيرها، حتى بعد أن أنهاها ظل عقله منشغل طوال الوقت بمصيرها ولا يكاد يفكر في غيره. منذ أن تحرك الميكروباص من ميدان محطة مصر متجهًا إلى القاهرة مرت ساعة أو يزيد لم يقرأ فيها أكثر من ثلاث صفحات من الكتاب الذي أحضره معه لتسلية طريقه، لا يستطيع تركيز خلايا مخه الهائجة في صفحات الكتاب، أغلق الكتاب ووضعه في الملف البلاستيكي الذي يحفظ صفحات الرواية، مستسلمًا في النهاية لأفكاره المجنونة المشتتة التي تدور في رأسه كالقطار الأفعواني الذي يشاهده في الأفلام.

ما زال عقله لا يقدر على استيعاب أن خليل موسى طلب مقابلتهم لمناقشة مصير الرواية معهم، هو رجل مثقف خبير وبالتأكيد أدرك بسهولة مدى تميزه واختلافه عن كل ما هو موجود، وبما إن الراعي الأول للمستقبل الثقافي المصري قرر دعم ومساعدة موهبته الاستثنائية، فإن دوران هذه الخواطر في رأسه يثير فيه من الحماس ما يشعره بغليان الدم في عروقه، يشعر أنه لولا سيطرة تكاد تتبدد على النفس لفقد التحكم بذاته وطار في السماء بقوة الدفع التي تسببها ضربات قلبه القوية.

وليست مستجدات الأحداث التي تتعلق بروايته هي السبب الوحيد لحماسه وتوتره. حمدي لم يخرج من الإسكندرية إلا في رحلة أو رحلتين مع المدرسة الثانوية في أزمنة أبعد من أن يذكرها أحد، في الحقيقة هو لم يخرج حتى من حدود محرم بك أو

خطوط الترام التي تنقل بينها كمُحصل تذاكر إلا لمامًا. لذا يعتلج فيه الآن مزيج عنيف من التوتر والخوف والانبهار كلما ابتعد الميكروباص أكثر عن الإسكندرية إلى جوار حماسته المشتعلة بخصوص روايته ومقابلة خليل. كاد أكثر من مرة أن يصرخ في السائق ليهدئ من سرعته المتزايدة، سرعة الميكروباص على الطريق الصحراوي بالنسبة لمن اعتاد على سرعة ترام المدينة السكندري لا تقل عن سرعة صاروخ فضائي متجه للقمر، ولكنه لم يفعل، لم يصرخ في السائق لشعوره المستمر أنه في بيئة مختلفة عن بيئته الطبيعية وأن ليس له من حول ولا قوة هنا، هو ضيف ضعيف في عالم ليس عالمه، لم يكن يظن أبدًا أنه سيتمنى أن يعود لبيته وغرفته وللترام وكل تفاصيل حياته التي يكرهها ما إن يخرج منها.

دوم تك.. دادوم دادوم تك

على الكرسي المجاور له من ناحية اليمين شاب منغمس تمامًا مع إيقاع الموسيقى التي يسمعها في سماعات بلاستيكية صغيرة ملتصقة في أذنه وكأنه ولد بها، تتحرك أصابع يديه على زجاج النافذة لتردد إيقاع الطبول الذي يلعب في أذنه.

دوم تك.. دادوم دادوم تك

دوم تك.. دادوم دادوم تك

حركة اليد المتناغمة ترغم حمدي على النظر إليها، صوت الإيقاع الخارج من طرقات أصابع الشاب على الزجاج مع شبح

صوت الموسيقى من سماعات أذنه سيطرت على مؤخرة أفكار حمدي كمحتل غاصب.

دوم تك.. دادوم دادوم تك

في الكنبة الخلفية للميكروباص توجد 4 سيدات متشحات بالسواد، منهن اثنتان يحملان طفلين رضيعين. للوهلة الأولى يفهم الناظر أنهن ذاهبات لعزاء، لكن مزاحهن العالي وضحكهن الطويل يُعارض هذه الفكرة بشدة. كره حمدي أصواتهن العالية، أزعجنه بشده وزدن من توتره، شعر برغبة عارمة أن يصرخ فيهن أن يخرسن أو يخفضن من أصواتهن، لو كن في الترام وهو الكُمساري لفعل بالتأكيد، ربما طردهن إلى الشارع وألقى نقود التذاكر التي دفعنها في وجوههن، إنما هنا هو لا يستطيع، فغر فاه عن كلمة لأي شخص. رباه، متى سينتهي هذا اليوم الغريب؟

بحركة عنيفة هز هشام النائم على يساره مستندًا برأسه على المقعد الأمامي.

"هشام.. هشاااام، كلم **خليل موسى** وقوله إن إحنا في السكة"

بشكل لا إرادي خرج منه اسم (خليل موسى) بصوت مرتفع وحروف واضحة، وكأن جزءا منه أراد أن يُعلم الآخرين أنه متجه لمقابلة (خليل موسى) الشهير، أنا شخص مهم كفاية لمقابلة خليل موسى أيها العامة البلهاء. بيد أن عقله الواعي لم ينتبه لما فعله واستمر في محاولة إيقاظ هشام الذي فتح عينيه مرغمًا في النهاية وأنصت لحمدي في صبر قبل أن يقول في حروف بدا فيها النعاس واضحًا:

"والله يا حمدي معادنا معاه الساعة 4 العصر، قلتلك 4 العصر مية مرة، إحنا دلوقتي 10 الصبح لسه، أكلمه ليه؟ سيبني أتخمد شوية أبوس إيدك، قلتلك ننزل متأخر أنت اللي ركب دماغك وأصريت ننزل من 7 الصبح، سيبني بقى وصحيني لما نوصل"

"مانا قلتلك عشان القاهرة زحمة وخايف نتأخر عن المعاد و.. ."

ثم أدرك أن هشام عاد للنوم ولن يسمع حجته، فسكت. جاء الصوت من إحدى المتشحات بالسواد في المقعد الخلفي:

"ألووو.. أيوة يا ولاء يا حبيبتي، أنا معايا البنات وجايين في السكة.. عدينا بوابة إسكندرية بقالنا ساعة ونص أهو وقربنا نوصل، قلبي عندك يا حبيبتي، والله أنا والبنات مفلوقين من العياط من ساعة ما عرفنا الخبر، ربنا يرحمه ويصبركم جميعًا.. أه.. أه.. جيبنالك هريسة زي ما طلبتي، جبنا 6 كيلو. لا يا ولاء 6 كيلو حتكفي متقلقيش.. أه.. أه.. طيب خلاص ماشي، لما نقف في الريست حجيبلك 4 كيلو عليهم كمان، ماشي يا حبيبة قلبي، شدي حيلك يا ولاء.. خدي نسمة عايزة تكلمك، أهي معاكي أهيه.. يا أسطى، يا أسطاااااااااااااااه، والنبي ابقى عدينا على الريست اللي فيه بتاع الهريسة، معلش والنبي ياخويا عندنا حالة وفاة.. الله.. وإنت مالك الهريسة ليها علاقة بالوفاة ولا ملهاش، عالم معندهاش دم، إيه ياختشي ده، وقفنا عند بتاع الهريسة وخلاص، دول هما خمس دقايق.. الله"

وزاد شعوره بالغربة والحنين إلى الإسكندرية ومحرم بك الحبيبة.

دوم تك.. دادوم دادوم تك

ولم يغير وصول الميكروباص للقاهرة من المشاعر المعتلجة في صدره شيئًا. لم يزر حمدي القاهرة من قبل، لم يحتج أبدًا لزيارتها ولم يرغب فيها، ما يقرأه ويسمعه عنها لا يشوقه للقاء أكثر مدن الأرض كآبة وازدحامًا، ولولا الأهمية العظمى للقاء اليوم لما وافق أبدًا على أن يخطوها بقدمه. وها هو يجرب للمرة الأولى الاختناق المروري الشهير عندما وقف الميكروباص بين ما تراءى له مئة ألف سيارة أخرى على الطريق الدائري الذي طالما سمع اسمه مرتبطًا بالازدحام والعطلة، ورغم جو السيارة المُكيف شعر بالاختناق وضيق التنفس. ولازمه الشعور بالضيق حتى بعد أن وصلت السيارة إلى نهاية طريقها في قلب القاهرة وترجل منها مع هشام. تذكر الوصف القديم الكلاسيكي للقاهرة (بلد الألف مئذنة)، وبدت منه ضحكة ساخرة مقتضبة وهو يردد بصوت غير مسموع "بلد الألف كوبري" بينما يتأمل متاهة الكباري المرعبة في كل اتجاه.

تولى هشام قيادة مغامرة التنقل في المدينة العتيقة وحمدي يتتبعه صامتًا في وجل غير قادر على الاعتراض قافزًا بين ميكروباص لأوتوبيس وهو يفكر في ترامه البريء في محرم بك، حتى وصلا أخيرا إلى المقهى الذى حدده خليل موسى في مكالمته الهاتفية مع هشام. كان المقهى بسيطًا غير مزدحم، أراح حمدي حمله -المتمثل في ملف الرواية الذي حمله طوال الوقت كمراهقة تحمل دفتر أوراقها وتحلم بالحبيب- على مائدة داخل

المقهى قريبة من الباب وتجاور شباكا يطل على الشارع الرئيسي، وجلسا على مقعدين متقابلين يمين المائدة ويسارها.

"كلم خليل موسى"

"حكلمه، بس خلي بالك الساعة لسه 2 ومعادنا معاه 4"

دوم تك.. دادوم دادوم تك

الإيقاع البغيض يأبى مفارقة عقله. لم يجلس حمدي في مقاه أبدًا، حقيقة أدركها في ذهول ما إن جلس. أثناء حياة الطالب الشهير كان يتعالى عن المقاهي الشعبية ويرى نفسه أعلى منها شأنًا، وبعدها في حياة مُحصل التذاكر لم يمر بأي رغبة اجتماعية توصله لمشاركة كائنات حية أخرى مجلسهم ومشربهم وحديثهم على مقهى. لم تساعده تلك الحقيقة على تجاوز ما فيه من توتر وارتباك، تأمل بسرعة الجالسين ولم ير فيهم ما لفت انتباهه إلا فتاة شابة تجلس وحيدة في ركن قصي تتحدث في الهاتف وتدخن الشيشة. متى جلست الفتيات على المقاهي وبدأن في تدخين الشيشة؟ أدار بصره فورًا إلى النافذة هربًا مما لا يفهمه وحاول التركيز مع الشارع بينما هشام يهاتف خليل. الشارع أقل ازدحامًا من باقي الشوارع التي مر عليها، يبدو أنه ليس طريقًا رئيسيًا، هذا أفضل لأعصابه على أي حال. عليه الآن أن يركز تفكيره على لقائه المرتقب بخليل موسى. عن ماذا سيكون الحديث؟ سيسأله من أين أتتك كل هذه الأفكار العبقرية؟ ممن استوحيت الشخصيات؟ في أي دار نشر تحب أن تنشر؟ سيخرج هاتفه المحمول ليعرض عليه أرقام كل

الناشرين المصريين ويطلب منه اختيار واحد ليهاتفه خليل موسى بنفسه مرشحًا رواية حمدي للنشر، كل شيء على وشك أن يتغير الآن.

صوت فرملة عنيفة يتبعه صراخ من المارة، انتبه على الصراخ فنظر بعين متوجسة متحريًا الأمر، إنها قطة! قطة كانت تعبر الطريق بسرعة ولم يرها قائد السيارة المسرعة فدهستها، دهست رأسها بالتحديد. صرخ بعض المارة بفعل المفاجأة من صوت الفرملة، ثم أدرك الجميع أنها مجرد قطة وعادوا لمسيرتهم غير المهتمة، وانطلق قائد السيارة، وظلت جثة القطة مفترشة الطريق ورأسها المدهوس ينزف.

لم يستطع حمدي رفع نظره عن القطة الميتة، هل هي ميتة فعلًا؟ بالتأكيد هي كذلك فبقايا مخها مبعثرة في الطريق، ولكن كيف تنتفض الجثة من حين لحين بهذا الشكل؟ كيف ترفع فجأة أقدامها في الهواء وتهز ذيلها لثوان ثم تعود لتمثيل دور الجثة مرة أخرى؟ هل هي سكرات الموت كما سمع عنها؟ بعد دقائق طويلة اشمأز أحد المارة من الجثة النازفة في قلب الطريق، تطوع وأخرج من جيبه منديلًا أمسك به طرف قدم القطة الخلفية، ثم جرها على الأرض في احتراس من أن تصل دماؤها لملابسه فتتسخ وتركها بجوار الرصيف، على بعد أمتار ثلاث على الأكثر من عيون حمدي المراقبة في هلع، تاركة خلفها خط طويل من الدماء يبدأ من البقعة العريضة في قلب الشارع حيث حدثت الحادثة وينتهي إلى رأس القطة النازف في موقع جثتها الجديد.

دوم تك.. دادوم دادوم تك

"بيقول ممكن ينزل بدري، حيحاول يوصل على تلاتة أو تلاتة ونص"

لم يقدر على إبعاد عينه رغم مزيد من المحاولات. اقتراب موضعها الجديد منه أمكنه من رؤيتها بوضوح، ليست قطة كبيرة مكتملة النمو، ليست بالصغيرة أيضًا حديثة الولادة، تبدو وكأنها في... لا يعرف أعمار القطط، في المراهقة مثلًا؟ هي بالتأكيد في مرحلة عمرية مشابهة إن أمكن قول ذلك عن القطط. كيف يمكن أن تحتوي قطة صغيرة الحجم على كل هذا الدم؟ مر ما يزيد على نصف الساعة وهي لاتزال بجوار الرصيف تنزف وتنتفض. النزيف من الرأس لا يتوقف وسيل الدم يبتعد عن الجثة فلم يلطخ جسدها الأبيض المتسخ بوسخ الشارع المعتاد. اقتربت من موقعها بهدوء شديد قطة أخرى، قطة شبيهة بالميتة في الحجم واللون وحتى في اتساخ الجسد، اقتربت في بطء شديد وهي تنظر لجثة الأخرى النازفة. لا أحد يعرف كيف يميز مشاعر القطط من ملامحها، ولكن ارتجاف الخطوات والذيل والفم نصف المفتوح دون صوت وارتعاشة القدم الأمامية التي ارتفعت محاولة أن تلمس القطة النازفة دون أن تواتيها الشجاعة الكافية للمسها، كلها علامات لا تنبئ بالتأكيد عن السعادة. توقفت القطة الجديدة على بعد نصف متر من الأخرى الميتة، وبقيت على وضعها تنظر إلى رفيقتها، ربما كانت أختها/أخاها؟ تشابه اللون الشديد وتماثل الحجم ينبئ بعلاقة شبيهة، ربما توأمان؟ ولكن ماذا يعرف هو عن القطط ليخمن

مثل هذا التخمين؟ إنه لا يفقه شيئًا. أطلقت مواء ضعيفا جدًا وارتجف جسدها في عنف، حاولت مرة أخرى رفع قائمتها الأمامية لتتحسس الجثة، لمستها بعد تردد طويل بدا في التقدم والتراجع لحركة اليد لمسة بسيطة جدًا في جسدها السفلي بعيدًا عن الدماء النازفة، فانتفضت الجثة مرة أخرى ورفعت أطرافها في الهواء لثانية لتفزع القطة وتقفز للهواء في رعب وهي تطلق مواء يبدو إلى البكاء أقرب، ثم عادت مرة أخرى بعد تردد لتقف في صمت مرتجف على أطرافها الأربعة بالقرب من جثة قرينتها، تنظر إليها تارة وتنظر إلى المارة تارة، مطلقة مواءً قد يكون مناداة للميتة أو استعطافًا لأي من السابلة المتجاهلين لتقديم المساعدة.

طال تأمله للمشهد حتى كاد أن ينسى أين هو ولماذا هو هنا، ولم يلحظ وصول خليل موسى إلا عندما رآه يكاد يخطو فوق الجثة التي نزفت جميع دمائها قبل أن تقفز على قدمه السمينة القطة الحية وهي تزأر كأسد ضعيف، فتراجع مندهشًا ولاحظ الجثة الميتة، فنهر الأخرى عنه باشمئزاز ودار حولهما في طريقه إلى المقهى. رؤيته أعادت لحمدي رشده الضائع، وأفاق من تأملاته للقطط وعاد لأحلام يقظته التي على وشك التحقق. لم ير خليل موسى من قبل يمشي، اندهش لإدراكه هذه الحقيقة عندما شاهد مشيته المضحكة الغريبة التي يهتز معها كل أطراف جسمه مع كل خطوة، لم يره إلا جالسًا في ثبات متحدثًا في شتى الأمور الخطيرة والتافهة على الشاشات. هل هو مرض ما في قدمه يؤدي إلى مشيته المضحكة تلك؟

الانطباع الأول لظهوره بالمشية المضحكة مع الجسم الممتلىء ذكره بصلاح الطاهر وداني ديفيتو، وإن كان أطول من هذا الأخير بقليل، لكن ما إن افتر ثغره وخرجت كلماته حتى غلفت الكاريزما المبهرة الرجل مضحك المظهر ليبدو وكأن طوله ازداد وسمنته المضحكة تحولت لامتلاء مهيب، وشنبه الرفيع انتصب ليتحول لشنب (السيد أحمد عبد الجواد) الشهير. دخل خليل موسى المقهى ملقيًا تحية ومستقبلًا عشر تحيات، ما ينبئ بأن قدومه لهذا المقهى البسيط حدث يومي يعتاده جميع مرتاديه ويألفونه ويألفهم. أخرج خليل هاتفه ليتصل بهشام الذي هب من مكانه وجرى نحو خليل موسى قبل أن يفعل ومد يده ليحيه.

"أستاذ خليل، أنا هشام يا باشا، اتفضل إحنا قاعدين هنا"

تلقى الرجل يد هشام في تحية فاترة، ثم تبعه في بطء حتى وصل لطاولتهما، ظل حمدي جالسًا في مكانه غير منتبه لحركات هشام التي تشير له بوجوب القيام أدبًا وتحية للرجل، فبدأ خليل بالتحية ومد يده لحمدي الصامت الجالس وقال بصوته العميق الآسِر:

"إزيك يا حمدي"

فتلقى حمدي يده وهزها في ارتباك ووقف مرددًا التحيات في همهمة لم يهتم بها خليل موسى، الذي جلس جاعلًا ظهره للشباك المفتوح ليحجب قليلًا من أشعة الشمس الداخلة، فبدا وجهه غارقًا في الظلال ولكن ليس بما يكفي لمدارة ملامحه

المميزة عن عيون حمدي المتفحصة. عيونه كانت غائرة للداخل خلف خدود ممتلئة متوردة حليقة بنظافة شديدة وكأنها لا تنبت في الأصل وإن دل على عكس ذلك أثر جرح شفرة حلاقة طفيف جدًا بالقرب من أذنه اليمنى، الخدود الممتلئة تحجب أيضًا أنفًا كبيرًا فلا يظهر بروزه إلا بتركيز البصر عليه، تحته شارب رفيع مشذب بعناية فوق شفتين رفيعتين مزرقتين بدوتا متناقضتين بشدة مع بقية الملامح والجسد الذي يبدو الامتلاء سمة رئيسية فيه. يرتدي قميصا أزرق مكويا بعناية يلائمه تمامًا وكأنه مُفصل خصيصًا له، أزراره العلوية مفتوحة لتكشف عن عنق متعرق، وأكمامه مشمرة مثنية على عكس ما يبدو عليه في ظهوره التليفزيوني، حيث تكون أزرار قميصه كلها مغلقة بنظام وأكمامه الطويلة مغلقة أزرارها أيضًا، فلا يظهر منها إلا الكف الطري الممتلئ الذي لم يمارس من قبل عملًا أصعب من الإمساك بالقلم.

"نورتو القاهرة يا شباب.. اعذرني، قصدي نورتو القاهرة يا رجالة، أصل كل اللي شغالين حواليا عيال صغيرة فمتعود على كلمة شباب دي. تشربوا إيه بقى؟"

لم يستطع حمدي إلا أن يلاحظ أن مشهد الجثة الميتة وأختها الحية بدا واضحًا خلف خليل موسى، الجثة تبدو من حيث ينظر وكأنها بجوار أذن خليل اليمنى بالضبط.

"أنا حاخد مانجة"

قالها هشام بابتسامة لزجة بينما لم يرد حمدي. نادى خليل القهوجي بصوت جهوري قائلًا:

"اتنين مانجة للبهوات والقهوة بتاعتي يا درش" ثم وجه حديثه لهما مرة أخرى: "حد فيكو بيشيش؟ الشيَشّ هنا ممتازة"، ثم استجابة لهزة رأس هشام المجيبة وهزة حمدي الرافضة قال بنفس الصوت الجهوري.

"ونزلنا اتنين شيشة علكة بطيخ، اظبطها يا مصطفى، مش عايزها زي بتاعة امبارح"

ظل حمدي على صمته بينما كان هشام يبدل نظرته بين خليل وحمدي ويفكر في طريقة مناسبة لبدء الحديث، أعفاه خليل من هذا المجهود ببدئه هو للحديث.

"نتكلم في المهم بقى. باختصار بقى يا حمدي ومن غير كلام كتير، عايز كام؟"

دوم تك.. دادوم دادوم تك

عيون حمدي أطلقت نصف دستة من طلقات الرصاص لم تؤثر أي منها في الصحفي المخضرم، وانعقد لسانه على انعقاده السابق، بينما رد هشام بلهجة من يساوم لا من يبدي رأيًا قاطعًا.

"لا يا أستاذ خليل، إحنا أتفقنا إن حمدي حينشر باسمه مش حيبيع. حضرتك قريت الرواية؟ قولي بس الأول إيه رأيك فيها؟"

"مليانة مشاكل، مشاكل تيكنيكال نفهمها إحنا الخبراء في المجال، مشاكل في بنية الرواية والحبكة دوافع الشخصيات وطريقة

تقديم العمل ككل، لسة محتاجة شغل كتير، بس كرأي overall هي رواية كويسة وييجي منها وممكن تاخد فيها مبلغ يعجبك"

القطة الحية افترشت الأرض بجسمها ودفنت رأسها بين قائمتيها الأماميتين المفرودتين على الأرض ولم يعد يبدو منها سوى عينيها المُركزتين على رفيقتها الراحلة. استجمع تركيزه المشتت وكلماته التائهة وتحدث.

"بس أنا مش حبيع، الرواية حتتنشر باسمي"

"اسمك إللي هو إيه لا مؤاخذة؟"

"حمدي محمود"

"تشرفنا.، بس مفهمتش برضو مين حمدي محمود ده؟ إنت عايز تطلع للناس كده عادي؟ سلامو عليكو أنا حمدي ودي روايتي عن خيبة الأمل؟ متبصليش كده، مش حتخوفني، أنا اتعاملت مع ناس زيك كتير، مش بعد العمر ده كله حخاف من واحد بيبرقلي. أنت فاكرني بشتري الرواية دي لنفسي؟ الروايات دي لعبة لعبتها زمان واستمتعت بيها وكبرت عليها خلاص، إنما أعرف ناس تانية حتنفع معاهم الرواية"

"بس أنا مش حخلي حد تاني يوصل على قفايا لحاجة ميستحقهاش، دي روايتي أنا"

فتح خليل فمه وبدا على وشك الكلام ثم أغلقه وكأنه أعاد التفكير فيما سيقول، أخرج هاتفه المحمول وفتح الكاميرا، وعلى حين غرة قبل أن ينتبه حمدي التقط صورة لهذا الأخير بدت

فيها ملامحه السمراء الحادة وذقنه النامي في إهمال وشفتين مضموتين في غضب. مد يده بالهاتف لتواجه شاشته عيون حمدي وتكلم.

"بص، شوف الصورة، ده وش يتحط على الغلاف الخلفي للكتاب؟ مين حيشتري كتاب على ضهره الوش ده؟ مين حيقدمك في ندوات وحفلات توقيع؟ حنقدم للجمهور الموهبة الصاعدة اللي عمره 48 سنة واسمه حمدي وشغال كمساري؟ بطل جنان يا جدع أنت، إنت راجل موهوب وبتعمل شغل نضيف وبتاكل عليه لقمة عيش حلوة، إحمد ربنا، مش عشان كتبت كلمتين حلوين تفتكر نفسك مؤلف وعايز تنشر كتابك، فوق وأرجع لترام 4 بتاعك"

لم يكن هذا السيناريو الذي توقعه للحوار، كان يجهز ردودًا وإجابات على أسئلة من نوع آخر في مخيلته، ليس منها ما يصلح للرد على هذه السلسلة المفاجئة من الإهانات. قطع تدفق الحديث وصول القهوجي بالمشاريب وآخر يحمل الشيشة، وضعت المشاريب على الطاولة ونصبت شيشة بجوار هشام الصامت المستمتع بمجرى الحديث دون أن يبدو على ملامحه، وأخرى بجوار خليل موسى. سحب خليل نفسًا طويلًا أطلق صوتا عاليا لكركرة الماء، أخرج سحابة كبيرة من الدخان عطر الرائحة ثم التفت إلى القهوجي الواقف في انتظار تعليقه:

"صح كده، تسلم إيدك، لو كنت جبتها زي بتاعة امبارح كنت كسرتها فوق دماغك. حظبطك متقلقش"

وذهب القهوجي مبتسمًا في رضا بينما عاد خليل موسى بكلامه لحمدي:

"لا مؤاخذة، متزعلش.. كلامي كان سخيف، أصلي نازل من الجريدة متعكنن آخر عكننة بسبب العيال اللي شغال معاهم، كلهم عيال شباب لا عندهم خبرة ولا يفهموا في الصحافة بنكلة، بس نعمل إيه بقى، مضطرين نشتغل معاهم، الجمهور عايز كده. الجمهور دلوقتي كله شباب زهقان من العواجيز اللي شبهنا ومش عايز يشوفنا، عايزين يسمعوا ويقروا لشباب زيهم وبس، عارف هما ليه بيحبوني وبيسمعوني؟ عشان مفيش حواليا غير شباب زيهم، ده اللي مخليهم راضيين عني. نعمل إيه بقى يا حمدي، لعبتنا كده، ما يطلبه الجمهور. تعرف، أي حد دلوقتي ممكن يكتب وينشر أي هباب، مادام شاب وحلو وشيك وله شلة صحاب كويس تغنيله، أي خرا حيكتبه حينتشر وحيبقى له نادي معجبين بيرددوه"

سحب نفسا طويلا من الشيشة، أتبعه بجرعة من القهوة وأكمل حديثه.

"إنما إنت يابو حودة كبير على لعب العيال ده، والله حتى لو كتبت الإلياذة من أول وجديد محدش حياخد باله منك، عشان محدش يعرفك. صحيح، ابنك محمود عامل إيه؟ أكيد طالع عينك معاه في مصاريف الدروس والمدارس، العيشة بقت نار والله، أنا أب زيك وطالع عيني، إنت أكيد محتاج قرشين يزقوا معاك العملية شوية، والنشر والروايات على فكرة مبيأكلوش عيش، اسمع مني أنا في وسط المعمعة دي وعارف أنا بقولك

إيه، نشر الروايات أخره يجيب قرشين للعيل من دول يغير موبايله ويجيبله طقمين هدوم جديدة ويحدد دقنه عند حلاق نضيف وجبرت على كده، كل سنة وإنت طيب، الصيت ولا الغنى"

نفس عميق آخر من الشيشة وسحابة من الدخان تغمر وجه حمدي بعد أن أطلقها الرجل.

"إنت بتقرا كتير، صح؟ أكيد بتقرا كتير وإلا مكنتش حتكتب حلو كده. في جملة لكاتب ياباني اسمه هاروكي موراتيكي أو حاجة كده، أكيد تسمع عنه، بيقولك (إنت ممكن يبقى عندك مواهب كتير ملهاش أول من آخر، بس مش شرط المواهب دي تأكلك. إنما لو عندك غريزة حادة، عمرك ما حتجوع)، وأنت يا أبو محمود عندك موهبة زي الفل، بس معندكش ذرة من الغريزة، أنت بس حظك كان حلو شويتين تلاتة باللي إنت وصلتله لغاية دلوقتي، ولولا الجحش اللي قاعد جمبك ده بيداري ضحكته من الصبح مكنتش وصلت للي أنت فيه ده أبدًا، الجحش ده بتاع السكس والشرمطة فاهم كويس هو بيعمل إيه، عرف سكته فين ومشي وراها بذكاء، إنما إنت راجل فنان بتاع قراية وكتابة وقطع تذاكر، وملكش في اللعب بتاعنا ده. أنا حعرف أجيبلك في الرواية دي قرشين كويسين، أحسن من أي فلوس ممكن تكسبها لو الرواية اتنشرت ونجحت، وأنا وأنت عارفين أنها لو اتنشرت عمرها ما حتنجح عشان المؤلف مش على مزاج القارئ، القراء عايزين واحد شبههم، وأنا حجيبلهم واحد شبههم. هاه؟ إيه رأيك؟ سمعني صوتك؟"

القطة الحية قامت أخيرًا من جلستها، دارت حول جثة رفيقتها عدة دورات وكأنها تلقي صلاة وداع أخيرة، ثم سارت مبتعدة في بطء شديد منكسة الرأس والذيل، هل تبكي القطط؟

فتح حمدي فمه ليتكلم، لم يستطع الحديث لخواء رئتيه من الهواء وكأنه نسى التنفس في اللحظات السابقة، سحب نفسا طويلا مشبعا بدخان الشيشة الذي يطلقه خليل وهشام، ونطق أخيرًا:

"إنت راجل ابن وسخة"

وارتجت القهوة بضحكة خليل موسى.

13

اختطف روايته بعنف وخرج من المقهى مغاضبًا، تتراقص في عيونه كل شياطين الكون، اندفع للخارج كرصاصة بعد أن سب خليل موسى بصوت سمعه كل رواد المقهى ليتلقى الرجل السباب بضحكة طويلة عالية ضاعفت هياجه وجعلته يرغب في تهشيم جمجمته بكرسي ليشفي غليله. قام هشام في تململ ليلحق بصاحبه، بيد أنه قبل أن يفعل انحنى على خليل موسى الغارق في دموع الضحك وقال:

"متزعلش يا أستاذ خليل، أنا أسف لحضرتك"

"أنت فاكرني حزعل من حشرة زي ده؟ تخيل لو صرصار وقف في وسط الشارع وشتمك.. مش حتضحك عليه؟ يا راجل أنا مضحكتش كده من سنين. روح الحقه وعقله، أنا عارف أنك حتعرف تعقله. أنا عايز الرواية دي يا هشام"

ابتسم هشام وهز رأسه في إشارة غير واضحة يمكن أن تُفسر بأكثر من معنى. خرج يبحث عن حمدي الغاضب، عرف أن صديقه لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرًا لجهله بالقاهرة، ولا بد أنه واقف في انتظاره في مكان ما. نظر خارج المقهى ونقل بصره بتريث يمنةً ويسرى حتى رأى حمدي واقفًا يدخن في عصبية عند نهاية رصيف المشاة، راقبه لوهلة ثم ذهب إليه.

"شفت ابن الوسخة بيضحك عليا إزاي؟ سمعت كلامه؟ أنا حاوريه، أنا حنشر روايتي بنفسي وحتنجح وحفضحه وحفضحهم كلهم، كلهم"

لم ينبس هشام ببنت شفة للرد على كلمات صديقه الغاضب، ولم يعر حمدي صمته انتباهًا وأكمل في عصبية وهو لا يكاد ينظر لمحدثه:

"إحنا حنلف على دور النشر لغاية ما نلاقي حد يـ.. "

"استنى بس يا حمدي واهدى شوية. متقولش إحنا، أنا مش ناقص قطع أرزاق أكتر من كده، الشغلانة بتاعتك باظت وشغلانة الطاهر باظت ودلوقتي سايب السايبر مقفول في إسكندرية وواقف معاك، حتى العيش الحاف بتاع السايبر واقف دلوقتي بسببك وعايزني كمان ألف معاك في القاهرة؟ لا مؤاخذة يا أبو حودة، مع حالك. يا ترجع معايا إسكندرية دلوقتي يا أرجع أنا لوحدي"

ضربة أخرى تلقاها حمدي الغافل الذي لم يفكر في احتمال بقائه وحيدًا في القاهرة. كلمات هشام بدت منطقية جدًا فقط بعد أن قالها، كيف لم يفكر في هذا من قبل؟ على أي أساس كان يظن أن هشام سيرافقه في رحلة بحث عن دار نشر؟ أدرك بغتة أنه كان يفكر فيما يحدث وكأنه حكاية أخرى، كان يفكر بلا وعي في رحلته للقاهرة وكأنها رحلة لبطل حكاية في مسعى جليل، وهشام ليس إلا رفيق البطل المخلص الذي يساعده ويدعمه بكل ما أوتي من قوة إيمانًا بقضية رفيقه ومستعدًا لبذل التضحيات في سبيلها بلا حساب. ساد الصمت للحظات بعد تصريح هشام قضاها حمدي في استيعاب حماقة تفكيره الشخصي ومحاولًا تدبر الخطوة التالية. أخيرًا خرج صوته هادئًا

ضعيفًا مُنكسرًا على النقيض تمامًا من لهجته العصبية الحادة التي كان يتحدث بها منذ ثوان.

"ماشي، أرجع أنت، أنا حستنى هنا"

"براحتك، هات 40 جِني للمواصلات"

* * * *

ظل جزء من عقله يرى ما يحدث كجزء من صراعات البطل في الحكاية، وأن خلافه مع صديقه أمر حتمي في هذه المرحلة من الرحلة، ولن يلبث هذا الأخير أن يتراجع عن رأيه ويعود إليه مؤيدًا ناصرًا، ما إنفكت الفكرة تتردد في جنبات عقله الراغب في تصديقها وهو يتأمل ابتعاد هشام منتظرًا اللحظة التي سيستدير فيها عائدًا، حتى اختفى هشام في منعطف جانبي وارتد بصره خاسئًا وهو حسير. لم تتبدد الفكرة بالكامل، فقط بهتت وعادت لمؤخرة أفكاره تاركة السبيل لغيرها من الأفكار مؤقتًا على أن تعود لاحقًا بمزيد من التفسيرات الدرامية الساحرة.

ماذا الآن؟ ماذا سيفعل؟ ما السبيل إلى دور النشر؟

كره وقفته فمضى على غير هدى، غير عالم أين هو الآن وإلى أين يذهب، هو تائه سواء ظل واقفًا في بقعة مجهولة أو مشي في غيرها، لا فارق. أخرج هاتفه المحمول وفعّل الاتصال بالإنترنت، راجع في ذاكرته أسماء أهم دور النشر المصرية وبحث عنها حتى وصل لعناوين كل منها. حسنًا، العناوين موجودة، عليه الآن أن يتحرك إليها.

ولكن كيف؟ كيف سيتنقل من دار نشر لأخرى وحيدًا في هذه المدينة المنفرة الطاردة لكل غريب؟ أعاد قراءة عنوان دار النشر الأولى في قائمته، لم يفهم شيئًا وكأنه مكتوب بلغة أخرى، لا يعرف هذه الشوارع والطرقات، لا يعرف سوى اسم الحي المألوف بشكل ما ربما من قراءة لرواية سابقة دارت أحداثها فيه، ولكن قراءاته كلها لا تشرح لكُمساري الإسكندرية التائه كيف يصل إلى مراده في القاهرة. الحل الأسهل والأكثر منطقية أن يلجأ إلى تاكسي، لكن ما يدريه كم المبلغ المطلوب لحساب التاكسي؟ وهل يكفي أصلًا ما بقى معه من نقود؟ أخرج حافظته وعد ما تبقى معه، 70 جنيه فقط، يحتاج منهم لـ40 على الأقل ليعود إلى الإسكندرية، هل يعرف أصلًا ما السبيل للعودة إلى الإسكندرية؟ ترك معضلة العودة للإسكندرية جانبًا وعاد للتفكير في كيفية الوصول لدار النشر المرغوبة، بأي حال من الأحوال لن تكفي ثلاثون جنيهًا لاستقلال تاكسي يوصله لوجهته، كان يجب أن يحضر معه مزيدا من النقود، ولكن كيف كان له أن يعلم أنه بحاجة للمزيد؟ من كان ليظن أن الأمور ستصير إلى ما صارت إليه؟

أي حمار كان ليخمن أن هذا ما سيحدث، ولكنك أغبى من الحمار يا حمدي.

عليه أن يتنقل في القاهرة كما يفعل الملايين بوسائل المواصلات العامة. سيسأل إذًا، سيسأل المارة على وسيلة المواصلات المناسبة. أدار رأسه مستطلعًا الطريق وعابري السبيل باحثًا عن من يمكن سؤاله.

المئات وربما الآلاف من الناس يمضون بجواري في شارع لا أعرف حتى اسمه، ليس عليّ إلا سؤال أحدهم، أي شخص، هذا أمر بسيط، أفعله إذًا؟ لماذا الارتباك؟ إنه مجرد سؤال، سأريه العنوان على شاشة الهاتف وأسأله كيف أذهب إليه، أترى كم هو أمر بسيط؟ أفعله إذًا. ما لك واقفًا هكذا؟ جرب هذا الرجل هناك مثلًا، هذا الذي يربط حذاءه. هيا.. تحرك.

بخطوات مترددة مشي حمدي تجاه الرجل المنحني على حذائه، وصل إليه بعد أن انتصب هذا الأخير واستعد للمشي.

"..لو سمحت، ممكن بس تقولي أروح العنوان ده إزاي؟"

وفي ارتباك قدم يدا مهزوزة تحمل الهاتف ليريه للرجل، كان هذا الأخير متعجلًا فألقى نظرة سريعة ثم أشار بيده في اتجاه لم يلحظه حمدي وقال: "اركب المترو". أي مترو؟ أراد حمدي أن يسأله أين هذا المترو وكيف يركبه وأي محطة عليه النزول فيها، لكن الرجل المتعجل كان قد مضى في طريقه.

يا لقلة الذوق والعجرفة! كيف يسمح الرجل لنفسه بمعاملة باقي الناس بهذه الطريقة المهينة؟ من يظن نفسه؟ ناس وسخة. حسنًا، تناسى ابن الكلب هذا وركز في مسعاك، عليك أن تركب المترو كخطوة مبدئية، لا بأس، توجه إلى محطة المترو وستجد هناك من يرشدك بالتأكيد، لا أظن هذا المترو يختلف كثيرًا عن الترام سوى أنه تحت الأرض، سيكون أسهل بالطبع بالنسبة لي من الأوتوبيسات والميكروباصات. علي أن أعرف إذًا أين محطة المترو. أسأل.. أسأل هذه الفتاة مثلًا.

"لو سمحتي يا آنسة"

جفلت الفتاة الشابة الماشية في هدوء ما إن سمعت نداءه، نظرت إليه في فزع وأسرعت في خطاها مبتعدة وكأنها تهرب من الشيطان ذاته، حسبته متحرشًا من نوع ما. زاده رد فعلها ارتباكا على ارتباك، سأل غيرها ثانيًا وثالثًا ورابعًا، من رد منهم عليه كان يشير إلى اتجاه ما يختلف تمامًا عن اتجاه غيره مؤكدًا أن هناك مدخل محطة المترو، لم يفهم حمدي أن هناك عدة مداخل لمحطة المترو مختلفة ولم يخطر ببال أحدهم أن يوضح له هذه المعلومة، ظل تائهًا بين اتجاه وآخر حتى وجد أخيرًا لافتة تحمل حرف الـM اللاتيني المميز بجوار لافتة أخرى توضح أن هنا مدخل محطة المترو. نزل سلالم طويلة داخلًا لنفق ظنه في البداية لن يختلف عن أنفاق مرور المشاة على طريق البحر في الإسكندرية، ليكتشف أنه دخل كهف قديم من كهوف (سيد الخواتم)، لا بد أنه سيجد تنينًا في مكان ما يغفو وسط أطنان الذهب إن بحث جيدًا.

أين المترو إذًا؟ لا أرى سوى عشرات السلالم الصاعدة والنازلة وملايين البشر يجرون بينهم في سرعة وكأن آخر من يصل سوف يُذبح ويقدم قربانًا للتنين. ما هذه المتاهة المرعبة؟ كيف يعرف كل هؤلاء طريقهم ويهرعون فيه بهذه الثقة؟

" بص، شوف الصورة، ده وش يتحط على الغلاف الخلفي للكتاب؟ مين حيشتري كتاب على ضهره الوش ده؟ مين حيقدمك في ندوات وحفلات توقيع؟ حنقدم للجمهور الموهبة الصاعدة اللي عمره 48 سنة واسمه حمدي وشغال كمساري؟"

في ماذا تُفكر يا أحمق؟ ركز، ركز. يجب أن تسأل الآن أي شخص عن كيفية الوصل بالمترو إلى العنوان، ولا تنس أن تسأل أين المترو نفسه في هذه المتاهات. إنها رحلة البطل وعليه أن يمر بها وحيدًا، سواء كانت في أحراش الأمازون أو في كهوف مترو القاهرة. اسأل هذا الشاب.

"كابتن، كابتن، ثانية بس.. أروح العنوان ده إزاي؟"

قرب الشاب عيونه من يد حمدي الممسكة بالهاتف.

"مش شايف، قرب إيدك شوية"

رفع حمدي يده ليقربها أكثر من وجه الشاب الذي مد يده ليمسك يد حمدي ويقربها أكثر، وقبل أن يفهم هذا الأخير شيئًا كان الشاب قد اختطف الهاتف من بين يديه وانطلق هاربًا كرصاصة.

"حرامي.. حرامي.. ابن الوسخة سرق التليفون.. حراااااامي"

ظل حمدي يصرخ بهياج بين المارة، والناس تبحث بأعينها عن الحرامي المذكور ولا تجد له أثرًا بعد أن اختفى في الزحام، ضرب بعضهم يدا بيد بشفقة، وضحك آخرون، تطوع رجل وسأله عن مواصفات السارق فلم يجد ما يرد به عليه، لم ينظر إليه مباشرة أبدًا ولا يذكر سوى الصورة العامة له.

"لابس تيشيرت وجينز.. !"

انبهر الرجل بهذا الوصف الدقيق، فلم يملك إلا أن يربت على كتف الرجل الأسمر النحيل الذي يقف ذاهلًا في منتصف

محطة المترو يحدق في منتصف اللامكان بينما تتشبث ذراعه بملف بلاستيكي يحوي كومة من الأوراق البالية.

"معلش يا أستاذ، معلش.. عوضك على الله. أنت رايح فين؟"

نظر حمدي إلى الرجل في حيرة، فكر لثوانٍ طويلة قبل أن يرد على سؤال الرجل.

"أنا مروح إسكندرية، أروح إزاي؟"

* * * *

قبل أن ينام، يقرر أن أول ما سيفعله غدًا عند الاستيقاظ سيكون إرسال نسخة الرواية الإلكترونية إلى عناوين البريد الإلكتروني لدور النشر المختلفة، سيكون غدًا أكثر شجاعة وذكاءً وتوفيقًا وسيُكلل مسعاه بالنجاح أخيرًا. تأتي هذه الفكرة بمثابة ماء بارد يُصب على نار قلبه المستعرة فتهدأ قليلًا وتسمح له ببضع ساعات من النوم.

ولكنه لم يفعل أبدًا.

سأرسلها بعد تناول الإفطار.

سأرسلها بعد شرب الشاي.

سأعدل بضعة فقرات قبل الإرسال، أين الأوراق؟ آه إنها هناك في الملف، سأخرج الأوراق إذًا وأبحث عن الفقرات التي أبغى تعديلها، ثم سأعيد كتابتها وأمسح الرواية ضوئيًا ثانيًا ثم

سأرسلها. يا إلهي، يبدو هذا مجهودًا عظيمًا، لكني سأفعله، سأفعله بالتأكيد، فقط سأنهي السيجارة هذه وسأبدأ فورًا.

"إنما إنت يا أبو حودة كبير على لعب العيال ده، والله حتى لو كتبت الإلياذة من أول وجديد محدش حياخد باله منك، عشان محدش يعرفك"

يحاول طرد كلمات خليل موسى التي تقطع سبيل أفكاره دومًا بلا فائدة، يظهر بصوته العميق وشاربه الرفيع وخدوده المتوردة، يلقي كلماته الحكيمة كراهب بوذي وصل لخلاصة الحكمة ويقدمها للعامة بلا مقابل، ثم ينفخ أنفاس الشيشة -علكة بطيخ- العطرة لتغمر كل ثنايا عقله وتخنق باقي الأفكار والنوايا وتثبط من همة القرارات المصيرية العظمى التي اتخذها بالأمس.

"وأنت يا أبو محمود عندك موهبة زي الفل، بس معندكش ذرة من الغريزة، أنت بس حظك كان حلو شويتين تلاتة باللي انت وصلتله لغاية دلوقتي، ولولا الجحش اللي قاعد جمبك ده بيداري ضحكته من الصبح مكنتش وصلت للي أنت فيه ده أبدًا"

زيارته الأولى لزينب كانت بعد انقطاع ثلاثة أيام، حسبته قضاها في تحضير روايته للنشر، وعندما عاد أمطرته بأسئلتها عن مصير الرواية وعن ما حدث في تلك الأيام الثلاثة، لم يجب على أي من أسئلتها وظل صامتًا تمامًا كمن فقد لسانه أو نسي كيف يستخدمه، وتوقفت هي عن السؤال وعادت مجالسهما لصمتها القديم لا يقطعها سوى رشفات الشاي وخبطات أحجار

الدومينو الضعيفة على المائدة البلاستيكية في أدوار تفتقر للحماسة ويغلفها الملل، ولكنها العادة الأليفة الوحيدة في حياة كليهما التي تتضمن تواصلا آدميا مع آخرين ولا يرغب أيهما في قطعها أبدًا حتى وإن صار الملل هو شعارها.

لم يقرأ حرفًا. لا في ساعات النهار التي يقضيها حبيسًا بإرادته في غرفته المغلقة بإحكام بلا ونيس إلا شياطين عقله وشبح خليل موسى، ولا في ليالي الترام التي لم ينقطع فيها أبدًا عن القراءة منذ أن خطى بقدمه فيه كمُحصل تذاكر لأول مرة. كلما حاول العودة إلى القراءة سواء مع كتاب جديد مغرٍ أو كتاب قديم يحبه ولا يمل من إعادة قراءته، ينظر إلى الصفحات في رغبة جافة متشققة، وكأن المعاني قد رُفعت من الكلمات ولم تعد إلا رموزا غريبة جامدة فاقدة للروح ومعدومة المعنى. عافت نفسه الكتب والحكايات للمرة الأولى في حياة كانت الحكايات فيها مصدر الطاقة الوحيد الذي يستمد منه القلب القدرة على النبض.

مر على يوم القاهرة -اليوم الذي نال في مخيلته جائزة اليوم الأسوأ على الإطلاق في حياته، قرر أنه أسوأ حتى من يوم وفاة أبيه ويوم لم تجد أمه في البيت ما تطعمه له ولأخواته، أسوأ من يوم زواجه بنعمة ذاته- أحد عشر يومًا، مروا عليه كأحد عشر شهرًا، قضاها ضائعًا بين نفس الأفكار الحائرة المنكسرة والقرارات الصارمة الحازمة التي لا تصل أبدًا إلى مرحلة التنفيذ العملي. فتح ذات صباح درج مكتبه الذي يحتفظ فيه بالنقود ليجد ورقة حيدة باقية من فئة المئتين. لم يهتم من قبل بالنقود

ولم تكن أبدًا شغله الشاغل، بيد أنه تعود -بلا وعي- في الأعوام القليلة السابقة مع نجاح لعبة (خدمات الأستاذ الصحفية) على عادات إنفاق شخصية أكثر تبذيرًا وبذخًا، بدءًا من أنواع السجائر التي تعود على تدخينها وحتى حاسبه المحمول الجديد وهاتفه ذو الطراز الأحدث الذي سُرق في القاهرة ولم يشتر له بعد بديلًا، ناهيك عن المصروف الكبير الذي تعود على إعطاءه لزوجته كل شهر، وإن لم يفكر في هذه النقطة الأخيرة كثيرًا.

أخذ العملة الورقية الأخيرة من الدرج ووضعها في جيبه، قرر أن يعود لممارسة لعبة خدمات الأستاذ الصحفية كحل يائس أخير، فقط لاحتياجه للمقابل المادي. أراد أن يتصل بهشام ليخبره بقراره، تذكر أن هاتفه مسروق وعليه الذهاب بنفسه إلى السايبر لإبلاغه بالقرار، لكنه شعر بالنفور من فكرة الذهاب إلى السايبر ومقابلة هشام وجهًا لوجه للمرة الأولى بعد رحلة القاهرة، فخرج من غرفته وأخذ من زوجته -التي تفاجأت كالعادة بظهوره المباغت غير المعتاد- هاتفها وعاد به إلى محبسه الاختياري، بحث في الأدراج حتى وجد الكارت القديم المدون عليه البريد الإلكتروني ورقم الهاتف، كتب الرقم على عجالة وضغط زر الاتصال.

"ألو"، "أيوة يا هشام، أنا حمدي"، "أهلًا يا حمدي، عامل إيه؟"

ردود سريعة من الطرفين بلهجة جافة محايدة ميتة، وكأنهما جهازان آليان يخاطبان بعضهما.

"الحمد لله تمام، في شغل؟"، "شغل إيه؟ كتابة يعني؟"، "أه"، "الأوردرات واقفة بقالها زمان، بس لو إنت عندك استعداد تشتغل ممكن أتصرف"، "أه ياريت اتصرف"، "طيب، حشوف أنا حعمل إيه"، "تمام، سلام"، "سلام".

* * * *

بدأ هشام بإرسال رسالة مجمعة لكل العملاء السابقين.

"بسم الله الرحمن الرحيم

تعتذر إدارة خدمات الأستاذ الصحفية عن الانقطاع المباغت للخدمة دون سابق إنذار، وذلك لتعرض الأستاذ لظروف صحية خارجة عن إرادتنا أرقدته في سرير المرض لشهور. ولكن بحمد الله استعاد الأستاذ صحته وعافيته وقدرته على الكتابة بأفضل ما كان من قبل.

وبهذه المناسبة تعلن إدارة خدمات الأستاذ الصحفية عن عودتها للعمل بكامل طاقتها بجودة أعلى وأسعار أقل مما كانت عليه من قبل، وتعلن عن عروض خاصة جدًا ومحدودة، فقط لأول عشر عملاء يتقدمون للخدمة بعد عودتها. سارع في إرسال طلبك، فقد تكون منهم".

واتبع الرسالة المجمعة برسائل فردية لأهم العملاء القدامى تخاطب كل منهم بشخصه مقدمة الاعتذارات والعروض المغرية بتخفيضات الأسعار وسرعة تنفيذ الطلبات، أجرى عشرات المكالمات يقدم فيها نفس التبريرات التي قدمها في

رسائل البريد، حتى جاء أخيرًا لصندوق الوارد بعض من الطلبات البسيطة التي لا هدف لها سوى اختبار الخدمة العائدة للعمل.

عاد حمدي للعمل القديم، عاد بنشاط وحيوية ولكن بلا رغبة ولا حماس، كان نشاطه العائد للعمل كالنشاط الذي يشعر به عامل يدوي لأداء عمله، نشاط يصلح للأعمال الجسدية أو المكتبية النمطية، لكن لا يحمل ولو اليسير من الرغبة أو الحماس اللذين يشكلان الوقود الأساسي لأي عملية إبداعية خلاقة. فخرجت الطلبات الجديدة من تحت يد حمدي بصنعة ممتازة لا تحتوي على أي أخطاء من أي نوع، لكن فاقدة تمامًا للسحر القديم الذي تميزت به كتاباته من تقمص الأساليب لمختلف الكتاب واختيار التعبيرات والمجازات العبقرية الموفقة التي كانت تجعل القارئ يصفق جزلًا.

بمرور الوقت زادت الطلبات إلى حد يكفيه لقضاء نهاره مشغولًا فيها، ولكن لم تبلغ أبدًا حتى نصف الكم اليومي الذي كان ينهال عليه سابقًا، انخفضت قيمتها وقل مستوى عملائه من كبار الصحفيين والكتاب ورؤساء التحرير إلى صغارهم في المستوى وفي السن وفي السعر الذي يُدفع، محتوى الطلبات أصبح بسيطا وهادئا وغير معقد من المقالات الصغيرة متوسطة الأهمية التي لا تحتاج إلا لمجهود آلي يتمثل في إعادة رص المحتوى بلا أخطاء وبشكل يجعل قراءته أمرًا مقبولًا. أغرق نفسه عامدًا في الطلبات وبذل فيها أكثر ما تستحق من الوقت والمجهود لينسى -أو يتناسى متعمدًا- كومة الأوراق في الملف

البلاستيكي الموضوع على أعلى وأبعد رف في المكتبة وقد غطاه التراب تمامًا.

ليالي الترام هي الأسوأ، لم يعد يقدر على قراءة تخرجه من واقعه وتوفر له ساعات من نشوة المخدرات التي لا توفرها أي مخدرات كيمائية عرفها الإنسان. حتى الشجار لم يعد يفتعله مع الآخرين رغم تعدد الفرص، لم يعد يشعر بأي رغبة ولا قدرة على رفع صوته، تعجب كثير من الركاب المعتادين مجلس الكُمساري الغريب الصامت الهادئ محدقًا دومًا في الفراغ. بعض الركاب الذين نالوا من غضبه قديمًا ما نالوا من إهانات وصرخات شعروا بنوع من النصر عند رؤيته منكسرًا، ذلك الشعور الشرير الذي لا يتمالك إنسان منا نفسه من أن يحسه عند رؤية من حمل تجاهه يومًا قليلا من الشحناء والبغضاء لأسباب بسيطة، وقد حدث له ما يكدره ويكسر كبرياؤه، وكأن الله قد أصاب هذا الشخص بالعقاب فقط لأنه ضايقه يومًا لسبب أو لآخر. منهم من شعر بتأنيب الضمير عند مرور هذه الفكرة الأنانية في خياله، وآخرون أحبوها وفرحوا بالانتقام الإلهي الذي كسر الكُمساري المتعجرف انتقامًا لهم، وحاول بعضهم أن يستغل حالة الوهن الجديدة في افتعال المشاجرات معه ورد إهاناته القديمة، لكن صرخاتهم وسبابهم لم تنجح أبدًا في تغيير حتى نظرة المحصل الخاوية الباهتة في عينين زجاجيتين تراجعتا في محجريهما وكأنهما على وشك العودة لداخل الجمجمة وإغلاق محلهما إلى الأبد. كان حمدي يستقبل محاولات الاستفزاز والعراك بهدوء شديد، كانت تبرز في رأسه على الفور الردود المناسبة على الاستفزازات ولكنه لم يشعر أبدًا برغبة

كافية في رفع صوته أو قولها حتى بهدوء، ويشعر بضربات قلبه متباطئة إلى حد أنه كان يظن لطول الفترة بين النبضة والأخرى أن قلبه سيتوقف أخيرًا عن العمل، ويعطيه هذا إحساس لحظي بالفرحة ينتهي بقدوم النبضة التالية ليعلم أن هذا القلب القديم لم يمت بعد للأسف. كان ينظر لمحدثه الذي يتعمد استفزازه بشتى الطرق دون أن يبدو عليه أي تأثر بما يُقال أو يحدث، ولا يغر فاهًا ولا يحرك إصبعًا، حتى تنتهي المشاجرة قبل أن تبدأ بيأس الراكب الذي يحاول إقناع نفسه بانتصار زائف في معركة وهمية ويمضي ليجلس بعيدًا عن المحصل ذي العيون الزجاجية أو يترجل من الترام مؤثرًا انتظارا آخر.

مرت الأيام في بطء، والشهور في سرعة. خدمات الأستاذ الصحفية صارت أسطورة قديمة لم يبق منها إلا الفتات، وتعود على هذا الفتات واستطاع أن يتجاوز عاداته الجديدة في الإنفاق والبذخ والعودة إلى اعتياده القديم على الموارد القليلة، نعمة القانعة دومًا لم تعترض كالعادة على الانخفاض الحاد المباغت في المصروف بعد أعوام من الغنى غير معلوم المصدر، واحتوت غضب ابنها واعتراضه وأبقته بعيدًا عن علم زوجها حتى لا يكن بينهما ما لا يحمد عقباه.

وفي يوم مر حمدي على هشام ليسلم الطلبات الأخيرة ويقبض ما تيسر من حصيلة طلبات الأسبوع السابق، قال له هشام بينما يسلمه المبلغ الهزيل ومعه شريحة اتصال هاتفية:

"الشغلانة معادتش جايبة همها وأنا مش حقدر بعد كده أكمل معاك، أنا كلمت الطاهر ورجعت أشتغل معاه، دي شريحة

الخط بتاع خدمات الأستاذ، اتعامل أنت مع حالك، ممكن لو عايز أتصرفلك في رصيد التليفون اللي حيجيلك وأجيبلك مكانه فلوس، جدعنة مني بس عشان العشرة، عشان عارف إنك حتحتاس بيه لوحدك، بس غير كده بقى مع حالك مليش علاقة بالليلة دي"

تقبل تصريح هشام دون أن يبدو عليه أي تأثير أو اهتمام بما سمع، أخذ منه المبلغ وشريحة الهاتف ودس كلاهما في جيبه بإهمال، هز رأسه بهدوء في رد صامت على قوله وهم بالخروج، استوقفه هشام قبل أن يفعل:

"إيه أخبار الرواية؟"

قال حمدي ببساطة شديدة دون أن يستدير تجاه محدثه أو يتوقف عن المشي المتهمل تجاه المخرج: "حرقتها"

ذُهل هشام من الرد والطريقة التي قيل بها، تأكدت شكوكه أن صاحبه قد جُن.

"حرقتها يا مجنون؟ ليه كده؟ طب كنت تقولي نبيعها!"

هز حمدي كتفيه وهو يخطو بقدمه خارج السايبر دون أن يتوقف، قام هشام من مجلسة وجرى في الممر الضيق الذي لا يكاد يساع جسمه الممتلئ حتى لحق بحمدي في الطريق، أمسك بذراعه مستوقفًا.

"إستنى بس، لسة معايا النسخة الPDF اللي بعتناها لخليل موسى في الأول، إيه الكلام بقى؟"

"كلام في إيه؟"

"أكلمه عليها؟ لقمة عيش أخيرة حلوة؟"

ساد الصمت لفترة طويلة، ظن هشام فيها أن حمدي يفكر بجدية في عرضه، ترك يده التي كان ممسكًا بها حتى لا يظن حمدي أنه يضغط عليه أو يهدده بأي شكل. بيد أن حمدي لم يكن يفكر في العرض، لم يكن يفكر في أي شيء على الإطلاق، صمته كان من الخواء الذي يملأ عقله وجعل حتى من عملية العثور على الكلمات المناسبة للرد عملية صعبة ومعقدة، هز رأسه هزة بسيطة موافقة وأشار بيده إشارة لا مبالية، وأكمل طريقه. عرف هشام أنه لن ينال من حمدي رد أكثر وضوحًا، وإن كان ما ناله حتى الآن كافيًا جدًا.

* * * *

جاء صوت خليل موسى المتسائل صارمًا عبر الهاتف:

"متأكد إنه حرقها؟"

"مش عارف يا أستاذ، هو قالي كده، وبعدين هو مش بتاع كذب، عمره ما كذب"

صمت خليل لفترة، كان يفكر في كل الاحتمالات الممكنة ويحسب توابع القرارات المختلفة، وبعد أن أخذ قراره تكلم في لهجة حاسمة:

"ماشي، حتى لو محرقهاش مش حتفرق، ورقه المعفن ده مش حيفرق مع حد في حاجة، أنا بس خايف من جنونه لا يعمل زيطة وشوشرة ملهاش لازمة"

"متقلقش ياباشا، عيب عليك زيطة إيه، إحنا عمرنا حد حس بينا ولا بشغلنا؟ اتطمن خالص"

"أنا متطمن من غير حاجة، لا أنت ولا صاحبك ولا ألف زيكم وأجدع منكم يقدروا يعملوا معايا حاجة يا هشام، وإنت عارف كده، حبعتلك الفلوس الأسبوع الجاي، ولو احتجتك في حاجة حبقى أكلمك"

"عينيا ليك يا سيدنا، تؤمرني بحـ.. "

قبل أن يكمل جملته المتملقة كان خليل موسى قد أنهى المكالمة، لا مزاج له في سماع مزيد من الهراء اليوم، لقد حصل على الرواية وانتهت اللعبة السخيفة إلى الأبد، أو على الأقل هذا ما يأمله. يتمنى فقط ألا يخرج هذا الكُمساري المجنون بفعل أحمق يضايقه، يضطر إلى خوض مزيد من المعارك والألعاب المملة، يكفيه ما يلعبه منها يوميًا.

بحث في هاتفه عن اسم منار، الابنة المدللة الوحيدة لصديقه القديم الذي يعمل في موقع مهم وذو سلطة في الحكومة، لطالما أنقذه الرجل من مَآزِق معقدة وساعده على دخول كثير من المعارك والخروج منها دون أي إصابة. لا يستطيع رفض أي طلب للرجل وبالتالي لابنته المدللة، فرضا أباها من رضاها. أخطأ من البداية عندما أرسل لها نسخة من الرواية بعد قراءتها

أول مرة ووعدها بها، كان عليه التريث قليلًا قبل أن يفعل فتُجن الفتاة وتتشبث بها كطفلة تبكي للحصول على دمية في متجر الألعاب.

"ألو.. منووور حبيبة قلبي، عاملة إيه يا جميل؟ أخبارك إيه؟ وأخبار بابا؟ وأخبار محمد جوزك؟ والبيبي الجديد؟ الحمد لله الحمد لله، يارب دايمًا.. أنا بخير والله يا حبيبتي.. وطنط ومروة كمان بخير وبيسلموا عليكي.. عندي ليكي مفاجأة.. صح، الرواية، مبروك عليكم الرواية.. ههههههههههههههههههه.. العفو يا حبيبتي، العفو.. على إيه بس، إنتي غلاوتك من غلاوة مروة بنتي.. ماشي يا جميل، ماشي، سلمي على محمد وقوليله عمو خليل تعب جدًا عقبال ما عرف يجيبلك الرواية، بس عشان غلاوتك وغلاوة باباكي أصريت أني لازم أجيبها.. قوليله يكلم الناشر بتاعه ويلحق ينزل بالدعاية قبل معرض الكتاب.. وبقولك إيه يا منور، متزعليش مني، خلي جوزك بعد الرواية دي يركز في شغله وفي الهندسة بتاعته ويسيب لعبة الروايات دي، كفاية كده.. يووووه يا منور مش قصدي أزعلك.. لا يا حبيبتي لألألألأ خلاص معلش أنا مكنش قصدي حاجة.. خلاص بقى، متزعليش، خلي بالك من نفسك بقى ومن البيبي، وسلميلي على بابا وعلى محمد، يلا سلام يا حبيبتي.. سلام.. سلاااا.. سلاااا"

وبعد أن تأكد من أنها انهت المكالمة ألقى الهاتف من يده في تقزز.

"بنت مدلعة غبية قليلة الأدب، والله لولا أبوها ما كنت عبرتها"

* * * *

شب على أطراف أصابع قدميه كلاعب الباليه بينما يقف على الكرسي الخشبي، محاولًا الوصل لرف المكتبة العالي بيده دون جدوى، توقف عن المحاولة وشبك يديه وهو ينظر إلى الملف المغطى بالتراب في الأعلى ويفكر في كيفية الوصول إليه، في النهاية نزل من على الكرسي وخرج من الغرفة، ليعود بعد ثوان حاملًا مقشة ذات عصا خشبية طويلة، وقف فوق الكرسي مرة أخرى وباستخدام عصا المكنسة أخذ يحاول تقريب الملف من يده الحرة الممدودة تجاهه، في النهاية نجح في تحريك الملف لكن في اتجاه عكسي، وطار الملف من فوق المكتبة الخشبية وانفتح زره البلاستيكي الضعيف لتخرج منه مئات الأوراق القديمة وتطير في أنحاء الغرفة، وصارت أرض الغرفة مغطاء بالأوراق المتسخة الممتلئة بالكتابة اليدوية سيئة الخط والتنسيق.

تأمل المشهد في تعبير محايد من موقفه العالي على الكرسي، هبط منه بتريث وشرع في لم الأوراق المتناثرة دون تعجل. لا يعرف لماذا أخبر هشام أنه حرقها، خرجت الكلمة منه دون تفكير، لم يقصد الكذب ولم يرغبه، ربما عني بكلمته أنه فعل مجازي وليس بالفعل الحقيقي، لكنه لم يرغب في تصحيح المعلومة لهشام بعد قولها. لم يهمه الأمر في شيء وقتها ولم يعد للتفكير فيه إلا الليلة بعدما حدث.

اتصل به هشام في الحادية عشر مساءً، طلب منه أن يمر عليه بعد انتهاء ورديته لاستلام نقوده. كاد أن ينسى لكنه تذكر عندما

وقعت عيناه بالصدفة على المحل الوحيد المفتوح بعد منتصف الليل في طريق عودته، سايبر هشام ذو اللافتة المهشمة. ناوله هشام ظرفًا أبيض منتفخًا مغلقًا بعناية، مطبوع عليه بحروف منمقة (يسلم إلى الأستاذ حمدي محمود) تلقاه منه دون أن يتبادلا حرفًا، فكر كيف أن المظروف مغلق بعناية؟ كيف لم يفتحه هشام ليقبض حصته؟ التفسير الوحيد أن هشام كان له ظرف مخصص عليه اسمه هو الآخر. ابتسم ربع ابتسامة وهم بالمغادرة.

"الرواية حتنزل كمان أسبوعين، مع بداية السنة الجديدة. اسم المؤلف (محمد جمال)"

محمد جمال؟ لا يبدو الاسم غريبًا، بحث في أرشيف ذاكرته ليتذكر أنه مؤلف شاب لا بأس به، كتب رواية وحيدة منذ عامين أو يزيد، كانت رواية جيدة ولكنها عادية تمامًا، من الروايات التي لا تشعر بالرغبة في إلقائها جانبًا دون أن تكملها إلى النهاية، ولكن ما إن تنهيها حتى تنساها إلى الأبد ولا تذكر حتى عن ماذا كانت. هز رأسه موافقًا ولم يعلق.

"مش عايز نسخة؟"

هز إصبعه في إشارة رافضة ومضى دون كلمة أخرى.

والآن هو في غرفته يلملم أوراق روايته من على الأرض ويفكر فيما كان، لقد قبض ثمنها وانتهى الأمر. ماذا يفعل بهذه الأوراق إذًا؟ هم يعرفون أنه حرقها. هو يكره أن يكون كاذبًا.

جمع الأوراق في كومة كبيرة حشرها في الملف وحمله تحت إبطه، قبل أن يخرج تذكر المظروف الأبيض الممتلئ بالنقود فأخذه في يده وخرج من الغرفة. اقتحم غرفة المعيشة على زوجته وابنها الجالسين كالعادة أمام التلفاز، لم يقض وقتًا في النظر إليهما ولا في تلفازهما، فقط ألقى في حجرها مظروف النقود الأبيض وخرج تتبعه نظراتهما المذهولة. اتجه إلى المطبخ تتبعه نعمة بخطوات خافتة خوفًا من أن يسمعها، فتح أبواب كل الدواليب حتى وجد حلة طبخ عملاقة أخذها وألقى غطاءها بعيدًا، وضعها على الأرض جانبًا ووضع فيها ملف الأوراق واستمر في البحث فاتحًا أبواب الدواليب في عنف حطم مفصلات أحدها، بينما نعمة تراقبه من بعيد خائفة لا تجسر على الاقتراب، استجمعت شجاعتها بعد حين ونطقت:

"خير ياخويا؟ بتدور على إيه؟ قولي وأنا أجيبهولك من غير ما تتعب نفسك"

رد بهدوء شديد لا يلائم أبدًا العنف الذي اتسمت به حركاته:

"فين السبرتو؟"

"حيولع في نفسه.. حيولع في نفسه.. أه يا حوستي السودة، يا خيبتك التقيلة يا نعمة"

هلعت من الفكرة التي سيطرت على عقلها وإن لم تنطقها، حاولت أن تفهم منه علها تثنيه عن القرار الذي ظنته أخذه.

"ليه ياخويا كفى الله الشر؟"

ظلت لهجته هادئة وإن بدا نفاد الصبر جليًا فيها:

"عندك سبرتو ولا أنزل أشتري يا نعمة؟"

"عندي ياخويا عندي، حجيبهولك بس والنبي ما تعمل في نفسك حاجة، والنبي عشان خاطر ابنك"

وهرعت لتحضر زجاجة السبرتو من تحت الحوض بينما حدق هو فيها هو مبتسمًا في اندهاش، فكر في كلماتها وأدرك مقصدها وأعجبته الفكرة، ضحك بصوت مسموع متخيلًا ما قد يحدث ثم نفض الفكرة من مخيلته، لا.. ليس الآن.

التقط منها الزجاجة ووضعها في إهمال مع ملف الأوراق، وأمسك الحلة بكلتا يديه ومضى، تتبعته وهي تلملم أطراف جلابيتها وتبتهل لربها أن يسترها معاها لأنها غلبانة وزوجها وابنها كذلك. بينما كان ابنها يناديها لتعود للغرفة وترى محتويات المظروف الذي ألقاه أباه، تعالي يا أمي وأنظري إلى ما هو أهم من أفعال هذا المجنون.

دخل حمدي غرفته يحمل الحلة بكلتا يديه، لم يضئ الغرفة ولم يغلق خلفه الباب، فتبعته نعمة، اتجه إلى الشرفة وحاول فتحها بأطراف أصابعه فلم يعرف، أشار لنعمة برأسه أن تفتحها فتحركت بخفة وفعلت، وقد تشجعت من عدم نهره لها حتى الآن وقالت:

"حاضر ياخويا حفتحهالك، بس والنبي ما تعمل في نفسك حاجة"

وراحت تخبط براحتها المفرودة على جيدها المكشوف خبطات سريعة متتالية في إشارة متوسلة. دخل إلى الشرفة وكادت تفعل خلفه، بيد أنها تراجعت في آخر لحظة وجرت عائدة لغرفة الجلوس والتقطت طرحة منزلية باهتة اللون لفتها على رأسها لتداري شعرها ورقبتها المكشوفين وعادت إلى الشرفة في اللحظة التي كان قد أفرغ فيها محتويات الملف من الأوراق في الحلة المرتكزة على الجدار ثم ألقاه في الشارع، وأمسك زجاجة الكحول وفتحها بيده، انقبض قلبها مع الحركة وكادت أن تصرخ وتلطم الخدود في انتظار ما سيفعل بها، لكن قلبها هدأ عندما بدأ في إفراغ الزجاجة في الحلة على الأوراق، واطمأنت مع نزول آخر نقطة من الزجاجة في الحلة. تأملت الأوراق الغارقة في بحيرة من الكحول، شعرت بفضول حارق يغمرها لمعرفة كنه المكتوب فيها، ولكن حتى إن لم تفعل فلا يهم، المهم ألا يصيب نفسه بمكروه.

أخرج من جيبه القداحة، قداحة بلاستيكية صغيرة، أشعلها بيد مرتعشة ليخرج خيط ضعيف جدًا من اللهب، تأمله لثوان ثم ألقاها في الحلة. تذكر بعد أن فعل أن القداحة ليست من النوع الذي يظل مشتعلًا بعد تركه مثلما هو الحال في الأفلام، عندما يلقي الممثل القداحة لتطير مشتعلة عشرة أمتار قبل أن تقع على هدفها ناشرة اللهب في كل مكان. ضحك على نفسه بصوت غريب، مد يده في الحلة والتقط القداحة التي لم تقع لحسن الحظ إلا على قمة الأوراق فلم يضطر لغمر يده في السائل باحثًا عنها، التقطها بأطراف أصابعه محاذرًا أن تبتل بالكحول، أشعلها مرة أخرى ومد يده بحذر وهو ما زال ضاغطًا عليها وخيط

اللهب الضعيف خارج منها، ما إن لمس خيط اللهب طرف الأوراق حتى اشتعلت النار بسرعة ليرتفع اللهب عاليًا خارجًا من الحلة، وانتفض هو في رعب تاركًا القداحة تقع وسط النيران بعد أن نال من طرف إصبعه لسان ناري مباغت. تراجع للخلف وهو يسب ويلعن ووضع طرف إصبعه المصاب في فمه وكأنه يمتص الألم منه. مرت لحظة حتى نسي الألم ولم يعد يشعر به أو يذكره، لهيب النيران المتأججة انعكس على وجهه، تراقص ضوء النيران مع الظل الناتج منها مع عيونه المشاركة في الرقصة بالتقافز في محجريها. تأمل المشهد في صمت، ظهر على وجهه ما يشبه ابتسامة.

أهي ابتسامة أم هو عبوس؟ لا تستطيع نعمة تحديد ما يجري على وجه زوجها مع رقصة الظل والنيران على وجهه، لا تستطيع تحديد الصوت الخارج منه إذا كان بداية ضحك أو شروع في بكاء.

"وستمضي حياتك مثل كل محدودي الموهبة ومعدوميها، في المحاولات الفاشلة أو محدودة النجاح، ذلك النجاح البائس الضيق الذي لا يقارب كل أحلامك الباهرة التي ملأت مناماتك وخيالات يقظتك، نجاح بائس حزين بطعم خيبة الأمل على لسان روحك النهمة المجنونة المتعطشة للمزيد"

تقدم ببطء من الحلة المشتعلة وانحنى مقربًا عينه لأقرب مسافة آمنة منها، راقبته نعمة وهي مرتعبة، راقبته عيون قليلة لجيران تجمعوا في شرفاتهم، جذبهم التماع اللهيب المتراقص في ساعات الصباح الأول وسط ظلمة شارع نام أغلب سكانه.

تحولت ابتسامته إلى ضحكة تعالت بالتدريج، تعالت قهقهته واهتز معها جسمه بالكامل، ملئت دموع الضحك عينيه وسالت. لثوان حار المتابعون للمشهد بفضول من بيوتهم مثلما حارت نعمة إذا كانت هذه قهقهات ضحكة أو بكاء، ولكن حمدي حسم الحيرة في النهاية بتحول ضحكاته إلى نحيب واضح وعويل، دموعه السائلةلم تدع لنعمة مجالًا للشك فجرت دموعها أيضًا واندفعت نحو زوجها الباكي أمام النيران، احتضنته بكلتا يديها، رغم أنها أقصر منه طولًا وأقل حجمًا إلا أنها بشكل ما احتوته بالكامل، دفنت رأسه في صدرها يذرف فيه ما شاء من الدموع بينما تربت على ظهره وتمر بيدها الحانية عليه صعودًا وهبوطًا، لا تفهم شيئًا ولا تعلم ما يجب أن تقول لتهدئته فخرجت الكلمات من فمها متكسرة فاقدة للمعنى ككلمات مجردة، غير أن عاطفتها بدت جلية عبرها ولم تحتج لتوضيح.

غبية هي النيران، عديمة الذوق ولا تميز بين الغث والسمين، تلتهم كل شيء بلا تفرقة، لو ألقى فيها قصاصة صحيفة (المحامي) لأكلتها بنفس الشراهة التي تأكل بها كتاب خيبة الأمل. أو ربما لا؟ ربما تتذوق ألسنة اللهب ما تأكله وتميز الحلو منها والحادق كما تفعل ألسنة الناس، وتفضل أن تأكل شيئا عن آخر. لم لا؟ لا تبدو فكرة غبية جدًا. تختلف فقط النيران عن الناس بأنها راضية دومًا، تلتهم ما يقدم لها بلا اعتراض حتى لو كرهته.

تابع الجيران المشهد بمتعة وأيقظ المستيقظون منهم النائمين حتى لا يفوتهم العرض الليلي المفاجئ، وما برحوا مواقع المتفرجين إلا بعد أن انطفأ اللهيب وهدأ العويل وسكن الجسد

المنتحب في حضن نعمة، وأظلم المشهد بالكامل مع انطفاء النار وكأن الستار قد أُسدل على خشبة المسرح معلنًا انتهاء الفصل الأول.

14

خرج الصوت من السماعات المعلقة يعلن أن الخروج على الهواء مباشرة سيكون بعد عشر ثوان. أشارت المذيعة الكهلة جشة الصوت متغضنة الملامح للماكيير المحترف بالابتعاد بعد أن استطاع بنجاح إتمام مهمته في إخفاء التجاعيد وإضفاء بعض الحيوية الصناعية على الوجه القديم، انتصبت في جلستها ونظرت لأسفل بينما تمر بيدها على جانبيها للتأكد من اعتدال ملابسها وظهور جسدها وزينتها بمظهر حسن. حذت منار الجميلة حذوها بينما تنظر في مرآة جيب صغيرة أخرجتها من شنطتها، في حين كان محمد زوجها بجوارها ينظر إلى الكاميرا والأضواء المسلطة عليه وعلى وجهه سعادة طفل، حاول مداراتها وتصنع الجدية ونظرات الحكمة بعد أن نبهته منار بـ"خبطة كوع" جانبية ونظرة مؤنبة يعرف معناها جيدًا. أعلن المخرج بدء البرنامج والخروج على الهواء، نظرت وفاء المذيعة تجاه الكاميرا الأولى التي تعلم أنها مسلطة على وجهها الآن، وبدأت في الحديث بينما تدعو الله في سرها ألا يكون المكايير الأحمق قد أفسد رسم الـ(آيّ شادو) على عينها اليسرى كما فعل في الحلقة السابقة.

"مساء الخير وأهلًا بيكم معانا. وحشتونا جدًا جججدًا من حلقة الأسبوع اللي فات، يارب تكونوا كلكم بخير، النهارررردة معانا ضيف مميز جدًا، كان نفسي أعملكم مفاجأة وكأنكم مش عارفين مين بس كلكو عارفين من إعلانات البرنامج طول الأسبوع

وإعلانات الفيسبوك، وكلكم متحمسين جججدًا زي ما عرفنا من الرسايل والتليفونات اللي نازلة عينا طول الوقت. مش حطول عليكم وحقدملكم المؤلف الروائي الشاب محمد جمال ومراته الجميلة منااااااار"..

وأشارت بذراعيها بحركة استعراضية تجاه الزوجين، عندما فعلت رأت ساعديها وكفوفها متغضنين بوضوح فأعادت يدها لجوارها بحركة سريعة وهي تبتهل إلى الله ألا تكون الكاميرا قد التقطت تفاصيل يدها. استجاب جمال ومنار لإشارة المصور الذي أشار لهما أن ينظرا إلى هذه الكاميرا بينما يبتسمان في حبور ويحييان جماهير مفترضة بأيديهما.

"أستاذ محمد جمال.. ولا أقولك محمد علطول من غير أستاذ؟ أنت لسة صغير على أستاذ دي، ولا منار تزعل؟ هههههههه"

"هههههه.. لا أزعل إزاي؟ قوليله محمد علطول، ولا أقولك، قوليله جيمي.. هههههه"

"هههههههه.. لأ جيمي مينفعش، جيمي دي تقولهاله مراته حبيبته، انما إنا حقوله يا محمد.. ههههه.. محمد جمال، أهلًا بيك في برنامجنا"

هز الفتى الوسيم رأسه في سعادة بالغة بينما يرد التحية: "أهلًا بيكي يا مدام وفاء"

"لألألأ مدام وفاء إيه، إنت تقولي يا وفاء علطول، إحنا بقينا صحاب خلاص. ولا إيه يا منار؟ هههههههه"

تعالت المزيد من الضحكات السخيفة المفتعلة لثلاثتهم قبل أن يعيد الفتى رد التحية: "أهلًا بيكي يا وفاء"

"عايزة أقولك يا محمد أن من ساعة ما أعلنا أنك حتكون ضيف حلقة الأسبوع ده والجمهور حيتجنننن من الفرحة، الرسايل نازلة علينا طول الوقت من المعجبين مليانة أسئلة موجهة ليك، وخصوصًا (توجه نظرتها لمنار وترسم ابتسمة بصعوبة على وجهها البلاستيكي) أعذريني يا منار (تعود إلى محمد) من المعجبات البنات اللي حيموتوا عليك"

بدا على ملامحه الحبور وقليل من حمرة الخجل، تجاهل ملحوظة المعجبات ليتفادى مهاترات ليلية عبثية متوقعة عندما تستعيد منار المحادثة وتعاتبه عليها:

"والله يا وفاء ده من فضل ربنا عليا، هو اللي ألهمني بكل اللي كتبته، وحبب الناس في كلامي، الحمد لله على كل شيء"

توقف وقد بدا أنه أنهى كلامه، ولكنه عاد مسرعًا وأضاف كمن تذكر شيئًا مهمًا لا يجب أن يُنسى:

"وهو إللي أهداني زوجة جميلة عظيمة زي منار، حبيبتي وأم ابني الوحيد، كانت خير زوجة وخير مصدر إلهام ليا. عايز أقولك يا مدام.. قصدي عايز أقولك يا وفاء.. هههه.. إن منار كانت بتساعدني على كتابة كل كلمة، وكانت أحسن ناقد ليا، لولا رأيها مكنتش حقدر أكتب حرف لوحدي"

ضمت المذيعة يداها ووضعتهم على نصف وجهها السفلي وهي تصطنع نظرة تأثر بالغة الزيف.

"أوووووه.. قد ايه انتو ناس جميلة، ربنا يخليكم لبعض علطول"

* * * *

النجاح الساحق لرواية الأديب الشاب (محمد جمال) كان غريبًا وغير طبيعي، بخاصة في مجتمع لا يقرأ من أهله إلا أقل القليل. مبيعات الرواية كانت عادية بعد صدورها، نسبة لا بأس بها من الجمهور قرروا أن قراءة رواية جديدة لجمال لن يكون أمرًا سيئًا، بالذات بعد أن حسبوا أن روايته الأولى كانت محاولة أولى لا بأس بها ولكنها لن تتكرر. فكان الدافع الأول لقراءة روايته الجديدة هو الفضول لمعرفة ماذا يمكن أن يقدم هذا الشاب من جديد، خاصة مع عنوان غريب مثل (كتاب خيبة الأمل).

النتيجة كانت أشبه بـ"تفاعلات السلسلة الكيميائية" عندما يسبب ناتج كل تفاعل كيمائي مزيدا من التفاعلات التي تولد بدورها المزيد، كل من قرأ الكتاب خرج بشعور أن واجبه يحتم عليه أن يبشر به بين كل معارفه، لا يمكن أن يتوقف الكتاب عنده، يجب أن يقرأه آخرون، يجب أن يشعر العالم أجمع بما يشعر به الآن. وكالنار في الهشيم انتشرت الرواية بين القراء.

انتشرت في البداية بين مجتمع القراء العاديين، أولئك الذين لا يبغون إلا قراءة كتاب ممتع لتمضية وقت لطيف، بغض النظر عن عمق المحتوى أو سطحيته، ووجدوا في الرواية ضالتهم. وتجاهلها نخبة المجتمع المثقف -أو من يحبون تسمية أنفسهم

بنخبة المجتمع المثقف- من قدامى القراء ذوي الأذواق الأدبية المرهفة ومن مدعين العمق والثقافة، لأن كتاب جمال السابق لم يكن إلا كتابا بسيطا ضحلا لم ينل القبول لديهم. بيد أن الرواية تسللت بهدوء إلى أوساطهم النخبوية لتحدث ضجة لم تحدثها رواية عربية منذ زمن بعيد. وكتبوا عنها المراجعات والمقالات المنمقة معقدة اللغة ثرية المحتوى التي تشيد بالطفرة الأدبية الخارقة التي قدمها مؤلف حسبوه شابا غريرا، كتبوا عن المعاني والرموز والمجازات، وعن المقاصد الفلسفية عميقة المغزى ملتوية المعاني بين السطور، والأفكار الظاهرة والباطنة، قتلوا الرواية مناقشات وأبحاثا وتمحيصا، حتى جرؤ أحدهم على إعلان أن (كتاب خيبة الأمل) هو أهم عمل أدبي عربي في القرن الجديد. ولم يعترض على رأيه أحد.

ومع الانتشار المطرد للرواية وتزايد الحديث عنها وصدور الطبعات المتتالية لها، ناهيك بالنسخ المسربة على الإنترنت والطبعات المزورة التي ملئت الأرصفة، بدأت الرواية في الظهور بين أيدي عموم الشباب، حتى هؤلاء الذين لم يقرأوا في حياتهم كتابًا من قبل. جرب البعض قراءتها بعد الشهرة المباغتة وظهور اسمها في كل وسائل الإعلام، وأخريات قرأنها فقط إعجابًا بصورة المؤلف الوسيم على الغلاف الخلفي، هؤلاء لم يرين صورته على غلاف الرواية الأولى بالنظارة الطبية السميكة واللغد الدهني المتدلي وتسريحة الشعر الريفية، وآخرون فعلوا اتباعًا للموضة التي صارت تحكم على كل من لم يقرأ "كتاب خيبة الأمل" بأنه متخلف متأخر عن العصر. وأيًا كان السبب أو الدافع للقراءة كانت النتيجة واحدة في النهاية، الانبهار الحقيقي

غير المفتعل أو المزيف بالرواية وحكاياتها، مهما كان المستوى الثقافي للقارئ. بالطبع حاول نخبة المجتمع الثقافي التراجع عن آرائهم ومراجعاتهم للكتاب ووصفه بالسذاجة والضحالة والافتعال بعد أن تفشى بين عموم الناس من أهل القاع غير الواعي، ولكن أصواتهم لم تُسمع تقريبًا.

محمد جمال أصبح المعادل الموضوعي لتعبير (نجم الروك rock-star) في عالم الأدب، كأشهر الفنانين في عالم الموسيقى والتمثيل ملأت أخباره البرامج التليفزيونية ومواقع الإنترنت، صورته الضاحكة مع زوجته الجميلة وابنهما الرضيع بينهم صارت أيقونة ملعقة على كل حائط إنترنت افتراضي، صورته وحيدًا بابتسامته الساحرة التي صنعها المصور المحترف بألعاب الظل والإضاءة والتعديلات الرقمية على الصورة بعد التصوير أصبحت صورة الصفحة الشخصية لأغلب الفتيات على مواقع التواصل الاجتماعي، مصحوبة بعلامات القلوب والتنهيدات الحارقة.

صار من الغريب أن تركب مواصلة عامة أو تجلس في مقهى يؤمه الشباب ولا ترى على الأقل شخص وحيد منغمس بكل كيانه في قراءة كتاب خيبة الأمل. يمكن أن تراهن بكل ما تحمل في جيبك من نقود على وجود نسخة من الرواية في حقيبة ظهر أي شاب عادي تراه في طريقك وستفوز غالبًا بالرهان، على سبيل المثال ذلك الشاب العشريني في الجينز والقميص الأزرق وعلى ظهره حقيبته السوداء، بالتأكيد يحمل نسخة من الرواية. لو تتبعته قليلًا أثناء مشيته المتمهلة ليلًا في ميدان الرصافة، ولو

ركبت خلفه الترام لرأيته ما إن يجلس على كرسيه بعد قطع التذكرة يخرج الرواية فورًا من حقيبته ويفتحها في شوق حيث توقف سابقًا، ها قد فزت بالرهان، لم يكن هذا غير متوقع على أي حال.

لو انتظرت قليلًا وتابعت الفتى بضع دقائق أخرى، سترى محصل التذاكر يقترب منه، يلاحظ الفتى اقترابه ويبحث في جيوبه عن التذكرة غير متذكر إن كان قد قطع واحدة أم لا، ووجدها، فيستغرب من سبب قدوم المحصل، لا يدوم استغرابه طويلًا بعد أن يسأله الكمساري بهدوء:

"إيه اللي بتقراه ده يا كابتن؟"

يتحمس الفتى ويفتر ثغره عن الابتسامة المشرقة التي نبتسمها جميعًا عندما يسألنا شخص عن أشياء نحبها ونعشق الحديث عنها:

"دي رواية، كتاب خيبة الأمل، تسمع عنها؟"

حماس الشاب وتركيزه مع الكتاب وتحضيره للكلمات التي سيلقيها بشأنه يمنعه من ملاحظة النظرة الغريبة والشياطين التي تتراقص في عيون المحصل الذي يرد عليه في لهجة دمثة: "لأ مسمعتش، حلوة دي؟"

بالتأكيد الفتى الغافل ليس من هذه الأنحاء، لو كان من سكان محرم بك وركاب ترام 4 المعتادين لأدرك بسهولة وجود شيء ما خاطئ في المحادثة الودود التي يجريها الكُمساري غريب الأطوار

الذي لم يُعرف من قبل بولعه بالمحادثات القصيرة الودودة، كان تحمسه سيقل ويزداد حذره بينما يقول:

"حلوة؟ دي عظيمة، دي من أحسن الروايات اللي قريتها في حياتي، لازم حضرتك تجـ.. "

حتى لو كان الفتى من سكان محرم بك وركاب ترام 4 المُعتادين، حتى لو زاد حذره وقل حماسه، لم يكن ليحذر أبدًا كفاية لتفادي الصفعة المباغتة التي هبطت كصاعقة على مؤخرة عنقه من الكُمساري الذي خرج الغضب من عيونه ليشتعل نارًا في كل ملامحه، لم يكن ليتفادى الصفعة الثانية أو الثالثة ولا الركلات المتتالية. لم يكن الفتى ضعيفًا أبدًا، كان قوي البنية بما يكفي للقضاء على الكُمساري الغاضب في صراع متكافئ، ولكن عنصر المفاجأة وثورة الهياج المباغتة من حمدي أفقداه كل قدرة على المقاومة ولم يفعل سوى رفع يديه وكتابه أمام وجهه وفوق رأسه متحاشيًا مزيدا من الضربات المجنونة، وما برح الكُمساري كثور هائج يطلق الصرخات يكيل الضربات للفتى في كل أنحاء جسده.

"وحد الله يا حمدي، مش كده، سيب الواد"

قالها السائق الذي أوقف الترام وشارك بقية الركاب في محاولة انتزاع حمدي من فوق الشاب المسكين حتى استطاعوا تخليصه من بين يديه. قام الفتى بقفا مرسومة عليه أصابع الكمساري بخطوط حمراء قانية يجري ويقفز خطوات سلم الترام بقفزة واحدًا هاربًا من الكمساري المجنون، الذي أفلت من قبضة

الركاب والتقط نسخة الكتاب من الأرض وقذفها من باب الترام المفتوح لتصيب الفتى الهارب في أم رأسه.

"خد روايتك العظيمة معاك يا خول يابن الكلب"

لاحقًا، سيفكر هذا الشاب ألف مرة قبل أن يركب ترام أو يقرأ كتابًا في مواصلة عامة مرة أخرى.

* * * *

"روايتك الأولى كانت جميلة جججدًا، أنا نفسي قريتها وحبيتها أوي، بس الفرق بينها وبين روايتك التانية مش طبيعي يا محمد، في ناس بتقول أنت مريت في السنتين بين الرواية الأولى والتانية بمراحل تطور بيمر بيها المؤلفين في 10 سنين على الأقل، إزاي كده؟"

تراقص على الشاشة شعار سخيف لموقع إنترنت، يكبر ويصغر ويتحرك فوق وجه المذيعة وضيوفها، ثم اختفى ليحل محله جملة مكتوبة بخط أحمر عملاق ملئت النصف السفلي من الشاشة.

"UpLoOoAaDeD By MidO eLwA7sH"

ركزت الكاميرا على وجه محمد لتظهر فقط عيناه ونصف أنفه العلوي بينما اختفت بقية ملامحه خلف العبارة الحمراء الفظة.

"بعد نجاح روايتي الأولى حاولت أني أشتغل على نفسي وأتعلم حاجات كتير عشان أقدر أطور من نفسي، وفعلًا قدرت بفضل ربنا أني أتعلم حاجات كتير حاولت على قد ما أقدر أقدمها في

روايتي الجديدة، بصراحة مكنتش أتخيل أبدًا أني حقدر أوصل للنجاح ده كله، ده توفيق من ربنا مش مني"

اختفت العبارة لثوان ما سمح لوجه منار الحسن باحتلال الشاشة بالكامل.

"على فكرة يا وفاء، أنا كنت واثقة ومتأكدة من نجاح الكتاب، كنت دايمًا بقوله لما أقرا اللي بيكتبه أن كلامك ده حيوصل لقلب كل قارئ علطول يا محمد، هو كان دايمًا بيقولي يارب ده يحصل، أنا خايف الناس متفهمش أنا عايز أقول إيه"

لماذا تبدو ملامح هذه الفتاة مألوفة لهذه الدرجة؟ هل أعرفها من مكان ما؟ إنها تشبه.. رباه! هل هي ذات الضفيرة؟ لا يا أحمق هي ليست كذلك، حبيبتك القديمة ذات الضفيرة تماثلك في العمر ولم تعد شابة صغيرة حسناء مثل هذه. لكن.. هذه تشبهها كثيرًا، هل هي ابنتها مثلًا؟

"بس يا محمد في سؤال محيرني، انت ما شاء الله عليك شخص عايش حياة سعيدة مع زوجة جميلة محبة، وطول عمرك -ما شاء الله ما شاء الله.. مش بحسد- من أسرة سعيدة ومرتاحة وحالتها المادية كويسة، إيه اللي خلاك تكتب عن حاجة بعيدة عنك وان شاء الله تفضل بعيدة علطول زي (خيبة الأمل)؟"

عادت الكاميرا للتركيز على ملامح الكاتب الشاب، صمت لثوان وثبت بصره على سقف الاستوديو في نظرة متأملة، ضاقت عيونه بحزن واكفهرت ملامحه، قال بعد مهلة من الوقت قضاها في التأمل والتدبر بصوت متهدج على شفا البكاء:

"من طفولتي المبكرة يا وفاء وأنا شغلي الشاغل طول الوقت هو آلام الناس وحزنهم، دايمًا حاسس بيهم وباللي تاعبهم وبيعذبهم، طول عمري بحاول أساعد التعبانين الحزانى بأي شكل، طول عمري نفسي أدور على كل حزين بائس وأطبطب عليه بإيدي وأبوس راسه، وأقوله معلش.. كل حاجة حتبقى تمام. حاولت كتير يا وفاء أساعد الناس بس برضو مش كفاية، لسة الناس تعبانة وأنا لسة قلبي بيتقطع عليهم. كتاب خيبة الأمل مش كتابي أنا، ده كتابهم هما، كتاب كل حزين خايب أمله وتعس حظه في الدنيا الصعبة دي، كتاب موجه لكل غلبان بيبكي وبيطبطب عليه وبيبوس راسه وبيقوله معلش.. متزعلش، إحنا جنبك وبنحبك.. وحنفضل نحبك"

خخخخخخ.. آه يا عرص

بأصابع رفيعة جافة، جففت المذيعة دموعا وهمية.

"أنت جميل جدًا يا محمد"

نظر محمد إلى ما بين قدميه بتأثر بينما تربت على كتفه بحنان زوجته الجميلة. يقفز على الشاشة مرة أخرى شعار الموقع، يُكتب تحته بنفس حجم الخط الكبير "مدونة ميدو الوحش. زورونا لتجدو أحدث الأفلام والمسلسلات والبرامج العربية والأجنبية".

"للأسف يا محمد حلقتنا بتنتهي، كان نفسي الحلقة تطول عشان أنا حبيت ججججدًا الكلام معاك إنت ومنورة الجميلة.

بس يا محمد أنت قلتلي قبل ما نطلع هوا إن عندك مفاجأة عايز تقولها في آخر الحلقة لجمهورك، إيه هي المفاجأة؟"

كبطة فخورة يرفع محمد رأسه من نظرة الحزن السابقة وترتسم على وجهه ابتسامة حبورٍ لزجة:

"النهاردة وقعت عقد مع شركة إنتاج سنيمائي، وكتاب خيبة الأمل حيبقى فيلم حينزل إن شاء الله الـ. ."

لم يكتمل تصريح المؤلف الشاب لتحطم جهاز الكومبيوتر المحمول بعدما رفعه حمدي من على المكتب وألقاه أرضًا بأقصى قوة عنده.

"يا ولاااااااااااد الكاااااااااالب، يا أوساااااااااااااخ يا ولاد الكلب يا حراميييييييييييييية، ده كتابي أنا يا شراميييييييط، ده فيلمي أنا.. ده كتاب حمدي، ده فيلم حمدي يا ولاد الكااااااااااااااااالب"

* * * *

لا يصيب اليأس الشخص السليم، إنما يكون نتيجة لمرض آخر لعين يسمى (التفاؤل)، إن لم يُعالج المُصاب بفيروس التفاؤل في مراحل مرضه الأولى يُصاب بمضاعفات خطره لمرضه تؤدي إلى اليأس، واليأس يأتي دومًا بعشرة أضعاف التفاؤل الذي سبقه، وعلاجه أكثر صعوبة.

وحمدي أصابه التفاؤل يومًا، إصابة غير متوقعة لجسد لم يخبر جهازه المناعي هذا الفيروس الجديد الغامض، فنال منه التفاؤل

رغم طبيعته المتشائمة على حين غرة وظهرت كل أعراضه المتمثلة في السعادة غير المبررة، والأفعال الحمقاء الذي يظن فاعلها بغير أساس أنها ستؤدي لأفضل النتائج. وكتطور طبيعي نال منه اليأس في مقتل، وبلغ أوجه في لحظة حرق نسخة الرواية الأصلية التي كتبها بمداد من دمه.

بيد أنه مع الوقت تبين أن اليأس ليس بهذا السوء، يأسه هدمه، أسكنه، دهم غضبه المستعر منذ دهور وهزمه وقيده ومنعه من القيادة، جعل من حمدي الغاضب شخصا مستكينا بسيطا صامتا لا يفتعل الأفعال الغبية الحمقاء بلا مبرر. ولأن حمدي بطبيعته ليس مُقاتلًا شجاعًا يكمل معاركه حتى آخر قطرة دم، بدا أن اليأس قد انتصر إلى الأبد هذه المرة وانتهت حكاية الكُمساري الغاضب.

وكانت الأمور لتظل ساكنة على هذا الحل من اليأس الجميل الذي تمضي فيه الحياة بسلاسة، ولكنهم أبَوا أن يتركوه ليأسه واستكانته، وطاردوه في كل مكان يبغون فك قيد غضبه المسيس مرة أخرى بضجيجهم الذي يطارده في كل مكان. لماذا كان على هذا الشاب الغبي أن يركب ترامه هو بالذات ويقرأ هذا الكتاب أمامه؟ لماذا تملأ نسخ الكتاب الأرصفة وواجهات المكتبات؟ لماذا تقابله صورة جمال هذا الطري المائع في كل مكان على الإنترنت؟ لماذا تشبه زوجته حبيبته القديمة لهذا الحد؟ و.. فيلم؟ سينما؟

حتى سكون اليأس لم ينل منه نصيبا.

* * * *

لم يشعر هشام بالارتياح عندما ظهر حمدي في السايبر فجأة دون داع بعد انقطاع حميد لشهور، رآه داخلًا فجأة وعلى وجهه تتراقص الشياطين وأدرك أنها ليست زيارة ودود للسؤال عن الأحوال. انحنى إلى الأمام، ارتكز بكفيه المفرودين على المكتب، نظر لهشام المتراجع في كرسيه وقال: "عايز روايتي يا هشام"

خمن هشام أن لحظة مثل هذه قادمة مع النجاح الغريب غير المتوقع للرواية.

"بس متقولش روايتك، الحاجة اللي إنت قبضت فلوسها متبقاش بتاعتك"

"الفلوس حتصرف وحجيبهالك، ترميها في وش خليل موسى وتجيبلي روايتي"

"إهدى بس وفكر في كلامك بالعقل، أجيبلك روايتك ازاي؟ الرواية اتنشرت وخلاص بقت بتاعة محمد جمال، لا أنت ولا أنا ولا خليل موسى نقدر نعمل حاجة"

"لأ تقدروا، زي ما خد مني الرواية وعطاها للواد ده، يقدر يخليه يطلع يعترف ويقول إنها مش روايته وإنها روايتي، رواية حمدي محمود"

حاول هشام إيقاف الضحكة حتى لا يثير المزيد من غضب حمدي لكنه لم يقدر مع تصريح حمدي الأخير، ندت منه ضحكة ساخرة عالية أفقدت حمدي الذرة الأخيرة من تحكمه في

نفسه، صرخ في جنون وأطاح جهاز الكومبيوتر من المكتب إلى الأرض.

"أنا حوريكوا كلكوا، أنا حفضحكم يا أوساخ، وديني لأخد الرواية بتاعتي وأخلي الدنيا كلها تعرف قد إيه إنتو كلكو أوساخ"

قام هشام من مجلسه بعد سباب حمدي وتحطميه لجهازه، دفع حمدي بكلتا يديه وطرحه أرضًا.

"اطلع برة يا مجنون بدل ما أخلي العيال اللي قاعدة تتلم عليك ويقلعوك هدومك"

ذُهل حمدي الملقى على الأرض من رد هشام المباغت، انتفض من مرقده وتراجع للخلف تجاه الباب بينما استمر صراخه.

"حفضحكم كلكم يا أوساخ، حفرج الدنيا كلها عليكم، وديني لأوريكم"

استمر في الصراخ وإطلاق الوعيد والسباب بينما يتراجع وهشام يراقبه في صمت قلق، حتى اختفى خارج السايبر وإن لم يختف صوته معه. أخرج هاتفه من جيبه وبحث عن اسم خليل موسى، وضغط زر الاتصال.

* * * *

لم يزدحم فرع المكتبة الأشهر في الإسكندرية من قبل لهذه الدرجة أبدًا. رغم أن إدارة المكتبة تعمدت ألا تعلن عن حفل توقيع رواية محمد جمال إلا قبل الموعد بيومين فقط تفاديًا للتجمهر المتوقع، إلا أن هذا لم يمنعه من الحدوث. مئات

الشباب وربما ما يزيد عن الألف ملأوا كل فراغات القاعة الواسعة نسبيًا مقارنة بباقي المكتبات في الإسكندرية، هذا غير المئات الآخرين المتجمعين في الشارع لا يستطيعون إلى داخل المكتبة سبيلًا.

جمال يجلس خلف منضدة أنيقة تحمل شعار المكتبة الشهير وعدة نسخ من "كتاب خيبة الأمل" مرتبة بشكل أنيق، إلى جوار كوب من عصير الفاكهة ممتلئ لنصفه وكوب آخر فارغ وزجاجة مياه مثلجة مغلقة بإحكام. يحاول الحفاظ على ابتسامة مهذبة رغم العرق الذي يغمره والهواء المشبع بثاني أكسيد الكربون الساخن لا تستطيع أجهزة التكييف الأربعة في المكان تغييره بأكسجين بارد بما يكفي. توقف منذ زمن بعيد عن محاولة ابتكار صيغ مختلفة للتوقيع لكل قارئ، الصيغة موحدة الآن للجميع لضيق الوقت وجفاف الإبداع.

"عزيزي فلان

أتمنى أن يعجبك كتاب خيبة الأمل، وألا تُصاب من قراءته بنصيب من اسمه.

محمد جمال"

وهي الصيغة التي قررت منار أنها الأجمل وأنها مزحة لطيفة جدًا، يراها سخيفة ولكن يبدو أنها تعجب القُرّاء، فأراح نفسه من عناء التفكير في غيرها واعتادها. بيد أن هذا لم يمنعه من محاولة ابتكار ما هو ألطف منها عندما تأتيه قارئة جميلة مادامت منار غير موجودة، فتتألق الابتسامة ويفتعل المزاح

والردود المنمقة، يتمنى أن يفعل ما هو أكثر لكن إن وصل نبأ لطفه الزائد مع الجميلات إلى منار لن يعجبها هذا، ولن يعجبه هذا، فيكتفي بمزحة سريعة وهزة رأس ومغازلة مدفونة في كلمات التوقيع التي لا يراها أحد إلا القارئة ذاتها.

كتب:

"العزيزة نادين

يارب تعجبك الرواية وتطلع حلوة زي حلاوة لون البحر في عينيكي.

محمد جمال"

وأغلق غلاف الرواية وقدمها للحسناء ذات العيون الزرقاء مع غمزة بعينه أصابت الفتاة بحمرة الخجل مع فرحة لا توصف بجملة الغزل من كاتبها المفضل، تذكر بعدها كاميرا الفيديو المسلطة عليه فأظلم وجهه ودعى الله ألا تلاحظ منار هذه الغمزة عندما تشاهد الفيديو لاحقًا. مد يده لتلقي الكتاب من القارئ التالي في صف القُرّاء طالبي التوقيع، لكن هذا الأخير لم يحمل نسخة من الكتاب.

بدا غريبًا بسترة محصلي التذاكر الرمادية والوجه الأسمر المكفهر بذقنه النابتة عن إهمال وشعره الثائر وعيونه الجاحظة، لم تناسب تفاصيله باقي تفاصيل الصورة الجميلة الأنيقة المنمقة. فكر الشاب الواقف خلف الرجل الغريب أن هذا الرجل لا ينتمي إلى هنا، هو ينتمي لعالم آخر مألوف بشكل

ما، حاول التفكير في تشبيه مناسب للرجل الغريب ووجد مجازًا أعجبه لدرجة أنه رغب أن يعلنه للآخرين ولكنه للأسف لم يجد من الحاضرين من يعرفه فيهمس له بالتشبيه، بدا له الرجل هاربًا من بين صفحات الكتاب، هذا الرجل هو خيبة الأمل ذاتها.

أمام عيون جمال المتسائلة مد حمدي يده والتقط نسخة من نسخ الكتاب المرتبة بعناية على المائدة، فض الغلاف البلاستيكي عنها بسرعة وألقاه أرضًا، لم ينبس محمد ببنت شفة مندهشًا بينما اقترب من حمدي واحد من العاملين في المكتبة يخبره في أدب جم:

"لو سمحت يا أستاذ، النسخ الموجودة هنا للعرض، ممكن حضرتك تشتري نسخة من عند البوابة وتيجي لأستاذ جمال يوقعهالك"

لم يعر حمدي الرجل انتباهًا بينما يفض غلاف الرواية الأمامي، أخرج من جيبه قلم الحبر الأسود، أمام عدسة كاميرا الفيديو كتب بينما يحاول حشد القراء مد رؤوسهم لتمييز ماذا يكتب الرجل غريب الأطوار:

"عزيزي محمد جمال

أتمنى أن تكون قد استمتعت بنجاحك المزيف، فقد انتهت فرصتك ولم يعد هناك مجال للمزيد. أخبر كل هؤلاء الناس حالًا أنك لست المؤلف.

المؤلف الحقيقي

حمدي محمود"

ثم قدم الرواية المفتوحة على التوقيع بهدوء لجمال الممتقع وجهه، شعر حمدي بالانتصار أخيرًا وأغمض عينيه مبتسمًا منتظرًا اعتذار (الواد الطري) للجمهور وإعلانه من هو المؤلف الحقيقي. قرأ جمال المكتوب وشعر برعب حقيقي يجتاحه، امتقع وجهه وعبست ملامحه لوهلة، لكنه عاد بسرعة وسيطر على نفسه وافتعل ابتسامة ساخرة ونبرة صوت عابسة وقال بصوت مرتفع:

"المؤلف الحقيقي؟ فعلًا؟ أهلًا وسهلًا بحضرتك، اتشرفنا، وأنا المؤلف الحقيقي لهاري بوتر"

حسنًا، ليس هذا هو الرد المخطط لتلقيه، لن يمكنه إلقاء خطبة النصر التي أعدها بعد هذا التصريح الساخر. لماذا لا تمضي الأمور بسهولة؟

"من غير تريقة، دي روايتي وأنت عارف كده كويس، اعترف بالحقيقة فورًا قدام الناس، قل لهم إن ده كتاب حمدي محمود"

بدأت ضحكات الواقفين في التصاعد وأعادت بعض الاطمئنان لقلب جمال المضطرب، لن يصدق الحضور هذا الرجل، ليس بهذه الطريقة الغبية على الأقل، تنهد تنهيدة مطمئنة غير ملحوظة لتفاديه رصاصة كادت أن تصيب. زاد من تهكمه لعلمه أنها السلاح الأقوى في مثل هذه المواقف:

"لأ يا حمدي أرجوك متفضحنيش (ثم وجه حديثه لصفوف المنتظرين) يا جماعة أنا مضطر أعترف لكم بالحقيقة، حمدي محمود هو المؤلف وأنا سرقت روايته منه"

ونظر للواقفين كمهرج أطلق مزحة على المسرح وينتظر رد فعل الجمهور في شغف، انفجر الواقفون في ضحك طويل، وجد الشاب الواقف خلف حمدي فرصته أخيرًا لإلقاء التشبيه الذي سيطر على عقله في شكل مزحة:

"يا جماعة الكلام ده حقيقي، هو ده صاحب الرواية فعلًا. الراجل ده يبقى خيبة الأمل نفسها"

تعالت الضحكات أكثر وأكثر، أعلاها كانت ضحكة محمد جمال ذاته بعد أن ذهب روعه وأدرك أن الخطر زال، وانهمرت التعليقات الساخرة من كل الواقفين، بينما استدار حمدي في عنف ليواجه الفتى الذي ألقى المزحة وصفعه بأقصى قوة صارخًا:

"خيبة الأمل دي تبقى أمك يابن الوسخة"

الصفعة والسباب كانتا كافيين جدًا لتدخل أفراد أمن المكتبة بعدما تابعوا الموقف من البداية في قلق، اقتحموا الجموع المنقسمين بين السخرية الشديدة من الرجل المجنون وبين الخوف والابتعاد عنه، طوق اثنان منهم حمدي بأذرعتهما بينما يحاول التملص ويستمر في الصراخ:

"يا جماعة اسمعوا، دي روايتي، والله العظيم روايتي، خليل موسى خدها مني وإداها للواد ده"

ذكر خليل موسى الذي لم تُعرف أبدًا أي علاقة له قريبة أو بعيدة بمحمد جمال لم يساعده في شيء، حمله فردا الأمن القويان وخرجا به من القاعة في مشهد مهين، بينما يصرخ ويسب ويلعن ويحاول الهروب بين التصفيق والصفير والتعليقات الساخرة والضحكات المرتفعة من الحاضرين.

15

في كل لحظة تمر يُنشر على الإنترنت وبالذات على مواقع التواصل الاجتماعي ملايين المحتويات المختلفة من أشخاص يظنون أن ما يقدمونه يهم العالم كله. مثل الأم التي قررت أن وليدها هو أجمل طفل في الكون ويجب عليها أن تنشر له بضعة آلاف صورة يوميًا ليدرك باقي سكان الكوكب جمال رضيعها الاستثنائي، ومثل الرجل الستيني المتقاعد مؤخرًا الذي أهداه أبناؤه هاتفا ذكيا وعلموه كيفية استخدامه ليجد ما يسليه بعيدًا عنهم، وأدرك أن مستخدمي الإنترنت كلهم يفتقرون إلى التهذيب، فأخذ على عاتقه تأديب الجميع ونشر محاسن الأخلاق عن طريق نشر ما هو حسن من الكلمات المأثورة والصور الجميلة التي سيراها قليلو الأدب فتحمر وجوههم خجلًا، ويعود إليهم حياؤهم المفقود بفضله، أو الفنانة استثنائية الموهبة التي تنشر جل أعمالها في كل مكان، في محاولة يائسة لعرضها على من يقدر موهبتها، أو الشاب المنحرف الذي يؤمن أنه إذا استمر في تصوير جسده العاري في أوضاع مختلفة ونشرها يوميًا وإرسالها إلى أكبر عدد ممكن من البنات بشكل عشوائي سيجني ثمار فعله يومًا عندما تأتيه الفتيات من كل مكان في طوابير طويلة طالبات المتعة.

ملايين من المنشورات تمر على الإنترنت في كل لحظة من مختلف أنواع البشر ومن كل جهات الأرض، وكنقطة ماء في محيط لا ينال أي من تلك المواد المنشورة انتباه الآخرين إلا أقل القليل، وينتهي الأمر بغالبيتها العظمى إلى النسيان كقطعة

ضئيلة من المعلومات منسية في قاع مخزن بيانات إلكتروني عتيق لو أدرك مدى تفاهة ما يملؤه لتجاهل كل التعليمات التي يعمل وفقها وأخرج ما في جوفه مثلما يفعل الإنسان. ورغم كل نظريات الاحتمالات الرياضية والتنظيرات الفلسفية تلك، وصل مقطع فيديو اقتحام حمدي لحفل توقيع المؤلف الشاب محمد جمال لأبعد مراحل الشهرة.

بعد حفل التوقيع مباشرة نشر شاب مقطعا قصيرا صوره بنفسه احتوى فقط على آخر لحظات الموقف عندما حمل أفراد الأمن حمدي خارجًا، بكاميرا رديئة وصورة مهتزة وجودة قليلة، لكن اسم المقطع المثير (شاهد حصريييييااا - مجنون يقتحم حفل توقيع محمد جمال في الإسكندرية ويدعي أنه المؤلف الحقيقي لكتابه) كان سببًا كافيًا لانتشار المقطع وإثارة فضول الجماهير الراغبين في معرفة ما حدث بشكل أوضح، ليخرج في اليوم التالي على صفحة محمد جمال الرسمية بموقع الfacebook مقطع فيديو طويل كامل بعنوان (اقتحام خيبة الأمل لحفل توقيع محمد جمال بالإسكندرية) غطى ما حدث بالكامل من لحظة ظهور حمدي إلى أن ألقاه الأمن في الخارج، ملتقطا بالكاميرا الاحترافية المثبتة لتغطية حفل التوقيع بالكامل.

نُشر الفيديو على صفحة جمال في الواحدة ظهرًا، مع حلول الساعة الرابعة كان عدد مشاهدات المقطع تخطى العشرة آلاف، في الثامنة مساءً بلغ الرقم ما يقرب من المئة ألف، وفي اليوم التالي وصل عدد مرات مشاهدة الفيديو إلى مليون مرة مشاهدة، ناهيك عن مئات الآلاف من مرات إعادة النشر

والتعليقات الساخرة. أصبح اقتحام الرجل المجنون الملقب ب(خيبة الأمل) لحفل توقيع جمال مادة الحديث الأولى بين الشباب في كل مكان.

"إيه ياسطى الكلام ده؟ أنت ضارب إيه؟ أنا عايز من الصنف الفشيخ ده"

“A7A LOL, Mesh 2ader”

"أنا مصدقك يا زميل، أنا المؤلف الحقيقي لشفرة دافنشي وسرقها مني خليل موسى وإداها لدان براون. اللي يعرف الراجل ده يخليه يتواصل معايا ع الخاص عشان نجيب حقنا"

"الإله حورس زارني في المنام وقالي إن الراجل ده على حق، وأن محمد جمال وخليل موسى من أتباع ست إله الشر"

واُقتطع من الفيديو صور مستقلة للقطات مختلفة، مثل لقطة صفع حمدي للفتى الذي أطلق عليه اللقب، أو لقطته وهو يصرخ مناديًا بأحقيته في كتابه بينما يحمله الأمن. واستخدمت الصور كقوالب فكاهية جاهزة تستخدم للتعليق على مختلف المواضيع. وقام آخرون بإضافة المؤثرات المرئية والموسيقية على مقطع الفيديو ليبدو حمدي وكأنه يغني كلماته على الموسيقى ويرقص عليها.

لطبيعة عمله السابقة ككاتب شبح صحفي، يمتلك حمدي حسابات على كل مواقع التواصل الاجتماعي الرئيسية لتتيح له متابعة أهم الصفحات التي يحتاج منشوراتها لكتاباته، ولكن -

بالطبع- لم يكن له على حساباته أي صديق. وعن طريق حساباته تلك تابع في غرفته المغلقة كل ما نُشر بمزيج مرير من الغل والعجز والأسى. قرأ كل ما كتب عنه من تعليقات متهكمة مهينة، حاول في البداية أن يرد على التعليقات المختلفة مدافعًا عن نفسه، ورغم أن تعليقاته المكتوبة التي كتبها تميزت بتعقل وهدوء يفتقرهما حديثه الغاضب المعتاد، إلا أنها لم تنل أي أذان مصغية وسط ضجيج الحفل الصاخب. كان يكتب التعليق ويرسله، فيظهر معه في نفس اللحظة عشرات التعليقات الجديدة تتوه بينها كلماته فلا تمر حتى على عيون المتابعين المشاركين في حفلات السخرية اللا نهائية. ونال منه القنوط وتوقف عن محاولات الرد على السخرية وكمن متابعًا المزيد في صمت. لم يستطع منع نفسه من قراءة كل تعليق جديد يُنشر في أي مكان يتعلق بما حدث، لم يقدر على إخماد فكرة حمقاء تصرخ في أعماقه أن بالتأكيد هناك من صدق كلماته في مكان ما، بالتأكيد هناك من يدافع عنه وعن عدالة قضيته. ومع كل تعليق جديد يقرأه لا يجد فيه إلا مزيدا من السخرية التي لا تنضب، كانت فكرته المجنونة تزداد اشتعالًا، كمقامر يؤمن أن رمية الزهر التالية ستحمل الفوز، أخيرًا ظل يتحرى كل التعليقات ويتنقل بين إهانات وسباب ونكات بحثًا عن مراده، حتى وجده أخيرًا في تعليق صغير بسيط لم يتجاوز السطر:

"مش يمكن يا جماعة يكون عنده حق ويطلع جمال حرامي فعلًا؟"

قفز من مجلسه في حماس، شعر بالانتصار يملؤه، تناسى الآلاف من التعليقات الساخرة والإهانات الأخرى وتمسك فقط بهذا التعليق. نعم، هناك من يؤمن بقضيته، لم تذهب محاولته للنيل من جمال هباءً في النهاية، أنصاره في الخارج موجودون، صاحب التعليق ليس وحيدًا، بالتأكيد هناك العشرات مثله، المئات وربما الآلاف، وكم من فئة قليلة هزمت فئة كثيرة. عاد إلى حاسبه المحمول ليفتح صفحة صاحب التعليق ويعرف من هو، وربما يراسله شاكرًا لرأيه وطالبًا منه السعي لإقناع الآخرين، لم يجد التعليق! اختفى التعليق بعد ظهور عشرات التعليقات المختلفة في الدقائق التي سكر فيها حمدي بخمر النصر الوهمي، حاول البحث بين التعليقات عن هذا التعليق بعينه دون جدوى، زيادة التعليقات المستمرة لم تمكنه من ذلك. لا بأس، لا بأس، عدم إيجاده للتعليق لا يعني أنه لم يعد موجودًا، حتى وإن اختفى التعليق فصاحبه ما زال هناك ويقنع آخرين بالتأكيد برأيه في أحقية الرجل الغريب في الكتاب وأن جمال ليس إلا مدعيا نصابا. الحق إن فشل حمدي في إيجاد التعليق لمرة أخرى كان من حسن حظه، فإن وجده لاكتشف من ردود الآخرين عليه وردود صاحب التعليق أن ما كتبه لم يكن إلا في سياق ساخر كجزء من مزحة طويلة بين أصدقائه لا تختلف عن ما يردده البقية.

توقف حمدي بعدها عن متابعة ما يُكتب على الإنترنت عنه، تجاهله تمامًا مستعينًا بفكرة أن جيوش المدافعين عنه تتكون ببطء وشرارة الحرب الأولى على وشك الخروج، ولم يعد يهم ما

يكتبه عامة القوم وأراذلهم من هذر ولغو. وبالتالي لم يصل لعلمه التطورات اللاحقة التي بدأت بظهور منشور جديد:

"فاكرين لما حكيتلكم قبل كده عن كمساري ترام محرم بك المجنون اللي تعدى عليا بالضرب لما شاف معايا كتاب خيبة الأمل؟

Guess what?

كمساري الترام المجنون ده نفس الشخص بتاع فيديو حفلة التوقيع. ده طلع مجنون رسمي وأنا معرفش"

ومع انتشاره وانهيال التعليقات عليه، تحدث أحدهم عن أنه رأى من قبل هذا الكُمساري غريب الأطوار منغمسًا في قراءة كتاب، وقال آخر إنه يسكن قريبًا من محرم بك وصادف الركوب معه عدة مرات وكثيرًا ما رآه في مشاجرات مع ركاب لأتفه الأسباب، وثالث قال إنه يعرف أين يسكن ويعرف أن اسمه حمدي. لم يعرف حمدي أيًا من هذا لذا كان اندهاشه عظيمًا عندما تلقى مكالمة من أحد معدي برنامج "كلام جميل" التليفزيوني الشهير، يطلب منه في تهذيب:

"إيه رأي حضرتك يا أستاذ حمدي لو نديلك فرصة تعرض قضيتك قدام العالم عن طريق مناظرة بينك وبين أستاذ محمد جمال في حلقة على الهوا من برنامجنا؟"

* * * *

"لأ طبعًا، لأ.. مينفعش ده يحصل"

أصابه رد زينب بالإحباط، لم يتوقع منها أبدًا ردا مخيبا للآمال مثل هذا.

"ليه بس؟ دي فرصتي أحكي حكايتي قدام الناس وأجيب حقي! وبعدين في ناس كتير مصدقيني ومؤمنين بقضيتي وبيتكلمو في كل مكان على النت عني"

لم تفهم زينب الكثير من التفاصيل عندما حكى لها ما حدث في الأيام السابقة، فهي لا تعرف شيئًا تقريبًا عن الإنترنت واستخداماته وما يحدث فيه، ليس لغباء منها ولكن لأنها لم تتعرض أبدًا للتعامل مع جهاز كومبيوتر أو هاتف محمول منذ خروجها من السجن، ولم تشعر بحاجة إلى ذلك. فقط كونت فكرة مبهمة - من أحاديث حمدي السابقة عن كتاباته وكيف يراسل عملاءه - عن الإنترنت بأنه جهاز ما يشبه الهاتف المعتاد ولكنه أكثر تعقيدًا يسمح للناس بالتواصل بطرق مختلفة لا تفهمها ولا تهتم لأن تفعل. حديثه الحالي عن مقطع الفيديو المنتشر وتعليقات الناس عليه أثار فيها القليل من الفضول لتفهم المزيد عن هذا الكيان الإنترنتي الهلامي، لكنها قررت أن الوقت الحالي ليس بالوقت المناسب، ما يهم الآن هو محاولة إنقاذ هذا الأحمق من المصيبة التي يوشك على إقحام نفسه فيها. ذكر العرض المقدم له للظهور على شاشة التليفزيون أعاد لها الذكرى القديمة اللعينة لظهورها مع المذيعة الشهيرة في برنامجها بعد أسابيع من الحكم عليها، تذكر جيدًا الوعد الذي تلقته من طاقم البرنامج بأنهم سيعطونها الفرصة كاملة لتحكي

حكايتها وتظهر براءتها، فلم تنل منهم إلا الفضيحة التي أصابت أسرتها وقتلت أمها وأباها وأبعدت عنها أشقاءها إلى الأبد.

"تليفزيون لأ، إنت كده بتعريلهم رقبتك وبتديهم سكينة وبتقولهم ادبحوني، الناس عايزين جنازة يشبعو فيها ضحك على الميت، اسئلني أنا"

"جنازة إيه وضحك إيه، دي مناظرة بيني وبينه، وهو واد أهبل مبيعرفش يتكلم ولا حيلاقي حاجة يقولها، متنسيش إن أنا بتاع الكلام، أنا الكاتب الحقيقي"

"أنا مبفهمش حاجة في حوارات الكتابة بتاعتكم دي، بس اللي أعرفه إنك لما بتكتب محدش بيبصلك وبيضحك عليك، ولا حد بيحاول يلخبطك ويستفزك ويقاطع كلامك، ولما بتكتب حاجة غلط بتشطب عليها وبتكتبها من الأول، إنما الكلام قدام الناس بيبقى فضيحة، ودول ناس سّو حيشتغلوك ويعصبوك وإنت مش بتاع الكلام ده"

بغباء رفض الإصغاء لرأيها الذي يماثل تمامًا الرأي الذي يصرخ به صوت واهن من الجانب الخلفي من عقله بينما يتجاهله هو متعمدًا.

"إنتي متعرفينيش، أنا أيام الجامعة كنت أحسن واحد بيقف يتكلم، مكنش حد يقدر يغلبني في حوار"

ندت عنها ابتسامة متهكمة بينما تقول: "أيام الجامعة؟ جامعة إيه يا راجل؟ الكلام ده من إمتى؟ من مية ولا ميتين سنة؟ أنت

مبتتكلمش مع حد غير بالخناق والشتيمة والشخيط. إنت بتشتغلني ولا بتشتغل نفسك؟"

هز رأسه في عناد وقام واقفًا وتحرك نحو الرف العالي فوق الباب.

"ملوش لازمة الكلام، أنا أصلًا كنت بحكيلك مش باخد رأيك. أنا اتفقت معاهم خلاص والحلقة حتبقى على الهوا يوم الاتنين الجاي"

والتقط علبة الدومينو من مكانها وعاد فدلق محتوياتها على المنضدة البلاستيكة بعنف أحدث ضوضاء عالية ختم بها حديثه. أخرجت زينب زفرة عميقة من أنفها ولم تنبس بحرف، مدت يدها والتقطت من قطع الدومينو سبعة لتبدأ المباراة اليومية المعتادة. بعد سكون دام طويلًا لم يتخلله سوى صوت ارتطام القطع بسطح المنضدة بعنف ينم عن عصبية وانفعال مكتوم عند كليهما، تحدثت زينب أخيرًا دون أن ترفع عينها عن قطع الدومينو في يدها:

"مادام اللي في دماغك في دماغك ومفيش فايدة، على الأقل نضف خلقتك شوية قبل الحلقة"

اندفع يرد في حدة: "أنضف؟ قصدك إن أنا معفن؟"

"يوووووووووه، مش قصدي، أهدى شوية الله يكرمك مش ناقصة. قصدي يعني الشكل بيفرق عند الناس دي، احلق

شعرك ودقنك حلقة نضيفة، إلبس بدلة، كده يعني. لو روحتلهم زي ما أنت كده حيقلبوها عليك مسخرة"

رغم نظرته التي ظلت على تجهمها إلا أنه اقتنع بكلامها للمرة الأولى، أدركت ذلك من صمته فأكملت:

"عندك بدلة؟"

هز رأسه نافيًا ووضع قطعة دومينو من يده على أرض اللعب، في هدوء هذه المرة.

"طب اشتري"

على الفور فكر أن يهاتف هشام ليطلب منه الخروج معه لشراء بدلة، ثم تذكر في يَأْس نتيجة لقائهما الأخير، تذكر أنه طرحه أرضًا وهدده بإطلاق (العيال) خلفه ليهينوه ويضربوه، عادت إليه مرارة اللحظة والعجز الذي تملكه أمام من ظنه صديق طفولته. أغمض عينيه للحظات محاولًا طرد شبح الذكرى من مخيلته.

"تعالي معايا طيب"

"نعم؟ أجي معاك فين؟"

"تعالي اشتري بدلة معايا"

"بصفتي إيه؟ هو إنت عيل متعرفش تجيب لنفسك؟"

"معلش، تعالي معايا يا زينب"

أخرجت زفرة أخرى طويلة. لم تخرج عن خط سيرها المحدود أبدًا منذ خروجها من السجن، لم تشعر بحاجة ولا رغبة للتحرك بعيدًا عن طريقها اليومي بين البيت والكشك. الفكرة التي اقترحها بأن تكسر العادة وتخرج عن مسارها وتذهب معه لشراء بدلة هي فكرة مرعبة حقًا، ارتعش جسدها كله للحظة لمجرد التفكير فيها، وإن لم يبد من هذا على وجهها إلا ارتعاشة غير ملحوظة في شفتها السفلية. ترغب في الإصرار على الرفض بشدة وإغلاق باب الحديث في هذه النقطة، بيد أن شعورا بالشفقة على حمدي البائس الأحمق تملكها، رغم حماقته ومصائبه التي يتسبب فيها لنفسه إلا أنه بدا لها ليس أكثر من مجرد طفل ضعيف واهن بحاجة لمن يرعاه، أحست أنها لو رفضت طلبه فلن تعرف للنوم سبيلًا من إحساس الذنب الذي سيعتريها مع تأنيب الضمير. بعد تردد وافقت وافتر ثغرها ليعلن ذلك، وما إن كادت تفعل حتى دهمتها صورة ذهنية لها تمشي جنبًا إلى جنب مع حمدي في الشارع، في شوارع محطة الرمل التي لم ترها منذ ما يقرب من الثلاثين عامًا، تتأمل معه واجهات محال الملابس والبدل المعروضة، تختار واحدة وتخبره أن الأخرى لا تعجبها، سيخبره البائعون أن (المدام عندها حق، اسمع كلامها).

"لأ، مش حينفع.. معلش"

خيبة الأمل ظهرت جلية في وجهه ونظرته التي رُفعت من عليها وانتقلت إلى باب الكشك، رغم الإحباط إلا أنه اعترف لنفسه أن ردها كان متوقعا بشكل أو بآخر.

"روح الليلادي احلق شعرك ودقنك، قول للحلاق عندي مناسبة عشان يظبطك، ياريت تروح لحلاق نضيف. وبكرة تنزل بدري تجيب البدلة، على بعد الضهر كده، عشان تلحق تيجي توريهالي قبل ما تروح الشغل، ومتكسلش.. بعد بكرة الحد المحلات حتبقى.. "

"فين نسخة الرواية يا زينب؟"

"نعم؟"

"نسخة الرواية اللي صورتها لك، اللي كاتبها بخط إيدي"

"فين النسخة الأصلية بتاعتك؟"

"حرقتها"

"أنت مجنون؟"

"النسخة اللي معاكي فين بس؟"

ألقت عليه نظرة حادة، وضعت من يدها قطع الدومينو وانتصبت واقفة في بطء، اتجهت إلى ركن قصي في الكشك ترقد فيه خزانة خشبية صغيرة، فتحتها وأخرجت منها كيسا بلاستيكيا أبيض مطبوعا يحمل اسم وشعار مطعم شعبي شهير في محرم بك، فكت عقدته وأخرجت منه بعناية ملفا بلاستيكيا يحمل كومة الأوراق النظيفة المعتنى بها وقدمته له.

"تصورها وتجيبهالي تاني، دلوقتي مش بكرة"

شبح ابتسامة ممتنة ظهر على وجهه لثوان بينما يلتقط منها الملف، قبل أن يدرك أن موعد ذهابه قد حان فقام وتحرك خارجًا دون مزيد من الكلام، وإن لم ينس -أو لم يتجاهل، كعادته- أن يهز رأسه بتحية عابرة لزينب قبل أن يختفي في الطريق.

* * * *

"حلاق نضيف"؟

ماذا قصدت زينب بكلمة "نضيف"؟ بالتأكيد لم تعن النظافة بمعناها الحرفي، هي عنت ربما حلاقا ماهرا أو عالي المستوى مثلًا!

فكر حمدي أن هذه المرة الأولى في حياته التي يقضي فيها وقتا حقيقيا في التفكير بجدية في عملية حلاقة الشعر. منذ مراهقته المبكرة وهو يذهب إلى محل "عم إسماعيل الحلاق"، يدخل المحل ويجلس مباشرة على كرسي الحلاقة أو على مقعد الانتظار، لا ينطق حرفًا، عم إسماعيل الحلاق يعرف ماذا يفعل ويفعله جيدًا. هو حتى لا يضع مواعيد ثابتة لنشاط الحلاقة بشكل شهري مثلًا مثلما يفعل البعض، فقط يذكر أنه بحاجة للحلاقة عندما يحاول أن (يهرش) في شعره فتغوص أصابعه في أعماق بعيدة، يدرك حينها أن موعد الحلاقة قد حان، فيذهب إلى عم إسماعيل الحلاق الذي صار شيخًا طاعنًا في السن ولكنه لم يتوقف عن مزاولة مهنته، رغم الارتعاش الواضح لأصابعه التي تحمل المقص وشفرة الحلاقة، فكر حمدي أكثر من مرة

أثناء الحلاقة أن الوقت حان للبحث عن حلاق جديد، خصوصًا مع ارتعاشة يده التي تمر بالشفرة على حلقه مهددة بقطع شريانه السباتي والنزيف حتى الموت، ولكن عندما يحين موعد الحلاقة التالية لا يشعر برغبة كافية للتغيير فيعود لعم إسماعيل متناسيًا خطر شفرته المميتة.

في هذه الليلة كان الأمر مختلفا، إنه يبحث عن حلاقة مناسبة ليظهر في برنامج تليفزيوني يقنع فيه العالم أنه أديب عظيم، للمرة الأولى لا يبدو عم إسماعيل خيارًا مناسبًا، وعلى أي حال لا بد أن الراجل في سبات عميق الآن، لا يوجد من في سنه يظل ساهرًا في محله حتى منتصف الليل.

حائرًا في أكثر الأمور تفاهة، جاب حمدي طرقات محرم بك في الثانية عشر بعد منتصف الليل باحثًا عن صالون حلاقة رجالي (نضيف)، إلى أن وجد واحدًا. لم يعرف إن كان (نضيفًا) كفاية، كان مضاءً بألوان زاهية مع الكثير من المصابيح المتذبذبة الجاذبة للانتباه، مع لافتة مضيئة عملاقة تحمل اسم (صالون هوليود Hooliod Salon) وصور لمجموعة من نجوم السينما ومشاهير كرة القدم بقصات شعر براقة. نفر من المكان عند رؤيته للمرة الأولى واستمر في بحثه عن آخر، إلى أن أصابه الملل وقرر أن عليه أن ينتهي من هذا الأمر بأي شكل وليكن ما يكون، ودخل حمدي صالون هوليوود.

"أحلى مسا عليك يا باشا، نورت.. أؤمرني، شعر ولا دقن؟ ولا الاتنين؟"

كان شابًا لا يزيد عمره عن الخامسة والعشرين تقريبا، شعر حمدي بنفور من سنه الصغيرة وشعره الطويل اللامع الأنثوي، كاد أن يرتد خارجًا، لكنه تذكر ضيق الوقت وعدم توفر المزيد من الخيارات، لماذا كان عليك أن تغلق مبكرًا ياعم إسماعيل؟

"الاتنين، بص.. ع.. عندي مناسبة، و.. ." لم يعرف كيف يكمل الجملة فلوح بذراعيه في الهواء بإشارة غير مفهومة محاولًا إيصال معنى لا يعرفه هو نفسه. ابتسم الفتى وأمسكه من ذراعه المفرودة بحركة ودود وقاده لكرسي الحلاقة الفارغ.

"متقلقش، حظبطك.. حتشوف وحتقولي تسلم إيدك يا واد يا حمو وحتجيلي بعد كده علطول"

في استسلام جلس حمدي خاضعًا وترك (حمو) يربط حول رقبته ملاءة الحلاقة ذات اللون الأحمر الفاقع.

اللون الكستنائي، لون أحمر كستنائي

فكر مستمتعًا بقدرته على استحضار الألفاظ غير المعتادة التي تبدو عميقة وتدل على رفعة ثقافة صاحبها.

هذا بالضبط ما احتاجه يوم الاثنين، حسن اختيار الألفاظ المنمقة، لا أحتاج سوى إلى أن يعطيني أحدهم الميكروفون ويتركوني أتكلم لحالي، ولن يقدر أحدهم بعدها على إيقافي.

خرجت فجأة دون تحذير موسيقى مزعجة كصراخ شياطين سقر.

"إيه ده؟ إيه ده؟ أقفل.. أقفل البتاع ده"

"خلاص ياعم بالراحة، أنا كنت عايز أظبطك، قفلناها أهو يا سيدي.. إرجع براسك لورا وسيبلي نفسك خاااااااالص"

سيبلي نفسك خالص؟ أصابته الكلمة بالخوف، ولكن شعر أنه لا يملك خيارًا آخر طالما هذه الملاءة "الكستنائية" مربوطة بإحكام حول عنقه، تراجع برأسه للخلف واستسلم لحركات المقص وماكينة الحلاقة الكهربية.

"متجوز يا باشا؟"

أيحاول هذا الفتى افتعال حديث ودي معه؟ هذا ما كان ينقصه! فكر أن يفحمه برد سمج جاف ليمنعه من الاسترسال، وكاد أن يفعل لكن تذكر أنه مقيد وتحت رحمة مقص هذا الفتى الرقيع، وربما إن أغضبه سينتقم منه الفتى بحركة مقص رعناء تقضي على فرصته القادمة بعد يومين، لم يملك إلا أن يرد بلهجة مذعنة وحروف مقتضبة "أه".

"أنا بقى لسة، قعدت عشر سنين يابيه مخطوب لبنت خالتي، من واحنا عيال صغيرين مخطوبين لبعض، وأمها مش راضية نتجوز، بتقول بنتي تخلص تعليمها، تعليم إيه يا مرة يا جاموسة أنتي؟ مقدرتش أعملها حاجة عشان خاطر أمي، حضرتك فاهم طبعًا أن أمي تبقى أخت خالتي وكده يعني، المهم البت خلصت المدرسة ودخلت معهد، استلمها واد علق طري من بتوع المعاهد دول وضحك عليها بكلمتين، وهوووووب راحت اتخطبتله ودبلتي اتبعتتلي مع أخوها الصغير. الحوار ده كان من

3 سنين، ولسة الجرح بيوجعني والغدر حارقني ومش قادر أشوف غيرها، مع إن أمي جابتلي بدل العروسة عشرة"

وسكت الحلاق وتراجع خطوة للخلف متوقفًا عن كل حركات المقص والماكينة الكهربية، هز رأسه في حركة درامية متأثرة، عرف أنه يجب أن يرد عليه الآن، عليه أن يخرج برد متعاطف درامي مناسب للغدر والجرح.

"معلش.. ؟!"

ويبدو أنها كانت ردا مناسبا كفاية للحلاق الذي نفض أحزانه وعاد لممارسة مهنته بخفة.

"أصل يابيه الجواز ده قسمة ونصيب. عندك مثلًا أستاذ جمعة، الراجل بقى عنده 45 سنة دلوقتي، بيحلق عندي علطول، كل كام شهر يخطب بنت جديدة، ويجيني أظبطله شعره وأنضفله شنبه، عليه شنب شبه بتاع سي السيد، بس ميغركش شنبه يابيه، الرجولة لو بالشنب كان الفار بقى فتوة.. هههههههه.. جمعة ده جارنا أصلًا، ساكن في البلكونة اللي في الدور التالت في العمارة اللي في الوش، بص.. أيوه هيا دي، إللي فيها الزرع والورد دي. جمعة ده اللي يشوفه يقول زينة شباب المنطقة، واد نضيف ومحترم ومتوظف وظيفة حلوة ومعاه فلوس ويركب عربية، تسألني بقى إيه اللي مقعده لغاية دلوقتي يا واد يا حمو من غير ما يتجوز؟ أقولك أصله لا مؤاخذة يابيه (ابن أمه)، ابن أمه وأخته كمان، كل شوية أمه تجيبله عروسة، يفرح بيها زي ما العيل الصغير يفرح بلعبة جديدة، يفضل يحب فيها ويقف في

البلكونة طول الليل يكلمها وضحك، ويجيب في هدايا ويظبط في الشقة، وأول ما أمه تحس أنه كويس مع عروسته بتغير منها بعيد عنك وتتلكك على طقم الحلل اللي شكله وحش أو البت اللي مقامتش من مكانها عشان تسلم عليها وتعمل عركة كبيرة تبوظ بيها الجوازة، وتاخد ابنها في حضنها ويعيط، وحتى لما العروسة تعجب أمه وتاكل عقلها -أصل برضو يابيه حتى الأم المجنونة نفسها تفرح بابنها وتشيل حفيدها على إيديها- تيجي أخته الكبيرة وتعمل أي حوار وتقف في الشارع تردح لها ولأهلها، وأبو شنب طبعًا ميقدرش يفتح بقه ويدافع عن عروسته، دي أخته تاكله لو عمل كده. آخر مرة يابيه لما البت أخته الكبيرة وقفت تشتم آخر عروسة، كان في الشارع هنا، قدام المحل -أنا طبعًا كنت قاعد جوة مش عايز أسمع ولا أشوف، دي أعراض ناس برضو عيب أتفرج عليها، بعيد عننا وعن السامعين- وقفت تشتم البت وتشتم أهلها، قامت العروسة قالت لجمعة اللي كان واقف ساكت ومكسوف جمب أخته: ماترد؟ هز شنبك يا جمعة وسكّت أختك؟ جمعة بص للعروسة وبعدين بص لأمه اللي كانت واقفة جمبه وبعدين طاطا راسه في الأرض، قامت أمه حاضناه.. البت راحت قالعة الدبلة وحدفتها عليها وقالتله بصوت قاااااد كده: أنت عندك مازر أشووز. ألا صحيح يا باشا، أنت اسمك إيه؟ "

"حمدي. وبعدين؟"

فوجئ حمدي برده غير المتوقع، اكتشف أنه تعدى مرحلة الاستسلام لحكايات الحلاق لمرحلة الاستمتاع والاهتمام، وجد

في حكايات الرجل الساذجة من المتعة ما يجدها في فيلم سينيمائي أو رواية خفيفة.

"ولا قبلين، البت مشيت وهيا بتعيط، قام الواد معيط هو كمان في حضن أمه وخدته وروحت.. مازر أشووز، نياهاهاهاهاهاها، أنا بصراحة مفهمتش يعني إيه، فسألت واحد صاحبي متعلم ويعرف ألماني ولغات وكده، قالي مازر اشووز دي معناها إنه.. لا مؤاخذة.. ملوش في الحريم يعني.. نياهاهاهاهاهاها"

واستغرق الحلاق في ضحك طويل ولم يتمالك حمدي نفسه فبدرت منه ابتسامة عريضة مشاركة لضحك الحلاق. ونثر الرجل صابون الحلاقة على وجهه وهو مستمر في حكاياته التي لم تخرج عن مشاريع الزواج الفاشلة، وحمدي مندمج تمامًا معه، حتى أعلن في النهاية وهو يفك رباط الملاية الحمراء (الكستنائية) عن عنق حمدي.

"نعيمًا يابو حميد"

فوجئ حمدي بالتصريح غير المتوقع، وتجمد في مكانه لثوان قبل أن يدرك أنه الشخص المقصود، قام من مقعده ببطء وتأمل نفسه بالمرآة. لم يفهم إن كانت هذه الحلاقة المتدرجة الغريبة تعتبر حلاقة (نضيفة) بالمعايير الحديثة أم لا، هو يكره شكله بالتأكيد لكنه ربما كان هذا هو الشكل المفترض للظهور عليه في التلفاز؟

"والمفاجأة بقى، أتفرج يا معلم وأبقى أشكرني بعدين"

وثبت (حمو) الحلاق مرآة خلفية لتظهر خلفية رأس حمدي ويراها في المرآة الأمامية، ظهر بوضوح حرف H الإنجليزي مرسوم بماكينة الحلاقة في شعر حمدي.

"أحا.. أحا.. احاااااا.. إيه الخرا ده؟"

"خرا إيه يا باشا عيب كده، ده اسمه لاين، أنا كاتبلك حرف اسمك باللاين، دي الموضة، أنا بظبطك"

"لاين إيه وتظبطني إيه بالخرا بتاع أهلك ده، شيل القرف ده.. شيله دلوقتي"

"أشيل إيه بالظبط؟ ياباشا؟ بالراحة كده ومن غير زعيق والنبي"

"شيل.. شيل كل حاجة، كل حاجة.. أنت عندك مازر أشوووز"

* * * *

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية ظهرًا عندما خرج حمدي من بيته لشراء البدلة، لم يكن يحمل أي رغبة لشراء واحدة، بل كان يقاوم بصعوبة النفور الذي يجتاحه تجاه الأمر. شراء الملابس لم يكن يومًا من مشاويره المفضلة، ولم يكن يفعل إلا عندما تهترئ تمامًا ملابسه الحالية فيخرج وحيدًا لمحطة الرمل لشراء أول ما يقابله من ملابس تناسب قياسه وينقلب المشوار عادة إلى رحلة ابتياع كتب من مكتبات محطة ترام الرمل وشارع النبي دانيال. لكن اليوم الأمر يختلف، عليه أن ينتقي بعناية بدلة مناسبة للظهور بمظهر الكاتب الوقور على شاشة التلفاز، تبدو

هذه مهمة أكثر تعقيدًا من كتابة رواية جديدة، وأكثر نفورًا من من وجه محمد جمال نفسه.

في البداية كان عليه أن يمر بميدان محطة مصر، وجد نفسه -بشكل لا شعوري- يتفادى المرور أمام كشك زينب فعبر الطريق إلى الجانب الآخر مفضلًا المرور في دائرة واسعة مزدحمة على أن يمر أمامها فيراها أو تراه، لم يفهم لماذا ذلك ولكنه شعر بالارتياح عندما فعل.

الذاهب إلى محطة الرمل من ميدان محطة مصر يختار عادة طريقا من اثنين، إما الدوران حول محطة القطار الكبرى التى اكتسبت محطة مصر منها اسمها ثم اتخاذ شارع صفية زغلول مرورًا بإدارة المطافي وسينما أمير وسينما مترو ومعالم الشارع المميزة، أو المرور عبر محطة الأوتوبيس باتجاه سنترال محطة مصر القديم المحاط بباعة الخردة القديمة والأحذية المسروقة، ثم المرور بما كان سابقًا (مسرح الحبايب) ليتحول مع مرور الزمن وندرة الحبايب لمحل عملاق لبيع الأدوات المدرسية من أقلام وأوراق وخلافه، ثم اتخاذ شارع النبي دانيال الطويل ليلقي بك في قلب محطة الرمل. دون تفكير اختار حمدي اتجاه النبي دانيال، فالشارع كان دومًا قبلته الدائمة لشراء الكتب المستعملة -عندما كانت هناك كتب مستعملة- والكتب المزورة الرخيصة.

ربما كان عليه أن يفكر مليًا قبل أن تخطو قدمه شارع النبي دانيال، ربما إن فعل كان سيتفادى رؤية أكوام من نسخ (كتاب خيبة الأمل) المزيفة على الأرصفة وبين أيدي المشترين من القراء المتأخرين الذين لم يقرأوا الكتاب في هوجته الأولى فقرروا

قراءته في الهوجة الثانية بعد انتشار حكاية المجنون المدعي أن جمال سرقه منه، ربما كان سيتفادى طعم المرارة التي غص بها حلقه، ربما كان سيتخذ طريق صفية زغلول باختياره الشخصي وليس مضطرًا هاربًا من رؤية "خيبة الأمل" وكتابها ملقاة على الأرصفة.

عاد أدراجه في يأس والتف في دورة واسعة حول ميدان المحطة ليمشي في طريق صفية زغلول، مضى بجوار السور المعدني الذي يفصل بين الشارع وأطلال المسرح الروماني المتهدم، تذكر المرة الأخيرة التي مر فيها هنا، لا يذكر إلى أين كان ذاهبًا أو لماذا مر من هنا بالذات، فقط يذكر أن الساعة كانت قد اقتربت من العاشرة مساءً، وكان يمشي وحيدًا سارحًا في أمر ما فلم ينتبه لطريقه حتى شعر فجأه بارتطامه بشخص ما، كان خطأه بالتأكيد لعدم انتباهه لطريقه لكنه استعد للتشاجر مع الآخر إن لزم الأمر ورفع عينيه في عدوانية تجاهه.

"لا مؤاخذة معلش"

لم تكن كلمات الرجل المعتذرة بلطف ولا التربيتة المجاملة على كتف حمدي ولا حتى شعر الرجل الأبيض سببًا في تهدئة عدوانيته واستعداده للشجار، السبب كان ببساطة أنه يعرف هذا الوجه وهذه الابتسامة الهادئة التي تزينه، يعرفه ويألفه تمامًا لاعتياده على بداية يومه معه، إنه الساخر الأجمل والأطيب جلال عامر، الوحيد القادر على انتزاع ابتسامة حمدي العبوس بعمود "تخاريف" اليومي بسخريته العبقرية التي لا تحمل أي قدر من الافتعال، سخرية عجوز طيبة مهذبة لم تقدر السنين

على أن تنزع من صاحبها تمكنه من مفاتيح الكلام والقدرة على انتزاع الضحكات المجلجلة من قارئها مهما كان سنه. ألجمت الدهشة لسانه فلم يرد على الرجل بشوش الوجه الذي مضى في طريقه مرة أخرى، تابع حمدي خطوة الرجل المتمهلة الهينة، بظهره المحني قليلًا للأمام بفعل حمل سنوات أثقله، ابتعد الرجل فمضى خلفه حمدي وقد نوى أن يستوقفه ويسلم عليه ويخبره أنه يحب كتاباته. وظل الرجل يمشي وحمدي يتتبعه محاولًا استجماع شجاعته ليفعل ما نواه دون فائدة، حتى اختفى الساخر العجوز في مدخل مطعم قديم في ظهر مبنى سينما أمير، ليترك حمدي واقفًا في الشارع وقد اعتراه الندم على تردده اللعين. بعد شهر انتهت التخاريف الساخرة الطيبة إلى الأبد بوفاة العجوز ابن حي بحري بأزمة قلبية واتته أثناء اشتراكه في مظاهرة معارضة للحكومة هاجمها المؤيدون وتحولت إلى معركة بين الطرفين، مات الرجل وهو يبكي مرددًا حسب رواية من حضر المشهد: "المصريين بيموتوا بعض".

ذكرى مقابلة جلال عامر أبدلت بعضا من غضب حمدي، الناجم عن صدمة مقابلة خيبة الأمل على الأرصفة، بقليل من الشجن الناتج عن تذكر نهاية الرجل الطيب الحزينة..

كانت نهايته حزينة بالفعل، لكن ربما أراد الله بها أن يرحمه مما حدث لاحقًا. رجل لم يحتمل قلبه رؤية معركة بين أناس في مظاهرة، ماذا كان سيفعل لو رأى ما يحدث الآن؟

خرج من خواطره منتبهًا أنه وصل أخيرًا لشارع سعد زغلول، قلب محطة الرمل، نفض سريعًا فكرة غريزية أن يتوجه

للمكتبات الواقعة أمام السنترال على رصيف محطة ترام الرمل الأزرق، فهو لن يتحمل تكرار المشهد الذي بدأ به يومه مرة ثانية. دخل أول محل صادفه يبيع الملابس الرسمية الرجالية، لم يهتم لارتفاع الأسعار الواضح في المحل، فهو يحمل في جيبه آخر ما تبقى معه من أموال (خدمات الأستاذ الصحفية)، وهو مبلغ يكفي على أي حال لشراء بدلة أنيقة غالية.

لاحظ تهامس بعض العاملين في المكان وضحكاتهم المكتومة وهم يشيرون إليه، فكر أن هذا بالتأكيد لمظهره غير الملائم لمحل مشابه، لم تضايقه الفكرة ولم يكترث لها، فليظنوا ما يظنون. مشكلته الآن أكبر بكثير من نظرات الآخرين الساخرة له، هو عليه أن يختار بدلة ملائمة له، وهذا أمر أكثر تعقيدًا من تتبع شخصيات جارسيا ماركيز في أعوامه المئة من العزلة. تجول لفترة بين المعروضات دون أدنى فكرة في باله عما يمكن أن يناسبه منها، أخيرًا جاءه أحد الشباب العاملين في المكان تعلو وجهه ابتسامة لا تبدو كابتسامة تجارية ودود يُقابل بها الزبائن.

"ممكن أساعد حضرتك؟"

"أه، أنا عايز بدلة"

فكر بعد أن قال رده أن ياله من رد غبي، بالتأكيد يرغب في شراء بدلة، لن يدخل هذا المحل لشراء ملابس سباحة مثلًا !

"بدلة عشان إيه يا فندم؟ شغل ولا مناسبة؟"

هل الظهور في برنامج "كلام جميل" مناظرًا فتى رقيعا للدفاع عن حقه يُصنف كشغل أم كمناسبة؟

"آه.. شغل"

عرض عليه الشاب -دون أن تتبدل ابتسامته- تشكيلة واسعة من البدل لم يجد حمدي بينها فارقا، كره الاستمرار في التنقل بين البدل فاختار واحدة بشكل عشوائي، أثنى عليه الشاب حسن اختياره وذوقه الرفيع، ساعده على تجربتها والتأكد من قياسها المناسب عليه.

"وتحب حضرتك معاها شوز مناسب؟"

كاد أن يرفض لضيقه المتعاظم من العملية، لكن نظرة سريعة لحذائه المهترئ جعلته يعيد التفكير في الأمر، ومضطرًا رد بالإيجاب، هذا المرة رفض أن يمر بين صفوف الأحذيذة المعروضة وطلب من الشاب أن يختار له واحدا مناسبة بسرعة، وأخبره قياس حذائه معلنًا أنه سيأخذه مباشرة دون قياس.

"بالنسبة للكرافات؟ حضرتك تحب كرافات مناسب للبدلة أكيد؟"

بوغت بالسؤال وكأنها المرة الأولى التي يعرف فيها أن الرجال يلبسون ربطات العنق مع البدل، تخيل نفسه لوهله يرتدي ربطة عنق، رأى نفسه يختنق بها كحبل مشنقة، مجرد التخيل أشعره بضيق في التنفس دفعه لتحسس عنقه بيدٍ بينما يشير بالأخرى معلنًا رفضه التام. اصطحبه الشاب للكاشير حيث دفع

الحساب واستلم البدلة، وهم بمغادرة المحل قبل أن يستوقفه هذا الأخير:

"معلش، سؤال أخير بس يافندم، إنت الراجل اللي اقتحم حفل توقيع محمد جمال وقال الكتاب ده بتاعي، صح؟"

* * * *

شهيييييييييييييييييق، زفيييييييييييييير.

شهيييييييييييييييييق، زفيييييييييييييير.

تمالك أعصابك يا حمدي، تمالك أعصابك، مهما قالوا ومهما فعلوا، تمالك أعصابك.

إنها فرصتي الوحيدة، فرصتي الأخيرة. إن صلحت، صلح سائر عملي، وإن فسدت.. حسنًا، لا أحب التفكير في ذلك. ما يهم الآن هو أن أسيطر على أعصابي، لا يجب أن أستسلم للغضب مهما حدث. الكتاب كتابي واليوم يومي والخزي والذل والعار من نصيبهم إن شاء الله.

شهيييييييييييق، زفيييييييييير.

التمع رأسه الحليق كرأس مجند تحت كشافات الإضاءة الساطعة، بدا وكأنه رأس سلحفاة خرجت من درقتها، درقة السلحفاة هنا كانت البدلة الغالية الأنيقة، بدا وكأنه لا ينتمي لها، كأنها رُكبت عليه وثُبتت بشريط لاصق. كان ذلك نتيجة أنه ارتداها بنفسه، بنفس التسرع وعدم الاهتمام اللذين يرتدي بهما

سترة الكمساري الرمادية يوميًا، ولم يكن هناك بالطبع من يبدي له رأيًا ويقدم له نصيحة ويهندم له ثيابًا.

على العكس منه تمامًا بدا جمال في الطرف المقابل من المجلس الثلاثي أمام الكاميرا، ملابسه شبابية عادية تمثلت في تي-شيرت أزرق وجينز أسود مع حذاء رياضي أبيض نظيف، مع وجه تزينه لحية أنيقة مهذبة وشعر أسود ناعم قصير مقصوص بعناية، وتغلفه الابتسامة الساحرة الودود المطمئنة كواعظ ديني أنهى للتو محادثته الهاتفية مع مدير البنك وتأكد من أرقام حساباته ويستعد لبدء تسجيل حلقة تليفزيونية عن الزهد والقناعة.

شهيييييييييييق، زفيييييييييييييييير.

لا يجب أن أخبره برأيي في ميوله الجنسية الآن، لا يجب أن أخبره برأيي في ميوله الجنسية الآن.

"جاهز يا أستاذ حمدي؟"

قالها المذيع (جميل شاهين) لحمدي بينما ينظر في مرآة يحملها بيده ويتأمل شعره الفضي اللامع الذي انحنى عليه أشخاص ثلاثة يعملون بهمة وجدية وتركيز جراحي أعصاب، يرش أحدهم سائلا ما ويقص آخر شعيرات متطايرة وثالث يعمل بالفرشاة. شعر حمدي للحظة بينما يتأمل التركيز الخارق الذي يعمل به ثلاثتهم، أن لو قص أحدهم شعرة خاطئة ستنفجر هذه الرأس الفضية اللامعة لتزيل معها القاهرة وسكانها من على الخريطة. نفض الفكرة بسرعة ورد على المذيع اللامع بجدية واحترام مبالغ فيه "جاهز يا أستاذ جميل". كرر جميل السؤال موجهًا إياه

لمحمد جمال ليرد هذا الأخير بدماثة " whenever you’re ready يا أستاذ جميل".

شهييييييييييييق، زفييييييييييييييييير.

هوينيفر يو ريدي يا طري يا..

اهدأ.. اهدأ.

تردد من سماعات معلقة في مكان ما عد تنازلي ينبئ بقرب الخروج على الهواء، أشار جميل لشعيرات لا يعجبه وضعها بنظرة تحذيرية تحث مهندسي الشعر الثلاث على سرعة الانتهاء دون ترك تفاصيل ملعقة، يرتفع صدر حمدي ممتلئًا بالهواء ثم يهبط من حين لحين في محاولاته المستميتة للحفاظ على هدوء الأعصاب، كشافات الإضاءة العالية المسلطة عليه وعدسة الكاميرا الواسعة لا تساعده على هذا على الإطلاق، ابتسامة جمال ما زالت في مكانها. انتهى العد، بدأ التصوير.

"أعزائي السادة المشاهدين أهلًا بيكم في حلقتنا الجديدة من برنامجكم المفضل كلاااااااام جميييييييييل"

تلعب في الخلفية موسيقى تشويقية لثوان قبل أن يكمل جميل:

"مؤلف شاب يُظهر موهبة عظيمة ويكتب أهم رواية مصرية معاصرة، يصبح في خلال شهور أشهر من لاعبي الكرة وأهم من الفنانين، يبلغ نجاحه عنان السماء، وفي وسط كل ده يظهر شخص مجهول تمامًا، كُمساري ترام من إسكندرية، يقتحم حفل توقيع المؤلف الشاب ويدعي "الرواية دي روايتي، انتو سرقتوها

مني". مين الصادق ومين الكذاب؟ مين المبدع ومين المدعي؟ هل إحنا بصدد كشف الغطاء عن أكبر عملية نصب أدبية؟ أو إننا بنواجه مجرد زوبعة في فنجان من شخص باحث عن الشهرة وخلاص؟

زي ما اتعودنا في كلام جميل، دايمًا بنناقش مع بعض أهم قضايا الساعة بمنتهى الحيادية والإخلاص، دون أي تحيز لأي من الأطراف المتنازعة. وعشان كده النهاردة معانا المؤلف الشاب محمد جمال.. "

تنتقل الكاميرا من على وجه جميل وشعره الفضي لتظهر محمد يومئ برأسه بتحية مبتسمة للكاميرا.

"وكُمساري الإسكندرية حمدي محمود"

تنتقل الكاميرا لتنقل وجه حمدي الذي يحاول تقليد تحية جمال بهزة رأس مرتبكة وابتسامة مضطربة موجهة للكاميرا.

"أهلًا بيكم معانا في برنامجنا، أتمنى إننا نقدر نتناقش مع بعض في نقاش حضاري راقي، ونقدر نوصل مع بعض لحل للمشكلة يرضي جميع الأطرف"، قالها جميل بينما يتمنى في أعماقه حدوث العكس تمامًا.

"أستاذ حمدي، ممكن تعرف نفسك وتقدملنا باختصار وجهة نظر حضرتك؟"

تنحنح حمدي واعتدل في جلسته، فغر فاهه استعدادًا للحديث بينما ينظر لجميل، بيد أن جميل نبهه بإشارة من يده لأن يوجه نظره إلى الكاميرا بدلًا منه، فعل حمدل وبدأ في الحديث:

"أنا حمدي محمود، مُحصل تذاكر في هيئة النقل العام بالإسكندرية. و.. (شهيييييييق، زفيييييير) أنا الكاتب الحقيقي لكتاب خيبة الأمل، كتبت الرواية وتوجهت بيها لأستاذ خليل موسى عشان يساعدني على نشرها زي ما بيساعد المواهب الشـ.. المواهب المغمورة في مجالات الأدب والفن، و.. ."

"خليل موسى؟ يعني حضرتك مش بس بتدعي أن محمد جمال هو اللي سرق منك الرواية، إنت كمان بتتهم خليل موسى أنه ساعده على كده!"

يابن الكلب يا وسخ، أنا حكيت لميتين أمك كل حاجة قبل الحلقة، جاي تندهش وتعيش عليا الدور دلوقتي؟

اهدأ.. اهدأ

"أظن أني وضحت لحضرتك الكلام ده أثناء دردشتنا قبل دخول الاستوديو، و.. ."

"ده اتهام خطير جدًا يا أستاذ حمدي. أستاذ جمال، إيه رأيك في الاتهامات الخطيرة اللي بيلقيها أستاذ حمدي؟"

"يا أستاذ جميل أنا لسة مخلصتش كلامي، ارجعلي هنا لو سمحت"

لم يدرك حمدي أن الكاميرا مسلطة الآن على محمد جمال والميكروفون المثبت في ياقة بدلته غير مفعل الآن، فلم تخرج لكلماته أي صوت في البرنامج المذاع في اللحظة التي تحدث فيها جمال بابتسامة لطيفة وملامح فاكهة:

"الحقيقة يا أستاذ جميل أنا معنديش أي رأي، معنديش أي حاجة أقولها على الاتهامات الغريبة دي، أنا بس جيت الحلقة عشان بحب حضرتك ومقدرش أرفضلك طلب. بس بصراحة أنا مستمتع جدًا باللي أنا بسمعه وحاسه شيء مسلي جدًا، أنا قاعد معاك هنا بتفرج وبستمتع باللي بيتقال، وأظن ده حال السادة المشاهدين دلوقتي"

"هههههههههههه، طب دلوقتي أستاذ جمال بيرفض التعليق على اتهاماتك يا سيد حمدي، إيه رأيك في الكلام ده؟"

"أنا كنت عارف يا أستاذ جميل أن كلامي لن يُقابل إلا بالاستهزاء والسخرية، فجبت معايا دليل لا يدحض على ملكيتي للرواية"

انحنى حمدي لثوان ليحضر حقيبة سوداء أنيقة كلاسيكية، أشبه بحقيبة النقود وحقيبة المخدرات في أفلام الجريمة الرخيصة في التسعينات، يتابع حديثه بينما يفتحها:

"النسخة الأصلية من الرواية اتحرقت، لكن معايا نسخة ضوئية طبق الأصل من المخطوطة الأصلية للرواية، مكتوبة بخط إيدي، فيها حتى الهوامش اللي كنت بكتبها لنفسي، الفقرات القديمة المشطوبة اللي بدلتها بفقرات أحسن وأوقع. أي

شخص بيفهم بمجرد ما يلقى نظرة على الصفحات دي حيقول علطول أني أنا المؤلف الحقيقي للرواية"

بملامح قائد منتصر أبرز للتو سلاحه السري الذي لا يقاوم وعلى وشك استخدامه لتدمير سور الحصن المنيع، ألقى حمدى الملف على المكتب الزجاجي أمام جميل بينما يراقب ملامح محمد جمال، أثار غيظه ثبات ابتسامة الأخير المطمئنة وعدم اهتزاز ملامحه، ولكنه عزا ثبات جمال الانفعالي لغبائه الذي منعه من إدراك خسارته البينة وفضيحته المهينة.

"أوووووه، دي مفاجأة ماكانش حد يتوقعها"

وألقى نظرة جانبية مؤنبة لحمدي لأنه لم يخبره بوجود نسخة المخطوطة قبل بدء البرنامج، ثم فتح الملف المغلق وأخرج الصفحات البيضاء المكتوب عليها بحبر ماكينات التصوير الضوئية الأسود مفكرًا فيما يجب أن يفعله الآن.

"إيه رأيك يا أستاذ جمال دلوقتي؟ لسة معندكش حاجة تقولها وبتتفرج وخلاص؟"

"ممكن أشوف الورق ده يا أستاذ جميل؟"

أعاد جميل الأوراق للملف وقدمه لجمال، بينما تراجع حمدي في كرسيه ناظرا للكاميرا في خيلاء بثته القناة في منتصف الشاشة الأيسر، في الوقت الذي ملأ فيه النصف الأيمن من الشاشة صورة جمال الذي أخرج الأوراق وتأملها دون أن تتغير لزوجة ابتسامته أو تتزحزح قيد أنملة.

"مجهود رائع والله، تخيل يا أستاذ جميل أنك تجيب رواية مشهورة وتعيد كتابتها بخط إيدك، كلمة كلمة وحرف حرف، وتجود عليها بكلام من دماغك وتعيد كتابة فقرات على مزاجك وتشطب عليها، وتكتب هوامش وتدلق قهوة وشاي على الورق. تخيل المجهود المبذول في كتابة الورق ده ومحاكاة كتابة الرواية؟ أنا آسف يا سيد حمدي، بس أنا حقيقي بشفق عليك"

على النصف الأيسر للشاشة عُرض التغير التدريجي لملامح حمدي من الوجه الظافر المطمئن إلى الوجه الغاضب المهتاج نافر العروق، تطاير الزبد واللعاب من فمه بينما يصرخ:

"أنت شخص قليل الأدب، بتشفق على مين يا مدعي يا كذاب يا حرامي"

دارى جميل فرحته بسخونة الحلقة التي جاءت بأسرع مما توقع بغطاء زائف من الحزم كسى به ملامحه:

"لا يا أستاذ حمدي، عيب، ميصحش كده، مينفعش الألفاظ دي في برنامجنا، أرجوك تمالك أعصابك"

شهيق، زفير، شهيق، زفير، شهيق، زفير، شهيق، زفير، شهيق، زفير، شهيق، زفير، شهيق، زفير.

اهدأ.. اهدأ، لا تغضب، هم يريدونك غاضبا عصبيا هائجا. اهدأ، أنت تقدر على الإطاحة به بكلماتك بسهولة.

"ماشي يا أستاذ جميل، أنا اللي كنت أقصد أقوله.. "

"ومعانا دلوقتي في اتصال تليفوني أستاذ خليل موسى، أهلًا بحضرتك يا أستاذ خليل"

"أهلًا بيك يا جميل"

بدا صوت الصحفي الأشهر منزعجًا مشمئزًا كمن وجد نفسه مُحكمًا رغمًا في شجار نشب بين زوجين لا يقرب لأحدهما بصلة.

"أستاذ خليل، حضرتك سمعت الاتهامات الموجهة لحضرتك من قبل أستاذ حمدي، إيه تعليقك عليها؟"

"والله يا جميل أنا مش عارف أقولك إيه، أنا مكنتش ناوي أنزل بنفسي وأشارك في المهزلة دي. لولا صداقتنا الشخصية مكنتش حقبل أني أرد على تليفونات المعدين وأشارك في الحلقة دي. إحنا كبرنا على الحاجات دي يا جميل، كبرنا وشعرنا شاب على المهاترات الفارغة والاتهامات العبيطة دي، عيب والله الكلام ده، عيب"

يابغل يا ابن الوسخة.. بس بس بس، أهدأ.. شهيييييييق، زفيييييير.

"كل الناس عارفة خليل موسى كويس، عارفين أنا مين وبعمل إيه، معقول حلعب الألعاب الهايفة دي وحسرق رواية من واحد وأديها للتاني؟ وبعدين حتى لو عملت كده.. إشمعنى يعني محمد جمال؟ جمال مؤلف مميز ومجتهد ما شاء الله عليه، بس أنا مليش علاقة بيه، متقابلناش غير مرات معدودة في ظروف لا

تسمح بأكتر من تبادل التحية الودية، ليه أنا أضحي بسمعتي وتاريخي وإنجازاتي عشان لعبة بائسة زي دي؟ عيب يا جميل لما نسمع كلام لأي شخص باحث عن الشهرة غريب الأطوار يشدنا معاه في حوارات زي دي".

شهيييييييق، زفـ.. أحا بقى

"مين اللي غريب الأطوار يا خليل؟ إنت نسيت نفسك ولا إيه؟ نسيت حمدي؟ نسيت حمدي الأستاذ؟"

"يا جميل أرجوك سيطر على ضيوفك، عيب قلة الأدب والإهانة اللي بتحصل دي"

"قلة أدب وإهانات؟ أنت لسة مشفتش إهانات ياصحفي المعارضة الكبير. يا خليل ده أنت نص مقالاتك وكتبك أنا اللي كاتبهالك، نسيت ولا إيه؟ لو نسيت أفكرك، وأفكركم كلكم.. كل الأساتذة الصحفيين، الكتاب الأفاضل.. أفكركم كلكم بحمدي محمود وخدمات الأستاذ الصحفية"

"الموضوع كده خرج عن حده واتحول لاتهامات ملهاش معنى ولا أساس من الصحة، أنا أسف يا جميل أنا أترفع عن استكمال المناقشة المهينة دي، أنا حقفل السكة.. ولما يبقى يجيب دليل على كلامه السافل ده إبقوا كلموني تاني. سلام"

ورقص قلب جميل طربًا لما آلت إليه الحلقة.

"لألألألأ، كده عيب جدًا يا سيد حمدي، الكلام اللي إنت بتقوله ده خطير جدًا ولا يمكن أبدًا نذيعه في برنامجنا بغير دليل، من

غير دليل نبقى بنكيل الاتهامات الباطلة وبنصيب ناس أفاضل بجهالة، حضرتك عندك دليل على اللي انت بتقوله؟"

عليا وعلى أعدائي، حفضح ميتين أبوكم كلكم يا أوساخ يا أنجاس يا ولاد الكلب.

"كل الصحفيين الكبار في مصر كانو بيجولي، بيبعتولي إيميلات بتتوسل أني أكتبلهم مقالاتهم وكتبهم وكل منشوراتهم، كانو بيدفعو الآلاف عشان حمدي يوافق يكتبلهم، وكله متسجل.. كله عندي على الإيميل. هاتولي بس نت عشان أفتح الإيميل وأفرجكم"

"ياريت يا جماعة حد من الاستوديو يجيب جهاز لابتوب عليه إنترنت كونكشن لأستاذ حمدي عشان يفتح حساب بريده الإلكتروني ونشوف صدق مزاعمه أو كذبها"

لم تلتقط عدسة الكاميرا المثبتة على حمدي إظلام وجه جمال المفاجئ وعبوسه القلق، بيد أن عيون حمدي لحظت ما لم تره عدسة الكاميرا، وشعر بالظفر الكامل أخيرًا بينما يسجل الدخول لصندوق بريده على الحاسب المحمول الذي أحضره أحد العاملين في الاستوديو، ركزت الكاميرا على شاشة حاسبه المحمول التي تبدو عليها علامة التحميل في انتظار فتح صندوق البريد، وأخيرًا تم التحميل وفتح صندوق البريد أمام الكاميرا، وبثت شاشات التليفزيون في جميع أنحاء مصر لقطة توضح صندوق البريد الفارغ لـ (El_Ostaz_Press_Services@yahoo.com).

انتظر حمدي في اطمئنان لصيحات وشهقات الانبهار، ولما تأخرت ورأى في العيون الضحكات الساخرة نظر إلى شاشته، وصُدم بالفراغ التام لمحتوياته. في جنون ضغط على أزرار حاسبه باحثًا في كل ركن من صندوق البريد الفارغ عن أي أثر لرسائل خليل موسى والآخرين دون جدوى، في كل صفحة يدخلها كانت تبدو كلمة (0 Messages) واضحة وجلية أمام كل العيون.

"سيد حمدي، مش فاهمين حاجة من اللي إحنا شايفينه، ممكن توضحلنا فين الدليل بالظبط؟"

ظل حمدي صامتًا لوهلة، عقد الذهول لسانه فلم ينطق حرفًا. وبعد ثوان طالت التقطت فيها الكاميرا كل تفاصيل وجهه العاجز المكفهر الغاضب المذهول، انتفض واقفًا وصرخ في جنون:

"هشام.. هشاااااااااااام، هشام بتاع السكس، ابن الكلب مسح كل اللي على الإيميل.. مسح كل حاجة"

"عيب يا سيد حمدي، عيب الألفاظ دي، مش حينفع نكمل الحلقة وحضرتك بتتكلم كده على الهوا"

"أرجوك يا أستاذ حمدي كفاية كده، كل الإهانات اللي حضرتك وجهتها في الحلقة النهاردة كانت إهانات لشخصك مش لينا، أنا مسامحك على كل اللي قلته ومش عندي أي ضغينة في قلبي تجاهك. ياريت حضرتك كمان تنهي الموضوع على كده وتوفر على نفسك المزيد من الـ.. "

لم يستطع أي من العاملين في الاستوديو أن يلحق بحمدي الذي جرى فجأة من مكانه متجهًا نحو جمال، وقبل أن يدرك جمال ما يحدث هبطت صفعة حمدي كقنبلة على قفاه، ألحقها بصفعة أخرى أعلى رنينًا قبل أن تحيل بينهما أخيرًا عشرات الأيادي التي جذبت حمدي للخلف بعيدًا عن أعين الكاميرا التي اقتربت أكثر وأكثر على جمال الذي لم يتمالك دموعه وانفجر في البكاء كطفل صغير. منع جميل نفسه بصعوبة من أن يتقافز راقصًا مبتهجًا بنجاح الحلقة الاستثنائي، وإن لم يقدر هذه المرة على منع ابتسامة متسللة رقصت بوضوح على شفتيه بينما يختم الحلقة الأهم في مسيرته:

"يكاد قلبي أن ينفطر ما رأيناه في حلقة اليوم، لو كنت أعلم ما سيحدث لم أكن لأسمح أبدًا باستضافة شخص مريض مثله في برنامجنا. أعتذر لكم من أعمق أعماق قلبي على ما رأيتموه اليوم، وأعدكم أنه لن يتكرر هنا أبدًا. نلقاكم غدًا.. تصبحون على خير".

16

"بت يا نعمة.. يا نيييييييعمااااااة"

جاوزت من العمر الأربعين وصار ابنها أطول منها، وما زالت الجارات ينادينها بـ(بت يا نعمة)! قررت أكثر من مرة أن تأخذ موقفًا عدائيًا، قررت أنها سترد بخشونة على من تناديها بهذا اللقب، ستعلن بقوة وبوضوح أنها (أم محمود) ولا شيء سوى (أم محمود). لكن ليس الآن، ربما لاحقًا.

"أيوة يا أم مصطفى؟ في إيه؟"

"جوزك ع التليفزيون يابت"

"إييييه؟

"إيه إللي إيه ! أتطرشتي؟ بقولك جوزك ع التليفزيون، مع المذيع الحلو ده إللي بيعمل شعره سيشوار، على القناة الزرقا دي"

ألجمت المفاجأة لسانها فلم ترد، عادت مسرعة إلى غرفة المعيشة حيث تسكن الشاشة العملاقة ملعقة على الحائط، بحثت في عجالة عن جهاز التحكم حتى وجدته وفتحت التلفاز، جعلت تضغط على أزرار الجهاز متنقلة بين القنوات إلى أن رأت شعار القناة الأزرق الشهير في زاوية الشاشة العلوية اليمنى فتوقفت. لم يكن زوجها هناك، كان على الشاشة فتى جميل يتحدث في هدوء عن شيء ما لم تهتم بمعرفته، كل ما فكرت

فيه الآن هو ما الذي جعل (الولية أم مصطفى المجنونة) تخبرها أن زوجها موجود على التلفاز؟

لم يطل تساؤلها كثيرًا وأتتها الإجابة على هيئة زوجها برأسٍ لامع كالبيضة، ينهال على الفتى الوسيم بصفعة وراء أخرى سمعت رنينهما واضحًا من مكبرات الصوت عالية الجودة الملحقة بالشاشة. لم تندهش نعمة، فالدهشة مرحلة شعورية متقدمة تأتي بعد أن يحاول العقل معالجة مجموعة من المعلومات المدخلة لا تتناسب مع بعضها البعض فيفعل الشعور بالدهشة، لكن عقل نعمة المحدود لم يقدر على استيعاب دخول كل هذه المعلومات في نفس الوقت.

دقائق طويلة مرت بعد أن انتهت الحلقة تحاول فيهم نعمة ادخال الصور غير المفهومة من الذاكرة إلى عقلها. زوجها ليس في عمله الآن؟ زوجها على التلفاز؟ زوجها يرتدي بدلة سوداء أنيقة لم تره في مثلها حتى في يوم فرحه معها؟ زوجها يصفع الفتى الوسيم على قفاه عدة مرات قبل أن يجذبه الآخرون من فوقه بصعوبة؟ صفعات على القفا في التلفاز! أيمكن حدوث هذا أصلًا؟ استقرت المعطيات كلها في عقلها شيئًا فشيئًا، ثم تملكها أخيرًا الذهول.

هي ليست غبية كما يحسبونها، هي تعلم جيدًا أن زوجها متورط في شيء ما له علاقة بالكتب والكتابة، هو يكتب أشياء ويعطونه مقابلها الأموال، الكثير من الأموال، أموال كانت تكفي لشراء الشاشة الكبيرة وتغيير قطع الأثاث البالية وشراء ملابس جديدة وأنيقة لها ولابنها، علمت هذا من التنصت المستمر على زوجها

من خلف باب غرفته، عندما يتحدث هذا الرجل في الهاتف فلا يحتاج المستمعون لبذل مجهود كبير للتنصت عليه. كانت تعيب على نفسها إتيان هذا الفعل وترفضه حتى غلبها الفضول بعد الحادثة الغريبة عندما اقتحم عليها وعلى ابنها الغرفة وطلب للمرة الأولى والأخيرة في حياته أن يشاهد محطة فضائية معينة، ثم آلت الأمور إلى ما آلت إليه وكان أجمل أيامها منذ سنوات بعيدة، بعدها قررت أن عليها أن تفهم ماذا يحدث مع زوجها علها تصل إلى لحظة شبيهة بما وصلت إليه في هذا اليوم.

ثم تغير كل شيء، انقطع سيل الأموال المستمر دون سابق تحذير، لم يعد يعطيها سوى المصروف القديم الهزيل من راتبه الشهري ككمساري، لم تسمح لنفسها بالحزن والتحسر ولو في أعماق قلبها، بذلت مجهودًا حقيقيًا لاحتواء غضب ابنها الذي اعترض على انقطاع المصروف الكبير المفاجئ، وحالت بينه وبين أبيه خوفًا من صدام لن تحمد عقباه. حاولت أن تتبع سبب الجفاف المفاجئ دون جدوى، لم تفهم شيئًا، فقط فوجئت بزوجها في ألعن حالة رأته عليها منذ زواجهما، صار فجأة وديعًا مستكينًا صامتًا على الدوام، لا يكاد يُسمع له صوت، حتى تمنت أن تسمعه يصرخ ويسب ويلعنها وأهلها مثلما كان الحال من قبل، سكونه المفاجئ أصابها بالخوف. وما زاد الطين بلة الحادثة المرعبة عندما أشعل النار في كومة من الورق القديم ثم انفجر في الضحك والبكاء، لم تره يومًا في حياتها يضحك أو يبكي إلا في هذه الليلة، بكى في حضنها لساعات حتى غلبه النوم. بقدر ما خافت عليه وحزنت لحزنه بقدر ما غزا قلبها فرح دفين

لبكائه في حضنها ونومه فيه، أنّبها ضميرها بعدها على هذا الشعور المبتهج بما أصاب زوجها من مصاب.

أخيرًا هداها تفكيرها إلى فهم كل شيء، عرفت حقيقة الأوراق القديمة التي حرقها زوجها وصرخ وضحك وبكى، كان يجب أن تفهم من البداية، كانت الأمور واضحة على الدوام لكن غباءها أعماها عن رؤية الشمس. زوجها كان مسحورًا، كان مسحورًا على الدوام، عمل له أحدهم عملًا وأخفاه في مكان ما فصار الرجل دومًا عصبيًا مهتاجًا كارهًا لنفسه ولأسرته وللآخرين، وما حدث في هذه الليلة كان أنه وجد هذا العمل القديم وحرقه بنفسه، هذه الأوراق القديمة المتسخة المكتوبة بخط قبيح هي بالتأكيد العمل السحري، هذا يفسر بجلاء اضطراب زوجها وضحكه وبكاءه في حضنها، لا بد أنها عفاريت الجان كانت تخرج من جسده.

ظنت أن الحياة ستصبح على خير ما يرام بعد أن حُرق السحر وذهب عنه إلى الأبد، سيصبح طيبًا هادئًا مشرقًا يحب أسرته وتحبه، وسيقربها كل ليلة بعد أن يشفى تمامًا من السحر ليعوض أعوامها العجاف، سيحب ابنه وسيحبه ابنه وسيحبها كلاهما. لكن السحر لم ينفك وظل زوجها غريب الأطوار، وكأن الجان عادوا فتلبسوه مرة أخرى، ذهب عنه السكون والوداعة وعاد الغضب القديم، عاد أسوأ وألعن وأغبى، كانت تسمعه متنصتة على باب غرفته يحدث نفسه صارخًا وباكيًا وضاحكًا، سمعته مرة يحطم حاسبه المحمول ويركله بأقدامه بينما يطلق السباب واللعان والوعيد على من لا تعرفهم، يتحدث عن كتاب

وفيلم ولصوص سرقوه. إنه حديث العفاريت على لسانه بالتأكيد، كان يجب أن تفهم من البداية أن الحرق ليس الحل لفك الأعمال، كان يجب عليها أن توقفه عن فعلته وتلجأ لمتخصص في مثل هذه الأمور ليفكها عنه بخبرته.

ما علاقة كل هذا بما حدث على التلفاز في هذه الليلة؟ ما الذي أوصله لبرنامج كلام جميل؟ تذكر أنها شاهدت حلقة من قبل من نفس البرنامج، كان فيها شيخ من الأزهر وشيخ آخر يتكلم في السحر وعنه ويدعي قدرته على التواصل مع الجن والسيطرة عليهم، كان في الحلقة الكثير من الشجار بين الشيخين، أكان هذا ما يحدث في حلقة هذه الليلة؟ ألهذا ظهر حمدي في البرنامج؟ كضحية من ضحايا السحرة والتعاويذ والعفاريت؟ ألهذا ضرب الشاب الوسيم على قفاه؟ أكان هذا الشاب هو الساحر المسؤول عما فيه زوجها؟ أم أن العفاريت التي تلبس زوجها هي المسؤولة عن جنونه وضربه للشاب البريء أمام الكاميرا؟

جعلت تزرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، تعصف برأسها العواصف لساعات حتى تجاوزت موعد نومها المعتاد دون أن تشعر، حتى قطع الصمت المحيط بها صوت انفتاح قفل الباب. كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة صباحًا، هرعت لترى القادم، كان زوجها، في بدلته السوداء الفاخرة الجديدة وإن بدت في أسوأ حال، يغطيها الغبار كما يغطي الحذاء الذي كان لامعًا، قميصه الأبيض الذي لم يعد كذلك خرج من بنطاله وفُتحت بعض أزراره بعدم انتظام، في يده حقيبة سوداء رجالية متسخة تشبه حقائب رجال الأعمال في المسلسلات. كان مقهورًا.

لما رأت ما في أعين زوجها في هذه اللحظة تبخر من رأسها كل ما أُعتمل فيها من هراء عن الجن والسحر والأعمال، ما في عينه لم يكن من سحرٍ ولا لبس. تعرف هذه النظرة جيدًا، لم تعرفها من عيون زوجها وإنما خبرتها في طفولتها البعيدة، هذه نظرة أمها بعدما يفرغ أبوها من ضربها، هكذا كانت تبدو عيونها وهكذا بدت عيون زوجها الآن. كان مقهورًا.

"حمد الله ع السلامة يا أبو حوده"

"الله يسلمك يا نعمة"

ربما لو تجاهلها وصمت لاطمئنت قليلًا، ربما لو صرخ في وجهها بأن تغور من وجهه، أو ربما لو أزاحها من طريقه بيد مشمئزة منها، إن فعل أيًا من هذه الأشياء لارتاح بالها قليلًا ونعمت بفكرة أنه بخير، أو على الأقل هو ما زال هو بكل ما فيه وكل ما اعتادت عليه. ولكن (الله يسلمك)؟ (يا نعمة)؟ يا إلهي الرحيم، ماذا حدث لك يا أبو محمود؟ ماذا فعلوا بك؟ ماذا فعلوا فيك؟ من أنت يا رجل؟ أين زوجي؟

"أحضرلك العشا طيب؟"

"لأ شكرًا، تصبحي على خير"

وتأكدت المرأة بما لا يدع مجالًا للشك أن زوجها قد جُن تمامًا. راقبته في جزع يمضي بخطى متهادية حتى بلغ حجرة مكتبه ففتح بابها ودخل وأغلقه خلفه، سمعت تكتكة المفتاح من

الناحية الأخرى لتؤكد عزلته التامة ومنعها ومنع أي مخلوق من الدخول عليه لأي سبب.

رغم اعتيادها على عزلته الدائمة لما يقارب العقدين من الزمان قضاهما معتكفًا في غرفته باختياره تاركًا إياها ملقاة في أركان الشقة بلا أي اهتمام يذكر أو حتى إدراك لوجودها، آمنت نعمة أن عزلته في هذه الليلة بالذات تختلف تمام الاختلاف عما اعتادته طوال العمر المنقضي، هناك ما يكاد يقتلها قلقًا دون أن تدري ما عليها أن تفعل إزاءه. فكرت أن توقظ محمود ابنها وأوشكت أن تفعل ولكنها امتنعت في آخر لحظة، لم تدر ماذا قد ما تقوله له، يعصف بقلبها القلق ولكنها لا تعرف كيف تصيغ قلقها المبهم لابنها، وحتى إن فعلت فماذا سيفعل؟ هو ليس صديقا لأبيه ولا يهتم لأمره، يكاد الفتى أن يكرهه وإن لم يذكر ذلك لها صراحة.

قررت أن تذهب للنوم، استخدام لفظة (قررت) هنا كان استخداما خطأ، فالمرؤ يقرر أن يفعل شيئًا بإرادته الحرة، يختار ما يفعله من بين عدة خيارات ويقرره. ونعمة لم يكن لديها للخيارات المتعددة سبيلًا، حتى النوم لم يكن خيارًا، فمن أين تنعم العيون بالنعاس في ليلة مريبة مثل هذه؟ هي فقط أقنعت نفسها أن فعل الذهاب إلى السرير والرقاد فيه بعيون مفتوحة محملقة في السقف هو "قرار بالذهاب إلى النوم". لم يكن هذا خير قرار ولكنها لم تملك غيره على كل حال. ظلت في سريرها الواسع تتقلب وحيدة مثلما اعتادت منذ تركت بيت أمها، كل الأفكار المرعبة عادت لتمرح في مراعي وعيها، حتى أفكار السحر

والعفاريت التي أدرك قلبها بجلاء منذ ساعات أنها خيالات ساذجة عادت لتتربع على قمة جبال القلق والخوف والتوتر.

مر على صراعها مع النعاس الذي لا يجيء وحربها الخيالية مع أشباح زوجها عدة ساعات كدهر، قامت أخيرًا جافة الحلق غارقة في العرق ويعصف برأسها الصداع، عقارب الساعة المضيئة المعلقة أشارت للسابعة صباحًا تقريبًا، مضت متمهلة وهي تكاد تنكب على وجهها من دوار جاء كعاقبة حتمية للأرق، وصلت إلى الحمام فغسلت وجهها بماء بارد وشربت منه الكثير عله يطفئ ما يعتمل بداخلها، في طريق عودتها تحاملت على نفسها ومرت على باب غرفة زوجها، ألصقت أذنها بالباب راغبة في التقاط صوت شخير أو تنفس منتظم يطمئنها أن زوجها وشياطنيه في راحة مؤقتة، أو على الأقل لن تسمع شيئًا وستقنع نفسها بنفس النتيجة. ولكن لم يحدث هذا ولا ذاك.

لم يكن صوته عاليًا كفاية لتميز ما يقول، لكن ما كان واضحًا هو حدة كلماته وارتعاشتها في نفس الوقت، كان يخاطب شخصا ما بقلب محروق وروح تحتضر، سمعت صوت ارتطام عنيف خشبي، لا بد أنه يلقي بأشيائه على المكتب وعلى الأرض، لا بد أنه غاضب جدًا، لا بد أنه بائس جدًا. ولكنه كان دومًا كذلك فما الجديد يا بنت يا نعمة؟

بأصابع مرتعشة طرقت على الباب المغلق بخفة.

"أبو محمود، أنت كويس؟"

سمعها، بالتأكيد هو سمعها، عرفت هذا من توقف حديثه بعد طرقاتها وسؤالها. انقبض قلبها لوهلة انتظرت فيها إجابة.

"روحي نامي يا نعمة"

جاء صوته عاليًا حازمًا آمرًا ناهيًا، وعطوفًا أيضًا! لم يكن أمرًا مثل آلاف الأوامر التي ألقاها عليها من قبل، رغم أن الصوت لم يتغير وارتفاعه الغاضب ما زال كما كان دومًا، لكن هناك نبرة مختلفة فيه هذه المرة، نبرة مشفقة تعطف عليها، لا تعرف لماذا شعرت بهذا ولكن الشعور جاءها مباغتًا ليغمرها بعدما سمعت كلماته. ورغم الحيرة التي تملكتها إلا أن الشعور الجديد الغريب الذي لم تذق مثله من قبل أسكرها، هبط على قلبها بردًا وسلامًا، فاستجابت لأمره وذهبت منصاعة لسريرها، ونامت ما إن وضعت رأسها على الوسادة.

لم تحتفظ بذات الشعور بعد استيقاظها في الواحدة ظهرًا، قامت فجأة، انتصبت من مرقدها على حين غرة، كأنما رش أحدهم على وجهها الماء المثلج. ترجلت من السرير وخرجت من الغرفة متجهة إلى غرفة حمدي المغلقة. لا تجد أي تفسير لشعور الانزعاج الذي اعتراها، عاد إليها صوت زوجها في حديثه المريب خلف باب غرفته في الفجر فتملكها خوف عظيم. طرقت على الباب بهدوء.

"أبو محمود.. أبو محمووووود.. أنت صاحي؟"

لا رد، لا صوت. بالتأكيد هو نائم، لم يكن أبدًا من طيور الصباح المشرقة التي تصحوا مع ضوء الشمس، قد يتآخر في النوم إلى

الثانية ظهرًا ولن يكون في هذا ما يريب. أتركيه يا نعمة كما تتركيه كل يوم، نظفي بيتك وجهزي طعام الغداء لابنك قبل أن يعود من المدرسة فلا يجد ما يأكله.

ابتعدت عن الغرفة بخطوات قلقة، اغتسلت بمياه باردة في الحمام، خرجت منه وبدأت في ممارسة طقوسها اليومية المعتادة، جهزت لنفسها إفطارًا كالمعتاد، زهدت فيه بعد تناولت أول لقمة، فأزاحته جانبًا. بدأت في تنظيف الشقة وممارسة تفاصيل حياتها اليومية، بيد أن شعوري القلق والخوف غير المبرر لم يدعا لها مجالًا للتركيز في أي شيء.

طرقت على الباب مرة أخرى.

"يا أبو محمود.. رد عليا الله يكرمك"

وما من مجيب. تعلم أن ما تفعله غير منطقي ولا أساس له من الصحة، زوجها نائم لا جدال في ذلك، وإن استمرت في طرقاتها ونداءاتها سيستيقظ ليصب جام غضبه عليها. حسنًا، ليفعل، فليصب جام غضبه عليها فهي لن تبالي، بل ستفرح إن فعل، ستعرف أنه بخير وأنها ليست إلا حمقاء غبية كالمعتاد، وسيمضي من الحياة يوم آخر.

طرقت، بقبضتها الكاملة هذه المرة، علا صوتها وبدت ارتعاشته جلية.

"يا أبو حوده.. يا أبو حوده إصحى، إصحى عشان تفطر يلا"

يا إلهي، كم يخيف هذا الصمت؟ كم يثير الرعب والجنون؟ قلبها يدق بسرعة لم تعرفها من قبل، يدق بعنف، وكأن قبضات أبيها التي كانت تستهدف وجنتيها من قبل تدق على حوائط قلبها من الداخل الآن.

"يا حمدي.. يا حمديييييييييييييي.. إصحى يا حمديييييي"

تطرق على الباب بكلتا قبضتيها الآن في ضربات مستمرة سريعة عنيفة متزامنة مع دقات القلب المؤلمة، نداؤها المرتجف تحول إلى صراخ باكٍ هيستري اختلطت فيه الدموع مع اللعاب المتناثر، فقدت القدرة على التفكير وتوقف عقلها عن العمل.

"افتح البااااااااب.. افتح الباب واصحى دلوقتي يا حمدييييييي، رد عليا وقولي أي حاجة، أي حاجة وأنا حسكت علطول"

هرعت إلى غرفتها، التقطت ما طالته يدها من أي نسيج قماشي، هرولت خارجة تجاه باب الشقة وهي تلف رأسها بما طالته يدها، كان "كيس وسادة" قطنيا متسخا، لم تهتم.. فقط دارت به شعرها وجيدها المكشوف، حافية القدمين جرت في الممر أمام باب شقتها لتدق بكفها المفرود باب شقة جيرانها دقات هيسترية، فُتح الباب في ثوان ليظهر منه طفل صغير نظر لها في حيرة.

"فين أبوك يا حمّو؟"

عقد الخوف لسان الطفل (حمّو) من مشهد جارته الصارخة في جنون ولم يعرف ماذا يفعل، جاءت أمه مهرولة لترها في هيئتها الهيستيرية.

"مالك يابت يا نعمة في إيه؟ ابنك حصله حاجة؟"

"جوزي يام حمو، جوزي.. أبو محمود قافل على نفسه باب الأوضة بالمفتاح وعمل في نفسه حاجة ومش بيفتح، خلي أبو حمو ييجي معايا يكسر الباب والنبي أبوس إيديكي"

"طب أهدي يا حبيبتي وخدي نفسك، حاضر" ثم التفت لداخل الشقة وصرخت بلهجة أمرة "أبو حمووووو، أبو حموووووو، قوووم يا راجل وتعالى بسرعة"

جاء أبو حمو يهرول مجيبًا صرخات زوجته، يجر معه كرشه المتدلي في فانلة منزلية بيضاء محملة ببقع الفول الذي لم ينته بعد من مضغ آخر لقمة تناولها منه.

"إيه يا ولية في إيه فجعتيني، كنت حشرق باللقمة وأموت"

"روح مع نعمة بسرعة والحق جوزها، بتقولك حابس نفسه في الأوضه وعمل في روحه حاجة، بسرعة روووح"

انتبه الرجل لنعمة الباكية على الباب مثبتة بيدها غطاء المخدة القماشي على رقبتها وشعرها.

"مش جوزها ده اللي طلع في كلام جميل امبارح وقعد يزعق وضرب الواد على قفاه؟"

"ياراجل عيب عليك قلة الأدب بتاعتك دي، بقولك الراجل شكله عمل في روحه حاجة، اتحرك روح أعمل زي ما الرجالة بتعمل ولو لمرة في حياتك"

مضى الرجل متثاقلًا مع نعمة الباكية تحسه دفعات زوجته على ظهره ليتحرك أسرع، بلغ باب الغرفة وطرقها بيده الغليظة عدة مرات مناديًا بصوته الأجش.

"أبو محموووووود.. انت كويس؟ أحمدييييييي"

"اكسر الباب وادخل واقفل الجاعورة اللي إنت مش فالح غير فيها دي"

أذعن لأوامر زوجته منزعجًا، خبط الباب خبطة بكتفه اللحمي فترجرج معه جسده الدهني بالكامل، أتبعها بخبطة بثانية وثالثة، تراجع عدة خطوات وجرى مرتطمًا بالباب الصامد في مكانه كمحارب أخير لجيش مدحور يدافع عن مدينة انهزمت إلى الأبد، جرى مرة أخرى وارتطم بالباب لتتخلع مفاصله قليلًا من مكانها، وعندما كرر الفعل للمرة الثالثة انهلع الباب تمامًا من مكانه وانطرح أرضًا وفوقه جسد الرجل السمين يخر متألما كثور جريح. لم تستطع نعمة صبرًا فعبرت فوق جثة الأحمق الذي يعافر كي يقوم، ثواني قليلة مرت قبل أن تندلع صرختها ليسمعها كل من في الشارع.

على المكتب كان هناك هاتف محمول ترقد بجوار علبة سجائر مفتوحة وفارغة من نصف محتوياتها، وقداحة بلاستيكية رخيصة، وزجاجة مياه وعلبة دواء كلاهما فارغ محتواه. وعلى

الأرض ملقى كتاب مفتوح بإهمال، وبالقرب منه ومدي ممدًا على وجهه، بجوار كرسي المكتب الخشبي الواقع بدوره بشكل يوضح أن صاحبه كان جالسًا عليه قبل أن ينهار كلاهما.

* * * *

يبدأ مقطع الفيديو بصورة مهتزة غير واضحة مظلمة بعض الشيء مع أصوات غير واضحة، تثبت أخيرًا وتظهر يد مبتعدة ما يوضح أنها كانت تحمل الكاميرا -أو الهاتف المزود بكاميرا- وثبتتها أخيرًا على سطح مستوى ثابت بشكل عمودي. يظهر في المشهد حمدي جالسا على كرسي المكتب الخشبي القديم الأشبه بكراسي المقاهي، يضيء نصف جسده الأيسر بصعوبة أشعة شمس لم تحسم أمر شروقها بعد، تلمع رأسه شبه الخالية من الشعر، وتبدو ذقنه خضراء شبه نابتة تفكر جديًا في النمو، التمع الجانب البارز المواجه للشمس من ياقة القميص الأبيض، بينما بدا بصعوبة باقي القميص بلون رمادي شبه مظلم بسبب الظل الذي كونه جانب البدلة السوداء المواجه لما تبقى من أشعة الشمس. النصف الأيمن من جسده بدا مظلمًا تمامًا كعرائس الظل، تبدو أي حركة صادرة منه كخيالات فاقدة للتفاصيل. ظل صامتًا طوال الدقيقة الأولى من الفيديو، ينظر إلى الكاميرا حينًا وينظر إلى مصدر الضوء -الشرفة التي لا تلتقطها عدسة الكاميرا- حينًا آخر، رفع كلتا يديه ومسح بعنف على وجهه ورأسه الملتمعة ثم سحب نفسًا طويلًا أخرجه بزفير ثقيل، وبدأ في الكلام.

"إمبارح، بعد ما اترميت برة الاستوديو، كنت في محطة رمسيس، بدور على قطر عشان أروح إسكندرية، كان فاضل ساعة على القطر وأنا مش قادر أقف أستنى، فروحت قعدت على قهوة قريبة من المحطة، قهوة معفنة عادية زي أي قهوة ممكن تكون في مكان زي ده.. الناس اللي كانوا قاعدين كانوا ناس عاديين، صنايعية وعمال وفلاحين وصعـ.. ناس عادية يعني، مش زهرة المجتمع الثقافي مثلًا.. بعد شوية القهوجي كان بينزلي الشاي اللي معمول بالبول تقريبًا، سألني (لامؤاخذة، مش إنت اللي كنت مع جميل في البرنامج من شوية؟ إنت اللي ضربت الواد على قفاه؟)، ومن غير ما أرد كان اتفشخ ضحك، ضحك لوحده كده منه لنفسه، ضحك من أبو دموع ده"

ضحك حمدي ضحكة عصبية عالية بهتت سريعًا تاركة مكانها ابتسامة مريرة مقيتة، بحركة عصبية التقط سيجارة من العلبة المغلقة وأشعلها ونفخ سحابة من الدخان غطت الصورة أمام الكاميرا لثانية، وألقى القداحة البلاستيكية على المكتب محدثة صدى صوت واضحا.

"بعدها باقي الناس على القهوة كانو بيبصوا عليا ويضحكوا، اللي بيبص من تحت لتحت ويبتسم بخبث، اللي بيشاور بإيديه الاتنين ويضحك بشخير زي الخنزير، اللي بيحط إيده على بقه ويداري الضحكة زي الخولات، كلهم كانوا بيشاورو عليا ويضحكوا.. بيضحكوا عليا أنا"

نفث دخان السيجارة في الهواء وأخذ نفسا عصبيا آخر، هرش بعنف في خده الأيمن وذقنه الخشنة، بدا صوت احتكاك الأظافر بالشعيرات النابتة واضحًا.

"سيبتهم وروحت محطة القطر، وقفت وسط الناس مستني هناك، كان من ضمن الواقفين أسرة فلاحين، راجل بجلابية وطاقية من بتوع الفلاحين دول ومراته تخيييييييينة ولابسة عباية سودا وعلى راسها قفة كبيرة، وتلات أربع عيال بيجرو حواليهم، شكلهم فلاحين غلابة ملهمش دعوة بأي ابن وسخة ولا أي حاجة.. الراجل العرص كان بيشاور عليا، بيشاور بطول دراعه مش بشكل مستخبي، بيشاور عليا وبيكلم مراته وبيضحك، وهي فضلت تضحك وتتهز كده وكرشها بيتهز وصدرها بيتهز والقفة اللي فوق راسها بتتـ.. تعرفوني منين أصلًا يا ولاد ميتين الكلب عشان تضحكو عليا؟ والواد الصغير جرى ناحيتي وقالي حاجة مفهمتاش وهو بيضحك، وأبوه يقوله (بس يا ولاااااااا.. بس يا ولاااااااا) وهو بيضحك برضو.. وفي القطر، القطر المعفن القذر اللي ريحته شخاخ وقرف، الشبابيك مكسرة ولمبة النور تنور ثانيتين وتطفي دقيقة، وعلى كل كرسي قاعد عشرة فوق بعضيهم، في القطر الناس كانت بتشاور عليا وبتضحك، لأ وبص.. كان في شوية عيال سرسجية معفنين، واحد منهم طلع تليفون وجاب منه فيديو الحلقة وفرجه لصحابه، صوت الحلقة كان عالي وكل الناس بتسمعها معاهم، والناس فرحانة بقى، عايزين جنازة ويشبعوا فيها ضحك ع الميت زي ما كانت بتقول الله يمسيها بالخير دي".

احترقت السيجارة بالكامل فألقاها جانبًا، مد يده لزاوية المكتب البعيدة عن زاوية رؤية الكاميرا وعاد بها تحمل زجاجة مياه وعلبة بلاستيكية بيضاء صغيرة لا يمكن قراءة المكتوب عليها لضعف الإضاءة، أشعل سيجارة أخرى.

"خلاص بقيت مشهور أنا، بقيت المهرج الرسمي، الناس توقفني في الشارع والأماكن العامة ويضحكوا عليا وعلى خيبتي، ما أنا طلعت في التليفزيون بقى خلاص، مبقاش بس العيال بتوع النت بيضحكوا عليا، لأ كله.. كله بقى، ما أنا بقيت شخصية شهيرة، دلوقتي شهرتوني وعرفتوني وبتضحكوا عليا، بتضحكوا عليا عشان ناديت بحقي وقلت ع الحرامي حرامي وع الوسخ وسخ.. مش مشهور عشان أدبي وعشان فني وعشان كتبي.. ثم أن كل ده غلطتي أصلًا، أنا الغلطان، أنا الغلطان أني لجأتلكم عشان أثبت حقي، غلطان إني فكرت أني لما أتكلم قدامكم كلكم وأحكي وأقول الحقيقة حلاقي ناس بتفهم وعندها ضمير وحتنصر الحق على الحرامية الأوساخ. على فكرة أنا كنت عارف، كنت عارف أن ده حيحصل بس كنت بكذب نفسي، كنت عارف أنكم كلكم أوساخ وحتعملو كده، بس الغباء بقى، الغباء أداني أمل أني حاخد حقي منكم وحعيش طبيعي زي البني أدمين، ونزلت بنفسي زي العبيط وتوسلت لكم وقلتلكم ساعدوني أخده. بس كلكم أوساخ، خلينا نتفق من البداية إن كلكم أوساخ، مش بس قصدي على الواد الطري اللي فيه شوية نسونة ده، ولا المذيع الوسخ ولا خليل موسى ابن الـ.. كلكم، كل الناس أوساخ ولاد كلب"

نفس من السيجارة، يفتح العلبة البلاستيكية البيضاء ويفرغ محتوياتها على سطح المكتب ويلقيها جانبًا، محتوياتها لم تكن إلا عدة حبوب دواء بيضاء اللون، التقط منها اثنتين ووضعهما في فمه، ثم شرب جرعة من زجاجة الماء.

"الكتابة أصلًا شغلانة بنت ستين وسخة، إني.. إني أنزل من مكاني وأقدملكم حاجة أنا كاتبها، وأقولكم أنا هو.. دي كتابتي، دي حكايتي، أرجوكم أقروها وحبوها، اقروا كلامي وحبوني وخلوني مشهور، قولوا عليا كاتب عبقري ومميز، احتفلو بيا وادوني جوايز، صقفولي كتير وأنا حهز راسي في تواضع وابتسم.. ليييييييييييه؟ ليه كل ده؟ ليه أنا أعمل كده في نفسي؟ ليه أستنى منكم تقدير عشان أبقى كويس؟ ياخي يلعن أبوكم لأبو رأيكم، أنا كويس بذاتي وغصب عن أي واحد فيكم يقول العكس، طز فيكم كلكم.. رأيكم عني ده تحطوه في مؤخراتكم"

حبتان أخريان من الدواء، جرعة ماء، نفس سيجارة.

"القطر وقف كتير في محطة دمنهور، وقف كتيييييييير، كان عطلان تقريبًا ولا حاجة، المحطة كانت ضلمة ومفيهاش حد، وكل الناس اللي في القطر كانوا نايمين، تعبوا كلهم ياعيني من كتر الضحك عليا وناموا في الآخر.. فكرت أنزل في دمنهور، ألف في شوارعها وأدور على وكالة عطية، عارفين وكالة عطية؟ أدور عليها وأعيش فيها إلى الأبد مع الشوادفي والصعاليك والمهمشين وولاد الليل.. الفكرة كانت في دماغي بجد ساعتها وكنت مؤمن بيها جدًا، اللي منعني منها في الآخر أني فكرت إن حتى لو كانت وكالة عطية لسة موجودة، حتى لو في مكان فعلًا كده، كان

حييجي برضو عرض معاه سمارت فون ويشغل فيديو الحلقة وفيديو حفل التوقيع والناس حتتفرج عليه وحتضحك برضو، ماحنا اتفقنا بقى إن كل الناس أوساخ ولاد كلب".

حبة دواء، جرعة ماء، أنزل زجاجة الماء على المكتب بعنف فسببت ضجيجا عاليا.

"نيتشة، كان بيعتبر الموت الطبيعي ده للجبناء، لفاقدي الشجاعة اللي ميقدروش يقفوا قدام الواقع ويحلوا مشاكلهم بإيديهم، إنما الشجعان هما اللي بيقرروا بنفسهم ساعتهم تبقى إمتى، والمفروض لحظة رحيلهم دي تبقى احتفال يتلقوا فيها التهنئة من".

"أبو محمود، أنت كويس؟"

توقف عن الكلام بغتة وتحولت عينه تجاه باب الغرفة المغلق الذي لا يظهر في مقطع الفيديو، بدت اختلاجة تأثر عابرة في ملامحه عبرت سريعًا.

"روحي نامي يانعمة"

ظل رأسه مشرئبا تجاه الباب البعيد لفترة، عاد بعدها لينظر بين قدميه لأخرى، ثم عاد أخيرًا بنظره إلى الكاميرا.

"نعمة.. مش عارف أقول إيه على البت دي، نعمة! نعمة دي أغبى إنسانة في الدنيا، أغبى إنسانة. أنا كنت بكرهها من يوم ما عرفتها، بس.. لأ لألألألأ، مكنتش بكرهها.. أو أه كنت بكرهها، كنت بكرهها عشان.. عشان أنا حيوان، عشان أنا وسخ كنت

بكرهها، إنما يمكن نعمة دي أكتر حد غلبان في الدنيا، متستاهلش، متستاهلش أكيد اللي أنا عملته فيها، متستاهلش الخرا اللي عاشته معايا العمر ده كله، إنما هي نعمة من النوع ده، من النوع اللي موجود في الدنيا عشان يتعذب بس، في ناس كده موجودين في الدنيا دي عشان يطلع ديك أبوهم وبس، وأنا كنت نصيبهم من الخرا ده في الدنيا، ف.. ينفع أقولك سامحيني يا نعمة؟ ينفع أقولك سامحيني؟ أو متسامحنيش، مش حتفرق كتير، يعني هي جت عليكي؟ ما خلاص بقى مش فارقة.. أهو على الأقل أنا حديلك فرصة تانية لما أمشي دلوقتي، يمكن تعيشي أنتي وابنك يومين أحسن من غيري"

حبتان من الدواء، جرعة مياه أخرى، أشعل سيجارة جديدة بعد إلقاء القديمة المحترقة من يده.

"كان المفروض أعمل كده من زمان، مش أول مرة أفكر في كده أكيد دلوقتي، فكرت في الحل ده كتيييييير قبل كده، بس عمري ما كانت عندي الجرأة الكافية عشان أعملها، وكانت المخدرات بتصبرني دايمًا"

قام فجأة واختفى من المشهد لثوان ثم عاد حاملًا في يده كتابا لا يظهر عنوانه، قلب صفحاته في سرعة أمام الكاميرا ثم ألقاه خلف ظهره.

" كانت بتنسيني الخرا وبعيش معاها وبعيش فيها، وبتقولي دايما إن في حلول سحرية، اللحظة اللي حتتحل فيها كل حاجة بعصاية الساحر.. بس نفس المخدرات هي اللي بتخلي حالتي

أسوأ طول الوقت، كنت كل ما أهرب وأعيش فيها مع الناس اللي جواها، برجع أصحى تاني وأرجع لعيشتكم السودا تاني وأشوفكم وأكرهكم أكتر، وأكره نفسي أكتر، وأكره المخدرات دي أكتر.. بس هو الإدمان كده، في مدمن بيحب المخدرات؟ كلهم بيلعنوها بس ميقدروش يبطلوها.. ما هو لو مكنتش عرفتها ولا أدمنتها من وأنا عيل صغير مكنتش وصلت اللي أنا فيه دلوقتي، كان زماني حمار زي باقي الحمير بمشي وبنهق وفرحان.. ومفعولها في الآخر انتهى، خلاص مبقتش نافعة معايا، تعاطيتها لغاية ما بقيت تجري جوايا بدل الدم ومفيش مكان للمزيد.. وفي الآخر مفيش غير حل واحد، نفس الحل اللي كان المفروض ألجأل له من زمان، من زمان أوي"

مزيد من حبوب الدواء، رفع زجاجة المياه ليجدها فارغة فألقاها بعيدًا وبذل مجهودًا بدا جليًا على ملامحه في بلع الحبوب في جفاف.

"كان نفسي في حل درامي زي بتوع الأفلام الأمريكي، مسدس في بقي ورصاصة وبوووم، أشلاء مخي بقى تتناثر على الحيط ومحسش بأي حاجة وتنتهي الحكاية إلى الأبد، بس مفيش الكلام ده هنا، حجيب مسدس منين؟ فكرت برضو في النط من عمارة عالية، بتعيش أحلى ثواني من عمرك وانت في الهوا قبل ما تخبط في الأرض وتموت، بتحس إنك صقر بينقض على فريسته. عارفين لو حاولت أعملها من فوق البيت المعفن ده؟ حقع وسط شبكة من أسلاك النت والدش وحبال الغسيل، حتبقى أرخم خمس ثواني في حياتي وبعدين أقع ع الأرض عضمي

يتكسر وعمودي الفقري معاهم، وحفضل عايش في كرسي متحرك إلى الأبد، بيأكلوني بحقن ومحاليل وحد يشيلني للحمام عشان أشخ، مينفعش النوع ده من الانتحار هنا، الحبوب دي هي الحل المناسب. أنا قريت في الموضوع، بيقولك حيبجي صداع، بعديه نعاس وخمول وغثيان، ثم نوم عميق، ومش حتصحى تاني، خلصت يا معلم وكل سنة وأنت طيب. والصداع بدأ بقاله شوية، هانت خلاص"

يتناول بيد مرتعشة آخر حبة دواء، يضعها في فمه ويضغط عليها بأسنانه، بدا عليه أنه يجاهد ليحافظ على جفونه مفتوحة قليلًا، بيد مرتعشة أخرج سيجارة وجاهد كي يوجه اللهب الخارج من القداحة باليد الأخرى تجاهها، أكمل حديثه بصوت واهن ضعيف:

"دي مش رسالة انتحار، ولا أقولك.. أحا أكيد دي رسالة انتحار. بص، مش مهم اسمها إيه، مش وقت مسميات وتعريفات، المهم إني مكنش ينفع أموت من غير ما أقولكم كلكم إنكم أوساخ ولاد كلب، لازم أأكد على المعلومة دي مرة واتنين وعشرة قبل ما أموت، بعدها ميهمنيش رأيكو، اكتبو على قبري ده كان حمار أو مجنون أو وسخ، أو حتى طرطروا عليه، ميهمنيش.. طز"

سحب نفسا طويلا من السيجارة بتلذذ من يدرك أنه سيكون الأخير.

"أه صحيح، مش حلحق أرفع الفيديو على النت.. مش مهم، دايمًا في عرص بيفتش في حاجات الميت ويشوف خصوصياته،

عزيزي العرص، لما تلاقي الفيديو اتأكد من أنه يوصل لباقي المعرصين اللي زيك، وشكرًا لخدمتك للبشرية"

مد يده والتقط الهاتف، قرب الكاميرا من وجهه، رفع أمامها يده التي تحمل السيجارة، كورها في قبضة انتصب منها الإصبع الأوسط في تحية أخيرة مع ابتسامة شخص ميت.

"أشوفكم في جهنم"

ودار الهاتف في يديه لتواجه الكاميرا سطح المكتب الراقدة عليه الزجاجة وعلبة الدواء الفارغتان، قبل أن يضغط زر إيقاف التسجيل.

17

اليوم الأول

صحافة:

(عااااااااجل وحصري: انتحار كمساري الإسكندرية)

"استقبلت مستشفى محرم بك في الإسكندرية، قبل ساعات، حمدي محمود مُحصل التذاكر في هيئة النقل العام، بعد أن تناول كم كبير من الحبوب المهدئة بغرض الانتحار.

وصرحت زوجته للجريدة قائلة: غاب زوجي لفترة طويلة داخل غرفته، ولم يستجب لطرقاتي ونداءاتي المستمرة، فاستغثت بالجيران لمساعدتي على اقتحام الغرفة المغلقة، ثم وجدناه ممدا على الأرض على شفا الموت. هذا وقد صرح الطبيب المسؤول أن الحالة قد نُقلت إلى غرفة العناية المركزة فور وصولها المستشفى وتم عمل اللازم لإنقاذ حياة المريض ووُضع على أجهزة الإعاشة والتنفس الاصطناعي، وهو الآن يرقد في غيبوبة قد يفيق منها أو لا، "الأمر بيد الله" على حسب تعبير الطبيب.

يذكر أن حمدي محمود ظهر بالأمس مع الإعلامي (جميل شاهين) في برنامجه (كلام جميل) وادعى أنه.. "

* * * *

اليوم الثاني

صحافة:

(عاجل وحصري: رسالة انتحار الكمساري الغاضب الأخيرة: انتحرت لأن الناس بقت بتضحك عليا، والمخدرات مبقاش ليها مفعول)

"استطاعت صحيفة أخبار مصر الوصول إلى فيديو سجله حمدي الكمساري المنتحر قبيل انتحاره، يلقي فيه حمدي رسالة أخيرة وجّه فيها السباب للناس جميعًا لأنهم قابلوا ظهوره الإعلامي مع (جميل شاهين) بالضحك والسخرية. وصرح أيضًا أنه كان مدمنًا للمخدرات ولكنها لم يعد لها مفعول ولهذا لجأ للانتحار.كان هذا على خلفية الأحداث السابقة التي ادعى فيها حمدي أنه الكاتب الحقيقي لرواية (كتاب خيبة الأمل) للكاتب محمد جمال، وأنه الكاتب الحقيقي لعدد كبير من المقالات والكتب لمختلف للكتاب المصريين في الفترة السابقة، ما أثار عاصفة من السخرية والاستنكار تجاهه، حاول حمدي محمود الانتحار ما أدى إلى وقوعه في غيبوبة قد لا يفيق منها".

لمشاهدة الفيديو أضغط هنا (تحذير، ألفاظ بذيئة).

تعليقات:

"عشان أنت صحفي حمار فهمت أنه قصده مخدرات بجد، قصده على الكتب يا جاااااااااهل، الكتب هي المخدرات"

"علمت من البدايه أنه مجنون ومدمن للمخدرات، بان هذا على شكله.. فليذهب هو وأمثالة من الكفرة قليلو الأدب إلى الجحيم، ولتعيش مصر أم الدنيا"

"من ناحية مجنون فهو أكيد مجنون، لكن أظن والله أعلم أنه مش كذاب. تفتكروا ممكن يكون على حق فعلًا؟"

"إزاي جريدة محترمة زيكم تنشر ألفاظ بذيئة زي دي؟ فين الأخلاق؟ فين الأدب؟ رايحة بينا على فين يا مصر؟"

"يا حرااااااااام.. ليييييييه يعمل في نفسه كده؟ أنا مش قادرة أبطل عياط من ساعة ما شفت الفيديو، ياااااارب متخليهوش يموت.. طبطب عليه يارب"

"يسلم لسانك الوسخ يابو محمود، انت برنس. كل الناس أوساخ ولاد ميتين كلب فعلًا، كان لازم حد يقولها. May you rest in peace and fuck 'em all"

"وأنتو بقى الشخص العرص اللي هو قال عليه إللي حيدور في تليفونه وينشر الفيديو؟ هع.. أنا مش قادر أبطل ضحك عليكم"

(فيديو كُمساري الإسكندرية المنتحر يشعل جدلًا على مواقع التواصل الاجتماعي)

(مع الخبر توجد صورتان: الأولى من فيديو الانتحار بينما ينظر حمدي للكاميرا مطلقًا دخان سيجارته، والثانية له على سرير العناية المركزة متصل بأجهزة الإعاشة)

"ظهر منذ ساعات قليلة فيديو لحمدي محمود كُمساري الإسكندرية الشهير، يحمل كلماته الأخيرة أثناء تناوله الحبوب المهدئة بغرض الانتحار. وجه حمدي انتقادًا وسبابًا لاذعًا لكل الساخرين منه ومن ادعاءاته بأحقيته لحقوق الملكية لرواية الكاتب محمد جمال الشهيرة (كتاب خيبة الأمل)، معلنًا أن الانتحار هو أفضل حل بدلًا من الحياة مع الناس الـ"أوساخ" على حد تعبيره.

انتشر الفيديو بين رواد مواقع التواصل الاجتماعي حتى وصل عدد مشاهداته إلى ما يزيد عن المئة ألف في الساعات الأولى من نشره، مسببًا جدلًا كبيرًا بين المتعاطفين معه والمؤمنين بعدالة قضيته وبين من يتهمونه بالجنون والكذب والكفر والبذاءة".

* * * *

اليوم الثالث

صحافة:

(خليل موسى يصرح: حمدي مجنون.. ومحمد جمال يمتنع عن التعليق)

"معلقًا على انتحار كُمساري الإسكندرية الشهير، قال الصحفي الكبير والمعارض الأبرز (خليل موسى): حمدي محمود هذا ليس إلا مدعيا مجنونا، وإذا صدقنا كلام كل مريض نفسي يدعي

لنفسه العظمة والإنجازات سنصبح نحن المجانين. بينما امتنع الكاتب الشاب (محمد جمال) عن التعليق على هذا الشأن"

(حوادث الأسبوع تكشف الحقيقة وراء انتحار كمساري الإسكندرية.. وكشف تفاصيل علاقة مثلية جنسية مع الصحفي المعارض الشهير)

"صرحت مصادر خاصة لصيحفة حوادث الأسبوع أن الكمساري المنتحر تورط في علاقة مثلية جنسية مع الصحفي المعارض الشهير، وعندما اختلفا معًا بسبب تفضيل الصحفي المعارض للكاتب صغير السن الوسيم على حمدي الكمساري، لفق حمدي لكليهما قضية سرقة أعماله الأدبية المزعومة. وانتحر عندما لم يجد أملًا لتجدد علاقته بالمعارض الشهير"

تدوينة للمدون المستقل أحمد جابر:

(الكمساري المنتحر وخدمات الأستاذ الصحفية، أين الحقيقة؟)

"يعرف الزائرون الدائمون للمدونة أني قضيت سنة كاملة بعد الثورة كصحفي تحت التدريب في واحدة من كبرى الصحف في مصر، حكيت عن هذه الفترة هنا ما حكيت وما زال في جعبتي الكثير، ومن هذه الجعبة أخرجت لكم حكاية اليوم.

الأستاذ، أسطورة يعرف عنها تقريبًا كل العاملين في الصحافة المصرية، ولكن مثل نادي القتال لا أحد يتحدث عنها. يحكي البعض عن صحفي عظيم قديم، طُرد من الصحيفة التي يعمل بها وفقد رخصته كصحفي من النقابة بسبب فضائح اجتماعية،

ويحكي آخرون عن بروفيسور جامعي عبقري من كلية الإعلام طردته الجامعة لأنشطته السياسية المناهضة للنظام، وهناك الحكاية التي أفضلها بشكل شخصي رغم أنها غير حقيقية بالتأكيد عن اللعبة التي يمارسها مجموعة من الصحفيين القدامى، لعبة كروت أسبوعية الخاسر فيها يتولى مسؤولية (خدمات الأستاذ الصحفية) لمدة أسبوع.

أيًا كانت الحقيقة، لا جدال على وجود هذا الأستاذ، أو على الأقل لا جدال على أن الأستاذ كان موجودًا، كان هناك البريد الإلكتروني المسجل على قائمة مراسلات كل صحفي تقريبًا، El-Ostaz Press Services، ترسل إليه مقالتك التي ترغب في إعادة تحريرها، أو حتى ترسل مجرد فكرة عن ما ترغب في كتابته ووجهة النظر التي ترغب في تبنيها، مع عدد الكلمات المطلوبة للمحتوى. وفي خلال بضعة أيام –وأحيانًا ساعات محدودة- يصلك المحتوى مكتوبًا بأحسن شكل ممكن وبأسلوب كتابة يشبه أسلوبك الشخصي جدًا ولكن أرقى وأفضل بكثير. يعلم الجميع أن المقالة التي يكتبها الأستاذ لا يردها "ديسك" ولا يغير فيها حرفًا. كل هذا بمقابل مادي كان في بدايات ظهوره بسيطًا، لكن في السنوات التالية للثورة أصبح أرقامًا غير معقولة. جربت أنا نفسي ذات مرة - على سبيل التجريب ومعرفة الحقيقة ليس إلا، إنما أخلاقي ومبادئي لا تسمح أن أشارك في هذه المهازل أبدًا- وطلبت مقال عن موضوع ما لا يزيد عن 500 كلمة، جاءني الرد بأن المقال سيكلفني ثلاثة آلاف جنيه !

ثم اختفى الأستاذ فجأة كما ظهر فجأة! كان ذلك منذ ما يقرب من العام، لم يتحدث الصحفيون كثيرًا عنه لكن الحديث تسرب بأنه لم يعد يرد على الطلبات الواردة دون سابق انذار. ما ترك مجموعة من أبرز الكتاب في مصر في حالة ارتباك غير متوقعة، كثيرون عادوا للبحث عن الأقلام الضائعة في أعماق أدراجهم.

ما يجعلني أحكي هذه الحكاية الآن بالذات هي القضية الثائرة عن الكمساري المنتحر الذى ظهر من العدم ليدعي أنه الكاتب الحقيقي لأهم رواية مصرية معاصرة، وأن خليل عيسى –وكلكم تعرفون رأيي في خليل عيسى- اشتراها منه بالمال وأهداها لمحمد جمال (اضغط هنا لقراءة مراجعتي لرواية جمال الأولى ومعرفة رأيي فيه) لينشرها باسمه، ثم ادعى لاحقًا أنه كتب الكثير لخليل نفسه وللعديد من كبار الكتاب في مصر، وقوبلت حكايته بحفلات سخرية و"ألش" ليس لها نهاية. لدرجة أنه حاول – محاولة فاشلة كما نتمنى- أن ينتحر هربًا من ألسنتنا.

(صورة عريضة لحمدي في نهاية الفيديو مُطلقًا إصبعه الأوسط في إشارة معروفة المعنى)

السؤال الآن، السؤال الذي مر بأذهان الكثيرين ولم يجد أحدهم في نفسه الشجاعة الكافية ليسأله، هل الكمساري المنتحر هو الكاتب الشبح الأسطورة؟ هل هو الأستاذ؟

لا يوجد دليل على صحة هذه الفرضية، أعترف بهذا، ولكن لا يوجد دليل على عكسها أيضًا ولا يجب تجاهلها. أغلب الصحف والمواقع المصرية سترغب في ألا تكون هذه الفرضية حقيقية،

الكل متورط بشكل أو بآخر في حكاية الأستاذ لذا الكل يرغب في أن تظل حقيقته غائبة، ولكني سأعمل جاهدًا أن أظهرها، سأجعل هدفي أن يعرف الجميع في أقرب وقت ممكن الحقيقة وراء حكاية الكمساري المنتحر وخدمات الأستاذ الصحفية.

انتظروني، سأعود قريبًا بالمزيد".

* * * *

اليوم الرابع

منشور للكاتب محمد مصباح على صفحته الشخصية في موقع facebook:

"كانت رحلة عظيمة.

لم تكن دومًا جميلة ولكنها كانت بالتأكيد عظيمة.

عشنا فيها ما عشنا وحكينا فيها ما حكينا، ولكنها انتهت، شئنا هذا أم أبيناه..

الحق أنها انتهت منذ زمن بعيد، انتهت مع الكتاب الرابع أو ربما الخامس، انتهت عندما تحول الشاب ذو الروح الهائجة المحملة بألف كلمة إن لم تخرج على الورق ستنفجر بداخل حاملها ليموت ضحية لها، إلى الكهل الذي يكتب لأن الكتابة وظيفته، الكتابة أكل عيشه، وعليه أن يكتب أو يبحث عن وظيفة أخرى

تلائم سنوات عمره التي قاربت على الخمسين دون أي خبرة وظيفية بخلاف الكتابة.

كل المؤشرات قالت إن الرحلة قد انتهت، كانت العلامات جلية لكل ذي عين، بيد أني كنت أعمى. وجاء الكتاب السادس والسابع والعاشر، وعشت طويلًا كفاية لأن أصير الأضحوكة التي طالما ظننت أني أكثر ذكاءً من أن أكونها.

اعترافي بانتهاء الرحلة ليس شجاعة، لا شجاعة في أن يعترف المهزوم بهزيمته بعد سنوات طويلة من الهزيمة، ربما لو جاء اعترافي قبل عشر سنوات كان يمكن أن يسمى هذا شجاعة، إنما الآن لست إلا مهرجًا عجوزًا مل من اللعبة ونزع الأنف الحمراء الملونة ومسح الابتسامة الزائفة وذهب عن السيرك إلى الأبد. ثم إن الكتابة أصلًا "شغلانة بنت وسخة" مثلما قال حمدي محمود شفاه الله، عشت عمرًا متسولًا حب الناس ورضاهم عني، كنت أكتب كمراهق يتعمد إظهار شاربه النامي وخشونة صوته أمام فتاة جميلة، شفتو الحركة دي؟ شفتوني وأنا بتشقلب؟ طب استنى حتشقلب تاني أهو، حتعجبك والله، ركز معايا بس المرة دي.. هوووب. كبرت ولم تعد مفاصلي العجوز صالحة لحركات الشقلبة.

قبل أن أصمت إلى الأبد، اسمعوا مني كلمة أخيرة، اعترافات شيخ.

المدون الشاب (أحمد جابر) طرح تساؤلًا مهما في تدوينته التي انتشرت كالنار في الهشيم بالأمس، هل حمدي محمود هو

الكاتب الشبح الشهير في أوساط الصحافة باسم (الأستاذ)؟ أظن أن الكثيرين يملكون الإجابة على السؤال، لكن أحدًا لن يجرؤ على الهمس بها، لذا اسمحوا لي أن أفعل: نعم، حمدي محمود هو الكاتب الشبح الشهير.

لا أعرف الحقيقة وراء كتاب خيبة الأمل، ولكني أعرف جيدًا حقيقة أخرى وهي أني تواصلت مع حمدي من قبل عبر البريد الإلكتروني المعروف، وذهبت لمقابلته شخصيًا في الإسكندرية طالبًا خدماته لمساعدتي في كتابة كتابي الأخير (حكايات ميدان)، وحذرني حمدي من كتابة هذا الكتاب واصفًا إياه أنه ليس إلا مجرد (سبوبة)، ولكني بعناد أصررت على نشره لأضع الخاتمة الأكثر سخرية لحكايتي الشخصية. ولكن لا تنسوا أن سذاجة محتوى الكتاب كان خطئي الشخصي، وحمدي لم يفعل إلا محاكاة كتاباتي في كتابة ما طلبته أنا منه أن يكتبه، وفعل الرجل بأحسن ما يكون.

ليكن هذا المنشور آخر ما أكتبه في حياتي على الإطلاق، عسى أن يجعل منه الله سببًا ولو بسيطًا في إرجاع بعض الحقوق الضائعة لأصحابها.

شكرًا لكم جميعًا"

صحافة:

(الأديب محمد مصباح: اعتزلت الكتابة.. وحمدي محمود هو الأستاذ.. وأنا استعنت بخدماته من قبل)

(الأستاذ: أسطورة خرافية ابتدعها عديمو الموهبة لتبرير فشلهم ونجاح الآخرين)

(الفضيحة ترج أوساط الصحافة المصرية: كُمساري الإسكندرية المُنتحر هو الأستاذ)

(انطفأ المصباح إلى الأبد.. فقد الأديب الأشهر عقله وصارت كلماته تخاريف عجوز)

* * * *

اليوم الخامس

صحافة:

(جرافيتي حمدي يغزو شوارع الإسكندرية)

(صورة لجرافيتي عملاق ملون على جدار أحد الشوارع يمثل حمدي رافعًا إصبعه الأوسط للكاميرا، ومجموعة صور أخرى لنفس الجرافيتي في أماكن أخرى ولكن بلون أسود وحجم مصغر)

"استيقظ مواطنو الإسكندرية أمس على رسم جرافيتي عملاق من فنان مجهول، يمثل الكاتب الشبح المثير للجدل (حمدي محمود) على جدار في واحد من أشهر شوارع الإسكندرية. بينما غزت مئات النسخ مصغرة من نفس الصورة شوارع الإسكندرية الأخرى.

يذكر أن هذا جاء بعد انتشار حملة دعم الكُمساري الراقد في غيبوبة نتيجة لمحاولته للانتحار على مواقع التواصل الاجتماعي، حيث انتشرت الدعوة للكتابة عن قضيته بهاشتاج #أنا_أصدق_حمدي مع تغيير صور (البروفايل) لنفس الصورة التي يودع فيها حمدي العالم بتحية من يده تمثل أكثر الإشارات البذيئة شهرة"

منشور للمدون أحمد جابر على صفحته في موقع facebook:

"لما كتبت التدوينة كان نفسي بس الناس تفتح عقولها وتتساءل وتبدأ تفكر في الحقيقة، مكنتش متخيل أن التدوينة البسيطة دي ممكن تنتشر وتوصل لكل الناس بالشكل ده.

وشكر لا نهائي لأستاذي الكاتب العظيم الأكثر شجاعة (محمد مصباح)، شكرًا على صراحتك وأمانتك واحترامك، كانت كلماتك بمثابة حسن الخاتمة لمسيرة عظيمة ستُخلد في تاريخ الأدب بحروف من نور.

أنا دلوقتي في إسكندرية، استنوني وحرجعلكم بالحقيقة في أقرب فرصة"

* * * *

اليوم السادس

مقطع فيديو مدته عشرون ثانية على صفحة الكاتب محمد جمال في موقع facebook:

يظهر جمال مواجهًا عدسة الكاميرا بعيون زائغة مُحمرة تلمؤها الدموع:

"الكتاب مش بتاعي، الكتاب فعلًا بتاع حمدي، خليل موسى جابهولي عشان هو وبابا منار صحاب من زمان، ومنار أصرت أني أنشر الكتاب باسمي.. أنا آسف، أنا مش كنت عارف ان كل ده حيحصل، كنت فاكر إن الراجل حياخد الفلوس ويسكت، لكن.. لكن.. ينتحر؟ (تنهمر دموع جمال ويرتعش صوته) يموت؟ لأ.. لأ.. أنا أسف والله، هما اللي قالولي، أنا مكنتش أقصد"

صحافة:

(محمد جمال يعترف: ليست روايتي)

(عاااااااجل وحصري: حمدي محمود هو الكاتب الحقيقي لكتاب خيبة الأمل)

(جمال يبكي ويصرح: خليل موسى اشترى الرواية من حمدي.. وزوجتي أجبرتني على نشرها باسمي)

خليل موسى يتحدث في برنامج كلام جميل:

"دي مؤامرة يا جميل، مؤامرة على الصحافة المصرية كلها، مؤامرة عليا أنا شخصيًا. عرفوا أنهم مش هايوقعوني بقضايا المحاكم واتهامات العمالة الأجنبية، فلجأوا إلى الإشعات المغرضة والألعاب القذرة دي. أنا مش قادر أصدق إزاي واحد

زي محمد مصباح يقبل إنه يشترك في المهزلة دي ويقول الكلام ده، شايف يا جميل؟ شايف الراجل عشان يغطي على فشله الأخير كروائي فقد سحر قلمه بيقول إيه؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، ربنا يحفظنا من سوء الخاتمة.. والواد جمال، شوف الواد بيقول إيه؟ تفتكر أخد فلوس قد إيه عشان يقول الكلام ده؟ الواد استغل صداقة شريفة وقديمة بيني وبين راجل محترم زي والد زوجته عشان يقول كلام قذر زي ده في حقي؟ تنازل عن نجاحه الشخصي كروائي له مستقبل عظيم مقابل أنه يوقعني؟ أنا مش مصدق يا جميل إللي بيحصل. مش مصدق"

* * * *

اليوم السابع

صحافة:

(دار النشر تسحب كل نسخة رواية "كتاب خيبة الأمل" من السوق، وشركة الإنتاج السينيمائي تصرح: التصوير سيبدأ في موعده وموقفنا قانوني 100%)

(انفصال الكاتب الزائف محمد جمال عن زوجته)

تدوينة للمدون المستقل أحمد جابر بعنوان:

"السلام عليكم

لم أكن أتخيل للحظة النجاح الباهر لتدوينتي السابقة عن حقيقة الأستاذ وعلاقته بحمدي محمود كمساري الإسكندرية، وشكر خاص جدًا للأستاذ الكبير محمد مصباح، الذي ختم

مسيرته العظيمة بحسن الخاتمة، شكرًا يا أستاذي، كنت لنا خير القدوة.

عدت من الإسكندرية منذ دقائق قليلة، ورغم أن جسدي يصرخ طالبًا للنوم إلا أن عقلي يأبى أن يفعل قبل أن يخرج ما بجعبته، وفيها الكثير.

في البداية قررت أن أتوجه إلى محل عمله، ذهبت إلى جراج الترام الرئيسي في حي محرم بك، أملًا في أن أقنع أحد زملائه بالحديث عنه. توقعت منهم التحفظ في الإجابة على أسئلتي، لكن ما إن ذكرت اسمه حتى فوجئت بترحاب من الجميع، الكل يرغب في الحديث عنه. انهالت علي أكواب الشاي والسجائر على سبيل حسن الضيافة، وتكلم الجميع.

حكوا لي عن والده الحاج محمود المفتش، وحكوا لي عن وفاته المؤلمة وما تبعها من أحداث قلبت حياة حمدي الشاب الصغير رأسًا على عقب –سأخصص تدوينة كاملة للحديث عن ماضي حمدي وحكايته مع أسرته كما سمعتها من زملائه، انتظروها غدًا- ثم حكوا لي عن شخصيته وعلاقته بزملائه، قال الأسطى حسن الطيار:

"عارف يا بشمهندس، لولا أبوه الله يرحمه كان أترمى برة الوظيفة من زمان، ده أكتر بني أدم قليل الذوق شفته في حياتي، عليه تناكة غريبة، تقولش داخلية؟ أنا زميله بقالي عشر سنين، بشتغل معاه على نفس الترام، سواق –عشان كده مسميني الطيار، تريقة يعني لا مؤاخذة هههههه - ومع ذلك لغاية

دلوقتي ميعرفش اسمي، ميعرفش اسم حد من اللي قاعدين حواليك هنا، كان بيعاملنا كلنا كأننا شغالين عنده. يلا بقى معلش، بلاش نتكلم عليه كده وهو في المستشفى، ربنا يقومه بالسلامة ويغفرله عملته المهببة دي. ألا صحيح يا أستاذ حمدي فعلًا اللي كتب الكتاب ده اللي بيقولو عليه؟ طول عمرنا بنشوفه قاعد بيقرا، طول الليل بيقعد يقرا في الترام وسايب شغله، بس مكناش فاكرينه بيكتب أبدًا، بس مش بعيد عليه، هو غريب كده والله أعلم ممكن يكون بيعمل إيه!"

لم تختلف حكايات باقي زملاء حمدي عن كلام الأسطى حسن، شكرتهم وانسحبت، لحق بي الأسطى حسن قائلًا في همس: "أنا مكنتش عايز أقولك عشان عيب أتكلم على الراجل بكلام مش ولا بد وهو في ذمة ربنا، بس أنت شكلك ابن حلال ومش حتطلع كلامي برة (بهذا برر لنفسه اغتياب زميله الراقد في المستشفى) حمدي كان بيقعد مع ست صاحبة كشك سجاير في المحطة، ست مش كويسة وعليها كلام كتير، ححكيلك حكايتها.. "

رفضت بأدب سماع حكاية لا تهمنا غالبًا هنا وطلبت منه عنوان الكشك، بدا عليه الإحباط والرغبة في الحكي، ولكنه لبى طلبي.

(صورة عريضة للأسطى حسن الطيار).

ذهبت إلى العنوان، كشك خشبي باهت اللون، تبدو عليه بصعوبة آثار طلاء أزرق باهت منذ زمن، الآن مغطى ببقايا ملصقات دعاية انتخابية تبدو أنها كانت تنتزع وتقطع أولا بأول

وإن لم تزل آثارها باقية. دخلت الكشك في رهبة ملقيًا التحية على من بداخله، وجدت سيدة تبدو في نهايات الأربعينات من عمرها، لا يتخلف مظهرها عن المظهر المعتاد لأي سيدة في مثل عمرها تقابلها في أي حي شعبي شبيه، ولكني وجدت في عينيها شيئًا ما لم أفهمه، وغمرني إحساس فوري أن هذه سيدة لا يجب أن تعبث معها.

سألتها عن حمدي، في شك سألتني عن هويتي، وعندما أخبرتها أني صحفي خيرتني في هدوء أن انصرف فورًا أو انصرف لاحقًا محمولًا على الأعناق. لم تكن هذه المرة الأولى في حياتي التي يهددني أحدهم، لكن أعترف أن ما رأيته في عينيها أثار رعبي وخرجت فورًا من الكشك.

فكرت في هروبي المشين وتضايقت من نفسي ومن جبني، ماذا قد تفعل سيدة مثلها بي؟ أنا الشاب العشريني الرياضي؟ بقليل من الشجاعة الزائفة عدت، وإن لم أتخط عتبة باب الكشك، مستعدًا للهروب في أي لحظة سألتها مرة أخرى عن حمدي، لا بد أني بدوت مضحكًا جدًا لأنها ضحكت بصوت مرتفع على هيئتي ما أصابني بإحراج شديد.

"عايز تعرف إيه عنه؟"

"أي حاجة حضرتك تعرفيها عنه ممكن تساعد"

"وهيفرق كلامي عنه إيه؟ لو كلامي معجبكش حتكتب اللي يعجبك وتقول ده كلامها، ما كلكم بتعملو كده"

لم أعرف بماذا أجيبها، ماذا يمكن أن يقال لجعلها تثق فيّ؟ كلماتي التي تجعل الجميع يرغب في الثرثرة في مثل هذه المواقف بدت كلها كاذبة عديمة الجدوى مع هذه السيدة، طال سكوتي فاعتذرت بمزيد من الإحراج وهممت بالخروج لكنها استوقفتني: "تشرب شاي؟"

كيف يمكن أن أرفض؟ رغم أني شربت أربع أكواب من الشاي الثقيل مع موظفي هيئة النقل في الجراج، لكن لا يمكن أن ترفض دعوة مماثلة إن كنت تبحث عن الحقيقة. بدأت في تحضير أكواب الشاي، قالت بينما تحضر أكواب الشاي: "في كرسي حديد مطبق جمب الحيطة، أفرده وأقعد عليه". أستدرت لأجد الكرسي الذي تحدثت عنه، فردته وجلست بينما هي ما زالت تحضر الشاي.

"شايك خفيف ولا تقيل؟ ولا أقولك.. حجيبلك فتلة وأنت اتصرف. الكرسي اللي انت قاعد عليه ده مقعدش عليه حد غير حمدي، كان بيجي كل يوم يشرب شاي قبل ما يروح شغله، بنشرب مع بعض شاي وبنلعب دومنه، كنا زي ما تقول كده.. صحاب. طبعًا أنت حتكتب أننا كنا بنحب بعض وبننام مع بعض، دي لعبتكوا يا بتوع الصحافة، ياما شفت من وراكوا، تلاقي اللي قالك تيجي على هنا قالك كمان حكاوي كتير عني وعن حكايتي، وأنت تكتب بقى وتركب حكاوي زمان على حكاوي دلوقتي وتعمل تمثيلية. بس مش فارقة كتير، مهما حكيت كلامك مش حيفرق معاه وهو في رقدته بين إيدين ربنا ولا حيفرق معايا في قعدتي هنا، بس حيحرق قلب البت الغلبانة

مراته، حيروحوا يشتموها ويضحكو عليها ويقولولها جوزك عمل وجوزك سوى، غلبانة البت دي والنبي، سكرك قد إيه؟"

لم أشعر في حياتي بمثل هذا الارتباك والتوتر إلا عندما ضبطني أبي في مراهقتي أدخن سرًا في الحمام، لم أجرؤ على التفوه بحرف ردًا على اتهاماتها. ولما لم تجد مني ردًا على سؤالها الأخير استدارت باحثة عن إجابة مني، رفعت أصابعي مشيرًا بثلاثة منها لتجمد لساني عن النطق. وضعت السكر في الكوبين وقلبته جيدًا، وضعت أمامي كوبا تتدلى منه فتلة تحمل شعار شركة الشاي المعروفة، وظلت ممسكة بالآخر وهي تجلس في مقابلتي على الجانب الآخر من المائدة.

"كنا بنقول إيه؟ أه.. كان بيقعد مكانك كده كل يوم، نشرب الشاي ونلعب شوية دومنه، مكناش بنتكلم خالص، لا أنا بحب الكلام ولا هو بيطيقه، مكنش أحسن صاحب في الدنيا، بس واحدة زيي تحمد ربنا إنها لقت حد يقبل يقعد معاها بعد كل الكلام اللي الناس بتقوله، أهو بني آدم وشي في وشه بيفكرني أني لسة عايشة، طبعًا أنت متفهمش الكلام ده، أنت بتفكر إننا كنا بنحب بعض وبنعمل حاجات مع بعض زي أي راجل ومرة ما بيعملوا، لو عشت اللي أنا عشته وشفت اللي أنا شفته يمكن تفهم.. المهم يعني.. أنت عايز تعرف عن الحاجات اللي بيتكلموا عليها دي، هو اللي كتب ولا مش هو والكلام ده. أه كان بيكتب، كان بيكتب الحاجات ويديهالهم وينزلوها باسمهم في الجرايد والنت وساعات التليفزيون كمان، كان بيجيب ورق الجرانين اللي فيه كتاباته ويفرجهوني ويخليني أقراه، مكنتش بحب القراية بس

كنت بقرا عشان خاطره، مكنش حتى بيبتسم، بس على عينه بتبان فرحة زي فرحة العيل الصغير اللي فرحان بنفسه لما يعمل حاجة تعجب أمه، كان عبيط ومجنون، كان جلياط وقليل الأدب، بس كان غلبان.. وعشان كان غلبان كنت بحب قعدته، قال يعني كان عندي قعدة غيرها وفضلته عليها، بلا نيلة"

ثم قامت فجأة، ذهبت إلى دولاب صغير في ركن الكشك، أخرجت منه كيسا كبيرا أحضرته وعادت لمجلسها. فتحت الكيس وأخرجت منه كومة أوراق شككت أن أعرفها، شككت أني رأيت مثلها في برنامج تليفزيوني تعرفونه جميعًا منذ أيام.

"اختفى فترة طويلة ومعادش بيجي، رجع فجأة ومعاه دي، معاه الورق المكتوب يعني مش الصورة دي، كان فرحان بيها جدًا، أكتر من فرحته بكل الحاجات التانية، وقالي اقريها، كنت أنا أول واحدة تقراها، قالي إنه حينشرها باسمه المرة دي، مش حيخلي حد يسرقها منه، بس خدوها منه برضو، مفيش فايدة. بعدين حكالي على اللي حصل لما راح الحفلة بتاعة الواد واتعارك معاه ورموه بره، وقالي إنه حيطلع في التليفزيون مع جميل يحكي حكايته. قلتله بلاش، حاولت أقنعه إنه يسلم أمره لله وينسى الكتاب، بس كانت دماغه جزمة وصمم إنه حيطلع ويحكي ويقول، كان فاكر الناس حتصدقه.. سلم رقبته للناس لغاية ما دبحوه، وجايين دلوقتي يرجعوله حقه بعد ما مات، قصدي وهو بين الحياة والموت، ربنا يقومه بالسلامة"

لم أجد في نفسي لسانًا، لم أستطع تحريك شفتي بالحديث، مبهوتًا كنت أنقل عيني بينها وبين نسخة المخطوطة الأصلية

للرواية، خمنت هي ما أحاول قوله وردت عليه: "عايز نسخة؟ روح صورها من المكتبة اللي في آخر الشارع، وهاتها تاني"

شكرتها وحملت الرواية وجريت إلى المكتبة القريبة وصورت منها نسخة، عدت بها إلى السيدة التي تذكرت لحظتها أني لم أعرف حتى اسمها بعد.

"شكرًا يا مدام.. اسم حضرتك إيه؟"

ندت عنها ضحكة طويلة احمرت معها وجنتها، واحمرت معها وجنتي أيضًا ولكن من الخجل.

"مدام؟ يخرب عقلك.. مدام إيه بس، اسمي زينب"

"آسف.. آسف جدًا، شكرًا يا.. يا أستاذة زينب"

أستاذة لم تكن اللفظة المناسبة بالتأكيد ولكني أظنها أكثر ملائمة من أنسة مثلًا، لم تزدها الكلمة إلا ضحكًا، جميلة كانت ضحكتها برغم كل شيء، تمالكت ضحكها في النهاية وهزت رأسها في تهذيب كإجابة على شكري. ساد الصمت لوهلة كنت أفكر فيما سأسألها عنه تاليًا، قطعت هي الصمت وقالت بلهجة خلت من أي آثار للضحك السابق:

"مش عارفة إيه اللي خلاني أحكيلك الكلام ده كله مع أني مش بطيق بتوع الجرايد والتليفزيون ولا بثق فيهم، يمكن عشان أنا قاعدة بحسرة قلبي من يوم عملته المهببة ورقدته في المستشفى حتجنن ومش عارفة أعمل إيه، حتى خايفة أروح أشوفه عشان مقابلش مراته، الغلبانة مش حتفهم أنا جاية ليه ودماغها

حتودي وتجيب، وحتعيط وتصوت وتلم عليا الناس، وأنا مش عايزة أأذيها، كفاية اللي هي فيه. شوف أنت عايز تكتب إيه واكتبه، لو كتبت خرا مش حتزود على اللي موجود كتير، ولو كتبت خير يمكن حد يسمع، مع إنها مش فارقة. خلص شايك يا أستاذ وأتوكل على الله"

غمرني الإحراج بعد هذا الطرد المهذب، رغم هذا لم أشعر تجاهها بأي ضيق رغم إهانة الطرد والإهانات المتتالية لكل العاملين بالصحافة والإعلام. تناولت ما بقي من كوب الشاي في جرعة واحدة، وحملت نسخة الرواية المصورة وقمت، شكرتها في تهذيب واتجهت إلى الباب. قبل أن أخرج تذكرت شيئًا مهما، شيئًا أتجاهل عادة ذكره ولكن لسبب ما لا أقدر على ذلك مع هذه المرأة. أخرجت من جيبي هاتفي المحمول ووضعته على المائدة أمامها، قلت لها:

"أنا أسف يا أستاذة زينب بس في حاجة نسيت أقولها لحضرتك، أنا سجلت محادثتنا كلها على الموبايل ونسيت استأذن حضرتك، ودي كانت قلة أدب مني. التليفون قدامك أهو، تقدري تمسحي التسجيل أو حتى تكسريه، ده حقك الكامل"

ظلت ملامحها جامدة دون تغيير، إلا أن الغضب بدا جليًا في عيونها.

"شيل موبايلك يا أستاذ واتوكل على الله"

وحملت الهاتف، ودون كلمة أخرى مشيت. الحمد لله أني لم أسمع ما رغب الأسطى حمدي الطيار أن يحكيه عنها.

تجد هنا صورا لصفحات من النسخة الضوئية من الرواية، يمكن توفير نسخة كاملة لمن يرغب فقط بغرض تأكيد الحقائق.

(صور لصفحات من الرواية)

حتى هذه اللحظة كانت زيارتي إلى الإسكندرية ناجحة جدًا، إلا أني لم أشأ أن أعود قبل رحلة أخيرة.

قضيت ليلتي في أحد فنادق المنشية الرخيصة، غير قادر على النوم، أقلب مسحورًا صفحات الرواية، وأفرغ التسجيلات الصوتية لمقابلات اليوم. وفي اليوم التالي توجهت إلى وجهتي الأخيرة في الإسكندرية، زيارة الأستاذ ذاته.

لم أتوقع أي جديد من زيارة الرجل الفاقد لوعيه، ولكني شعرت أن زيارة الإسكندرية لبحث الحقيقة خلف الأستاذ دون المرور على حمدي حتى ولو من باب إلقاء التحية تُعتبر إساءة أدب بشكل أو بآخر. لم أكن أعرف أن زيارتي هذه هي الأهم في رحلتي كلها.

(صورة لحمدي ممددا على فراش غرفة العناية المركزة، متصلة به أجهزة الإعاشة المختلفة، وعلى كرسي مجاور تجلس نعمة وتنظر إليه في صمت. يبدو على وجهها آثار بكاء حارق وأرق طويل)

عرفت السيدة الجالسة بجواره فور أن رأيتها، بالتأكيد هي السيدة نعمة زوجته التي ذكرها في الفيديو وذكرتها السيدة زينب

في خضم حديثها. سألتني عن هويتي، وعندما عرفت أني صحفي بدأت في البكاء مرددة: "والنبي يا أستاذ سيبونا في حالنا، كفاية كده، سيبونا والنبي إحنا غلابة". هدأت من روعها وأوضحت أني هنا فقط لإلقاء التحية على زوجها، وأني لن أكتب عنه سوى كل خير، وأنها إن لم ترغب في الكلام فلا بأس. هدأت قليلًا وإن بدت عليها الحيرة، وقفت بهدوء بجوار سرير الزوج. بقيت واقفًا لدقائق بينما حافظت هي على صمتها، لكني أدركت بغريزتي أن لديها ما تقوله، قلت إني ذاهب ولكني تلكأت في الخروج معطيًا إياها فرصة دون ضغط أن تقول ما تريد قوله، كما توقعت نادتني "يا أستاذ، يا أستاذ، استنى.. إنت حتكتب إيه؟"، "حكتب الحقيقة يا ست الكل، إن جوزك كان راجل كويس ومحترم وهو اللي كتب الحاجات الكتاب وهما سرقوها منه، مش هو ده اللي حصل؟"، "أه.. أه طبعًا.. هو ده اللي حصل، أنا شاهدة على كده، أنا كنت معاه وهو بيكتب، كان بيخليني أقرا كل حاجة هو بيكتبها قبل أي حد، وكان بياخد رأيي علطول في كل حاجة، كان.. كان.. كان بيقعد يكتب طول النهار في أوضته وأنا قاعدة جمبه، عنده مكتب كبير كده وكومبيوتر بيعمل عليه كل الحاجات، وعنده كتب كتيرة، عايز تشوف مكتبه؟"

وكأني يمكن أن أرفض!

خرجت بصحبتها من المستشفى متجهين إلى بيتها، المسافة كانت شوارع قصيرة لا تستحق ركوب مواصلات، تحدثت طوال الطريق عن حب زوجها لها ولابنهما "مكنش حارمني من حاجة، كان يجيبلي كل حاجة حلوة، كان يحبني زي عينيه أنا

والواد محمود، عمره ما علا صوته عليا، ربنا يقومه بالسلامة، كان يخاف عليا خوف ميخافهوش راجل على مراته، أه والله".

وصلنا إلى المنزل، نادت على ابنها الذي كان يقف في الشارع بصحبه رفاقه "معلش يا أستاذ لازم محمود يطلع معانا، مينفعش نطلع أنا وأنت كده لوحدينا، عيب الناس تقول إيه؟". برفقة السيدة نعمة ومحمود ابنها المتأفف مني ومن كل شيء لسبب ما، دخلنا شقة متواضعة قديمة ولكنها نظيفة وتشي بعناية أنثوية دائمة، اقتادتني إلى غرفة حمدي:

"هنا يا أستاذ، هنا كان بيقعد يكتب وأنا بقعد جمبه، وأجيبله كل شوية شاي وقهوة وأكل وكل حاجة، مكنش بيطلع من الأوضة غير لما ينزل الشغل، بالعافية كان بيسيبني أقوم أشوف شغل البيت، يقولي خلصي بسرعة يا نعمة وتعالي جمبي"

لم أر يومًا زوجة محبة لزوجها وفخورة به مثلما رأيت السيدة نعمة، وهذه نتيجة طبيعية لزوج محب يرعى بيته وأهله مثلما كان يفعل حمدي، وإن كنت مازلت لا أفهم ما قاله بشأنها في رسالته الأخيرة!

طلبت إذنها في تفحص رفوف الكتب والأوراق وسمحت لي، قلبت بين عناوين الكتب، وبالصدفة اكتشفت الكنز: في رفوف خاصة متفردة عن باقي المكتبة كانت توجد مجموعة من الكتب والمجلدات تحوي مئات القصاصات الورقية مقصوصة من جرائد ومجلات مختلفة، كلها مشطوب عليها اسم المؤلف وممهورة بإمضاء (حمدي محمود)، وكروت ذاكرة و Flash

Disks. لم أكن بحاجة إلى كثير من الذكاء لأدرك أن هذه هي أعمال الأستاذ/الكاتب الشبح: حمدي محمود. كدت أفقد الوعي من شدة المفاجأة، طلبت من الزوجة المخلصة أن أحتفظ بهذه الأوراق، رفضت في البداية إلا أنني ألححت عليها موضحًا أن حصولي على هذه الأوراق سيوفر الدليل الأهم على صدق زوجها وحصوله على كل مستحقاته أخيرًا، وافقت بعد أن وعدتها بأني سأردها كلها كاملة لا تنقصها ورقة لاحقًا، "ترجعها بسرعة قبل ما يقوم بالسلامة، لو قام ورجع بيته ملقاش الورق حيزعل مني، وأنا مبحبش أزعله"

كنت أقفز كالمجنون من الفرحة، خرجت وأنا أكاد أرقص في الشارع. ركبت القطار وعدت إلى القاهرة فورًا، وما إن عدت حتى قمت بعمل مسح scan لكل الأوراق ورفع المحتوى كله زائد محتوى الذاكرة الرقمية على الإنترنت بينما أكتب هنا كل ما حدث.

<u>(اضغط هنا لتحميل مكتبة أعمال الأستاذ)</u>

ختامًا، يمكنك أن تختلف مع حمدي وترفض ما فعله، أو يمكنك أن تؤيده وتتعاطف معه، لكن بالتأكيد لم يعد في الإمكان الاستمرار في إنكار حقيقة الرجل والاستمرار في ادعاء أنه مجنون مدع. ما حدث قد حدث وكل شيء مثبت بالأدلة، توقفوا عن الهراء واستسلموا للحقيقة، لقد فُضحت كل ألاعيبكم.

سأختم التدوينة قبل أن أفقد الوعي من قلة النوم، أراكم لاحقًا"

* * * *

اليوم الثامن

صحافة:

(فشل في الصحافة فاتجه إلى التدوين.. أحمد جابر يستغل أسطورة كمساري الإسكندرية ويفبرك دلائل وهمية لتأكيد حكايته)

(مدون شاب يكشف الحقيقة وراء الكاتب الكمساري.. والفضيحة تطارد كبار الصحفيين)

(الصحافة المصرية تنفي خبثها.. استقالات بالجملة لرؤساء تحرير ومجموعة من أبرز الصحفيين المصريين)

خليل موسى في برنامج كلام جميل:

(دول تفوقوا على أنفسهم المرة دي يا جميل، إيه السيناريوهات والحكايات والتنفيذ ده؟ إيه الحبكات دي؟ شغل نضيف ده يا جميل، شغل أجنبي.. واخدلي بالك؟ أجنبي، جاي من برة. الحركة دي مش أول مرة تحصل، حصلت قبل كده زمان في سلوفينيا، في السبعينات، عملو سيناريوهات طويلة عريضة عشان يوقعوا إعلامي سلوفيني عظيم عشان كان بيحارب الفساد طول الوقت، لبسوه قضايا ولفقوله حكايات وعملوه عليه زيطة واتشال في الآخر، وكسبوا ولاد الحرام، بس ربنا شاء بعد سنين يظهر الحق ويبين تفاصيل الخدعة اللي عملوها، في كتابي

(مؤامرات ضد الصحافة) ذكرت الحكاية بتفاصيلها. هنا معرفوش يوقفوني بالطرق العادية استعانو بالطريقة السلوفينية، واخدلي بالك يا جميل؟ فاكرني عبيط ومش بقرا تاريخ ومش حفهم لعبتهم القذرة، بس إحنا مش عبط يا جميل، الناس عارفاني كويس وعارفين الحقيقة والزيطة دي مش حتاكل معاهم، مش حتاكل مع الشعب المصري العظيم، إحنا شعبنا ذكي ومحدش يقدر يضحك عليه. وحنفضل شوكة في زورهم، حنفضل ألم في مؤخراتهم زي ما بيقول الأجانب، حنفضل نقول الحق ونكشف الظلم لغاية آخر نفس عندنا)

* * * *

اليوم الثاني عشر

صحافة:

(صدور طبعة جديدة من "كتاب خيبة الأمل"، والمفاجأة: اسم المؤلف هو (حمدي محمود))

* * * *

اليوم الرابع عشر

صحافة:

(أفيش دعائي جديد لفيلم خيبة الأمل، اسم المؤلف: حمدي محمود)

* * * *

اليوم الثامن عشر

صحافة:

(عاااااااااااجل وحصري: استيقاظ حمدي محمود من الغيبوبة)

18

جمع أبو عُمر التمرجي ثروة صغيرة من العملات الورقية المكرمشة في ذلك اليوم، والشكر كل الشكر لتعليمات الطبيب الحازمة له بألا يسمح لأي مخلوق بالدخول على المريض المستفيق لتوه من غيبوبة دامت ما يقرب من الأسابيع الثلاث، وعدم التعرض له بما قد يثير أعصابه سواء بالسلب أو الإيجاب منعًا لأي تدهور للحالة التي لم تستقر بعد. أوامر الطبيب الحازمة منحته السلطة الكافية ليقف في مدخل الممر الذي يحوي في منتصفه غرفة المريض الأشهر (حمدي محمود) ويمنع دخول أي مخلوق بحزم مطلق، "ممنوع يا أستاذ، أوامر الدكتور"، لا يمكن مخالفة أوامر الطبيب أبدًا، لا يمكن، لا يمكن على الإطلاق، "بس يعني.. لو الموضوع طارئ أوي ومحتاج تشوفه ضروري جدًا، ممكن يعني.. يعني.. كلك نظر بقى يا أستاذ". وكانت جيوش الصحافيين الذين تجمعوا فور سماعهم نبأ استيقاظ الأستاذ (كلهم نظر) كفاية لملء جيوب أبو عُمر التمرجي في بضعة ساعات بما يكفيه لتناول عشاء مشوي فاخر مع صديقاته لأسابيع قادمة.

وكلما عاود الطبيب ملاحظة مريضه وجد صحفيًا آخر يستمطره بالأسئلة التي يرد عليها بصعوبة لوهنه وثقل لسانه بعد الرقدة الطويلة، كان يصرخ ويطرد الأغراب ويغرق أبو عُمر بالأوامر المعترضة والتهديدات أمام الطابور المتجمع أمامه في انتظار دورهم للدخول، وما إن يذهب الطبيب كان الممرض يهز كتفيه في إشارة واضحة للجميع أن هذه أوامر الطبيب ولا يمكن مخالفتها أبدًا كما رأيتم، على الإطلاق، فتزداد التسعيرة وتتضاعف الوريقات المكرمشة في جيوبه.

أما بالنسبة للمريض الراقد فلم يمانع أبدًا ما يحدث رغم وهنه الجلي. في البدء كانت ارتعاشة في جفونه، لاحظتها زوجه التي لا تفارق جواره إلا لمامًا، هرعت ونادت الطبيب المسؤول معلنة استيقاظ زوجها ولكن الطبيب هدأ من روعها ومن آمالها المشتعلة مصرحًا أن ارتعاشة الجفون تحدث من حين لآخر للراقدين في الغيبوبة ولا يعني هذا استيقاظهم، وعادت إلى جواره محبطة لتسمع منه بعد ساعة تقريبًا أنينًا صرخت على أثره صرخة طويلة وأحضرت الطبيب مرة أخرى مؤكدة أن زوجها يستيقظ وعلى أحدهم أن يفعل شيئًا. كان حمدي يستعيد قليلًا من وعيه بالفعل، ببطء شديد كحاسوب قديم يُثبت عليه نظام تشغيل جديد، ما كان يجري في عقله كان أشبه بأيقونة الساعة الرملية الشهيرة التي تدور حول محورها ببطء في علامة كونية رسختها ميكروسوفت في الأذهان تعبيرًا عن (يجري التحميل، انتظر قليلًا)، صرخة نعمة كانت بمثابه منبه مفاجئ للجهاز العصبي الذي لم يستجمع قواه بعد ليعود إليه الوعي الكامل دفعة واحدة، فاستيقظ عقل حمدي بشكل مباغت مستعيدًا ذاكرته وبالذات أحداث آخر بضعة ساعات قبل فقدانه للوعي.

ولأنه رغم استعادته لإدراكه لم يستعد بعد التحكم الكامل في أجهزة الإدخال والإخراج، لم يملك أن يفتح عينيه ليرى حيث يرقد أو يسمع جيدًا فيحلل الأصوات الممتزجة في خليط غير واضح المعالم يمر عبر قناة أذنه، فكان التفسير الذي سبق بالورود على باله بعد سماعه للصرخة الحادة وتذكره لمحاولته للانتحار، أنه مات بالفعل وهو الآن يعذب في الجحيم، وبدا تفسيرًا منطقيًا جديًا له، خاصة حينما حاول فتح عيونه أو

تحريك أصابعه فلم يستطع لذلك سبيلًا، فكر أن هذا بالتأكيد واحد من أنواع العذاب اللا نهائية التي سيجربها إلى الأبد، والغريب أنه ارتاح إلى الفكرة وتقبلها بلا اعتراض. ثم بدأت الأصوات الداخلة تتضح بهدوء، ميز صوت رجل يطلب منه تحريك أصابعه، شعر بلمسات وضغطات على ذراعيه وساقيه، استطاع أخيرًا فتح عينيه لتقتحمها أضواء ورؤى مشوشة بدأت تنجلي شيئًا فشيئًا، إلى أن وضحت الرؤية بما يكفي لتمييز الطبيب ومعطفه الأبيض وملامح نعمة الباكية المتلهفة القلقة. خرجت منه أنّة طويلة وعالية أدهشت الطبيب وحسبها أنة ألم، وسأله عما قد يؤلمه، لم يدرك الطبيب بالطبع أن أنين مريضه لم يكن لألم عضوي وإنما لخيبة أمل اعترته بعد إدراكه أنه لم يمت وأنه ليس في الجحيم، بالذات عندما رأى ملامح نعمة، فوجه نعمة لا ينتمي إلى الجحيم بالتأكيد.

استجاب في استسلام لفحوصات الطبيب واختباراته، حرك قدمًا عندما طُلب منه، وثنى ركبة ورفع ذراعًا، لكنه لم ينطق أبدًا للرد على أي من أسئلة الطبيب، ليس لشلل في لسانه ولكن لفقدانه أي رغبة في إخراج أي كلمة، فلم يغر فاهًا ولم يحرك لسانًا، إلا بعد أن خرج الطبيب مصدرا أوامره الحازمة التي لا يمكن مخالفتها أبدًا، وإحضار نعمة لكتاب ميزته عيناه بمجرد النظر وقربته من عينيه وعلى وجهها ابتسامة فرح بلهاء، خرج منه صوت واهن منزعج يحاول به أن يعبر عن استيائه من وجود هذا الكتاب اللعين هنا.

"استنى بس يا أبو حودة، شوف الأول، ده عليه اسمك.. بص كده، حمدي محموووود"

ورغم عدم قدرة عينيه على الرؤية بجلاء كاف لتمييز الحروف المكتوبة، إلا أن الاسم المكتوب بخط أنيق على الغلاف الخلفي ظهر بغتة واضحًا ساطعًا مضيئًا أمام حدقتيه المتسعتين، انتابته ارتعاشة وشعر فجأة بسخونة الدم المندفع في عروقه، انتفض من رقدته وحاول أن يعتدل جالسًا بالاعتماد على ذراعه ولكن رغم القوة التي حسب نفسه عليها لم يستطع أن يفعل، بيد أن نعمة أدركت ما يحاول زوجها أن يفعل فعاونته على الجلوس بدموع مبتهجة تنهمر من مقلتيها. وبأصابع مرتجفة تفحص كُمساري الإسكندرية الناجي من محاولة انتحار فاشلة كتابه الأول ذا الطبعة الفاخرة، ورأى اسمه على الغلاف الأمامي تحت عنوان "الكاتب"، وعلى الكعب، وعلى الغلاف الخلفي، وفي الصفحة الداخلية الأولى، تلاها صفحة عُنونت بـ"اعتذار وتنويه هام"، لم يستطع قراءة محتوياتها لصغر الخط المكتوب ورؤيته المشوشة، ولكنه ميز تناثر اسمه أكثر من مرة بين السطور، لم يحتج إلى رؤية واضحة وتفكير صافٍ ليفهم أن المكتوب ليس إلا اعتراف من دار النشر له بحقه كمؤلف الكتاب والاعتذار عما حدث من قبل. وبينما هو يتفحص كتابه في بهجة لم يتوقع من قبل أن يعيشها، غمر الغرفة للحظة ضوء برق ساطع أذهله وزوجته فسقط من يده المرتعشة كتابه وخرجت من نعمة شهقة عالية متفاجئة.

لم يكن ضوء البرق هذا إلا ضوء فلاش الكاميرا التي دخلت مع أول الصحفيين الداخلين للغرفة على حين غرة من الموجودين فيها، وقعت عينه أول ما وقعت على حمدي يتأمل كتابه وتكاد الدموع تقفز من عينيه فشعر أن واجبه كصحفي أن يسجل هذه اللحظة في صورة قد تصنع مجده الشخصي مستقبلًا حتى وإن اعترض الرجل، وبالطبع لم يعترض أحد، إلا لو اعتبرنا محاولة نعمة الواهنة لإخراج الصحفي والثلاثة الآخرين الداخلين خلفه محاولة اعتراض، محاولة انتهت بتجاهل الداخلين لها وكأنها غير مرئية، وانتهت عندما أدركت من ابتسامة زوجها المبتهجة أنه يرحب بهم أكثر ما يرحب بها نفسها، فانزوت في جانب الغرفة مغلوبة على أمرها وصمتت.

التماع فلاش الكاميرا كان الأول من عشرات تبعوه عندما أدرك بقية الداخلين ترحيب حمدي بالتصوير، بخاصة عندما نظر إلى الكاميرات بفرح والتقط الكتاب ورفعه بجوار وجهه ليظهر معه في الصورة، ثم أداره ليظهر الاسم على الغلاف الخلفي بخط أكبر من المكتوب على الغلاف الأمامي، وأشار إليه بسبابة يده اليمنى بينما يثبت الكتاب بيسراه تحت ذقنه.

لم يهتم الجمهور لاحقًا بما احتوته مقالات وتحقيقات وأعمدة الصحفيين من محتوى عن الحوار الذي أجروه مع حمدي في ذلك اليوم، أسئلتهم كانت ساذجة وردوده كانت قليلة وغير واضحة لتشوش عقله بالضباب بعد أسابيع من الانقطاع عن العمل، ما منعه من إيجاد الكلمات المناسبة لإلقائها في اللحظة الأهم في حكايته. وإنما كانت الصورة هي ما أثارت الجميع، صورة

الرجل الأسمر ذو الوجه العظمي النحيل بذقن شعثاء نامية عمرها ثمانية عشر يومًا، تلتمع عيونه المتسعة البارزة إلى الأمام في جحوظ يرجع لنحوله الطبيعي والنحول الناجم عن التغذية على المحاليل طوال فترة الرقاد، تلتمع من فرحة وتلتمع بالدموع وتلتمع بأضواء الفلاش الساقطة عليها، والابتسامة المتسعة في بهجة لم يعرفها من رأوه على الشاشات غاضبًا هائجًا كمجنون، والإصبع الطويل الأسمر البارز كأصابع مصاصي الدماء والموتى الأحياء في أفلام الرعب يشير مهتزًا إلى الاسم المطبوع، ارتجافة الإصبع ظهرت في الصورة فظهر طرفه مشوشًا مهتزًا في تفصيلة بسيطة لا تكاد ترى، التقطتها عيون عُشاق التفاصيل الصغيرة، فجعلوا من تلك الارتجافة رمزًا يتحدثون عنه في كل منبر، رمزًا للأمل، رمزًا للنصر، رمزًا للأدب والفن ونصرة الفنان العائد من الموت على كل المدعين الزائفين.

النهاية

ماذا؟

ألم تر كلمة النهاية؟

انتهى الكتاب، نجا الرجل من الموت ونال حقه وتحققت أحلامه، والكثير من التبات والنبات.

حان وقت إغلاق الكتاب، أغلقه وعد لممارسة حياتك، إن كان لديك واحدة.

عماذا تبحث؟

لماذا تستمر في تقليب الصفحات؟ عد لحياتك ولا تسأل عما إن يُبْدَ لك يسُؤك.

حسنًا، لم تكن هذه النهاية، ولكن يمكن اعتبارها كذلك.

صدقني، لن تندم إن فعلت، لن تحب المزيد.

ليكن هذا تحذيرًا أخيرًا، أغلق الكتاب الآن، إن قلبت الصفحة التالية، فلا تلومن إلا نفسك.

كان مستندًا على أذرع رجلين لا يذكر اسميهما، أخبره كل منهما باسمه في وقت ما من قبل ولكن لم ينحفر اسم أيهما في ذاكرته، لكنه يدرك على الأقل أن الرجل في البدلة الزرقاء الأنيقة وربطة العنق بنفس اللون الذي يمسك ذراعه اليمنى في رفق ويعينه على نزول السلم هو محام، جاءه في غرفته أمس الأول بين جحافل الصحفيين وأخبره أنه محاميه الخاص، وأنه يبذل ما في وسعه لاستعادة حقوقه المادية والمعنوية الضائعة، وأنه سيأتيه بمئات الآلاف من الجنيهات كتعويضات من سارقي حقوقه، وأرباح مبيعات الرواية والفيلم الجاري تصويره. ويدرك أيضًا أن الشاب الأنيق على يساره في التيشيرت والجينز والحذاء الرياضي الأنيق، هو أحد أعضاء الفريق المكون من خمسة أشخاص يتباينون في السن والمظهر ولجوا غرفته صباح أمس، وأخبروه أنهم من قناة "CCC" الفضائية، وتحدثوا بسرعة شديدة صعبت عليه متابعة كلماتهم أن عليه أن يتجهز ليظهر على الهواء مع المذيعة الأشهر "وفاء الأنصاري" في حلقة برنامجها في نهاية الأسبوع، ثم حصلوا منه على توقيع على عقد لم يجد فرصة لقراءة أي من محتوياته سوى الرقم متعدد الأصفار في منتصفه، وأخبروه أنه سيقدم برنامجه الخاص بعد أن يستعيد قواه ويشفى تمامًا، وعندما أخبرهم في ذهول أنه لا يعرف كيف تُقدم البرامج وأنه ليس في جعبته حاليًا أي فكرة تصلح لتقديم واحد، أخبروه ألا يقلق، هناك طاقم من المعدين يجهز الحلقات بينما يتحدثون الآن، فقط عليه أن يوقع هنا والآن، وفعل. بعدها غادروه جميعًا إلا هذا الفتى، وكأنهم كلفوه بالحفاظ عليه وحمايته من هجمات مشابهة من قنوات أخرى.

أخبره الأطباء أن الخطر زال وأن حالته تحسنت إلى حد كبير، لكنه لا يزال ضعيفًا إلى حد كبير وعليه أن يبقى بالمستشفى يومين آخرين على الأقل، ولكنه كان يتوق إلى الخروج، وأيده في رأيه رفيقاه اللذان صارا ملتصقين بمجلسه كعلقة وجدت لها أخيرًا جسدًا مضيِّفًا مليئًا بالدماء اللذيذة ولا تنوي تركه في أي فرصة قريبة. حاولت نعمة أن تخلق لنفسها دورًا وتعلن أنها موجودة هنا لخدمة زوجها الذي مازال لا يراها مثلما كان دومًا برغم كل شيء، فجاءت بمعدات الحلاقة وحاولت أن تحلق لزوجها ذقنه قبل أن يخرج من المستشفى، فتصدى لها مندوب القناة الفضائية الكبيرة، معلنًا أن زوجها يجب أن يخرج بمظهره الشاحب وذقنه النامية من المستشفى، وبنفس البدلة السوداء التي أحضروه بها إلى المستشفى. لم تفهم شيئًا ولكنها استكانت واستسلمت عندما أخبرها زوجها أن تسمع كلام الرجل وأن "اقعدي على جنب دلوقتي".

رغم استعادته لقليل من القوة تكفيه لأن يمشي منتصبًا دون الاستعانة بأي مساعدة، إلا أن فتى القناة الفضائية والمحامي أصرا على أن يستند إلى أيديهما بينما يخرج من بوابة المستشفى ويمشي في الشارع، بل وعليه أن يبدو وكأنه لا يقدر على المشي إلا بمساعدة الآخرين، سيظهره هذا بشكل ملحمي وسيبدو رائعًا في الصور، ولم يعترض حمدي على كلمة واتبع تعليماتهما وأوامرهما بدقة متناهية.

شمس الظهيرة كانت قوية مقارنة بضوء بهو الاستقبال الباهت، فما إن خطت قدماه أرض الشارع حتى سبقت أذناه عينيه

بسماعها لعاصفة التصفيق والهتافات غير واضحة المعالم، ثم تعودت العيون على ضوء الأشعة الباهر ورأى الجموع المتجمهرة أمام مدخل المستشفى، مئات الشباب متجمعين في مظاهرة ترحيبية بالأستاذ الكمساري الناجي، يرتدون جميعًا قمصانا رمادية موحدة عليه رسم بالأسود له مطلقًا إصبعه الأوسط إلى العالم، يتقدم جموعهم صف من الصحفيين وحاملي الكاميرات هرعوا جميعًا تجاهه ملتقطين الصور وملقين عشرات الأسئلة في نفس الوقت، فلم يميز من عاصفة الأسئلة واحدًا ليرد عليه.

ملأت قلبه الغبطة، وشعر وكأنه ملك كل شيء إلى الأبد، الآن تتحقق كل أحلامه، الآن عرف العالم قيمته الحقيقية وقدر موهبته العظيمة، الآن ظهر الحق وزهق الباطل. ازداد إشراق وجهه وافتر ثغره عن ذات الابتسامة التي لم تسجل غيرها الكاميرات منذ أن عاد للوعي، شعر بارتباك عندما طال نظره للكاميرات دون أن يعرف ماذا يفعل غير الابتسامة، فكر أنه يتوجب عليه الإتيان بفعل ما مناسب، هداه تفكيره إلى أن يرفع يده بعلامة النصر الشهيرة أمام الكاميرات، وهنأ نفسه على ذكائه بينما يفعل، بيد أن مندوب "CCC" همس في أذنه بحزم: "نزل إيدك، إنت مش ياسر عرفات" فخفضها فورًا بخجل.

"حمد الله على السلامة يا أستاذ"

"ا.. ا.. الله يسلمكم جميعًا"

"إيه تعليق حضرتك على إللي حصل؟ اعترافات جمال بالكذب وتدوينة أحمد جابر وكلام أستاذ مصباح؟"

ينتظرون الآن منه كلمة بليغة عبقرية تلائم انتصاره الملحمي الدرامي، وهو سيفعل بالتأكيد، فالكلمات البليغة تخصصه، لا أحد يعرف كيف يتكلم مثلما يفعل حمدي، بالذات وقد انتصر على الجميع ولم يعد هناك من ينظر إليه ساخرًا ولا من يحاول استفزازه ليخرج غضبه وجنونه، الجميع ينتظر منه خلاصة الحكمة ومنتهى البلاغة في كلمات وجيزة، ها هي شفتاه تنفتحان ليخرج منهما السحر، هذه ال"همممم" المتقطعة ليست بالتأكيد إلا تمهيدًا لما بعدها، الغرض منه أن يظن المستمعون أن خطبته المقبلة ارتجالية وليدة اللحظة وليست نتاج تفكير وتدريب طويل على سؤال ساذج متوقع مثل هذا.

"الحمد لله، الحمد لله"

الحمد لله، بالطبع الحمد لله على كل شيء، يجب أن يشكر رجل مثله ربه على ما وصل إليه بالتأكيد، حسن القول والقائل. هكذا همهم الواقفون لأنفسهم ولمن جاورهم في الزحام، مؤيدين قول الأستاذ ومستحسنين إياه، بيد أن أحدهم لم يخرج الصوت الضعيف الواهن في أعماق أعماقه الذي يعرب عن انتظاره لما هو أكثر من شخص يحملون صورته على قمصانهم ناصبًا أوسطه في تحية للجميع.

* * * *

"شوف يا أستاذ حمدي، الابتسامة اللذيذة والكلمتين بتوع حسن شحاتة لما يكسب بطولة إفريقيا اللي قلتهم في حلقة وفاء إمبارح مش حتنفع معانا، تنسى الأتيتيود ده خالص في البرنامج بتاعك، خاااااااالص. فاهمني؟ الشخص إللي حيقدم برنامج (ساعة مع الأستاذ) حيكون نفس الشخص اللي ضرب جمال على قفاه وشتم جميل وخليل موسى على الهوا، نفس الشخص اللي شتم الناس كلها ورفعلهم صباعه اللي في النص وقاللهم طرطروا على قبري، معايا يا أستاذ حمدي ولا أنا بكلم نفسي؟ تمام.. حتنقل شقة القاهرة إمتى؟ لأ، كده متأخر، في بروفات لازم تتعمل قبل ما نسجل البرنامج، على آخر الأسبوع بالكتير تكون نقلت، مفيش وقت. حتجيب مراتك معاك؟ ليه كده؟ ده في ناس بتحبها وبتتكلم عن الزوجة الوفية المخلصة للأستاذ.. طيب، طيب، براحتك.. حيوصلك على الإيميل دلوقتي سكريبت أول 4 حلقات من البرنامج، اقراهم كويس واتدرب عليهم وشوف لو عندك أي تعديلات اتصل بوليد وهو حينسق مع المعدين والمخرج.. عن مواضيع عامة، يعني شوية نقد للحكومة على خفيف، ونقد للمجتمع والفن والثقافة، شوية نقد وعصبية وزعيق وخلاص، لو عندك أفكار عايز تقولها بلغها لوليد، أي حاجة مرحب بيها طالما مخرجتش عن التيمة العامة للبرنامج.. تمام، تمام، فل عليك يابو حميد، وافتكر كلامي عن الابتسامة السخيفة الله يباركلك.. سلام يا باشا.. سلام.. سلااا.. ".

* * * *

بلغت محاكاة ديكور الاستوديو لما بدت عليه غرفته في فيديو الوداع الشهير أن علبة الدواء المهدئ البلاستيكية البيضاء كانت راقدة على سطح المكتب بجوار زجاجة المياه البلاستيكية، التي وضعت بزاوية ترى فيها الكاميرا بوضوح شعار الشركة المنتجة المطبوع عليها، حتى علبة السجائر والولاعة. تذكر بينما يجلس تعليمات المخرج بأن يشعل سيجارة من حين لآخر وينفث دخانها بعصبية، تذكر أنه طلب منه أن يتناول حبة من الدواء متبوعة بجرعة ماء بين حين وآخر، وطمأنه أن حبوب الدواء ليست إلا قطعًا من الحلوى غير المضرة، ثم تراجع المخرج عن الطلب الأخير بعدما تبين له أنها ستكون مبالغة زائدة عن الحد فاكتفى بترك العلبة على سطح المكتب لتذكير المشاهدين بما حدث، تقبل كل تعليمات المخرج بلا اعتراض يذكر، الحق أنه كان يتقبل كل التعليمات من أي شخص كان بلا أي اعتراض، تقبله غير المشروط للجميع أذهله هو ذاته، لكنه لم يعط نفسه وقتًا طويلًا للتفكير منشغلًا بضبط جلسته والتمرين على عبوس وجهه أمام الكاميرا قبل بدء التسجيل.

مع بدء التسجيل بدأ في قراءة المكتوب على شاشة جهاز التلقين، حرك يديه بعصبية كما تدرب، توقف لإشعال سيجارة أو لأخذ نفس كلما كُتب على الشاشة أن يفعل، أخطأ ذات مرة وقرأ بصوت مرتفع "ولع سيجارة" كأنها جزء من النص، وأدرك خطأه بعدها أن الكلمة كانت بين قوسين وبلون يختلف عن النص الأصلي، أخبره المخرج من قبل عن ذلك وطلب منه أن ينتبه للفرق بين التنبيهات من هذا النوع والنص العادي، اعتذر

بعدها لعيون المخرج اللائمة وتم استكمال التصوير، لم يخطئ بعدها أبدًا.

"وعندك مثلا إللي بيعملوه العيال في شعرهم، شفت العيال دلوقتي عاملين إزاي في الشارع؟ تلاقي الواد الـ(صفارة تدل على حجب كلمة بذيئة) حالق القفا والجناب من شعره على الواحد وعاملي فيها خطوط وحروف، وشعره من فوق طويل وأصفر وجايبه على الجنب زي الـ(صفارة).. ده إيه ده؟ إيه الخـ(صفارة) ده؟ إحنا إيه ذنبنا نشوف المناظر دي في الشوارع طول الوقت؟ حاجة بنت (صفارة) أوي".

* * * *

ضوء الفلاش باغته دون إنذار، فلم يستعد للتصوير والتقط الصحفي صورة لوجه مستند على راحة اليد اليمنى، تغمره الفرحة وتتسع ابتسامته بينما يشاهد العرض الأول لفيلم "خيبة الأمل"، ارتبك واعتدل في مجلسه ليجعل ظهره منتصبًا ووضع قدمًا فوق الأخرى، رسم على وجهه عبوسًا مفتعلًا ونظر إلى الكاميرا في احتقار منتظرًا فلاش لصورة أخرى لم تأت، جاء بدلًا منها سؤال للصحفي المبتسم في سخرية:

"إيه رأي حضرتك في الفيلم؟"

"زي الخرا، خرا جدًا، كاتب السيناريو بوظ كل حاجة، المرة الجاية أنا اللي حكتب السيناريو لأفلامي بنفسي"

"المرة الجاية؟ حضرتك بتكتب حاجة تانية دلوقتي؟"

"آه طبعًا، بكتب روايتي التانية، كتاب الغضب"

* * * *

جزء من مراجعة الصحفي أحمد جابر لـ"كتاب الغضب" في عموده الأسبوعي بجريدة "الأسبوع":

"... فعلى سبيل المثال يمكن أن نتحدث عن السباب البذيء الذي يملأ صفحات الكتاب، ليس الأمر أني أعترض على كتابة البذاءات وأمارس الرقابة على الفن، ولكني أعترض على الطريقة التي يلقي بها المؤلف السباب دون أي داع. هو لا يبدو بذيئًا بفعله هذا، إنما يبدو كطفل مهذب علمه زملاؤه في المدرسة السباب البذيء وأعجبه مذاق إطلاق اللعنات على لسانه وشعور أنه متمرد منحرف لا يقدر عليه أحد، فأخذ يطلق كلمات السباب القذرة يمينًا ويسارًا دون أن يفهم حتى معنى ما يقول، وبهذا حتى السباب فقد معناه.

الخلاصة أنه كتاب ساذج ومفتعل لأقصى درجة، نفاد الطبعة الأولى من الأسواق ليس دليلًا على جودة الرواية بقدر ما هو دليل على تشوق القارئ لقراءة ما يحسب أنه المعجزة التالية لكمساري الإسكندرية الناجي من الموت صاحب أهم رواية مصرية معاصرة، وأظن أن "خيبة الأمل" الحقيقية ستتجلى في أرقام مبيعات الطبعات التالية للكتاب"

* * * *

"... لأ، خلاص كده يا أستاذ حمدي.. مش فاهم اعتراضك على إيه، إنت مضيت معانا عقد على 15 حلقة للسيزون الأول من البرنامج، والحلقات كلها اتسجلت واتذاع منهم 12 وفاضل 3 حيتذاعو في معادهم، وخلاص.. حلقات تانية إزاي؟ ركز معايا يابوحميد، إحنا خلصنا التعاقد اللي بينا وانتهى الأمر.. لا لا لا لا عقد جديد إيه! نسبة المشاهدات رايحة في داهية زي نسبة مبيعات كتابك، محدش بيتفرج ع البرنامج ومفيش أي رغبة عند الرعاة أنهم يجددو عقود إعلاناتهم، نجددلك سيزون جديد على أي أساس؟ ولا أقل 50% ولا حتى أقل 100%، مفيش مساحة فاضية على خريطة القناة أني أضيع منها وقت ببرنامج محدش بيشوفه.. يووووه، شكلك مبتفهمش وحتطلع ديك أمي، بقلك إيه، متتصلش هنا تاني".

* * * *

خليل موسى في برنامج كلام جميل:

"شفت يا جميل؟ مش ده اللي كانوا عاملينه بطل وعايزين يوقعوني بيه؟ راح فين دلوقتي البطل بتاعهم؟ طلع ولا حاجة، مجرد أراجوز عامل نفسه بيزعق ومتعصب وصاحب رأي وصاحب فكر، وفي كل الفرص الحقيقية إللي أتيحيت له عشان يثبت نفسه، أثبت نفسه أنه فعلًا ولا حاجة، خيال مآتة محشي قش، طلع السما ووقع على الأرض في يومين، وأنا لسة في مكاني هنا، متهزيتش ومتأثرتش، عارف ليه يا جميل؟ عشان أنا خليل موسى، أنا صاحب فكر وصاحب رأي بجد، صوتي حيفضل مسموع وكلامي حيفضل يهز أعلى كرسي في البلد، لأني أخدت

السلم من أوله درجة درجة، وصلت لمكاني بعرقي وبدمي، بقلمي يا جميل.. مش بالكذب والخداع واتهام الشرفاء في شرفهم وتلطيخ سمعتهم بما ليس فيهم".

* * * *

"طيييييب.. طييب.. بالراحة أنا جاية أهو".

صوت خطوات شبشبها المنزلي البلاستيكي الرخيص ارتفع وهي تمضي مسرعة للباب بينما تلف على عجل الطرحة المنزلية على شعرها، فتحت الباب، رأته، ينظر إليها في حياء، تنفتح شفتاه وتنغلقان وكأنه يرغب في الحديث ولا يعرف كيف يفعل، بجواره تقف على عجل بلاستيكي شنطة سفر كبيرة تبدو ممتلئة وثقيلة. نظرت له نعمة مطولًا بصمت قطعه بعد حين صوت محمود ابنها القادم من الداخل:

"مين اللي بيخبط ع الباب يا ماما؟"

قطعت نعمة صمتها أخيرًا دون أن تحول من نظرتها الثابتة على العيون القلقة المتحاشية لها:

"راجل غريب يا محمود، تعالى شوفه عايز إيه"

جاء الفتى مهرولًا ليرى القادم، فوجئ برؤية أبيه واقفًا في انكسار أمام الباب المفتوح وأمه واقفة بالداخل عاقدة ذراعيها وناظرة إليه في صمت، بيد رفيقة حانية أبعد أمه عن الباب المفتوح دون أن ينظر لمن في الخارج، ثم بنفس الهدوء أغلق الباب.

محمد جمال – سبتمبر 2016

كتاب خيبة الأمل

محمد جمال

"وستمضي حياتك مثل كل محدودي الموهبة ومعدوميها، في المحاولات الفاشلة أو محدودة النجاح، ذلك النجاح البائس الضيق الذي لا يقارب كل أحلامك الباهرة التي ملأت مناماتك وخيالات يقظتك، نجاح بائس حزين بطعم خيبة الأمل على لسان روحك النهمة المجنونة المتعطشة للمزيد"

توقف عن الكتابة وتأمل مليًا ما كتبه، لم يفهم ماذا كتب أو لماذا، ولكنه أحب المكتوب. ساد الصمت لوهلة، صمت داخلي. كل جنبات عقله توقفت عن العمل والطنين، كل الأفكار الرئيسية والفرعية سكتت، سكوت مثل الذي يسود قاعات الأوبرا عندما يرفع المايسترو عصاه استعدادًا للبدء، فيتوقف الحاضرون حتى عن التنفس انتظارًا لبدء المقطوعة. أمسك القلم ثانيًا، وكتب في منتصف الصفحة بخط كبير "كتاب خيبة الأمل".

رواية